

مَنَايِمُ الْحَرْبِ

أدب وحرب وسياسة

الجزء الأول

بقلم

أحمد رمزي

مفكر مصر السابق بروما

١٩٥٣

مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع مدني - باشا - القاهرة

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع مدني - باشا - القاهرة

مَنَا مِنْ الْحَرْبِ

أدب وحرب وسياسة

الجزء الأول

بقلم

أحمد مَرْزِي

مفكر مصر السابق بروما

١٩٥٣

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

طبعة الجندل الكاظمي

٩ شارع مظهر باشا - القاهرة - جوهري

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا
وعلى الله فليتوكل المتوكلون » :

(١١) سورة إبراهيم

اعتراف وشكر

إلى أولئك الذين حاربوني بسلاح الأضاليل والأكاذيب والافتراء . فلم
يرعوا عهدٍ ولا ذكرى زمالة ولا وشيجة أخوة .

أقدم شكركى

إذ أتاحتوا لى بعملهم ، اتساع أوقات الفراغ أمامى ، فشغلتها بالبحث .

فإليهم

يرجع فضل إخراج هذا الكتاب المتواضع .

ولذا

ترانى أترنم عند إتمامى له بشعر القائل :

« حينما أقدم على اعتلاء أشد جيادى جهوحاً ، لا أجد مُعيناً أقرب إلىّ

من رحى ، لى اتخذه متكأ ارتفع عليه » .

« وكلما وجهت هذا الرمح لأعدائى أحاربهم به ، رأيت أنهم يستحقون

ثنائى عليهم ... »

« حينئذ ألقى به جانباً وأفضل أن أواجههم وأنا أعزل من السلاح » .

المؤلف



والد المؤلف

جيشنا

إن آلام هذه الأيام لا تقاس بالزعم أن يتجلى فينا .
أيها الرفاق في الحروب والمعارك وإخواني الجنود .
لأني أحبكم من أعماق قلبي .
وأعاهدكم كجندى أنني كما كنت في الماضي .
سأكون اليوم وسأبقى غداً واحداً منكم .
(نيتشه في نشيد المقاتلين)

كان أبي من المقاتلة وقد حارب مع الجيش المصري في حملة ١٨٧٧ ضد
الروسيا ، فخرج في الميدان واشترك في معارك الحبشة والثورة العراقية ، وبقي
جندياً في روحه بعد إحالته إلى المعاش فنشأت وأنا أو من بقدسية الجندية ، وأجد
الحرب أعلى مظهر لعظمة الإنسان ، وكنت أرتل شعر المتنبي فتأسرني تلك
الحيوية الجارفة والمقدرة على تصوير المعارك وقمعة السلاح ، فقلت : إنه أكبر
شعراء العرب لأنه أقدرهم على تحريك النفوس ، وإبراز معاني الغلبة والظفر
في الحروب . وقلت في نفسي الجيش والأمة صنوان ، بل الجيش صورة مصغرة
للأمة ، لأن عظمتها تظهر في جيشها ، وقدرتها على التصادم والكفاح تبرز
في جنودها ، وفي جماعات الجيش وكتائبه وفرقه ، فالجيش كان في ماضى مصر
مراآتها ، وهو اليوم موضع آمالها ، وفيه ترسم وتظهر وتبرز وتنعكس الميزات
الثابتة والصفات العالية ، والمتسومات الجديرة بالإعجاب التي تملكها الأمة المصرية
ولو قدر لي أن أختار مهنة في حياتي لما اخترت غير الجندية مهنة ، ولا قبلت أبداً
أن أترك الصفوف المتراصة من الجند ، ولا سلمت إلا أن أكون في الطليعة حيث
الأخطار تترى ، وحيث أواجه الموت وأنتصر على الصعب من الأمور .

إن الجيش مرآة الأمة تزيدها جلاء الحوادث الجسام فتنعكس عليها الصفات الخلقية والنفسية الكامنة في الأمة والمتوارثة عن الآباء والأجداد ، ولقد تفرض أنظمة الجيوش على رجال الجندية نوعاً أو قالباً معيناً من النظام والطاعة والضبط والربط ، ولكن الصفات القومية التي أشرنا إليها لا يمكن إلا أن تظهر على هذه الأنظمة في الحروب والمعارك حيث تبذل التضحية أمام الموت ، فتبدو نفسية الشعوب عارية كما هي لا شيء يخفيها ، هنا تبدو الخصال المتوارثة واضحة بيّنة ، لأنها متوارثة من الدماء التي أراقتها هذه الأمة المصرية العربية منذ أجيال في سبيل الدفاع عن مثلها العليا « العروبة والإسلام » .

لذلك أحبت الجيش وجنده وأسلحته وأعلامه .

إنها تذكرني بصلاح الدين وبميرس ، وحروب التتار ومعارك الصليبيين بالمنصورة ، وحطين ، وعين جالوت .

وأحب الجيش لأنه مدرسة كبرى للشعب فهو الذي يغرس الروح العسكرية في طبقات الأمة ، ويعلمها النظام ويديرها على السير والحركة ، ويجعل من هذا المواطن الذي يسير على مهل مطأطئ الرأس وهو حامل للمتعاب والهموم ، رجلاً رافع الرأس ، يسير إلى الأمام وهو واثق من نفسه ، مطمئن ليومه وغده .

إن مدرسة الجيش هي مدرسة الأمة والشعب ، يدخلها الشباب فتخلق من جماعات هذا الشباب المصري كتائب متراصة مدرّبة منضمة ، تعرف قيمة الواجب وتتلهم إلى الطاعة والنظام وتبلي الدعوة للعمل والجهاد وحمل السلاح ، إنها تعلم الجماعات قيمة الزمن وفضل السرعة في السير والهجوم والراحة ، وتغرس فيها حب اغتنام الفرص والمباغمة والملاحقة والتلاحم ، أن روح الجماعات عاتية فإذا صقلتها مدرسة الجيوش أصبحت روح الجماعات خالقة مبدعة منشئة عاملة . وهي أسمى درجة تصل إليها .

ولذلك تنبه من قبلنا وقالوا : « ليس هناك أعظم ولا أدعى إلى الفخر والجد من دولة تملك أكبر عدد ممكن الوصول إليه من الجنود المدربين على الحرب القادرين على حمل السلاح » .

وقال حكيم : « لاتظنوا أن قوة الأمة في حصونها وأسوارها وأساطيلها وإنما قوتها وعمادها في قيمة رجالها — أى جنودها » .

* * *

وأحب الجيش لأنه يغرس في الأمة القوة الدافعة إلى القتال والحرب والبذل والتضحية ، وهذه هي روح الجندية التي إذا ثبتت جذورها في قلوب أفراد الأمة وتعهدها إرادة قوية ورأس حازمة ، تعرف دائماً كيف تخلق التسليح لنفسها وكيف توجد ما تحتاج إليه ، فيخرج من صفوف هذه الأمة الضابط الذي يقود والجندي الذي يقاتل ، والمهندس الذي يوجد المدفع وما يحتاج إليه من ذخيرة وطلقة . وبذلك تفرض الروح العسكرية على الأمة حياة جديدة فتعلم منها كيف تحرز النصر في ميادين القتال تحت مختلف الظروف ومختلف الأجواء ، فيخرج من بين صفوفها القادة والزعماء بل تعرف الأمة عند اللزوم أن تقود نفسها بوحيتها .

ولا يظن أحد منا أن مصر العربية لم تذق طعم الظفر والغلبة ، لا بل إن هذه الأمة المصرية كتبت بدماء أبنائها أكبر الملاحم العربية ، وواجهت جيوشها أعظم الحروب والمعارك . فقد اشترك جندها في فتوح المغرب والأندلس ، وعرفت رايات أهل مصر وقبائلها وسط المعارك ، وكانت لهم المواقف الخالدة أيام عاهل مصر العظيم احمد بن طولون في حروبه مع دولة الروم .

ولما قامت الحرب الصليبية كانت جيوش مصر هي التي تتلقى وحدها حملات أهل أوربا ، وقد دامت قرنين تقريباً من الزمن ، فشهد العالم نهايتها على أيدي ملوك مصر وجندها فعلمنا أن نذكر ذلك ولا ننساه .

ولا تزال الحصون والقلاع التى بناها الافرنج فى ربوع الشام تحمل الكنايات
التي نقشها ملوك مصر وقوادها عند استيلائهم عنوة على هذه الحصون ماثلة للعيان
فليقرأها من شاء وليتأملها دعاة التفكك والمزيمه .
فالجيش المصرى هو صاحب هذه الأجداد ، وارثها من أسلافه الأبطال الذين
حموا بسيوفهم معاقل العروبة .
وإذا نظر المصرى إلى القلعة فليعلم أن كل حجر فيها يتحدث عن بطول
أسلافه لقد نحتها وصف حجارتها إثنا عشر ألفاً من أسرى الفرنج أشعلهم صلاح
الدين فى بنائها ، كانوا أسرى المعارك التى انتصر فيها .
لذا : أحى مصر العربية فى جيشها أبعث إليه بإعجابى الدائم ، وأقول إنه
عماد هذه الأمة ، والطليلة الأولى التى تسير نحو العلا والمجد .

هانيبال

القائد الذي قال عنه خصومه « إن رأساً بشرياً
آخر لم يحمل في العصور القديمة بعض ما حمله رأس
هنيبال من مشاريع جبارة عليها طابع الإقدام والمخاطرة. »

إذا كنت أعجب بمظاهر العظمة لدى قوادنا العظام من أمثال خالد بن الوليد
وطارق بن زياد ، ومحمود بن سبكتكين ويوسف بن تاشفين ، وصلاح الدين ،
ويبيرس ، أولئك الذين قادوا الجند ودوخوا البلاد ودانت لهم دنيا المعارك فإنني
إذا جاء ذكر القائد القرطاجني هنيبال أمام مخيلتي وقفت وقفة انتباه لأخذ التحية
لذكراه . ولا لأنني أشعر بالحاس له والتعصب لأفريقيته وأصله الأسوي ،
ولأنني قرأت عن معاركه وأيامه ومواقفه وإنما لأنني أحبه في نكته كما أحبه
في انتصاراته وفي كلتا الحالتين أحبه من صميم قلبي ولذلك التأمت روحي
بشخصه واتجهت نفسي إلى كل ما يتعلق به و ببلده وأخذ قلبي يخفق لدى كل
ما يشعرني بذكراه .

وإنني أقرأ عنه وكأنني أرى أعلامه أمامي وأحس كأنني عشت معه وسرت
وسط كتائبه ، وكنت جندياً من جنوده تظللني راياته وأقتحم العقبات بأمره على
قمم جبال البرانس ومضايق الألب وفي وسط سهول إيطاليا ، لقد سررت بأعلى
مضايق الألب بين فرنسا وسويسرة فكان هنيبال على لساني واخترقت سهول
إيطاليا تارة بالقطار وأخرى بالطائرة وأنا بالسيارة فكنت أقول لنفسى هنا سر
هنيبال وعلى مقربة مني انتصر هنيبال . إنه أكبر قواد العصور القديمة وأعظم
رجال الحرب بل هو كما قال عن نفسه ، إنه لولا هزيمته في معركة زانتي لكان
أكبر قواد الدنيا بلا منازع .

إنه بطل من أكبر الأبطال حمل رأسه أكاليل الجدد وذاق طعم النصر في كل معركة دخلها ، وكانت عبقريته العسكرية تغطي على عمل كتائبه وجنده وتتغلب على عقبات الأرض وعناد الطبيعة وكانت تتمسكه غريزة النصر والظفر وتسيطر على كل مشاعره وإحساسه . لم يكن يفوق أعداءه وحلفاءه وقومه في أمجاده وانتصاراته فحسب بل كان يفوقهم كذلك في فكرة وخلقه وإرادته وثباته وتصميمه .

ولهذا قال عنه خصومه أن رأساً بشرياً آخر لم يحمل أبداً في العصور القديمة بعض ما حمله رأس هنيبال من مشاريع جبارة عليها طابع الإقدام والمخاطرة . وقال آخرون إنه الأستاذ الأول للجنجيز خان وتيمور لنگ الأسويين بإرادته الحديدية وقوته الخارقة المبدعة في فن الحرب وقيادة الرجال واستخلاص النصر . أما نهايته فكانت عظيمة في خاتمها : لأن حياته بدأت كملحمة منذ كان في التاسعة من عمره ودعاه والده والده هملكار أن يحمل عبء القيادة عنه في جيش أسبانيا وجاءت حياته كملحمة غمرتها الحوادث وغمرت بحوادثها الدنيا ثم أنت نهايته كخاتمة مأساة انتهت بموت البطل فمات موت الأبطال حينما رأى نفسه غير قادر أن يبر بقمسه العتيق لوالده الذي لقنه أن يبغض روما القاسية حتى الموت وأن يحمل سيفه ليواجه ظلم روما وجبروتها إلى النهاية وألا يخذله ما بقي فيه قلب ينبض حتى يقضى على طاغوت هذه القوة الجاحمة الراضخة على قلوب أهل قرطاجنة وعلى العالم ، لقد كانت نهايته عظيمة كما كانت حياته مملوءة بعظام الأمور ودليل على ذلك أن الإسكندر وهو رأس قواد الغرب مات وهو منهمك القوى بعد ليالى السكر والتراحم على الملذات التي قدمتها إليه حياة الشرق المهلكة ، فابتلعته بمعاصيه وآثامه دنيا الفجور ، وجاء قائد أكبر وأعظم منه هو نابليون فأعطته الدنيا سلطان المعارك وملكوته قيادة جيوش فرنسا وأوربا ولما شرب كأس النصر حتى التئمة تمايلت الدنيا تحت قدميه ولقى النفي والتشريد كما كان من حظ

هنيبال القرطاجنى ، ولكن البطل الأفريقى كان أصلب عوداً وأثبت إرادة منه لقد طلب نابليون الرحمة من جلاديه والتمس العفو منهم . أما هنيبال فقد أبت نفسه أن يخضع لروما وسار نحو المشرق إلى مطلع سراج الدنيا حيث انتهت حياته بالموت مشرداً بعيداً عن الأهل والوطن فجاءت نهايته كما بدأت مثالية فى العظمة مثالية فى الفناء .

لقد اتجهت الأنظار إلى هنيبال منذ سنواته الأولى فأحبه الجند ورفعوه إلى العلا وتعلق به الشباب لأنهم رأوا فيه صورة منهم وتعلق به كبار القواد وكهول العسكر لأنهم تعرفوا فى جبينه على وجه هملكار العظيم قائدهم الذى قادهم فى حياته إلى الجند والنصر إنه يحمل المظهر الرائع الذى حمله والده فى تصميمه وقوته من قبل فى أيام شبابه وعلى وجهه ارتسمت أمارات العظمة والإرادة والحنكة التى عرفها الناس فى وجه هملكار وأعجبوا بها ، وفى عينيه لمع نفس الاشعاع الذى كان يشع فى عينى أبيه والذى كان يوليه الثقة ويدعوه إلى الحركة والإقدام إن فى عينيه ترسم النظرة الصائبة التى قلما تحيب .

كان يجمع فى قلبه النقيضين : نفحة الطاعة وغريزة القيادة فكان يعرف كيف يصل إلى أن يجعل من جنان قائد الجند وقلوب أفراد الجيش قطعة واحدة متماسكة فكان يأمر فيطيع ويطاع ، وكان قلبه لا يعرف الخوف ولا الهلع أمام الموت والخطر فإذا به يواجه أعظم الأمور وأشد المواقف وهو هادىء هدوءاً لا يلبث أن يتملك الجيش بكمله .

كان يقدم على العمل فيحتمل جسمه أشد الأعمال ، وكان يصبر عن الأكل والراحة ويقاسم جنده المشاق ويعطى لكل عمل مهما كان ضئيلاً حقه من الاهتمام حتى إذا أتى وقت الراحة أعطى لجسمه ما يستحق ، ولم يحمله من اللهو والملاذ ما ينقص من قوة ونشاط هذا الجسم الذى وهبه للجيش وللجاعة وللأمة التى أنجبته ، لأن حبه للمجد والعظمة بلاده تملك كل شئ فى نفسه فأصبح هذا

الحب قوة دافعة يلازمها الدوام والاستقرار طول حياته .

قد تفصلنا عدة قرون من الزمن عن هنبال وأيامه ولكن آراءه في الحرب وعبريته في سوق الجيوش وبصيرته في ترتيب المصاف لا تزال عالقة بأذهان بعض المؤرخين . بل إن بعض معاركة لا تزال تتخذ أنموذجاً لفن القيادة في الحروب وإدخال الحيلة على العدو . وأكثر من هذا أن في الدور الذي لعبه في معاركه ما يدعو إلى التأمل عند دراسة فن المفاجأة ، وطرق المبادرة واختيار ساعة الالتحام ودخول المعركة .

وقال كثيرون من نقاد الخطط العسكرية أن نابليون تأثر بنظريات هنبال فلجأ إلى بعض خططة في معركة « أوسترنز » المشهورة بل تغالى بعضهم فنسب إليه أنها كانت صورة من معركة « كان » التاريخية . وذكر مكاتب حربى أخيراً أن خطة هنبال في « كان » نفذها الشيوعيون الروس في معركة كوريا التي قذفوا فيها بالفرق الصينية أمام جيوش هيئة الأمم المتحدة وحاولوا الأطباق عليها من جانبيين فلم يوقفوا وهذه هي معركة كان .

لقد جمعت روما العاتية من جحافلها ٨٠ ألفاً من المشاة ، ٦ آلاف من الفرسان لكي تقابل هنبال ومعه ٤٠ ألفاً من المشاة ، و ١٠ آلاف من الفرسان وتركز الرومان في مقاعد للقتال صفّاً واحداً وعبأوا في وسطه صفوفاً متتالية أملا في سرعة مد الجانبين وتولى حماية الجناح الأيمن خيالة روما وحماية الجناح الأيسر خيالة حلفائهم .

وصفّ هنبال جنده على تعبئة تشبه تعبئة روما وكان على جناحه الأيسر فرق الخيالة من أهل أسبانيا وأهل الغال (أجداد الفرنسيين) وكان الوسط مؤلفاً من فرق المشاة من الأسبان والغال ثم العفرين ثم الأسبان والغال والعفرين على نظام الجيش الهندي البريطاني (كتيبة من الهندوس ثم كتيبة من السيخ ثم كتيبة من المسلمين) . أما الجناح الأيمن فحمته فرق الخيالة النوميديين

ظهر بفرق خيالاته التي أطبقت عليهم من المؤخرة وقطعت خطوط مواصلاتهم . يقول الكتاب العسكريون إن نابليون وجد نفسه يعالج نفس الموقف الذي كان فيه هنيبال : كلاهما يريد الدخول في المعركة والاتحام وكل منهما يخشى التصادم ولا يقدر على المناجزة ولا يستطيع أن يدفع بالهجمة الأولى لما به من قلة عددية أمام خصم يفوقه عدداً وأهبة وتعبئة . فكان من كل منهما أنه تمهل خصمه ينتظر ما يبذله من أخطائه ، فترك كلاهما للخصم فرصة ابتداء المعركة وخاتله مخاتلة بادعاء الهزيمة وتمكينه من نصر عاجل ، وفي اللحظة التي داخله فيها هذا الغرور أطبق عليه من الجانبين فإذاً به يسحق بين فكي الكباشنة التي كانت مكونة في معركة « كانب » من الجناحين لجيش قرطاجنة . أما في « أوسترلتز » فقد لعب الجناح الأيسر لنابليون الدور الأول وقامت مستنقعات وأوحال تلينيز وسوكولونيتز التي حالت دون تفهقر النمساويين بالعمل الذي كان يجب أن يقوم به الجناح الأيمن لجيش نابليون .

ثم وقف هنيبال وقفته التي قضت عليه ، إنها وقفة المتردد الذي يحجم ولا يقدم ، وهنا استعجله للعمل أنصاره وأتباعه ، وطلبوا إليه أن يسير بكتائبه في أثر فلول الرومان الهاربة ، ولما لم يجد إلحاحهم شيئاً صاحوا به « إن أمامك خمسة أيام لتدخل روما وتفتح أسوارها ، فتفتح لك أبوابها وتجاس مجاس الحكم في الكايتول ، ويخضع لك قناصلها ويحكموك فيما شجر بينهم ويسلموا تسامياً يا هازم الرومان وجحافلهم في عشرين معركة » .

ولكن القائد القرطاجني أسكتته الأقدار وأبت عليه أن يفتح فاه أو يبدي سبباً معقولاً لتردده وإحجامه فتقدم إليه القائد « برقة » ومعناه الصاعقة في اقتبهم وأسمعه أغلظ العبارات وسط جموع القواد إذ قال : « إنك يا هنيبال تعرف كيف تنتزع النصر في ساحات القتال والكنك تجهل كيف تستغل نتائج ظفرك ونصرك ! » .

ونجت روما من هوان الهزيمة والاحتقار والزوال . ويقول مؤرخوها أن
أهلها نسبوا نجاتها إلى معجزة خارقة وقوة سماوية لا تقهر وتداولوا فيما بينهم
وفي محافلهم أن آلهة روما قد غمرت المدينة بمطفها وكلائتها بحمايتها ووقتها من
شر يوم مستطير .

ومع هذا بقي اسم هنيبال لنا معاصر أهل الشرق العربي ليمثل لنا ولأحفادنا
والأجيال القادمة ، القائد العبقري الخالد .

بادليو... في الحرب الحبشية

وقع بين يدي أول أمس ملخص كتبته عام ١٩٣٧ عن مذكرات المارشال بيترو بادليو القائد الإيطالي عن حرب الحبشية . وضع القائد مذكراته في كتاب عقب دخوله مدينة أديس أبابا ، وقدمه إلى الزعيم موسوليني ، وكان هذا كافياً أن يثير رغبتي في الاطلاع عليه بعد أن قضيت الشهور في قراءة خطب موسوليني ومقالاته . ويعترف صاحب الكتاب بأن ما كتبه لا يعد تاريخاً رسمياً للحرب

لأن هذا التاريخ يتطلب مجهوداً طويلاً وجمع معلومات متفرقة ، ولا ينتظر الفراغ منه قبل سنوات عديدة . ولكن الكتاب مقتصر على مجرد سرد لحوادث القتال في أثيوبيا ، كما كانت تبدو لبادليو القائد العام الإيطالي ، وهو ينظر للحوادث من قسمة عالية ، فهو يعرضها بطريقة إجمالية عامة كما يراها بنظرته الشخصية كإنسان ، فيشرح الحرب وأدوارها كما كان يراها في مركز قيادته ، وهو لا يتأخر أن يكشف عما كان يجول بخاطره ، من إقدام وتردد ، ويعرض علينا بصراحة طريقة تفكيره . وتطور هذا التفكير ثم مساهمته للحوادث .
وقال إن الفكرة الأولى التي أوجدها وألزم نفسه بها هي إحراز النصر على أي وجه يكون ، فكانت هذه الفكرة راسخة لديه رسوخ العقيدة التي تسلطت على لبه ، وكان يستمد منها دوافع العمل والتصميم والأخذ بالقرارات الحاسمة السريعة ، فلم تفارقه هذه العقيدة في أشد الأوقات والأزمات ، وانتهى بها إلى قيادة القوات التي وضعت تحت إمرته بالنصر والظفر إلى النهاية .

ويقول بادليو في كتابه : « لعل أعظم ما واجه المسئولين عن قيادة الحرب الحبشية ، هو ضرورة الحصول على نصر سريع حاسم بأقصى سرعة ممكنة ، لأن

عامل الزمن كان يعمل ضد إيطاليا » وقد كتب موسوليني في مقدمة الكتاب ما يأتي : « إن غاية كل حرب هو إحراز النصر ؛ أما الحرب الحبشية فكانت تستلزم فوق هذه النتيجة الحتمية أن يكون إحراز النصر كاملاً في غير إبطاء أى بسرعة فائقة » .

والمتتبع لحرب فلسطين يتفق معى في أن إحراز النصر فيها كان يستلزم السرعة الفائقة والوصول إلى احتلال أكبر مساحة في أقصر وقت ممكن ، وهذا ما لم يلتفت إلى تحقيقه المسئولون عن حملة فلسطين .

ويقول بادوايو إنه تولى القيادة في ١٥ / ١١ / ١٩٣٥ ودخل عاصمة الحبشة في ٥ / ٥ / ١٩٣٦ فكانه لم يأخذ في العمليات التي قام بها سوى ٤ أشهر وأيام معدودات .

وللوصول إلى نتيجة مثل هذه حشدت إيطاليا أكبر قوة عسكرية في القارة الإفريقية إذ جمعت ٣٠٠ ألف مقاتل إيطالي و ١٠٠ ألف عامل وقوة من الطائرات عمادها ٤٠٠ طائرة كما جمعت أكثر من ١٠٠ ألف من الجنود الإفريقية الملونة (السمر والسود) — وكانت العمليات الحربية التي قامت بها تمثل في اتساعها وتفرعها أكبر حرب للاستعمار رأتها القارة السوداء حتى ذلك التاريخ . فإذا أضفنا وسائل الفن الحديث للقتال وسوق الجيوش وتعبئتها ونقل المؤن وإنشاء الطرق جاءت هذه الحرب بمثابة فتح جديد للحروب الإفريقية .

ولهذا فإن الدراسات التي قامت على معارك حرب الحبشة كانت ذات أهمية خاصة ، ولا أنهم بالمبالغة إذا قلت أن قواد الحلفاء الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية استفادوا كثيراً من دروسها ، ثم أقول أنه من دروس الحرب العالمية الثانية ومعاركها في القارة الأفريقية ما بدعوا أيضاً إلى الاستفادة من ناحية الاستعداد للحرب ووضع خططها في المستقبل : لأن عمل كل فئة استفاد منه من جاء بعدهم وهم جراً ..

ولقد تبين لى من الأطلاع على ما كتبه بادوليو أن إيطاليا كانت تضع الخطط منذ سنوات طويلة للحصول على النصر فى الحبشة فى حالة اشتباكها بالحرب معها — ولقد أخذت أهبثها منذ سنة ١٩٢٥ فبدأت تعيد النظر فى أنظمة الجيش وتهيئة قواتها العسكرية بالمستعمرات .

واختارت لاتمام هذا العمل الابتدائى نخبة من ضباط الجيش الذين يعملون بهدوء وصمت : ومداومة وعناد .

وكان أول ما اهتمت به فى نظامها الابتدائى العسكرى تكليف وزارة الأشغال العامة بإنشاء شبكات محكمة لطرق المواصلات فى ارتريا والصومال توصل إلى الحدود الحبشية .^(١)

وكان الاتصال دائماً بين رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيטالى ووزارة الخارجية مباشرة ، ولما تولى بادوليو هذه الرئاسة كان يخوّل إليه حق الاطلاع باستمرار على دقائق العلاقات السياسية وتطورها بل كان يؤخذ رأيه فى أهم ما يدور البحث فيه بين بلاده وإمبراطورية النجاشى .

وكان من واجبه أن يرقب بانتباه وعناية تامة كل حركة يقوم بها النجاشى لتنظيم بلاده سياسياً أو محاولته تركيز السلطة فى يده ، وكان من أهم ما تحشاه إيطاليا هو أن تنجح الحبشة فى مشروعها الذى يرمى لإيجاد جيش منظم على الأساليب الأوروبية ومزود بالأسلحة الحديثة ، فينتهى النجاشى أن يوفق فى الاستفادة من مزايا وصفات قومه الحربية وطبيعة أرض بلاده .

وكان الحبشة خالية تماماً من تلك الطبقة الممتازة من الضباط الوطنيين الذين يفكرون بتفكير الأوربيين أو يعرفون طرق الحرب الحديثة وخاصياتها وما تتطلبه من فن ومقدرة ، وما تستلزمه من نظرة نافذة واعية ، حتى يتمكن أصحاب هذه المهنة من وضع الخطط الحربية وتنفيذها .

(١) سبق لى تنبيه السلطات المصرية بتقرير مفصل عن ذلك أرسلته إلى وزارة الخارجية .

ويذكرني هذا بما قرأته عن كلام مصطفى كمال الزعيم التركي الذي أسند أسباب نهضة تركيا الحديثة إلى تلك النخبة من الضباط العظام الذين لولا نظرهم الإيجابية لضاعت بلادهم كما ضاع من قبل استقلال بحارى ومراكش وتونس ومصر : فهذه النخبة من الضباط الذين يجمعون بين العلم والفن العسكري الأوربي ، والجرأة المستمدة من الشعور القومي هي التي كان يوسعها إنقاذ البلاد ، وهي التي اطمانت إيطاليا من عدم وجودها ولم يكن هناك من يحل مكانها لأن إدراك الساسة الملكيين للأمور محدود ، ونظرهم قاصرة وكل هذا يبعدهم عن فهم الحقائق وضرورات العصر الحالى فكانوا يحضرون أنفسهم للهزيمة والإبادة . ويقول بادوليو أن النجاشى أخذ في السنوات الأخيرة يلجأ إلى الاستعانة ببعض الاختصاصيين من الأجانب الذين لبوا دعوته وقاموا يرسمون له الخطط ، فاشتد قلق السلطات الإيطالية خوفاً من أن تستعد الحبشة عسكرياً تحت إشراف هؤلاء الضباط الأوربيين — فتنشئ لها جيشاً وطنياً قد يقف عقبة في سبيل أطماع إيطاليا أو يزيد مشاكل الفتح وتكاليف الحرب القادمة . ولذلك رأت الحكومة الإيطالية أن الساعة قد أزفت لمواجهة المسألة الحبشية بالفصل فيها قبل أن يستفحل أمرها : وأن تضرب الحبشة ضربات حاسمة وبسرعة لكي تضمن تصفية هذه المملكة تصفية نهائية وبطريقة لا تمكنها من القيام مرة أخرى .

ويستمر بادوليو يحدثنا عن الحبشة فلا يستهين بها وإنما يقرر أن المعلومات كانت تصل إلى إيطاليا باستمرار من أنحاء البلاد المختلفة عن كل صغيرة وكبيرة فيها . وقد أدى جمع هذه المعلومات وتصفيتها بيد الخبراء إلى أن أثيوبيا يوسعها أن تجند قوة محاربة تتراوح بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف مقاتل وأن تحشد في الجبهة الشمالية وأن تسوق قوة أخرى تتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ ألف مقاتل للجبهة الصومال الإيطالية وفي طاقة البلاد تكوين احتياطى من القوات المقاتلة لشد أزر الجيشين : أما من ناحية التسليم فقد أتت الأخبار الموثوق بها تقرر أن القوات مزودة

بأسلحة حديثة خفيفة واسكنها من عيارات وطرز مختلفة مما يسهل وقوع الأخطاء في استعمال الذخيرة : (يلاحظ أن الدول الغربية كثيراً ما تلجأ إلى هذه الوسيلة بالذات لعرقة القوة المقاتلة لدى الأمم الشرقية وهي : ناحية تعدد أصناف الذخيرة وتعدد أنواع الأسلحة المختلفة العيارات لما يلزم هذا النوع من إخطاء في توزيع الذخائر على الوحدات المقاتلة) .

وجاءت إلى رئاسة أركان حرب الجيش الإيطالي معلومات دقيقة عن كافة أنواع الأسلحة التي شحنت في السنوات السابقة للحرب من مدافع وبنديات رشاشة وأسلحة للمشاة ، وعدد الطائرات والسيارات المدرعة وما جاء المدفعية من مدافع ميدان ومدافع مضادة للطائرات — مما أمكن أن يعطى فكرة عن محاولة إنشاء قوة من المشاة على الأقل منظمة على الأسس الأوروبية .

ولكن المطلعين على الشؤون العسكرية كانوا على ثقة تامة من عجز الحبشة عجزاً تاماً وعدم قدرتها على توجيه أية حملة كاملة الأهبة والاستعداد لاكتساح إحدى المستعمرتين الإيطاليتين . وذكر بادوليو تبريراً لهذا العجز سببين أساسيين الأول مادي راجع إلى طبيعة الأراضي وخلوها من طرق المواصلات التي تسهل الحشد وتمكن من سوق الجيوش وحشدتها في أماكن التجمع اللازمة لها .

الثاني أنه إذا وجدت هذه المواصلات فالبلاذ مفعكة داخلها وظروفها السياسية والاجتماعية لا تمكنها ، من أخذ هذا العبء عليها . وأخيراً فهي خالية من كل المسائل المادية والأدبية التي تجعل تجهيز هذه الحملة موضع تفكير .

إذن فهو مطمئن إلى أنه صاحب اليد الأولى في توجيه الحرب الموجهة التي يريدتها وهي بطبيعة الحال ستكون هجومية من جانبه ، دفاعية من الجانب الآخر .

ولن تكون حرباً ثابتة وراء الأكتاف والحصون والخنادق بل ستكون حرب حركة في أعلى مظاهرها فهي في حاجة إلى إحكام التدبير والخطط وستحتم

احتلال أما كن بعيدة والتوسع في الزحف بشكل غير معهود في السابق بل تفرض أشغال العدو وأحكام المباغتة والاستعداد لأخذ القرارات السريعة الحاسمة وما يستلزم ذلك من الجرأة والثقة في النفس حتى يضمن القائد سرعة التقدم وضمان الوصول إلى الهدف المعين في الوقت الذي تحدده القيادة العامة .

لهذا كله يشير بادوليو في القسم الأخير من كتابه إلى أن أول أمر تستلزمه حرب الحركة والاكتساح هو إيجاد قواد أ كفاء ذوي شجاعة للاضطلاع بالمسؤوليات الكبرى وليس من السهل العثور على هذه الفئة الممتازة في أى جيش أوروبى إذا لم يدرب أفرادها من المبدأ لهذا الغرض وتعطى لهم حرية واسعة للعمل وقت التدريب وأن يكون الاختيار منصّباً أولاً على الكفاءة والاستعداد والموهبة فليس كل ضابط يصلح لهذا الاختيار وليس كل قائد لديه الاستعداد الشخصى لمثل هذه الأعمال .

وقد نجح بادوليو في إيجاد قوة من الضباط الأ كفاء من الناحية الفنية أى في القيادة وفي وضع الخطط للتعبئة وسوق الجيوش ، وقد أشرف بنفسه على امتحان معلوماتهم وعرف عن كئيب مدى إدراكهم للأمر ، ولذلك مهّد لهم طرق الاشتراك في الحرب الحبشية مشيراً إلى أنها الفرصة الوحيدة التي سنحت لهم لإظهار صفاتهم العسكرية الممتازة ومقدار ما وصلوا إليه من معلومات وما أتقنوه من فن حربى وأشار إلى ما لازم إيطاليا من توفيق في تموين جيشها « بكادر » أى مجموعة هائلة من ضباط الصف الذين لهم دراية خاصة ومقدرة على فهم التنظيم والعمل بوحية وروحه وهى صفات تستلزم المران الطويل ويخلقها ويبرزها التدريب الفنى والتربية العسكرية المبنية على أداء الواجب: وقال أن هذا الكادر هو عدة الجيوش المحاربة .

وهكذا استمر المار يبال الإيطالى يمدّنا بأسلوبه الشيق ويقول إن الحرب الحبشية كانت تجربة ولكن قاسية ودخلتها دولته وخرجت منها منتصرة بفضل

العناية التي بذلت في رفع مستوى الجنود والضباط على السواء . وقال أنها كانت في وجهة نظره مواجهة للجهول والتغلب على أشياء غير منتظرة ، ولا مفروض وقوعها . وكان كقائد واقعاً تحت تأثير الزمن كعامل فعال فكان يطلب إليه إتمام عمل معين بأقصى ما يتطلب من السرعة وفي أقصر وقت ؛ وكان يضع خطته ويجهز نفسه لسوق وحدات بقصد احتلال مراكز معينة ، فتصدر إليه أوامر من روما بتغيير الخطة والسير بغير إهمال لفاعية ، فكان يلجأ هذا الأمر ولكنه يسير بوحى نفسه فلا يغير خطته الأولى متحملاً المسؤولية إلى النهاية .

قال إن أكبر عوامل النجاح هو التنظيم الذي يمكنه من عمل المستحيل والذي بدأ بتفريغ ونقل ملايين الأطنان من الذخائر والمؤن في بلاد لم تستعد لتلقى هذه الكميات الهائلة من العتاد ، ثم سار في التغلب على الطبيعة بإنشاء الموانئ والأرصعة والطرق والكبارى وتحريك نصف مليون رجل ودفع ملايين من الدواب وآلاف السيارات . كانت الحرب آلة محكمة الوضع ، ولذلك تغلبت على العقبات وأخضعت الطبيعة . وتلمح من ثنايا كلماته : أن إرادته تغلبت في النهاية على أوامر روما وما تحمله من متناقضات وجهل بشئون الميدان ، وقرر أن مثل هذه المصاعب أولى مظاهر المشاكل والمتاعب التي تواجه القائد في الحروب والتغلب عليها أول مظهر لصفات القيادة الحاسمة الجريئة التي إذا وضعت الأقدار بين يديها مقدرات المعارك والحروب فعليها أن تستفيد منها وإلى النهاية وقال : « إن الأقدار تأتي بها مرة واحدة في حياة الشعوب والقادة ولن تتكرر مرة أخرى فمن العبث التردد والوقوف والتراجع إزاءها لأنها تخضع للمثل اللاتيني القائل :

Audaces Fortuna Juvat

إن الحظ يبتسم دائماً لأصحاب القلوب الجريئة والعزائم الصادقة

المشاة ملكة الجيوش

بحث في خاصياتها وعملها في الحروب

ليس هناك أعظم ولا أدعى إلى الفخر والمجد من دولة
تملك أكبر عدد ممكن من الجنود المدربة على الحرب .

١ — المشاة هي الرامة :

المشاة صورة مصغرة للأمة المأخوذة منها تظهر فيها المميزات الجديرة بالإعجاب
في هذه الأمة ، فإذا اجتاحت البلاد الصدمات العنيفة أثرت كل صدمة في نفسية
المشاة وكان لكل منها رد فعل في أفراد جماعاتها يؤثر في روحها المعنوية وفي
قيمتها العسكرية . وإذا جد الجد وانتابت الأمة الحوادث الجسام لا تلبث أن
تظهر الصفات الخلقية السكاملة فيها والمتوارثة عن الآباء والأجداد — خصوصاً
إذا كانوا أهل كفاح وجهاد وقتال ، أقول لا تلبث الصفات العظيمة أن تبرز
في صفوف المشاة قبل أي سلاح آخر من أسلحة الجيش المختلفة وتجب كل
العوامل الأخرى بل تغطي أحياناً على الأنظمة التي يخلقها رجال الجندية . فالمشاة
دائماً تعبر عن وجه الأمة الصحيح وتستوحى من مزاياها الخلقية المنحدرة من
سنوات العراك السالفة ومن الدماء التي أراقها الأمة منذ أجيال في سبيل الجدد
والعظمة .

٢ — استقلالها :

المشاة هي السلاح الوحيد بين أسلحة الجيوش الذي كان يعد نفسه وانغاية
هذه الحرب القائمة — مستقلاً لحد ما عن غيره ذلك لأن جندي المشاة غير مرتبط بجواده

كجندى الخيالة ولا بمدفعه كجندى المدفعية ولا بدبابته كجندى الدبابات — بل هو جندى يعتمد على نفسه منفرداً وعلى زملائه وعلى قائده قبل أن يرتبط بالآلة التي يستعملها أو تنقله من مكان لآخر :

مميزاتها :

جنودها قادرة على المبادرة والزحف ودخول المعركة والتلاحم والتغلب على المصاعب واقتطاف ثمرة الغلبة والنصر واحتلال الأراضى المنتزعة ثم المحافظة على ما اكتسبته من المواقع وحمايتها . وكان يوسعها أن تقوم بكل ذلك أو بعضه وأن تتمه بمساعدة غيرها من الأسلحة ولكن هذه الأسلحة المختلفة لا يمكنها أن تفعل ذلك منفردة بدون مساعدة جندى المشاة ووحدات المشاة التي هي ألزم لها من غيرها قبل الاشتباك وبعده وفي إبان المعركة وعند اختتامها .

٣ — سيرة المعارك :

فهي كما أعرب هندبرج أكبر قواد الحرب الماضية حينما سئل في مستقبل الطيران وإدخال الأسلحة الحديثة عن رأيه فقال « إن كل معدات الدمار ووسائل النقل بما فيها الطيران قد أعدت لخدمة المشاة التي كانت دائماً وستبقى ما دام الإنسان إنساناً سيدة المعارك » ولم يفقد هذا الكلام أهميته إذا نظر إليه بأن هذه الحرب لم تمكن سلاحاً جديداً من كسب معركة وحده ولكنها لم تترك المشاة كما كانت في الماضي إذ شاركنها في بعض هذا الشرف غيرها من الأسلحة الأخرى مع بقائها سيدة المعارك والحروب .

٤ — عمادها الجنى :

ذلك لأن كل سلاح مرتبط بآلته. أما المشاة فعمادها الإنسان وروحه المعنوية ونفسيته وأعصابه فهي تشتبك فوق كل أرض وجبال وصحراء ومستنقع وفي كل وقت نهاراً وليلاً تحت أشعة الشمس المحرقة أو الضباب والجو القاتم أو تحت وابل

من الامطار والقذائف أو تحت صيب من القنابل الملتهبة والمتفجرة .

• — منرى البسة :

أن هذا الجندى الذى يغطى رأسه بخوذة من الصلب المنيع ويضع على صدره كمامة يستعملها لتقيه عند اللزوم من شر الغازات الخائقة ويحمل على ظهره حوائجه وعتاده هو جندى المشاة سلاحه البندقية العادية أو البندقية الرشاشة ويحمل بوسطه حربته معلقة بحزامه من ناحية وآلات الحفر من ناحية أخرى وبين ذلك أكياس الذخيرة وآلة قذف قنابل اليد تلك صورته فى كل جيوش العالم المقاتلة . يدل مظهره على أنه قد أتم تدريبه فهو مستقيم القامة عريض الأكتاف تام النمو قوى العضل غير منحني الظهر يسير بخطوات ثابتة . ترى سماء الرجولة والجرأة والإرادة ماثلة فى وجهه وترسم فى عينيه علامات التصميم والطاعة ذلك لأنه تلقى تدريباً تاماً يجعله قادراً عقلياً وجسمانياً على أداء واجبه واستعمال أسلحته إذا أمر بذلك . وهو يكون من شخصيته وحدة قائمة على حب النظام وتقديس الأمر وإطاعته أمام ضابطه وبحضور زملائه — تتجه أنظاره دائماً إلى من هو موكل بقيادته منتظراً منه طرفة عين ليقوم بتنفيذ أمره أو فهم ما يحول بخاطرهم وهو لن يتغير سواء أكان فى الثكنة أو فى إبان المعركة أو إذا انفرد وحده لمواجهة العدو . لا يعرف شيئاً ولا يسلم بشئ غير أداء الواجب وإلى النهاية ، له أعصاب هادئة لا تضطرب أمام الخصم ولا تهتز بسمع أصوات المدافع إذا قصفت ، ولا أزيز الطائرات إذا زحجرت ذلك لأنه تخرج من مدرسة تهرأ بالأخطار وقد أوصلته إلى السيطرة على نفسه فألمات صغائر الغرائز ومواضع الضعف التى فى الغير ومكنته من مواجهة أشد المواقف هولا وعودته تلقى الأوامر وتنفيذها بلا تردد ولا تأفف فى وسط النيران وعند الخطر ومرنته أن يقود زملاءه إذا فقد ضابطه وأن يقود نفسه إذا فقد زملاءه .

٦ — تربيته وتدريبه :

ولقد تربي جندي المشاة على تحمل التعب والسير على الشاق بالحرمان وأن يقابل الخطر بنفس مطمئنة هادئة وروح معنوية عالية كما قد أشرب وأخذ نفسه على أن يضع ثقته وإيمانه في رؤسائه ومن هم أعلا رتبة منه ثم في زملائه في وحدته . هذا هو جندي وحدات المشاة من المقاتلة وما يجب أن يكون عليه من الأهبة النفسية وصفات الجندية وهي صفات تنطبق على غيره من جنود الأسلحة ولكن رأينا أن نضعها هنا لأنه كما قلنا عنوان الجيش ومظهر استعداد البلاد للتضحية .

٧ — الخاصيات العامة والأسلحة :

يتكون كل جيش من عدة أسلحة . سلاح المشاة وسلاح الخيالة وسلاح المدفعية وأصبح الآن لدينا سلاح المهندسين والإشارة والسيارات والمدرعة والمصفحة والدبابات والطيران وغير ذلك ويلزم لفهم هذه الأسلحة الإلمام بالخاصيات العامة وهي التي تنطبق عليها جميعاً قبل الدخول في خاصيات سلاح المشاة وهي :

١ — قدرة هذا السلاح على الحركة (Mobilité) .

فنفهم مدى سرعته للانتقال على الطرق المعبدة وغير المعبدة وعلى الأرض المنبسطة والأرض الجبلية وعلى السير نيلاً ونهاراً وضبط كل ذلك بالزمن والدقة المطلوبة .

٢ — احتمال هذا السلاح للعراك والمصادمة ومقدار مقاومته وتأثيرها في حالة الاشتباك أو في حالة السير ومقدار الزمن اللازم للانتقال في حالة السير إلى موقع القتال .

٣ — قياس قوته المدمرة في الأحوال جميعا .

٤ — مرونة هذا السلاح ومقدرة وحداته على التجمع والتعبئة بأشكالها ومعرفة الزمن الضروري لكل عملية من هذه ثم للزحف بمعداته وتشكيلاته حتى وصوله إلى ساحة العمل ثم مقدرته على تغيير وجهة السير من جهة لأخرى تحت تأثير طبيعة الأرض وتحت ضغط المؤثرات الجوية .

* * *

فهل غيرت الحرب الأخيرة أشياء من هذه هذه الخاصيات ؟ لا ! لقد أثبتت تجاربها أن المشاة لا تزال كما قلنا سيدة المعارك ، بل جاءت الأيام فأخرجت من صفوف المشاة : كتائب الفدائيين ثم وحدات جنود المظلات ، وسيسير المستقبل ليؤكد معنا دائماً بأن المشاة هي دعامة الجيوش .

خطرات فى الحرب..

تعاريف أولية

الحرب نضال بين إرادتين ، على رأس قوتين مسلحتين فى حالة تصادم ، إذا وهنت إحدى الإرادتين أو تطرق اليأس إليها ففقدت الأمل فى الغلبة والنصر كانت الهزيمة عاقبة لها . كان على بن أبى طالب بطلا من أبطال العرب . قال يوماً مخاطباً جنوده : « فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدّارع . . واستعينوا بالصبر والصدق فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » . وهذا القول الذى صدر منذ ١٣ قرناً يصدق عن الحرب فى مجموعها إلى اليوم ، لأن العوامل النفسية هى أول ما يساعد على النجاح فى الحروب وإحراز النصر فى ميادينها . وعليه يكون الأساس الأول الذى تبنى عليه تهيئة الأمة لحل السلاح هو العمل على غرس الروح العسكرية فى نفوس أفرادها وتربية قوة الإرادة والثبات فيهم مع الثقة فى النفس ، والاستماتة فى الدفاع ، وتعويدهم الإقدام والجرأة لمواجهة الأخطار وتحمل المتاعب والمشاق . والمعركة فى صورتها البسيكولوجية جهاد نفسى بين قائدين . والجيش المتلاحمة يمثل كل منها آلة محكمة التركيب والوضع ، خاضعة لسلطة وحدة واحدة . والغرض من تنظيم الجيش وتقسيمه إلى فرقة وسرية وكتيبة (أى فرقة وبلوك وأورطة) ، هو إحكام سير هذه الآلة وجعلها جسماً حساساً مثل جسم الإنسان بنظامه العصبى : الرأس تحرك كل طرف فيه وتشعر فى الوقت نفسه بما لمس أو يصيب أى عضو فيه .

كذلك الجيش مع رئاسته . فبال تدريب والضبط والتنظيم ، تصل إرادة القائد من أعلى إلى أسفل متدرجة من ضابط إلى ضابط حتى تصل إلى الجندى

البسيط الواقف في الصف الأمامي ، في مواجهة العدو . وإرادة القائد هي مركز التحريك والقيادة والسوق والتجميع . فهي التي تصدر الأوامر يجمع الوحدات ونقلها وتوزيعها وتحرك القوات والأسلحة المختلفة ، وتعبئتها في أماكنها ثم توحد مجهوداتها وترسم لها أعمالها وطريقة مساعدة بعضها لبعض ، وفي النهاية تسييرها متكاتفه متعاونة نحو الهدف المقصود .

ويضع القائد قبل التلاحم أو الاشتباك في القتال خطته التي يحكم تفاصيلها ودقائقها . فإن أتمها وأخذ بها عليه أن يتبعها دائماً فلا يخرج مطلقاً عن دائرتها ، فإذا سببت الظروف أو ألبأتها الحوادث أن يحميد ولو مؤقتاً عنها فمن واجبه أن يعود في الحال إلى اتباعها . . وإذا دخل القائد المعركة أتمه المعلومات وأخبار الحوادث أولاً بأول ، تترى من كل جانب ، فيشرف على سير الحركات الحربية وعلى تطور أدوار القتال ويراقب تنفيذ أوامره وتأثيرها ونتائجها . ولكن أهم عامل فعال بين يديه هو أنه ، رغم اشتباكه ، لا يزال يسيطر على اختتام المعركة ونتيجتها بقوات الاحتياط التي يحرص كل الحرص على الاقتصاد في استعمالها وإن تكون مؤلفة من قوات كاملة العدة والعدد ، قوية نفسياً ومستريحة جسمياً . فإذا أذنت الساعة الفاصلة دفع بها جميعاً نحو العمل بغير تردد ولا أحجام حتى لا تفلت من يديه فرصة إحراز نصر كامل بمعنى الكلمة . والنصر في نظر الفلسفة يتم إذا تصدعت بالقوة ووهنت إرادة الخصم . ولكن الحرب كما سنرى عمل وحركة ونتيجة ، فما يصلح للتعارف عليه بين الفلاسفة لا يقنع العسكريين . ويقول بعضهم : النصر يتحقق بإبادة قوى العدو الرئيسية في الميدان ، وهذا أيضاً لا يكفي لتعريف معنى النصر الحربي تماماً . فالنصر يتحقق بتدمير العدو والقضاء عليه وهذا يتطلب إبادة قواه الرئيسية وتشتيت وحداته الجمعية وإصابته مادياً بإسكات بطارياته وتحطيم استحكاماته وإفناء قوة المقاومة وروح الدفاع التي لديه وللوصول إلى هذه النتيجة يجب أن تملك إرادة القضاء على العدو ، عقيدة القائد

الذى يحرك الجيش ، ورأس الجندى الذى ينفذ الأمر الصادر إليه بالتقدم ، وتفكير المهندس الذى يخترع ويبتكر آلة القتال من سلاح وطلقة . وإذا تحقق النصر نحدد مداه وقيمته وأهميته حينما نعرف عدد قوات العدو التى أبعدت أو أسرت أو تشتت ، ونقارنها بمساحة الأرض التى انتزعت عنوة منه مع أهميتها من جهة مواردها الاقتصادية وما عليها من طرق المواصلات والنقل وطبيعتها الطبوغرافية أى من ناحية جبالها وأنهارها وتضاريسها الأرضية ومقدار صلاحيتها للدفاع والهجوم .

أركان وضع الخطط الحربية .

إذا رجعنا إلى تاريخ الحروب والمعارك الخالدة التى اكتسبها كبار قواد العالم لا نجد أن أحداً منهم قد حصل على كل ما يبتغى من العناصر الأساسية التى تجعل النصر نتيجة محتمة أمامه ، قبل اشتباكه فى الحرب . ولذلك لا ينتظر أى قائد ما فى حياته العسكرية إذا دعى يوماً لوضع خطة حربية أن يساعده الحظ فيجد بين يديه كل ما يتطلبه وضع خطة من قواعد ومعلومات تامة عن العدو وحركاته لكي يصل إلى وضع تصميم يستحق أن يوصف بالكامل .

ولكن لكل خطة أركاناً وعناصر أساسية ، وهى وإن بدت لأول وهلة بديهية ، إلا أنه يجب على القيادة دائماً الأخذ بها فى تقرير الخطط والتصميمات وبحشها ودرسها قبل أخذ قرار للعمل ، وهذه الأمور يمكن إرجاعها من جهة طبيعتها إلى ثلاثة أقسام : (١) حقائق (٢) فروض (٣) استنتاجات .

١ — الحقائق : هى الأمور الثابتة والمعروفة لدى القيادة علماً تاماً وهى :

(١) الغاية أو الغرض النهائى الذى يعمل القائد لتحقيقه : أى أن كل خطة

أو تصميم يجب أن يرسم له هدف يرمى القائد للوصول إليه .

(٢) العمل الذى يوصل إلى تحقيق هذا الغرض .

(٣) عدد الوحدات والأسلحة التي تعمل تحت قيادته .

(٤) مراكز الوحدات والجهات التي تعمل فيها ونقط تجمعها ومقدار ما لدى كل منها من المؤن والذخائر .

(٥) حالة الجنود المعنوية وحالة المهات والأسلحة ووسائل النقل الميكانيكي والدواب .

(٦) طبيعة الأرض التي يعمل الجيش فيها ، لمعرفة ما يعترض الجنود من مصاعب وما يواجههم من تسهيلات ، كل هذا مع مراعاة طبيعة هذا العمل المنتظر القيام به وتقديرها .

الفروض : هي كل ما ينتظر القائد حصوله وتحقيقه ولكنه لا يجزم بتحديدده ولا يحكم بصحته نهائياً .

الرسم والمسافة الزمنية للقيام بمركته ما وقت المعركة

يعرف القائد المسافة بين موقع وآخر والزمن للوصول إليه من خريطة ، ولكن وجود جيش معاد ينقل هذه المعلومات من حقائق إلى فروض لأن المراكز التي يحتلها العدو وحالته ومقدرته تجعل من العسير تحديد الزمن والمسافة والعمل بالضبط ، فإذاً يلجأ القائد فيفرض للعمل زمناً ومسافة حسب الحالة التي يراها أمامه .

١ — المعلومات والأخبار : لا يسع القائد أن يأخذ المعلومات والأخبار التي ترد إليه كقضايا مسلمة خصوصاً إذا توالى الحوادث بسرعة واسكنها تعود فتسترجع قيمتها الاحتمالية حينما يتكاثر ورودها ويكون ذلك عادة إبان فترة السكون التي تعقب الاشتباك في معارك — خصوصاً في حرب الخنادق فإنها تصير حينئذ من الأركان التي تؤخذ في الاعتبار عند وضع خطة جديدة أو أخذ قرار حاسم .

أما في حرب العراء — أى التى تشتبك فيها وحدات عديدة على جبهة منبسطة حيث يسهل تحريكها ، فإن المعلومات تأتى فى كثير من الأحيان غير متفقة مع الحقيقة أو غير مفهومة فلا يمكن الاعتماد عليها لما تحمله من النقص والتشويه والمبالغة .

٢ — الاستنتاجات : وهى الأمور المحتملة الوقوع أى التى يتصور القائد حصولها فيستعد لها كيلا يفاجأ بحدوثها وهى :

(١) رد الفعل الذى تحدثه لدى العدو حركة حربية يقوم بها القائد . ويصعب التكهّن بذلك واستنتاجه إلا فى حرب الخنادق حيث تثبت القوات فى مواجهة بعضها بعضاً ويمكن الحصول على معلومات أوفى .

(٢) تصميمات العدو وخطته وما ينوى عمله : ويمكن الوصول إلى استنتاج ذلك بالتحليل والاستقراء ودراسة المركز الذى يحتله العدو والطرق التكتيكية المعتاد لديه اتباعها .

هذه هى الأركان الأساسية التى تبنى عليها الخطط الحربية . والخطوة التى توضع على هذا الأساس لا تكون قد خرجت بعد عن الحيز النظرى ولا تكون لها أية قيمة حربية إذا لم يأخذ القائد بالاعتبار الأول حالة الجنود النفسية التى يجب تعهدها وملاحظتها وتقويتها قبل الإقدام على أى عمل حربي .

ويتوقف نجاح أى خطة على مقدرة الضباط المكلفين بتنفيذها وكفاءتهم مما يستدعى ملاحظة وتدقيقاً فى تخييرهم وفى توزيع العمل أو تقسيمه عليهم كلا حسب كفاءته واستعداده لتنفيذ المول القيام به .

ولا يغرب عن بال القارى أن الأركان التى ذكرناها ليست نهائية أو أننا جئنا بتعدادها على سبيل الحصر ، إذ قد يعرض فى سير الحوادث ما يفاجأ به القائد المسئول فيجب أن يمرن نفسه على الهدوء التام وأن تتملكه دائماً إرادة

قوية وورباطة جأش هائلة حتى يسيطر على السير بالمعركة رغم ما يعترضه من المصاعب والمفاجآت ويجب أن يعرف كيف يجازف ولا يفقد أبداً غريزة الهجوم .

أصول الحرب :

لا يقتصر نشر الثقافة العسكرية بين رجال الجيش العامل وأفراد الأمة على إيجاد نخبة من الضباط القادرين على تحمل المسؤولية والقيادة بل يساعد أيضاً على توحيد وجهة نظرهم وتفاهمهم وتعاونهم وفي ذلك قوة عظيمة للبلاد .
وقد بنيت العلوم العسكرية على تجارب عديدة هي تراث القرون الماضية ، فهي علوم تجريبية وضعية غرضها الأول تربية النفس على النظام والطاعة وجعلها قابلة للعمل تحت خاصيات الحروب وطرقها وأساليبها المختلفة .

وأصول الحرب هي تلخيص المبادئ الأولى لهذه العلوم ويمكن اعتبارها كاتموذج عند القيام بعمل من الأعمال الحربية وليس معنى ذلك أن تطبيقها يجعل النصر نتيجة محتمة لها واتباعها يخلق ظروفاً تجعل النصر أقرب إلى الوقوع كما أن مخالفتها أو الخروج عن قواعدها يخلق ظروفاً تساعد على الهزيمة .

وإذا كان الألمان بها ودراساتها تفصيلاً يعد علماء من العلوم الوضعية الثابتة القواعد فإن أحرار النصر بها يعد فناً من الفنون ، لأن تطبيقها في الميدان وتنفيذها في الحرب يحتاجان إلى شخصية مدربة على البصر البعيد في الأمور وعلى مقدرة في أخذ القرارات الحاسمة السريعة وهذه صفات يصل إليها الإنسان بالتدريب على السكينة وضبط النفس وتشبيتها لتقوى على مقاومة المؤثرات التي تهدم العزيمة : — هذه المؤثرات من طبيعة الوسط المحيط بكل قائد تسببها نفسية الضباط الذين يعملون معه أو تأتي نتيجة لحالة نفسية يخلقها العدو بتعمد فيها إذاعة أخبار كاذبة — .

فاعظم ما يصل إليه التعليم والتدريب العالى هو خلق هذه الصفات الممتازة
فى نخبة من الشبان مدة دراستهم ثم تعهدهم بعد ذلك بالرياضة والتمرين حتى يعتادوا
على تنميتها فى أنفسهم ويكون ذلك باتصالهم بالجنود اتصالاً من طبيعته أن
ينمى روح القيادة فيهم مع البصر والتدقيق النفسى بحيث يصلون دائماً إلى السيطرة
على الحوادث وتنفيذ النصر بالعزيمة .

ونذكر فيما يلى فذلـكة صغيرة عن أصول الحرب والمبايـء العسكرية التى
يصبح أن توضح كأ نموذج أمام من يريد التوسع فيها .

١ — مذهب كارنو : كتب كارنو وزير الثورة الفرنسية وواضع أنظمة
جيشها كتاباً تاريخياً إلى أحد القوادى الذى كان يعمل على نهر الرين قال فيه . .
« إن ما يجب عليك عمله هو اجتذاب العدو إلى معركة كبيرة فاصلة يتحقق
النصر فيها على سطح بلاده ، وأحذر أن تقف موقف المدافع فإن ذلك يقلل من
من شجاعة جنودك ويزيد فى قوة خصمك » .

هذا المبدأ ظاهر واضح ويمكننا أن نذكر له لمثاليـن مأخوذين من تاريخنا
القديم الخالد ، معركة خالدين من عصر البطل العربى عمر بن الخطاب .

(١) القادسية . . . وهى معركة فاصلة نهائية تحقق النصر فيها على أرض
العدو وكانت نتيجةها تصدع ملك الأ كاسرة النائمىـن وزواله .

(٢) اليرموك . . . معركة فاصلة نهائية تحقق النصر فيها على أرض العدو
وكانت نتيجةها تحرير سوريا من ظلم بيزنطة المنحطة وفوضى حكمها وارجاعها إلى
حظيرة الوحدة العربية التى سارت من نصر إلى نصر .

الأولى فخر اسعد بن أبى وقاص والثانية مفعرة خالد بن الوليد وفى المعركتين
تفوق الهجوم المستند إلى الصفات الأدبية على الجنود المرتزقة رغم تسليحهم .

٢ — تفوق الهجوم : هذا المبدأ أهم المبادئ الحربية .
لأن الهجوم له غاية وغرض معلومان وهو يرمى إلى تحقيق نتيجة معينة .

إذن إرادة القائد المهاجم ظاهرة بينه معروفة ، ينتج منها إزدياد الروح المعنوية والقوة النفسية في جنوده وضباطه ، وتتهيأ له الفرص العديدة التي يمكن الاستفادة بواسطتها من أخطاء العدو . كما أن كل حالة محاطة بالابهام والغموض بين جيشين متقابلين يمكن إظهارها بالهجوم الذي يقوم به أحدهما لأن الهجمات تجتذب إليها القوات المجمعة التي يستفيد منها المهاجم بطريقة غير مباشرة إذ يصل إلى تحقيق حماية أجزاء من الجبهة كانت معرضة لهجمات قد يقوم بها العدو . وتزداد أهمية الهجوم ونتائجه كلما إزداد عدد الوحدات التي تشتبك فيه .

أما الدفاع فينحصر في المحافظة على المواقع المحتلة والاحتواء والوقاية ، مما ينتج عنه الخضوع لإرادة العدو والتعرض له من جهة تسرب المعلومات والأخبار التي يستقيها ، والاضطرار للقتال في ظروف غير مضمونة أو تعرض قوات كافية للتصادم مع قوات تزيد عليها فينتج من ذلك افناء جزء منها . أى أن القائد الذي يخضع لمثل هذه المؤثرات ، يسعى لتوجيه الاحتياطى الذى لديه وافئائه في في مناوشات وتعرضات^(١) يغصبه الخصم عليها فيؤدى هذا في النهاية إلى الضعف والجمود والاكتفاء بالموقف السالب الذى يسبب الهزيمة .

ففي هذه الظروف لا يمكن المدافع أن يثبت إلا بالقيام بالهجمات المضادة — إذا كان يملك قوات وافية — فإن الانتقال من الدفاع إلى الهجوم يخفف من عبء الدفاع كثيراً ، فإذا تبدلت أو توات الحركتان واحدة بعد الأخرى فإن الأسلحة الأوتوماتيكية الحديثة تضمن لمدافع مستحکم في مواقع محصنة دفاعاً طويلاً ولو أمام قوات تزيد عدداً عليه .

٣ — ضرورة الوصول إلى نتيجة فاصلة : قلنا أن الحرب حركة وعمل

ونتيجة وأن الوقائع الحربية تستلزم أن يكون لها غرض أو نتيجة . فالقائد الذى يرسم ويضع خطته يجب أن يجعل أمام عينيه تحقيق نتيجة فاصلة ، فإن لم تكن فاصلة فلتسكن على الأقل ذات أهمية كبيرة في سير أدوار الحرب .

(١) التعرض هو كل هجوم موعى .

أما إذا اكتفى بالوصول إلى نتيجة قليلة الأهمية أى ثانوية بينما يكون العدو من جهته يسعى إلى تحقيق نتائج أخرى كبيرة ذات سرى واسع فلا تلبث الحوادث أن تحيِّب ظن الأول ولا تمكنه من تحقيق غرض بسيط مثل الذى وضعه أمامه . كذلك الاقتصار على القيام بعدة مناوشات أو هجمات بسيطة لا يمكن اعتبارها حركة واسعة النطاق ، فهذه الهجمات لا يكون لها نتائج ملموسة ظاهرة تعادل ما تكلفه من الخسائر فى الرجال والذخيرة . ويركن البعض إلى استعمال طرق الحيلة والخدعة فى القيام بحركات لا معنى لها فهذه سرعان ما يفتضح أمرها إذا تكررت وتفقد كل أهمية ولا تترك غير الأثر السيئ والخسائر . وكل عمل حربى يقدم عليه القائد من غير أن يستعد له بالوسائل الكافية يحمل معه جرثومة الفشل كما أن الأوامر التى يصدرها بدون تمحيص ولا تثبت فيتضح عدم إمكان تنفيذها تعتبر إذا لم تطبق وتحقق أغراضها تعدياً على النظام فى الجيش فلتحرص القيادة العامة من إصدار مثل هذه الأوامر .

فاتباعاً لهذا المبدأ يجب الحصول فى المواقع الحربية على نتائج فاصلة ولتحقيق ذلك يجب الاستعداد واتمام الالهبة بوسائل كافية وعدم التراجع أمام الأخطار أو المشاق كما يلزم عدم التردد أمام ما ستكلفه هذه النتائج من الخسائر فى الرجال والذخائر — هذا مع التوجه إلى الحقائق دائماً فلا يتوهم القائد القدرة على انجاز أعمال تفوق الطاقة التى لديه ، أى يجب الموازنة بين الإرادة والمقدرة .

٤ — المفاجأة : هى المباغتة فى العرف العادى ويكاد يتصور القارىء لأول وهلة انتظار جماعة من الناس لفريق فى كمين ثم مباغتتهم ، ويقول البعض فى كتبهم هى التفوق على العدو فى الحيلة والخدعة . وإنما المطلوب هنا هو الاستعداد للمفاجآت مدة السلم وقبل دخول فى المعارك الحربية وفى مدة القتال ويكون ذلك باتباع ما يأتى :

١ — يراعى فى تنظيم الجيش العامل فصل وحدات وأصناف تُدرَّب تحت نظام وأساليب سرية خاصة لا يتمكن العدو أو الدول الأخرى من اكتشاف سرّها ، وتلجأ الدول إلى تطبيق ذلك بإيجاد فرق وأسلحة ممتازة تمرّنها سرّياً فى المستعمرات البعيدة عن أنظار الناس . ومن قبيل المفاجأة أيضاً إدخال أنظمة « وتسكتيك » الجيش العامل على وحدات من الرديف وتدريبها سرّاً على ذلك .

٢ — يراعى مدة السلم درس مختلف الأسلحة وإدخال التحسين عليها بطريقة سرية لا يعلن عنها كما حدث مدة الحرب العظمى فى الميدان الغربى من إخراج أسلحة جديدة استعملت فى الخنادق وفوجى* الحلفاء من ناحية الألمان باستعمال الغازات الخائفة . ومن المفاجآت أيضاً صنع كميات هائلة من الذخائر الحربية استعداداً للحرب . ومن قبيل ما يخدم المفاجأة فى الحروب ما تبذله الدول من إدخال التحسين العلمى والفنى على الأسلحة والفرقعات المختلفة ولا يكتفى بتشجيع المخترعين فحسب بل ان المصلحة تقضى بتقديم برنامج واسع النطاق ومكون من عدة خطط لعلماء البلاد والمختصين منهم فيكلف كل واحد منهم بدراسة نقطة معلومة ليصل إلى نتائج تتفق مع أغراض الهيئات العسكرية واتجاهاتها هذا مع تشجيع الصناعة الوطنية ومدّها بالأموال لصنع آلات الحرب الحديثة وتصديرها إلى الخارج إذا زادت عن حاجة الجيش وذلك لى تكون معامل البلاد على أهبة تأمة واستعداد لتقديم ما يطلب منها فى حالة الاشتباك فى حرب من الحروب .

٣ — المفاجأة بواسطة الحركات والهجوم — أصبحت فى الحرب الحديثة صعبة خصوصاً بين جيشين متقابلين نظاميين نظراً لوجود سلاح للطيران الذى يقدم المعلومات عن كل ما يجرى من الاستعداد فى المؤخرة ويمكن العدو من معرفة كل ما تم وراء الخطوط الأمامية من تجمع وحشد واستعداد . هذا ولا ننس مع ذلك الإشارة إلى التسهيلات الكبيرة التى تقدمها وسائل النقل الحديثة

خصوصاً السلك الحديدية والسيارات مما يجعل من السهل حشد قوة كبيرة لا يستهان بها كما توجد عدة وسائل لإخفاء أغراض القيادة . ولكن المفاجآت أصبحت في الوقت الحاضر معلقة بالخطط والقرارات التي سبق تدبيرها وإقرارها عند وضع وتصميم الخطة الأساسية الأولى وإذا حدثت المفاجأة في ناحية من نواحي جبهة منتظمة فإن ذلك يكون لكسب الوقت ليس إلا

٥ — المجازفة : هل يجازف القائد أحياناً للحصول على غرض أبعد من الغرض الذي وضعه في خطته وجعله نصب عينيه ؟ تنص التعليمات العسكرية دائماً على الاحتراس من ذلك والابتعاد عن المجازفة لما فيها من أخطار ولكنها تصبح في بعض الأحيان ووسط المعركة ضرورة من الضرورات فيصير الاحتراس قاصراً على اختيار الوقت المناسب لوضع المجازفة في حيز التنفيذ واتخاذ الوسائل اللازمة لها ودراسة كل ما يحتمل حدوثه أو ينتظر من رد فعل لها في نية العدو وعمله . والإقدام على المجازفة يستدعي وجود خطة لها يجب أن تكون مرنة وقابلة للتوسع ما أمكن .

٦ — تفوق الكثرة العددية : تعتبر الكثرة العددية أهم ضمان لإحراز النصر وهي خير ما يعتمد عليه لأحكام الوقاية في حالة التعبئة والسير والتلاقى ، يطمئن القائد بها على جيشة من مفاجآت العدو ومباغثاته ويصلح بها الأخطاء التي ترتكب من ناحية عدم توافق وصحة المعلومات التي تصله من قوات الوحدات والفرق الأمامية عن حقيقة ما لدى العدو من قوات متجمعة واستعداد .

ولا يستطيع القائد مهما علت كفاءته في فن الحرب والقيادة أن يستفيد من كثرة عددية مكونة من جنود غير مدر بين تدريجاً كافياً على خاصيات الحروب فإن للكفاءة حداً لا تتعداه .

كما أنه يعد مستحيلاً في الوقت الحاضر أن ينتصر قائد — في معركة قد نشبت فعلاً تحت نظام الحرب الحديثة — أمام قوات للعدو تعادل في مجموعها مثلي القوات التي تحت قيادته حتى ولو كانت الأخيرة من أحسن الجنود تدريباً . ففي

مثل هذا الموقف تسترجع لا محالة الكثرة العددية قيمتها وأهميتها كعامل فعال في اكتساب المعركة .

ولهذا وضع مبدأ الكثرة العددية كأساس لتنظيم الجيوش لدى الأمم الكبيرة لأن عليها يتوقف إحراز النصر في النهاية ، ونخلص من ذلك بنتيجة هامة هي :

ان القانون الأساسي والدستوري والتشريع الخاص بالتجنيد والخدمة العسكرية العامة يجب أن يراعى في وضعها أن تضمن الحصول على أكبر عدد ممكن من الجنود المدربين عند الدعوة إلى التعبئة العامة . ومن هنا اتجهت الأفكار إلى تقسيم البلاد إلى مناطق عسكرية تحوى كل منها عدة مراكز للتجمع والحشد ، هذا مع مراعاة جعل التشريع الإدارى متفقاً مع الغاية العظمى للبلاد أى جعله مرناً يسهل الانصال بين السلطات العسكرية والهيئات الإدارية التابعة لوزارة الداخلية ، بل يمكن القيادة من مباشرة سيطرتها الفعلية على الإدارة الداخلية بشكل يضمن لها إعطاء نهاية ما يمكن من التعاضد والسرعة في تنفيذ أوامر التعبئة . ولا ننس دائماً أن جيشاً مدرّباً تدريباً عسكرياً وفنياً كافياً يصاحبه الاعتماد على أفراد وحداته — لحد ما — في مهمة تدريب الجماعات التي تدعى للخدمة العسكرية عند التعبئة العامة إذا لوحظ مدة السلم ترقية معلومات الصف ضباط بالاكثار منهم إكثاراً يتفق مع تلك الغاية .

٧ — تعبئة القوات : التعبئة العامة هي دعوة الأفراد القادرين على حمل

السلاح للانضمام إلى وحداتهم ، وهي قل أن تنفذ إلا في الحالات الخطرة التي يعرض فيها كيان الدولة للخطر ، لأن الدعوة تبدأ عادة بعدة أصناف أى مواليد عدة سنوات وبما أن الحرب الحديثة جعلت واجب القتال عبئاً على المجموع بأكمله فإن المستقبل سيحتّم أجراء هذه التعبئة العامة كلما ظهر في الجو خطر

الحرب ، فهي تمثل النهاية العظمى لما في وسع أمة من الأمم أن تقدمه من الرجال

لكى تبرز النصر فى ميدان القتال . ولما كان العصر الحالى عصر القوة المادية الممثلة فى قوة التسليح والتدريب أصبحت عظمة الأمم تقاس بما يمكن أن تقدمه من الملايين القادرة على حمل السلاح ولهذا اتجهت إرادة الأمم القوية إلى الإكثار من النسل والمواليد وتشجيع الزواج لى تضمن مستقبلها وتأمين على كيانها وهذا لا يتحقق فى الوقت الحالى بغير الملايين العديدة التى يمكن دعوتها للانضمام للجيش عند الحاجة .

واتباعاً لمبدأ الاستفادة من الكثرة العددية تتطلب التعبئة تجميع وحشد أكبر عدد من الجنود فى أقرب وقت ممكن .

فالقيادة العامة عند إعلان الحرب تحمل بمقتضى هذا المبدأ مسؤولية كبيرة على أكتافها إذ لا يكفى أن يكون لدينا ملايين لحمل السلاح بل الأهم هو تجهيز هذه الملايين وتجميعها وسوقها وهو ما يقصد بالتعبئة والوصول إلى ذلك تضطر القيادة إلى تعديل خططها أحياناً وإلى توضيح عدة مسائل هامة .

فلا يكفى أن توضع قواعد التعبئة وقوانينها وأن تسير على طريقة « ديناميكية » بل يجب أن تستكمل شروطها الأساسية لى تؤدي الغاية المتوخاة منها .

ولبيان ذلك نضع المبدأ الآتى :

إن أية وحدة من وحدات الجيش ولتكن فرقة — أى إثني عشر ألف مقاتل — تعد فى حالة تعبئة للحرب حينما تستكمل حشد جميع رجالها وضباطها ثم تنضم لواآتها وأقسامها وأسلحتها — مشاة وخيالة ومدفعية ومهندسين وأشغال عسكرية وقوات الطيران ثم مدفعتها المضادة وأقسام المواصلات من تليفون وبرق ولاسلكى — بشكل يمكنها من الاشتراك فى موقعة حربية عامة ، فى الزمن وفى الجهات والمسافات المختارة لها ، بناء على البرنامج الذى وضعته القيادة العامة للحرب .

من هنا تعرض الصعوبات الكثيرة والمتشابكة في الحروب الحديثة ولكن العلم الحديث يسهل كل ما يبدو صعباً وبعيد المرام ولا نزاع في أن وجود نخبة من الضباط المختصين في فن التعبئة المتشبعين بروح التنظيم يجعل تعبئة عدة ملايين من أسهل الأمور كما حدث في الحربين العالمية الأولى والثانية . ويمكن الإشارة هنا إلى أن تعبئة القوات الفرنسية في حروب السبعين كانت مثالا للفوضى والاضطراب وهذا ماتحاشته القيادة الفرنسية في سنة ١٩١٤ فكانها استفادت من تجارب ودروس الماضي فائدة لا مثيل لها .

وتأخذ التعبئة مدة طويلة من الزمن قد تكون عدة أيام وفي هذا ضياع للوقت قد يؤثر في سير الأعمال الحربية الأولى ويكون لها رد فعل على النتائج المقبلة أو على سير الأعمال الجديدة ولذلك يلجأ القائد العام إلى سحب القوات الأمامية والجلاء عن جزء من أراضى دولته أو أراضى حلفائه رغم ما يقابله من المصاعب وما يعرض له من الأخطار والمجازفة أحياناً .

ومن ذلك نشأ اعتبار التعبئة المكونة من جيوش كبيرة وضبطها من جهة

الزمن والمسافة فناً من الفنون العسكرية الصعبة التي لها الخطط وتدرس بانتظام وتدقيق في رئاسات الأركان حرب العامة كما تدرس المسائل العالمية العويصة في معامل الهيئات العلمية .

فن القليل ما يعرض من المسائل لدى التعبئة ما يأتى :

إذا وزعت قوات على جبهة متسعة الامتداد تعرضت هذه القوات للهزيمة على دفعات متتالية وكذلك تعرضت لنفس الخطر كل قوة تأتي من الخلف لمساعدتها .

كل قوات مجمعة بدون تقسيم المناطق ولا توزيع لمراكزها تحتل حركتها بعكس القوات الموزعة فنياً على جبهة متسعة فإنه يسهل تحريكها بسهولة وتمكن قائدوها من إخفاء أغراضه عن العدو .

كل قوة معبأة في ميدان قتال لا يمكنها أن تنفك قبل أن تحارب لأن نظام الحروب الحالية لا يمكنها من أن تسترد جريتها التامة في التنقل من جهة لأخرى قبل مضي زمن يختلف باختلاف كثرتها العددية .

من ذلك نرى بعض ما يعرض من المسائل والنظريات الصعبة عند وضع خطة للتعبئة العامة على جهة قد تمتد مئات الكيلومترات مما يستدعى زيارتها مراراً لمعرفة طبيعتها ودراسة مواقعها دراسة تفصيلية وافية . ولذلك لا نبالغ إذا قلنا أن معلومات الضباط تقاس أيضاً بمقدار ما لديهم من المعلومات الجغرافية والطبوغرافية المستفيضة عن بلادهم من كل جهة من نواحيها .

٨ — الاحتماء والوقاية : غرض الاحتماء والوقاية هو ضمان حرية العمل في الحرب حسب الخطة الموضوعة فإذا أتمت التعبئة برامحها اتخذت القيادة الاحتياطات اللازمة لكي تتمكن من تحريك القوات التي لديها بدون أن تتعرض للمفاجآت التي يسببها العدو الذي يتبع أيضاً خطة له . ويساعد القيادة على ذلك قسم الخبائر العسكرية الذي من واجبه الأول استقاء المعلومات والأخبار عن العدو ثم منع العدو من الحصول على هذه المعلومات عن الجيش .

ويعد شرط الاحتماء والوقاية متوفراً لحد ما لجيش من الجيوش الكبيرة إذا أتمت الوحدات الكبيرة تعبئتها التامة فينحصر واجب القيادة في تحقيق الاحتماءات الموضعية إذ توضع كل فرقة أو وحدة في المكان الذي يضمن تعاونها مع الوحدات والفرق الأخرى ويعد هذا أول عمل نحو بدء الحركات الحربية التي ترمى إلى إنجاز الغرض الأساسي الموضوع في الخطة العامة .

فإذا أتمت هذه الوحدات تجمعها وتشكيلها في الأماكن المخصصة لها لا يكون لدى القائد طريقة يضمن بها حريته في العمل أوفق من البدء بدون إضاعة وقت بتنفيذ المبادرات الأولى لخطة الحربية لأن هجوماً سريعاً يدفع بنشاط وجراة يؤثر تأثيراً شديداً في العدو ويضطره أن يدافع عن نفسه ويقضى على مشاريعه التي ينوي .

القيام بها ويجعله يتبع إرادة المهاجم ولا شك في أن النتائج تكون عظيمة إذا كان المهاجم بطريقة المباغتة غير المنتظرة . ولكن عملاً مثل هذا يستدعى أولاً تنظيم الحركة المراد القيام بها بتجميع قوات كافية من الاحتياطى .

ويلاحظ القائد أن الاكتفاء بما تتخذه الوحدات التى تحت قيادته من وسائل الحماية ثم الاكتفاء بترك ما يخص القيادة منها على عاتق قسم الخبايا لأركان حرب به فيه خطورة كبيرة خصوصاً فى حالة الاشتباك مع خصم عنيد رابط الجأش معتاد على خفة الحركة وعلى خوض العمليات الحربية تحت خاصيات الحروب الحديثة . ومن هنا نشأت فكرة اعتبار تنظيم الوسائل العامة التى تضمن تأمين وحماية الجيش المكون من وحدات كبرى كبداً حربى أعلى . يساعد طبعاً على تطبيقه ما تتخذه الوحدات الصغرى — فرقة أو لواء أو كتيبة — من احتياطات تأمينية فى حال تشكيلها وتعبئتها واحتلالها لمراكزها وهى احتياطات «تكتيكية» معروفة لكل وحدة من هذه .

ولكن تبقى لرئاسة الجيش العامة مهمة تنظيم وسائل الاحتماء والوقاية على أساس أكبر مبنى على علم « الاستراتيجية » وعلى الاستفادة من تعاون الأقسام المختلفة كما قدمنا .

ولا نرى بأساً من الإشارة هنا إلى أن تطبيق هذا المبدأ فى قيادة وسوق ثم تحريك الوحدات الكبرى لا يزال موضع بحث رجال الفن العسكريين بانتظام واستمرار عند وضعهم للخطط الحربية العامة مما أدى إلى تفرع وجهة نظرهم .

فالذهب العسكري الألمانى الذى وضع أسسه المارشال « مولتكا » ومن شرحه بعده من النقاد الحربيين الألمان خصوصاً الكولونيل جنرال الكونت « شليفين » رئيس الأركان حرب العامة لبروسيا سابقاً يختلف عن المذهب العسكري الفرنسى الذى أخرجه نابليون فى حروبه ثم اتبعه المارشال « فوش » .

لأن كلا من المذهبين يفهم تنظيم تأمين وحماية الجيش المكون من وحدات كبرى على أساس خاص به .

٩ — التصرف في القوى : لا نميل إلى استعمال كلمة إدخار القوى ولا اصطلاح الاقتصاد في القوى لأن القصد ليس التوفير في استعمالها وإنما القصد هنا هو حسن التصرف في توجيه القوى المكون منها الجيش واستعمالها بالحكمة التي تستلزم كسب المعركة .

والغرض من التصرف في القوى هو توزيع القوى حسب الغرض الذي تسعى القيادة لتحقيقه فهي تدرس بدقة الهدف الأساسي المراد تحقيقه وهو واحد لا يتعدد وبطبيعة الحال هناك أغراض ثانوية يجب أن يعمل حساب ما تستلزمه من القوى . فالقصد من حسن التصرف هنا هو أن يعرف بدقة ما يلزم من القوى للغرض الأساسي ولكل غرض ثانوى مع حساب ما قد ينتج من الارتداد والتراجع أمام الأغراض الثانوية وما يكلف ذلك من استهلاك قوى الإنسان والذخائر .

وهذا هو الفن في قولهم التصرف في القوى ...

المانيا تسلم ريشة الى الكيلاني

صفحات تاريخية عن الحرب الثانية

١٩٣٩ - ١٩٤٥

حينما أعلن تسليم فرنسا ، بقيت الحالة هادئة إلى الأيام الأولى بأراضي سوريا ولبنان فلم نشعر بعد يومين إلا وقد انقطعت المواصلات مع الخارج وبقينا لمدة ثلاثة أيام في عزلة كاملة عن العالم ، وكانت السلطات الفرنسية في حيرة تامة ، لأن أسلاك المخابرات التليفونية والبرقية قطعت ودُمرت في عدة جهات ، وكان عذر هذه السلطات ما يأتي : « إن هذا التخريب من عمل المجندين البولونيين والتشيك ، الذين كانوا يقضون مدة تدريبهم بالبلاد ، فلما سمعوا بشروط الهدنة رفضوا التسليم واتجهوا بأسلحتهم إلى فلسطين للانضمام إلى القوات البريطانية العسكرية هناك وليس بينهم فرنسي واحد » .

هكذا بدأت حكومة فيشي عهدا بسوريا ولبنان ، ببلاغ كاذب مع العلم بأن عدداً من الفرنسيين التحق بهذه الحركة وعصدها واستمر يواليتها كما ظهر بعد ذلك .

وأعقب هذا صدور تصريح بريطاني يقول « إن الحكومة البريطانية لن تسمح لأية قوات ألمانية أو إيطالية باحتلال أراضي سوريا ، كما أنها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أى حادث اضطراب أو ثورة في الأراضي السورية واللبنانية » . وقد قابلني المستر هافارد القنصل العام البريطاني في بيروت ، في اليوم التالي لصدور هذا التصريح ، وسلمني نسخة منه ، وقال : « إن الحالة ستبقى كما هي بغير تغيير وإن القوات البريطانية لن تحتل هذه البلاد » لم يحدث شئ مما أشير إليه

في هذا التصريح» وأضاف قوله : « إن الرعايا البريطانيين باقون كما هم ولن يغادروا سوريا أو لبنان ، ولا صحة للاشاعات التي دارت حول ذلك وما قيل من التنبيه عليهم بمغادرة البلاد » .

أما الموقف الرسمي في دوائر المفوضية العليا الفرنسية فقد عبّر عنه المايور كونتي مدير الدائرة السياسية بقوله « إن التصريح البريطاني لم يأت بشيء جديد يغير الحالة الراهنة لأنه لا يوجد في شروط الهدنة المعمول بها أي نص يعطى الألمان أو الطليان الحق في احتلال أية منطقة من الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي ، علاوة على ذلك فإن القوات الفرنسية الموجودة بها كافية لحفظ الأمن والنظام ، ولا توجد أية فكرة للقيام بشورة أو عصيان بين السكان » .

ولما سأله : « هل تنص شروط الهدنة على بقاء القوات العسكرية الموجودة في الشرق في حالة تعبئة كما هي عليه الآن » .

أجاب : « إن قوات الحملة الفرنسية التي يتولى قيادتها الجنرال متلهوزر^(١) سوف يتم تسريحها تدريجاً وستأتي بواخر فرنسية لإعادة وحداتها إلى فرنسا ، ولن يبق في سوريا ولبنان سوى القوات العسكرية ، المعتاد وجودها وقت السلم وهي المكونة من جيش الشرق ، وهذه لا يمكن بالضبط تحديد عدد وحداتها ، ونظراً لتسريح الجيش الأول ، فسيغادر الجنرال الأراضي السورية في أول فرصة إلى فرنسا » ، ولما استعلمت « هل ستأتي لجنة من الضباط الألمان والطليان للاشراف على عملية التسريح واستلام الأسلحة والمعدات » ؟ قال « إن شروط الهدنة لا تنص على شيء من ذلك وهذه أمور متروكة لتصرف الحكومة الفرنسية ولما كانت مدة الهدنة بمثابة حالة مؤقتة فإن هذه البلاد لن تنزع إدارتها من يد فرنسا ولن يطرأ عليها تغيير سياسي قبل عقد مؤتمر الصلح » .

هذه صورة تبين الحالة التي كانت عليها البلاد في شهر يولية ١٩٤٠ ، حينما تسلمت حكومة فيشي مسؤولياتها ولقد بدأت عهداً باستدعاء الجنرال متلهوزر ،

ذلك الجندي الألزاسي الذي كان يبدو بروسيا في مشيته وحركاته إذ كان يشبه لودندورف القائد الألماني لحد كبير، وعينت مكانه الجنرال فوجير، وهو من رجال حكومة فيشي إذ يتمتع بثقة المارشال بيتان ويعمل على تنفيذ خططها ويضرب بيد من حديد على العسكريين الذين تحدثهم أنفسهم بمالأة حركة فرنسا الحرة أو إبداء العطف عليها، وكان الذي يتولى رئاسة مكتبه الكابيتين دى لاتور وهو من موظفي شركة القنال بمصر وتربطني به روابط صداقة منذ أيام الجنرال فيجان ولذلك جمعني بالجنرال فوجير فوجدت نفسي أمام جندي في العقد السادس يحلى صدره بوسام اللجيون دونور، وهو يبدو أصغر من سنه وقد لوحته شمس إفريقيا وإقامته الطويلة بالمستعمرات، فظهر أسمر اللون، عصبي الحركات، وكان رأيه في الحرب واضحاً ويتلخص في أنه لا يؤمن بانتصار بريطانيا عسكرياً لأن التدريب العسكري الألماني والتسكتيك الحديث للوحدات الميكانيكية المصفحة قد جعللا شقة التباين متسعة بين الفريقين وليس من السهل تداركها ولا يوجد متسع من الوقت لذلك .

وكان فوجير عسكرياً بمعنى الكلمة شديد الوطأة على رجاله، وقد وفق في تنفيذ سياسة فيشي، ويرجع نجاحه إلى أن الوحدات التي دعى لقيادتها مكونة من جنود مختلفة الجنس واللون لا تربطها غير رابطة التدريب العسكري الفرنسي هذا التدرّب الذي اختارته حكومة الجمهورية الثالثة لجنود مستعمراتها، فكان يسهل عليه أن يقيم بشدة أي بادرة عصيان تبدو في أحد الفياق، وكان موضع اهتمامه وقلقه كادر الضباط، وضباط الصف وهم فرنسيون لا يخضعون بسهولة، وقد تمكن فريق منهم وهم المتحمسون من مغادرة وحداتهم خلسة إلى فلسطين والانضمام لحركة فرنسا الحرة، وبقي بالجيش من يوثق بهم، وهؤلاء تلقوا الترقية الموعودة قبل أوانها جزاء إخلاصهم للعهد الجديد، وبعد خروج من مسهم قانون التقاعد الذي بدأت فيشي في تنفيذه .

ولقد أقامت السلطات الفرنسية عرضاً عسكرياً لمختلف الوحدات مع بعض مفرزات^(١) من جيش الشرق ، وذلك بمناسبة تعليق الجنرال فوجير الأوسمة المنعم بها على بعض من تركوا خدمة الجيش وعددهم ٢٧ ضابطاً فرنسياً ، وقد لاحظنا أن جنود الوحدات كانت ترتدى الملابس والأحذية الجديدة ، وكان منظر جنود المستعمرات من السنغال بأحذيتهم الحمراء وهي تقيه مجبا من المناظر التي لا تنسى فكان أول عرض تقيمه فرنسا بعد نكبتها لتقضى على الإشاعات السائدة ، بأن الجيش الفرنسي قد نزعت أسلحته .

ولسكن المطلعين على الأمور عرفوا الغرض الأساسي من كل هذه المحاولات فقد وصلت بالفعل بعثة عسكرية محورية ، وأخذت تقوم بأعمالها في المعسكرات والمطارات وتجرد ما تحويه مستودعات الذخيرة ، وكان مجيئها وعملها محاطين بالكتمان الشديد ، ولولا بعض الحوادث التي أثارها الضباط الطليان ، لما تنبه أحد لذلك .

ففي إحدى الليالي بفندق مشهور من فنادق بيروت ، لحقت مجموعة من الضباط الطليان بملابس ملكية وفي أثناء جلوسى دخل ضابط طويل القامة ما لحنى حتى بادر بتحيتى ، ومصافحتى والجلوس معى ، وأخذ يحادثنى عن تركيا ، وقد ذكرت هذا الضابط فإذا هو مدير مطار شركة الأليتوريا فى بيوك درة على البوسفور وكان كثير التردد على السفارة المصرية وله حوادث غرامية كثيرة — ولقد دهشت فى اليوم التالى حينما لقينى فتجاهلنى تماما^(٢) .

أما الحادث الذى نبه الناس فهو ما بدر من هؤلاء عند زيارتهم لمطار الرياق الحربى فإن تبجح بعض الضباط الطليان أثار هاتجة الضباط الفرنسيين . فتبادلوا عبارات غير لائقة منها قول ضابط فرنسى مشغول : « لقد كنت أظن نفسى أنى أمام ضباط ألمان لا طليان » فعد ذلك إهانة ، وأوقفت السلطات هذا الضابط ،

(١) المفرزة فى الاصطلاح العسكرى Detachment .

(٢) هو كولونيل طيران وقع فى أسر الروس بعد ذلك .

وانسحب الضباط الطليان من المطار وقيل إن الفرنسيين في حالة تمرد ظاهر ،
فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إصدار بلاغ رسمي يتلخص في :

- ١ — إن أحكام الهدنة لا تحوى أية مادة سرية تتعلق بسوريا .
- ٢ — إن جميع التدابير قد اتخذت للمحافظة على الأمن الداخلى .
- ٣ — إن الجيش الفرنسى يرد كل عدوان خارجى .
- ٤ — إنه لا يمكن التسليم بقبول أى تأثير أو نفوذ أجنبى فى أراضى الانتداب .

٥ — إن المفوض الفرنسى يؤيد سياسة حكومة فرنسا الشرعية التى يرأسها
المارشال بيتان .

لقد عرف عهد فيشى بسوريا بأنه عهد المتناقضات فكان على حكومة الانتداب
أن تقنع الناس بأنها على الحياد ، وأن تحتفظ بسلطتها وبالحالة القائمة ، وأن توفى
بين مطالب لجنة الهدنة والظهور بمظهر الاستقلال ، ثم كانت عليها مهمة تطهير
الجيش الفرنسى والإدارة من العناصر التى تميل إلى فرنسا الحرة والديمقراطية .
وكان عليها تسريح الجيش وترحيل أفراد ، ثم أن تسرع فى الإفراج عن
رعايا المحور وتعيد إليهم أموالهم ، وأن تفرج عن عدد كبير من الطابور الخامس
الذى اشتغل جهاراً مع الألمان والطليان وأن تعيد إليه إعتباره ، ثم كان عليها
أن تنشط للرقابة على الصحف فتمنع دعاية بريطانيا وتتساهل مع دعاية المحور ،
إلا إذا كانت ضد الأمن العام أو تدعو إلى الهياج .

ولقد شعر الناس جميعاً أن الحياد المزعوم غير موجود ، فإن الطائرات
الاطالية كانت تضرب مدينة حيفا فتضطر للنزول أحيانا عند إصابتها بعطش فى مطار
بيروت فاتخذت السلطات معها فى مبدأ الأمر الاجراءات التى ينص عليها القانون
الدولى فى باب الحياد ويفرضها على الدولة الحايده ، ولكن لجنة الهدنة اعترضت
على ذلك وأفهمت حكومة فيشى أن شروط الهدنة لا تجعل من فرنسا

ومستعمراتها بلداً محايداً فأفرجت السلطات عن الطائرين والطائرات ، وكانت بعض الجرائد شديدة الحملة على بريطانيا وحلفائها ولما تعرضت لها الرقابة بالحذف والتعطيل لجأ أصحابها إلى لجنة الهدنة الحورية فأوقف المحوريون الرقابة والحكومة عند حدها ، وهنا انطلقت الجرائد بشدة مهاجم بريطانيا وحلفاءها ولم تعد تقيم وزناً للمفوضية الفرنسية ولا لرجالها .

في وسط هذه الأزمات جاء الجنرال دنتز وهو الزاسي ، واستقبل في بيروت استقبال الملوك وحيته الجرائد الموالية لفرنسا بقولها : « اليوم يملك طراد فرنسي إلى بيروت لتتسلم أزمة الأمور بين يدك والتسوس شعباً حفظ ودكم قبل محنتكم وفي أثنائها وشارككم في مصابكم القومي » .

ولما وصل الجنرال أذاع تصريحاً جاء فيه : « ثقوا أن فرنسا مصممة على متابعة مهمتها السامية وحدها دون إشراك أحد معها في هذه الديار والعمل لكل ما يؤمن رفاهية سوريا ولبنان » .

كلنا نعلم الآن السياسة التي حملها الجنرال والتجارب التي قام بها وليس هنا محل بحثها وشرحها وسنقوم بأداء هذا في وقته ، ولكنه جاء والناس تتساءل كيف يحفظ سلطنة فرنسا والأعاصير تهب في العراق ومصر وغيرها .

وقد صادف وصوله قيام الهجوم المحوري على سيدى برانى في الحملة الأولى على مصر ، ولكن هذا الهجوم ردّ بهزيمة ساحقة لموسوليني ، فاتجهت الأنظار إلى العراق وانغاية كتابة هذا لم تعرف كيف بدأت حركة رشيد على وما هي بواعثها . وما تم وراء الستار لدفعها .

وقد أختير لها وقت مملوء بالمشاكل فقامت دفعة واحدة وكان أثرها عميقاً في الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي سيما في وقت يسيطر فيه الجنرال دنتز وتقوم بجواره كما قلنا بعنه من الألمان والطلليان .

ولقد كان وقعها شديداً على نفسى نظراً لما أحفظه من المحبة والود لإخواننا العراقيين ولما أخذت نفسى عليه من إيماني بالمثل الديمقراطية وحرية الفرد ، ولاشك في أن منزلة العراق لدى كنزلة مصر بلادى ولو وقفت مصر هذه الوقفة لما ترددت لحظة واحدة في موقفى الذى وقفته ساعتئذ .

وها قد انتهت تلك الأيام بتجاربها المرة ودروسها القاسية ، ولقد سمعت الكثير من القول واشتبكت في نقاش مع الفاس ولا أزال أحفظ بمجموعة كاملة من النشرات التى كانت توزع ولكن الذى لا أنساه هو ما لاحظته من أن أشد الناس تحمساً لبعض الدعايات الأجنبية قد انقلب بعد فترة إلى أكثر الناس دعاية لفكرة أخرى تناقضها .

كل هذا جعلنى أنفر من الحساس المفتعل الذى يصيب بعض الأوساط الشرقية وأرى أن أعظم الناس تحمسا لمبدأ وفكرة هم أسرعهم هرباً منها عندما تتغير الأوضاع . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

كيف حفظ الجنرال دنتر سلطته وحافظ على أراضى سوريا ولبنان طول هذه الأيام العصبية مع فريق من الموظفين والضباط لا يفكرون بتفكيره ؟ وكيف عالج المشاكل التى عرضت عليه ؟ أمور سأعود إليها يوماً من الأيام . وأخيراً كيف وافق على تسليم الأسلحة وشحن القطارات وإرسالها إلى العراق ؟ مع مخالفة ذلك للسياسة التى اتفق مع حكومته عليها .

وليس هنا موضع الإجابة على هذه الأسئلة التى تحتاج لذكر الحوادث التى مرت وشرحها وربطها ، ولكن السؤال الأخير يستدعى أن نلم ببعض الأمور التى كثر التحدث عنها قبل قيام حركة رشيد على .

فقد علمت من مصادرة موثوق بها أن تسريح جيش الشرق الفرنسى سيترك كميات كبيرة من أسلحة المشاة والمدافع السريعة الطلقات ومدافع الميدان

من عيار ٧٥ و بعض الطائرات فلماذا لا تباع هذه الأسلحة والذخائر لبعض الدول الشرقية المستقلة ؟ لم يكن هذا الرأي موافقاً لسياسة برلين لأن لجنة ويسبادن صمّمت على حصر وختم مستودعات الذخيرة ووصلت في تحرياتها إلى أبعد النواحي التي كان يحتلها الفرنسيون حتى في أنحاء الصحراء . ولم تكن ألمانيا تنق بالعرب بالقدر الذي توهم بعضهم أنها وصلت إليه . كما لم تؤمن بقدرتهم ولا طاقاتهم العسكرية وكان مرور الأسلحة والذخائر إلى العراق يتطلب الحصول على موافقة تركيا أولاً لمرور الخط في أراضيها ، وقد أرسلت البرقيات إلى حكومة أنقرة وهي تملخص في أن قطارات محملة بالأسلحة والمدافع ستتمر بالأراضي التركية وتخترق الحدود في شمال حلب ثم تعود فتدخل الأراضي السورية عند نصيبين لتقوية الحاميات الفرنسية في القامشلي والحسجة ، ولم يكن في هذا الطلب ما يدعو لاثارة الشكوك التركية سيما وقد طلب هذا مراراً قبل ذلك . فجاءت الموافقة من الحكومة التركية سريعة .

وحل قطار بأسلحة المشاة وذخيرتها مع بطارية كاملة من مدافع ٧٥ وذخيرتها وتحرك القطار عن طريق حلب ، وصر على الأراضي التركية ودخل ثانية الأراضي السورية ولكن بدون أن يقف ، ولما وصل إلى قرب الحدود العراقية أوقفه الضباط الفرنسيون في محطة تل كوتشوك ، وراجعوا القيادة في بيروت فسمحت بمروره إلى العراق ، وقد كان رد هؤلاء الضباط سريعاً إذ فقد ملف هذه الذخائر بأكمله مع بيانات عنها وما دار بشأنها من مخابرات من أرشيف رئاسة أركان حرب الجيش الفرنسي في بيروت وسلم إلى السلطات البريطانية ، ولذلك لم تتمكن السلطات الفرنسية إلا أن تتراجع منهزمة ولم تعد تفكر في إرسال قطارات أخرى . وكان رأيها في ذلك غريباً ويملخص في أن هذا العتاد والسلاح قد ختم بواسطة لجنة الهدنة فجرد وضع الختم عليه يخرج من ملك الحكومة الفرنسية ويجعله تحت تصرف اللجنة المحورية التي تملك حق إرساله إلى الجهة التي تشاؤها .

لم يكن أحد من الناس يتوهم في صحة هذا بل كانت الآراء متفقة على أن حكومة فيشى تلعب لعبة خطيرة ، وكان الرد من ناحية الحلفاء حازماً إذ بعد أيام معدودة أخذت طائرات الحلفاء تحلق في سماء سوريا ولبنان وتذف مطارات الرياق وتدمر المزة بقنابلها .

كذلك انتهت حركة رشيد على وكانت نهايتها سريعة بقدر ما كان ابتداؤها ودفعتها سريعة وهكذا تعود الشرق أن تقوم حركاته لتهمد بسرعة .

ولقد صدق الغازي أتاتورك في قوله : « إن أهم عناصر نجاحه هو أنه عرف المدى الذي يمكن الوصول إليه ، والحد الذي يجب أن يقف عنده فلا يتعداه » .

مع صحائف الحرب العالمية الثانية...

الجنرال كولييه الفرنسي

ينضم مع الجراكسة إلى الحلفاء

كان شهر مايو من الشهور المملوءة حوادث ومفاجئات ، وعانيت بحكم الضرورة شيئاً منها ، فقد استمرت حركة رشيد على العراق ، وأصاب سوريا ولبنان الكثير من أثرها ، فكثرت الاجتماعات والحفلات التي القيت فيها الخطب الرنانة التي تدعو إلى التطوع ، وتألقت الجمعيات واللجان لجمع المتطوعين للال ، وكانت الصحافة تزيد النار اشتعالاً بمقالاتها ، حتى وصل الحماس أشده وقامت المظاهرات واتجه فريق لمهاجمة الصحف المعتدلة أو الواقفة على الحياد ، وكانت الجرائد تكتب بالخط العريض أشياء بعيدة عن التصديق ، وانتشرت الإشاعات بأن الحور على وشك أن يطلب رسمياً المرور من سوريا ، وأن غزو مصر قد قرب وأن البحر المتوسط سيفتح عن قريب وغير ذلك من أنواع الدعايات . أما الأخبار التي وصلت إلينا من تركيا بعد زيارة وزير داخلية رشيد على للعاصمة التركية ، فتجمع على أن الألمان قابلو الحركة بفتور واضح فاصبح الكثيرون يحزمون بقرب انهيارها .

أما القتال في العراق فقد أصبح منحصراً في مطار الحبانية واقتصر على تبادل نيران المدفعية ، وكثر الكلام عن جبهة البصرة ثم اتضح أنها لم تتعد مناوشات بسيطة ، وكان مرور الوقت يضعف من حماس الجماهير ويزيد عدد المتشائمين فأخذوا ينتقدون جهارا ثورة العراق ويقولون أنها جاءت قبل الأوان . وكان الألمان والطيالان يتابعون احتلال جزر بحر إيجه ويمهدون لهجومهم

على مصر فعزلوا حامية طبرق وشددوا الحصار عليها واتجهت دورياتهم نحو السلم .
في هذه الأثناء جاءت أخبار موثوق بها عن قيام مفاوضات بين الأميرال
دارلان الفرنسي ومندوب هتلر في فرنسا يقصد منها عقد اتفاق بين البلدين ،
يرمى إلى اشراك فرنسا في تنظيم أوروبا الجديدة ، وكان لا بد لهذه المفاوضات من
أن تتناول مسائل الشرق والدور الذي يمكن لفرنسا أن تلعبه ، وقد ظهرت
نتيجة هذه المفاوضات في ناحيتين : الأولى عسكرية والثانية سياسية .

فمن الناحية العسكرية تأخرت عمليات التسريح ثم وصلت جماعات من
الضباط الفيشيين ليحلوا مكان من رأت القيادة أبعادهم إلى فرنسا وأخيراً أفرج
عن بعض أسراب من الطائرات الفرنسية .

أما الناحية السياسية فظهرت في القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية
بإخراج القنصل البريطاني من بلاد الشرق الخاضعة لانتدابها .
وبهذا القرار انتهت مهمة المستر هافارد القنصل البريطاني فذهبت لتوديعه
في مصيف عالية ، وهي الجهة التي اتخذت فيها القنصلية العامة مكاناً لها بعد نقلها
من بيروت .

وقد ظهر لى المستر هافارد متأثراً من هذا القرار ، وأفهم تأثره جيداً فهو
متزوج من سيدة فرنسية ، وأمضى سنوات من زهرة عمره يعمل باخلاص على
توثيق العلاقات بين الدولتين في منطقة من أخطر المناطق حساسية ، وفي أشد
الأوقات اضطراباً قال لى « أن الفرنسيين يتهموننى بأننى كنت المحرض على
ضرب المطارات والحقيقة أننى برىء من ذلك ، وكان محبى الطائرات البريطانية
رداً على نزول الطائرات الألمانية ، فلم تقصد طائراتنا سوى تحطيمها وإصابتها بالتلف
والدليل على ذلك قلة الخسائر » ثم أضاف « وقد بعثت المفوضية الفرنسية إلى
باحثاج شديد فاردت بكل قواى إلا يتسع الخلاف فلم أوفق » .

وكان القنصل العام البريطانى رجلاً طيب القلب ، ذا نفس إنسانية عالية ،

وعلى كثير من التواضع وجميل الشامل ، وقد ترك أحسن الأثر بين أصدقائه وعارفى فضله ونبله ولا يزال هؤلاء يذكرون زيارته للقنصلية العراقية في عيد ميلاد ملك العراق وذلك رغم قيام ثورة رشيد على ضد بلاده . ولقد كان صديقاً لفرنسا . ولم يكن ليصدق أن تنقلب حكومة المارشال بيتان من الصداقة والتحالف وزمالة السلاح إلى دولة عدوة لبلاده فكان ينظر لمعالجة الأمور على أنها من المسائل التى يختلف عليها محلياً ويمكن فى النهاية تسويتها .

فوجئت وسط هذه الحوادث التى كانت تتوالى علينا بسرعة ، بنياً غريب عن مصر فقد نشرت الجرائد فى ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ برقية من القاهرة مؤرخة فى ٢٤ منه هذا نصها : « لا تزال الدوائر المصرية مهتمة باختفاء على ماهر رئيس الوزارة الأسبق وعبد الرحمن عزام قائد الجيش الم رابط والوزير السابق وعزيز على المصرى ، ويقال أن هؤلاء حاولوا القيام بثورة عسكرية مسلحة بالاشتراك مع ضباط الجيش المصرى ضد الاحتلال الانجليزى ولا يعرف ما إذا كانوا قد غادروا مصر أو أن السلطات البريطانية اعتقلتهم ويجرى البحث عنهم بدقة فى الأراضى المصرية » .

ونظرة واحدة إلى هذه البرقية وإلى ما يقال عن مصدرها لتحكم من أول وهلة أنها مختلقة ، ولكن انتشارها بين الجماهير ، قد جعلنى لمدة ساعات تحت وابل من الأسئلة والمكالمات التليفونية ، إذ كان الشعب ينتظر قيام حركة على مثال حركة رشيد على ، واعتقد أنه من واجب الممثل السياسى فى مثل هذه الظروف أن يكون رده حاسماً وسريعاً ، واعتقد أنه ليس من مصلحة البلاد اضعاء الوقت فى التردد والتحفظ ، ولذلك فإنى لم أترك الفرصة تمر انتظاراً لتعليمات مصر ، ثم كيف اتصل بها والمواصلات بطيئة ؟ وكمن الوقت يضيع حتى يصل الرد إلى ؟ وعليه فقد بادرت بالاتصال تليفونياً بمكتب مطبوعات المفوضية الفرنسية وطابت إليه أن تمنع الرقابة نشر أخبار عن مصر قبل أن نتأكد من صحتها . ثم اتصلت

بكافة الجرائد المحلية التي تصدر ببيروت ودمشق وامليت عليها تكذيباً قاطعاً لهذا الخبر الذي ليس له نصيب من الصحة ، وقد نشرته جميعاً وكان مما لفت نظري أن بعضها ، نشر الخبرين معاً مما يدل على أنها رصت حروف الخبر الأول ثم صعب عليها حذفه بعدما جاءها التكذيب فجعله في عدد واحد .

انقطعت في هذه الأثناء المخبرات التليفونية مع مصر ووضعت رقابة شديدة على المكاتبات وكانت البرقيات الرسمية تأخذ أربعة أيام وأحياناً أسبوعاً للوصول إلينا ، ولذلك كنت أتوجه بالبريد إلى حيفا لتسليمه إلى القنصلية المصرية هناك . فكنيت أسافر إليها في أيام الجمعة عادة ، وكان يوم الجمعة العطلة الرسمية .

ففي يوم من العشرة الأيام الأخيرة لشهر مايو قمت كما دتني في الصباح الباكر من بيروت — وأنا لا أعرف شيئاً عما تخبئه الأقدار لهذا اليوم — قمت متجهاً إلى حيفا فلما وصلت الناقورة اللبنانية أبلغت الموظفين المختصين أنني لن أبقى في حيفا وسوف أعود في المساء للمرور من الحدود الفلسطينية ، وكان بين موظفي الجوازات الضابط « أبو علي » ، وهو بريطاني وقد أطلق عليه العرب هذا الاسم فأوصيته بإبلاغ الجهات المختصة ، إذ أن الحدود تقفل عادة في الساعة السادسة وقد أصل متأخراً ، فلا أمتع من المرور .

وقد أمضيت بعض الوقت بحيفا فوصلت إلى الناقورة في الساعة الثامنة وبعد التأشير على جوازات السفر ، وبينما السائق يستعد لدخول البوابة ، إذا بضابط بريطاني يطلب محادثتي ، ويرجوني أن أرافقه ، فنزلت وسرت معه إلى المكتب فإذا هو بهدوء وصوت خافت يقول : « لا تؤاخذني على إزعاجك ولكن الأوفى لك أن تحدث نقطة الناقورة في لبنان وأن تعلمهم بأنك قادم إليهم بعد دقائق » ، وبعد ثوان ردت الناقورة اللبنانية وكانت أجابة الموظف اللبناني : « تفضل نحن بانتظارك » ، فنصحني الضابط البريطاني أن أطلب محادثة ضابط النقطة الفرنسي ولما أعطيت له الكلمة وأبلغته بأنني قادم : « قال أن لديه أوامر بقفل الطرق ومنع

أى مرور من فلسطين لحين صدور أوامر أخرى واسكن هذا لن يسرى عليك لإرتباطنا معك عند مرورك قبل الظهر ، وأرجوك أن تكون الأنوار على أشدها وألا ينقطع السكلاكس أو صوت النفير من وقت خروجك من أرض فلسطين حتى تصل إلينا وإذا قابلتم أحداً وأشار إليكم يتحتم عليكم الوقوف ، لأن الأوامر قد أعطيت مشددة باطلاق النيران ، ومع ذلك فسألتك على مدخل المحطة ، ولما انتهت المسكاملة التفت إلى الضابط البريطاني وقال : « كنت أخشى عليك أن تذهب بغير علمهم فقد كان من المحتمل أن تقابل بنيران المدافع الرشاشة » ، قلت « وهل تظن يعملها الفرنسيون » ؟ قال « نحن أمام حالة طوارئ وقد تقوم الحرب بين ساعة وأخرى » . فشكرته على حضور ذهنه ونصيحته التي لولاها لتعرضنا لخطر جسيم ، ولما فتحت البوابة الثانية وولجنا إلى الرحبة التي بها الجرك « والبوك هاوس » الذي على شاطئ الجرف رأيتها تموج بمجاعات من الجنود البريطانيين يتهايمسون ولم أكن أتصور أنها تحوى هذا العدد وهم جميعا بأسلحتهم الكاملة وعلى رؤوسهم الخوذات وكثيرون منهم يحملون رشاشات « تومى » — أدركت حينئذ ما هى حالة طوارئ — والغريب أننا أمضيها وقتا ليس بقصير على مقربة من هذه الجماعات فلم نسمع لها صوتاً ولا حركة .

وما أن تركنا هذا المكان حتى فتحنا الأنوار لنهائيتها وبعد أن قطعنا مسافة لا تزيد عن كيلو متر ونصف من ناقورة فلسطين ، قابلتنا أول داورية لبنانية مكونة من جنديين من عساكر الجندرمة يسيران على مهل ، وكان بوق السيارة والسكلاكس لا ينقطعان فوقتنا وسألناهما هل من جديد ؟ قالا : « كل شيء هادئ » وعند اقترابنا من الناقورة اللبنانية ، ركب معنا كابورال فرنسى ، وقال : إن السكايتيين كلفه بمرافقتنا ولما دخلنا المركز استقبلنا الموظفون بالترحاب المعتاد وأتموا الاجراءات بسرعة تدل على اهتمامهم بنا وقلقهم علينا ، وحضر السكايتيين فأبلغنى « أن سفرنا قد يتأخر مدة ربع ساعة لأجل سلامتنا » ، وقلت « ما السبب » ؟ « أجاب يلزمه أن

أن يتصل بالنقطة العسكرية في اسكندرونة» ، قلت « اهلك تعتقد أنني متجة رأساً إلى تركيا حتى تعلم المراكز العسكرية كلها على الساحل حتى الحدود التركية عند اسكندرونة» ، قال «لا وإنما أردت أول مركز عسكري على الساحل بعد الناقورة وسأكلفه بتبليغ المراكز الأخرى» ، قلت «وهل يلزم أن نقف لكل هذه المراكز» « قال نعم لأن حالة الطوارئ معلنة والطرق مسدودة وبعض المنافذ مغلقة » . وبدأ اتصاله ونحن نسمع صوته وطلب إبلاغ كل مركز بوصولنا وقيامنا حتى بيروت ، فشكرته على اهتمامه هذا وقلت له أرجوا أن تكون حالة طوارئ كاذبة فضحك بعد أن تبادلنا الدخان إذ ملأ كل منا « بيئته » من التبغ الذي يحمله الآخر وانصرفت .

وكان خروجنا من الباب كافياً ليكشف لنا الحقيقة ، إذ واجهتنا أول وحدة من جنود المغرب الأقصى المراكشيين وهم يهدرون بألفاظ لا أفهمها ومعهم المدافع الرشاشة والذخيرة محملة على البغال والبنادق السريعة الطلقات على أكتافهم وهم يتراصون في أرتال طويلة لا تدرکها العين وسط الظلام ثم يسبرون متجهين إلى الشرق حيث التلألؤ الواقعة بين لبنان وفلسطين .

إنك لا تتصور ما تراه مرتسماً على وجود عدد كبير من الرجال يساقون إلى معركة لا يعرفون متى تبدأ ، القلق يبدو ظاهراً في كل ما يحيط بنا — كانت السماء غير واضحة لأن السحاب فيها يسير أفواجاً يتبع بعضه بعضاً بفواصل تظهر القليل من النجوم . وكان الحيوان الذي يحمل المدافع والذخيرة يشعر ويحس بقرب قيام الزوبعة فتراه يسير بخطوات متثددة .

كنت تلمس هذا القلق في رجال الجبهة الانجليزية حيث الجماعات تتحادث همساً وتلمسه في الجبهة الفرنسية إذ الهدوء البعيد عن طبيعتهم المرحية والذي لا يقلقه إلا صوت المراكشيين يدفعون الدواب فوق الصخور لترقى التلألؤ التي على جانب الطريق ، وكان على جانبيه صفوف من الجزائريين بطرايشهم الحمراء

الصغيرة ، وبنادقهم الطويلة تجدهم أقل جلبة من المراكشين ، وهم بانتظار القيام بعمل لا يدرون عنه شيئاً ، هذا منظر الحرب وهو رهيب في ساعات الانتظار الطويلة ، واعتقد أن احتمال الاشتباك في القتال أخف وطأة من هذا السكون الخيم الكابس على الأنفاس الذي يسبق العاصفة .

وخرجنا من كل ذلك متجهين إلى مدينة صور والسيارات العسكرية تتجمع على الطريق وتتجه إلى الشرق وكنا قد قطعنا الجرف العالي وظهرت الوديان فما اقتربنا من المفرق الذي يقع على طريق صور ومدخلها ، حتى تقدم من خلف الأسلاك الشائكة جندي جزائري شاهراً السلاح قائلاً — هالط — أى قف فإذا الطريق محكمة السد ، فأعلمناه أن لدينا أمر بالمرور ، ولم يغير وضع البندقية عن وجه السائق ، حتى تقدم الضابط الفرنسي وأخرج بطارية للضاءة واطلع على جوازات السفر ودار حول السيارة مفتشاً ، ثم أذن لنا بالتحرك وفي هذه الأثناء كان خمسة من الجزائريين ، يزحزحون هذا الحديد المدبب ليفتحوا لنا الطريق ، بعد أن أمضوا أكثر من خمس دقائق في هذا المجهود .

ولقد تكرر هذا العمل خمس أو ست مرات إن لم يكن أكثر من ذلك ، وأخيراً عند مدخل بيروت ، وكان السكون نحيماً علينا طول هذه المدة ، ولم يكن أحد ليعرف شيئاً عن أحاديثي مع الضابط ، وإلا لاعتذر إقناعهم بالسير في طريق مملوءة بالألغام ، ولكنهم شعروا بأشياء غير عادية حولهم ، وكان كل منا يفكر في شيء واحد هو الوصول سريعاً إلى بيروت قبل اشتباك القتال ، وأخيراً وصلنا في منتصف الساعة الواحدة أى قطعنا الطريق الذي يستغرق ساعتين في أربع ساعات ونصف وكانت رحلة قاسية ولكنها تجربة إن تسمح الأيام بمثلها .

ما الذي حدث في ذلك اليوم ؟ ولماذا أعلنت القيادة حالة الطوارئ على الجبهة ؟ لقد كان من سوء حظي أن اليوم الذي اخترته للسفر كان هو اليوم الذي

اختاره الجنرال كولييه الفرنسي لكي ينضم إلى الحلفاء مع فرق الجراكسة إلى القوات الفرنسية بفلسطين متجها لحدود شرق الأردن ، ولإعطاء فكرة عن حالة العرب والفوضى التي سببها هذا العمل في صفوف الفرنسيين نذكر : أن الوحدات الفرنسية الخالصة سحبت بأكملها من جميع الجهات وأرسلت إلى الشمال حيث حدود تركيا ، ووضعت نقاط المراقبة شديدة على كل الطرق ، واحتلت وحدات السنغال والمغاربة والفرقة الأجنبية كل الجهات الجنوبية ، ثم أنزلت وحدات البحارة لحفظ النظام بين القوات الفرنسية الخالصة ، ذلك لأن البحارة بعد إغراق الأسطول أصبحوا أشد الناس عداوة لبريطانيا ولكل من يعطف عليها واستمرت هذه الوحدات على إخلاصها لدارلان وحكومة فيشي وكانت شديدة الوطأة في قمع حركات مواطنيها الأحرار .

وبقي الموقف خطيراً جداً في الأيام التي تلت هذا الحادث ، وكان الجنرال دنيز يعتمد على جنود المستعمرات ولكنه كان يخشى أن تمتد حركة العصيان بين الجنود الفرنسيين البيض لميولهم إلى حركة الفرنسيين الأحرار .

* * *

كان الجنرال كولييه من أغرب الشخصيات التي يمكن تصورها واقدر قرأت عنه وسمعت أخباره ، ولما ذهبت لدمشق واتصلت برجال فرنسا هناك ، كان من الطبيعي أن أتصل به ، فإذا هو يعرف عنى كل شيء ، عن أسرتي ودراستي وخدمتي وكل ما يمكن أن يعرفه إنسان عنى وكان ظريفاً معي بينما كنت أفقر من لقياءه ، نظراً لما سمعته عنه ، ولكن طبيعة العمل جعلتني على اتصال به ، فكنت في كل مرة أقصده لعمل ، أرى من جانبه استعداداً وتسهيلاً ، ودقة في إجابة طلباتي ، لم أعدها من قبل لدى أى سلطة محلية أو فرنسية وكنا نشكو انتشار زراعة الخشيش ، وفي يوم جاءني بلف مملوء بالمعلومات الثمينة وقال إنني أضع كل رجالي للقضاء على هذه الزراعة .

وكثيراً ما طلب إلى أن أزور بعض الثكنات العسكرية ولكنى كنت أعتذر بقصر الوقت وعودتى لبيروت وكان كولييه شديد الوطأة على نفسه لا يرحمها ، وكان نفوذه بارزاً في كل جهة ، تعرفه سوريا بأسرها وأناس كثيرون من أهل فلسطين وشرقي الأردن ، وإذا نسيت فلن أنسى اليوم الذى رأيته واقفاً أمام الجنرال ديجول في بيروت ، وكان كولييه قصيراً والأخير عملاقاً وما لحنى كولييه حتى خف للترحاب بى وسار بى إلى الجنرال دى جول وكنت قد قابلته مرتين قبل ذلك فقال « إنى أعرف قنصل مصر » فقال كولييه « لا أقدمه بصفته الرسمية بل كصديق أعزّه وأنى لمدين بحياتى إلى شخص من عائلته » ، وقال كلاماً لم يأت بعد الوقت الذى يسمح بنشره ، وكان دى جول ظريفاً حينما صاخنى بشده مرة أخرى .

ما وصل كولييه إلى شرقي الأردن حتى لحقت به جماعات الجراكسة كوكبة وراء كوكبه وأذاع نداءً حاراً إلى الفرنسيين يدعوهم إلى الانضواء تحت لواء فرنسا الحرة وأشار فيه إلى الحوادث المتتالية التى أشرنا إليها وأهمها تسليم المدافع والذخائر إلى رشيد على ونزول الألمان بطائراتهم فى المطارات الفرنسية .

أما الجنرال دنتز فأذاع أن عملية كولييه لم تنجح بدليل أن ٨٦ فارساً كانوا قد اجتازوا الحدود قد عادوا ومعهم ضباط الصف الفرنسيون — وكانت مفرزة من فرسان الجراكسة فى طريقها للانضمام إلى الوحدات التى عبرت الحدود فتصادمت مع حرس الحدود فقتل ضابطان فرنسيان أثناء القتال ، وقد شبع جثاهما باحتفال عسكري وخطب الجنرال دنتز مشيراً إلى الظروف المؤلمة التى أدت إلى مصرعهما .

* * *

هذا ما حدث فى اليوم التاريخى الذى وضعنى الصدف فى طريقه ولم أكن لأعلم شيئاً مما كان سيحدث ولكن هذا اليوم أدى إلى توثيق علاقتى الشخصية

مع الجنرال كوليه بعد عودته من فلسطين هذه العلاقة التي بقيت طول مدة إقامته بسوريا، ولسوف نعرض لها حينما نذكر الأدوار التي أدت عودة الدستور والحياة النيابية لسوريا وإلى سياسة الجنرال ومقدرته وسيرته في المدة التي تولى فيها مركز نائب المفدوب السامى الفرنسى بدمشق عند دخول الحلفاء وعودته إليها .

لقد انتهى هذا العهد وذهب الجنرال كوليه بعيداً عن دمشق ، واتى ربه فهو ملك للتاريخ الآن ، وإني لأرجو المولى أن يوفق بلاد الشرق لرجال يخدمونها كما خدم كوليه وطنه فرنسا . . وأفنى زهرة عمره من أجلها . . .

صحائف تاريخية عن الحرب الماضية :
كيف مرت مكرنة فيشى غدونا لفصلية الملكية المصرية
بيروت في عام ١٩٤١ وكيف راجعت ؟

ينحيل إلى كثيرين أن الموظف بإحدى وظائف السلك السياسى رجل محظوظ ، قد انتهى جهاده وقلقه فى اليوم الذى يعين فيه خارج مصر ، لأنه حينئذ بالمرتبات العالية ويدخل حياة تغمرها الحفلات والدعوات ، فلا يشغل نفسه بغير التأنق فى ملبسه والسعى وراء الترقية عن نفسه ثم النظر فى قائمة ترتيب أقدميته وانتظار دوره للترقية ، وهذا أن صدق على كثيرين فلا يصدق على بعض منهم إذ فيهم من هم من خيرة شباب مصر .

ولا يدور بخلد أحد من الناس أن بعض الوظائف الرئيسية تحتاج إلى كثير من الشجاعة الأدبية وقوة الأعصاب والجرأة فى الأخذ بالقرارات السريعة وتنفيذها ، إذ أن الممثل السياسى عرضة لكثير من الأخطار والمفاجآت ، فقد توجده الظروف السيئة فى مكان فيصبح وقد انقطعت الصلات بينه وبين بلاده وحكومته ، ذلك دون أن يلقى أية مساعدة أو توجيه من مصر قبل نزول الحوادث المفاجئة وتوالى المصاعب . ومسئولية الممثل تختلف عن سائر المسئوليات ، فهو أبداً خطأ تحمل وحده نتيجة إخطائه ، وبوسع حكومته أن تتبرأ منه وأن تؤاخذ به بشدة ، وإن لازمه الحظ والتوفيق ، كان هذا من حظ بلاده ولا حق له بأن يدعيه لنفسه ، ذلك هو القانون الصارم الذى يقبله من يدخل هذا السلك ، وهذه تقاليد له لدى مختلف الأمم والشعوب فإذا كان هذا هو حال الممثل السياسى فى سائر العالم ، فما بالك بمن لا يعلم شيئاً عن رأى الحكومة التى يمثلها أو رغباتها أو اتجاهاتها ، وهو عرضة لأن يفاتح كل يوم فى شئ من ذلك ، وقد تتخذ بشأنه أخطر القرارات وهو بعيد عنها يجملها تماماً ، لأن التقاليد التى اتبعت بوزارة الخارجية المصرية تجعل هذه الأمور فى حيز المحرمات التى لا يرقى إليها سوى طائفة من الناس المحظوظين

ولا يصح أن يتحدث عنها أو يلم بها أو يسمو إلى مداركها من لم تسعده الظروف. فيكون من مصافهم وفي زميرهم .

وهذا ما حدث معنا في بيروت حينما دار القتال في العشرة الأيام الأولى من شهر يونيه عام ١٩٤١ بين الجيوش الفرنسية التابعة لحكومة فيشي وبين الجيوش البريطانية ، فواجهنا موقفاً لم يواجهه أحدهم قبل ، إذ وجدنا أنفسنا في بلاد لم تقطع حكومتها علاقتها بنا ، ولسكن جيوش حليفتنا تهاجمها ، وتتخذ بلادنا قواعد حربية لها . وكان الرأي أن حكومة مصر على الحياد ولكن أراضيها ليست كذلك ، وكان علينا أن نستمر في القيام بواجباتنا الرسمية وأن نبذل العناية والرعاية المفروض تقديمها للراعي المصريين ، ثم المحافظة على علاقات المجاملة والود مع سلطات في حالة حرب مع حليفتنا .

وليس من السهل الوصول إلى ذلك ، إذ كان القلق يزداد كل يوم ، وهذا يسبب الشكوك والمتاعب ، فكانت السلطات الفرنسية تبدو حيناً مسالمة ، ثم تبدو أحياناً وقد كشرت عن أنيابها ، وكانت البلاد مملوءة بالجواسيس من الجانبين البريطاني والمحوري وكلاهما يتتبعنا ، وكنا نقابل ممثلي إيطالياتى الطرقات وفي المحافل فيقطعون الطريق علينا ليروا هل نحييهم أم نتجاهلهم ، وفي هذه الأيام العصيبة قبض على عدد من المصريين اتهمتهم السلطات العسكرية بأنهم يقومون بالدعاية لبريطانيا ، فكان علينا واجب حمايتهم والدفاع عنهم ، واختيار الطريقة والأسلوب اللذين يتبعان في الدفاع للحصول على الأفراج عنهم ، دون المساس بسمعة الحليفة والمبادئ التي تحارب من أجلها حتى لا يتخذ دفاعنا حجة علينا فذيعه وكالات الأنباء الحورية وتستغله في دعايتها ضد بريطانيا على أنسنتنا^(١) .

وكان يريد القنصلية العامة في مصر مراقباً وكذلك المكالمات الخارجية ثم أصبحت المكالمات التليفونية المحلية كلها تحت الرقابة الشديدة يرصدها فرنسى

(١) كثيرون لم يفهموا هذا الموقف ولم يقدروه وأغلب الظن أن المسئولين في وزارة الخارجية وقتئذ لم يكونوا على أى وعى سياسى ... بل كان مهمهم المحافظة على مراكرهم .

من عاشوا ونشأوا بمصر وألفوا اللهجة المصرية ، وكان يلذ لنا معاكسته أحياناً
ففي ليلة من الليالى ، حادثنى قنصل تركيا العام باللغة التركية ، فرد علينا صوت بأن
نتكلم بلغة مفهومة ، فأخبرته بأن موظفى المفوضية من الأرمن كثيرون ، وهم
يعرفون جيداً التركية فما عليه إلا أن يستعين بهم .

وعما يحزن فى نفسى أن المصريين فى مدة هذه الحرب لقوا من الجانبين عنتاً
كبيراً فاتهموا فى مدة حكم فيشى بأنهم دعاة لبريطانيا ، ولما جاء الحلفاء اتهموا
بأنهم دعاة للمحور ، ولأعلم بالضبط على من تقع مسئولية ما كانوا يلقونه ولكن الذى
أقرره هنا هو ما وقع بالضبط لا من قبيل الأساطير ولو كان فى دولة أخرى لأجرت
تحقيقاً فى ذلك ^(١) .

فقد تسلمت برقية من حاب تعلمنى بأن عضو بعثة الآثار الإسلامية التابعة
لجامعة فؤاد الأول قد قبض عليه ، فبادرت بالاتصال بالمفوضية الفرنسية ، وكتبت إليهم
محتجاً لاعتقالهم موظفاً مصرياً يقوم بعمله بناء على اتفاق سابق بين الحكومتين فجاءنى
الرد بأن تحريات المندوب الفرنسى بحلب تدل على أنه يقوم بدعاية شديدة لبريطانيا ،
ولما أشرت إلى أن هذا العمل يعتبر غير ودى نحو بعثة علمية وقد تستغله الدعايات
القائمة فيكون له أثر سىء بمصر يترتب عليه التضييق على حرية المؤسسات
الفرنسية بمصر إذ يسهل جداً أن يتهموا بدعاية للمحور — أفرج عنه بشرط
الإقامة فى بيروت وأن يكون تحت مسئوليتى . ومن الغريب أن هذا العمل
تكرر بعد دخول الحلفاء . فقد قبض على هذا المبعوث سرّة أخرى ولما رجعت السلطات
العسكرية كانت إجابتها أن السبب هو ما يقوم به من دعاية للمحور ، ولما واجهت
الجهات المسئولة بصورة من إجابة حكومة فيشى السابق ذكرها اقتنعت بخطئها وقررت
الإفراج فوراً وقلت لهم كيف ينقلب كل واحد من رجالنا فى برهة وجيزة من
داعية بريطانى إلى داعية للمحور .

(١) المدعشأن وزارة الخارجية المصرية لم تقدر شيئاً من ذلك بل تجاهلت كل المواقف
التي تدل على شهامة ورجولة فى حماية رعاياها ولم تبث بأية تعليمات فى كل هذه الشؤون .

نلمس مما تقدم بعض المصاعب التي كان يواجهها الممثل المصري في الخارج وهو منقطع الصلة بحكومته، أو حينما يصبح مضطراً أن يعمل بوحى ضميره وأن يتحمل المسؤولية وحده، ولكن الذي لم نستعد لتلقيه هو أن يصدر أمر بإغلاق القنصلية العامة وإخراج موظفيها بأكلهم من البلاد هذا الأمر جاء إلينا بغتة وعلى غير استعداد لتلقيه. فقد جاءني قنصل اليونان العام وأعلمني أن أحد أصدقائه بالمفوضية اتصل به وأبلغه بأن المندوب السامي وصلته تعليمات من حكومته بإخراج ممثلي مصر واليونان من البلاد المشمولة بالانقذاب، أسوة بما تم مع ممثلي بلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وكنت أجهل تماماً رأى الحكومة المصرية ولا توجد طريقة للاتصال بها والحرب قائمة بين الفرنسيين والبريطانيين وعليه استقر رأيي أنه عند مفارقتنا بهذا الأمر أن تكون إجابتنا واحدة، وفي هذه الأثناء كان الجيش البريطاني قد اكتسح الجزء الجنوبي من سوريا واحتل مدينة دمشق، فقررنا سوياً أن نبليغ الفرنسيين أنه في حالة سفرنا سنعود من تركيا إلى العراق ومنها إلى دمشق لنستقر بها، وفي اليوم التالي حضر رئيس الدائرة السياسية وأبلغني نص البرقية التي وصلت إليه من حكومة فيشي، فكان ردّي بسيطاً يتلخص في الجملة التي اتفقت عليها مع قنصل اليونان، فعلق عليها بأن الأمور لم تصل بعد إلى هذا وإن المفوضية لم تقرر رأياً للآن وهو يبادر كصديق بأعلامي بحالة قد تطرأ في أي وقت، فشكرته على ذلك وفي عصر ذلك اليوم حادثني القنصل العام الأمريكي وقال أنه يرغب أن يراني لأمر هام ولما حضر أخرج من جيبه صورة برقية وردت إليه من واشنطن حول تخبره بتفاصيل مكاتبات ومفاوضات دارت بين مصر والولايات المتحدة بشأن تسلم القنصلية العامة في بيروت وتولى مصالح المصريين بأراضي سوريا ولبنان^(١).

وكان ينتظر مني أن أطلع على تعليمات مماثلة لما وصل إليه من لدن حكومته فدهش حينما وجد أنني أجهل كل شيء، وإن حكومتي استصغاراً لشأني قد تركتني في حالة مضحكة وهنا أبديت شكري لأنه أزال عن نفسي عبئاً كبيراً إذ كنت

(١) هذه المفاوضات التي بقيت مجهولة لنا تماماً مع أنها تناولنا في الصميم ...

أفكر هل يقبل منى هذا التسليم ، إذا فاجأنا الحوادث بتطورات سريعة ، وأعلمته بزيارة رئيس الدائرة السياسية لى وما دار من الحديث فيها .
ومضت أيام وحوادث الحرب والغارات الجوية التى لا تنقطع ، تسكاد تشغلنا عن كل شئ ، وفى صباح أحد الأيام ، حادثنى مدير الدائرة السياسية ، وقال لى أنه يرغب فى أن يبلغنى أخباراً سارة فذهبت إليه بالمفوضية ، ولما دخلت بادر بإعلامى أن حكومة فيشى قد وصل إليها نبأ إغلاق القنصليات الفرنسية فى الموانئ المصرية ، وأن لجنة الهدنة (وكان مقرها مدينة ويسبادن بألمانيا) أخذت تلح على فرنسا وتطلب إليها إغلاق قنصليتى بيروت ومرسيليا المصيريتين لتقابل عمل الحكومة المصرية بمثله حينما قررت إغلاق قنصليتى بورسعيد والإسكندرية ولكن المندوب السامى والمفوضية رفضا هذا الرأى فيما يختص ببيروت احتفاظاً بك والسكى تشاركنا فى مصاعبنا ، فضحكت^(١) وقلت « لعل تكون لهذه المصاعب نهاية » وانتقلنا لحديث الحرب وقد بدأت تقترب من بيروت . . .

وبعد عشرة أيام من هذا الحديث وصلتنا برقية مفتوحة من المفوضية الملكية المصرية بأنقرة تقول بتسليم القنصلية العامة إلى قنصل أمريكا ، فاطمأنت نفوسنا ، ولكن مدافع الإنجليز كانت أصواتها تسمع بانتظام فى أوقات معروفة وكانت طلقاتها أحياناً شديدة متتالية وسريعة ، وأحياناً متقطعة ، ولكنها أخذت تقترب على كل حال وفى اقترابها نجاة وخلاض من حالة شاذة إلى حالة أكثر اطمئناناً وثباتاً .

(١) لأن الحكومات الأوروبية وقت ضعفها تلجأ فى كثير من الأحيان إلى الألعاب التى كثير أمانتها علينا إذا أخذت بها الأمم الشرقية .. وهى معذورة بضعفها .

العالم المأثور

السنة الأولى - العدد ٩ - دمشق : الاثنين في ١٠ ربيع الثاني ١٣٦٣ و ٣ نيسان ١٩٤٤



مصر تواجه أحداث لبنان سنة ١٩٤٣

وما استغربت عيني فراثا رأيت
ولا علمنى غير ما القلب عالمه
(أبو الطيب)

كان حديثى مع المغفور له سعد الله الجابرى ، فى أحد صالونات قصر الزعفران بالقاهرة المعزية ، فى عصر يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، عند نهاية حفلات الاستقبال الرسمية ، التى أقامتها للوفد السورى مصر بأسرها ، وكانت مشاورات الوحدة مع سوريا ، قد انتهت بوضع أسس جامعة الدول العربية ، وهى المفاوضات التى حضرت جلساتها ، فى الاسكندرية ثم فى القاهرة .

وقد اقتنعت فى هذه المقابلة ، وبعد الذى سمعته من فم الجابرى بأن مأمورى فى سوريا ولبنان قد انتهت . . . وهكذا شئت الأقدار مرة أخرى فى حياتى ، أن ألقى حكم الأقدار بمفردى - ولذلك فاتمته بتصميمى على البقاء بمصر وأن أحرم نفسى من شرف مرافقة الوفد السورى فى عودته إلى بلاده ، كما كنت قد رافقته فى الحضور لمصر ، وأعلمته بأننى إذا جئت يوما لسوريا ولبنان فسيكون سفرى للتوديع ، واستصحاب زوجى وولدى اللذين تركتهما فى بلاد أعزها ولها المنزلة العليا فى قلبى .

وبهذا آمنت بأنه قد انتهت أحسن السنوات التى قضيتها فى عمرى ، حاملا أعباء لا يتسع الوقت لسردها ، وكنت موقناً بأن العناية الإلهية التى لا زمتنى ، هى التى يعود إليها فضل ما صادفنى من توفيق ونجاح ، ولولا هذه النفحة الربانية لما أصابنى من الخير شيء .

وقمت إلى المطار في اليوم التالي ، لتوديع سعد الله الجابري وجميل مردم ومن كان معهما في سفرهم على الطائرة إلى دمشق ، ولم يثر تخلفي أية دهشة لديهم فقد كانوا جميعاً يعرفون عن حالى أكثر مما أعلم . . . للأسف

زد على هذا أننى لم أسمع في المحيط الحكومى لدينا في مصر ، أى في الرئاسة أو في وزارة الخارجية أى تعليق على هذا التخلف ، كما لم تبد أية إشارة بسيطة أو لفتة ، تدعوني للسفر إلى المفوضية ، التى أتولى العمل فيها وأمثل بلادى على رأسها كقائم بالأعمال في دمشق ولبنان .

ولما عدت لمنزلى ، كنت مطمئناً مرتاح الضمير إذ غدت كرجل كان يحمل عبئاً ثقيلاً وألقاه عن أكتافه ثم التمس الراحة والدعة ، وطرأت على فكرة الذهاب إلى بلدتى والأشتغال بالزراعة ، وأن أعيش معيشة الملاك الذين يقضون وقتهم بين الكتب وتحت ظلال الأشجار العالية وفعلاً ذهبت بالسيارة إلى الريف ، حيث أمضيت يوماً أو يومين نسيت فيهما نفسى ، وأصبحت لا أتوقع بأى حال أن تقذف بى الاقدار مرة أخرى وسط تيار العمل الجارف المتلاطم الأمواج . بل كنت أردد قول القائل : « يا إلهى .. لقد كنت بعيداً عن كل هذا ولكن شاءت أرادتك ، أن أعيش وسط غمرات الحوادث ، لأعلم منها ما لم أكن أعلم ، ولكى أواجه كل يوم حدثاً جديداً ، فأرفع عنى هذا العبء وأحشرنى فى زمرة المنسيين الذين يرضون بما قسم لهم » : وقد استجيب هذا الدعاء بعد عشرة أشهر وكنت قد استرحت من أثر الحفلات وأيام المقابلات المتتالية . فلما عدت إلى قاهرة المعز لدين الله ، انقطعت عن ارتياد محافل الناس ، وانكفأت على نفسى ولم أطلق أن أذهب لوزارة الخارجية حتى لا ألتقى بأى إنسان أعتقد أنه يقدرنى أو يبادلنى الود ، فيظن بى الظنون ، ويذهب إلى أننى أحاول استدراجه لمعرفة حقيقة ما يدور حولى ، وما سيقرر بشأن مستقبلى . وقلت

لنفسى « لقد عرفت ما قُدر لى ، وها أنا على استعداد لتلقى أحكام هذا القدر مهما كان وقعها شديداً على » .

* * *

وفى يوم من الأيام ، إذا برسول يبحث عنى فى كل مكان ، فلما عثر علىّ فى منزل لأحد أقاربى أخذنى سرعة لمقابلة رئيس الحكومة الذى يدعونى لأمر هام لا يَحتمل التأجيل والأرجاء والأبطاء ، فلبيت هذه الدعوة وذهبت توا إلى دار الرئاسة حيث استقبلنى الرئيس الجليل مصطفى النحاس فى الحجرة التى يشغلها الآن وزير الاقتصاد الوطنى ، وهناك وجدت معه المرحومين صبرى أبو علم وأمين عثمان والدكتور صلاح الدين . ودار حديث حول حوادث لبنان ، وقد قيدته فى وقته بتفاصيله ، وكان التساؤل ... هل أسافر أو أبقى ؟ ... وإذا سافرت ... كيف أدخل لبنان ؟ ... وإذا قامت مصاعب وعقبات ما العمل فى تذليلها ؟ .

وجاء القرار الذى يحتم سفرى فوراً إلى مكان عملى ، لمواجهة الحوادث التى هدّدت لبنان وكيانه وعصفت بدستوره ورئيس جمهوريته وبرلمانه ، وحكومته . ولقد كانت المقابلة فى منتصف الساعة الواحدة ، وبعد ساعتين كنت أنهب الطريق بالسيارة إلى الاسماعيلية .

اننى لا أزال أذكر كلمات الرئيس النحاس وتساؤله عن راحتى وأين تنام ؟ قلت ... فى الطريق . قال : أى طريق ؟ قلت فى الصحراء ... وكانت سيارتى آخر سياره تمر من جمرک الاسماعيلية فى ذلك المساء لتأخذ الطريق الصحراوى إلى الحدود ، وكان خروجى من دار الرئاسة مسرعاً بطريقة لفتت أنظار الصحفيين الذين تساءلوا عن وجهتى فقلت لهم :

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

قالوا ... إذن سوريا تقصد . قلت : نعم .

وأ مضيت الليل أقطع فيافي سيناء، واسترحت ساعتين بأبي عويقة ، ودخلت فلسطين عند بزوغ الفجر ، وبعد ساعة وصلت بئر السبع ثم بعد ساعتين ونصف كنت على أبواب حيفا .. فإذا « البالستين بوست » تنشر خبر سفرى من مصر ، وأن وجهتى دمشق فمن رجال الصحافة أعطاهم أخبارى ؟ لا أدرى . ولما أطلعت على هذا النبأ ، وكنت على أبواب « محل اسبيني » المشهور بحيفا فكرت فى أسمى ... وقلت لنفسى :

« أحقاً أسير إلى مرج ابن عامر والقنيطرة ثم دمشق أم اتجه إلى الناقورة » وفى لحظة قررت السير إلى لبنان وليكن ما هو مقدر فى علم الله .

ودخلت بيروت وأمضيت لحظات بالمفوضية ، ثم خرجت منها مسرعاً إلى بيت الرئيس المعتقل بشارة الخورى ، وفى صالون داره استقبلتنى السيدة الفاضلة عقيلمته ، وأعربت لها عن عواطف مصر كلها « ملكا وحكومة وشعباً » فاذا بالمطران مبارك يصيح قائلاً « قل لدولة مصر لبنان يريد رئيسه » وخرجت من الدار فاذا بالجوع تحملنى على الأعناق ، وتأنى أن تطأ قدماى الأرض وإذا هتافها يشق عنان السماء « نريد أن يعود الرئيس لشعبه » .

وعدت إلى المفوضية لأستريح ، فإذا بالوفود إليها تترى من مختلف الهيئات والطوائف ، وكنت تعباً مجهداً ، فاذا بهذا الجسم الذى لم يذق النوم إلا لماساً يحتمل كل شئ ، وإذا بحموية تتملك كل جوانحى ونفسى ، فأنسى الغداء والعشاء ثم جاء المساء فإذا أمامى مجموعة من الجرائد والنشرات والقرارات ، يتجتم على أن أقرأها لأعلم بنسكة لبنان وما حدث مدة غيابى ، وعكفت على قراءتها حتى حتى منتصف الليل ...

ما الذى حدث ؟

* * *

إن الذى عاش الأيام التى رآها لبنان فى النصف الأول من نوفمبر ١٩٤٣ لا يمكن أن ينساها ، إنها أيام الإرهاب الفرنسى ، كان الحكم العسكرى فى كل مكان ، ولا أزال اذكر مرورى من صيدا ، وكيف منعت من دخولها فسلكت الطريق الذى يدور حول المدينة ويخترق حدائقها ، لأن الشارع الرئيسى كانت تحتله شراذم الجنود السنغاليين ، كان أثر إطلاق الرصاص واسالة الدماء لا يزال جاثماً على صدور أهالى صيدا .

ولقد جاءنى الأستاذ كاظم الخليل ، وسلمنى تقريراً مطولاً عن تلك الحوادث التى تسببت فى إصابة ٣٢ شخصاً بينهم أطفال صغار .

إن البلدة التى تواجه الموت فى شوارعها ، تلمح فيها روحا يعلو ويغلب قعقة السلاح وأصوات الرشاشات ، وترى فى عيون المعتدين بريقا يشعر بأن الجند الذى أطلق الرصاص فى الصباح على الناس ، يخشى مجيء الليل ويتربى السلامة عند طلوع الشمس ، أنه يخاف صاحب الدار وهو عدو رهيب .

وكانت بيروت محتلة فى شوارعها ومبانيها ، تسير فيها السيارات المسلحة ، وتتقابل فيها الدوريات من مختلف الأجناس التى تتألف منها الفرق الفرنسية .

لقد رأيت هذه الجنود أمامى منذ سنة ١٩٣٩ ، وتعرفت على أسلحتها وأرقام الآلايات والفرق ، ورأيتها تحارب فى الميدان ، وكان المستشفى العسكرى أمام شبا كى يتلقى الجرحى ويخرج منه الموتى ، حقاً أن صناعة الموت تحمل معها الحياة ، والقلب الذى يواجه القناء كل يوم ، هو الذى يستحق أن يعيش أما الذى يخشى الموت فلا يستحق الحياة . أمضيت الساعات أقرأ الوثائق التى أعلنت بها فرنسا هذا الانقلاب المشؤم فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، أنها تبدأ كما كان يبدأ

الجنرال ماكسويل البريطاني أوامره للمصريين في سنة ١٩١٤ ...
« أنا جان هالو » سفير فرنسا ، المندوب العام المفوض لفرنسا الحاربة
في الشرق .
أقرر ...

حل مجلس النواب :
أوقف تطبيق الدستور اللبناني ؛ أعين رئيس دولة ...
يعين رئيس الدولة رئيساً للحكومة ووزراء يكونون مسئولين تجاهه ...
ثم أقرأو : « أيها اللبنانيون » .
« لقد دقت الساعة التي يجب أن يوضع فيها حد للمناورات الطائشة ...
في هذه الساعة الخطيرة أجدد لكم علناً عهد فرنسا بأنها لا تزال مصممة
على منحكم الاستقلال التام .. » هكذا ... ثم يصدر بلاغ رسمي يقول .
« تحذر دار المندوب السامي الرأي العام من الأنباء الوهمية أو الكاذبة
التي تذيبها محطات الأذاعة المصرية والفلسطينية مستهدفة إثارة الخواطر
والاضطراب » .

ثم يليه بلاغ آخر : « تلقت وكالة روتر عن الحالة في الشرق بعض الأنباء
الكاذبة ، والمندوبية العليا لفرنسا تكذب هذه الأنباء » وأخيراً أسمع :
« هل حصل تدخل مرة في شئون فلسطين أو الهند البريطانية عندما رأت
انجلترا من واجبها اتخاذ بعض التدابير » ، لقد أظهرت هذه البلاغات وقوع أزمة
بين الحليفتين بريطانيا وفرنسا .

وفي صباح اليوم التالي لوصولي زارني وفد من أعضاء المجلس النيابي المنحل
وسلمني نسخة من المرسوم الذي أصدرته الحكومة الوطنية وقد تضمن ما يأتي :

- ١ — أن يمارس مجلس الوزراء سلطة رئيس الجمهورية المعتقل .
- ٢ — أن يقوم نائب رئيس الوزراء مقام رئيسه ويتولى وزارتي المالية والخارجية . وعليه التوقيعات من قرية بشامون .
- وسلمني الوفد صورة من محضر الجلسة التي عقدها مجلس النواب في منزل أحد وجهاء بيروت^(١)، وفيها اتخذ قراراً بمنح الثقة للحكومة الوطنية واحتج على أعمال العنف والعدوان على دار المجلس وبعد خروجه زارني من رجال السلك السياسي ، وزراء أمريكا والعراق وبلجيكا ، واستمرت الوفود الشعبية تأتي لبعد الظهر وفي الساعة السابعة أبلغت بأن الحكومة السورية ستلتقي بالجنرال كاترو في استترة وأن هذا اللقاء يستهدف غير تناول الغداء تبادل الرأي وأنه سينتج أثراً سيئاً على حوادث لبنان الجريح بل سيمترك غيوماً في علاقات الشعبين الشقيقين . فأخذت على عاتقي أن أحول دون وقوع هذا الخطأ ، ورغم الأوامر الصادرة بعدم الخروج ليلاً ، جازفت بنفسى وخرجت بعد الثامنة ووجهتي دمشق ، ولم تعترضني الدوريات حتى ساحة البرج ، ومن هناك تبعني سيارة مسلحة برشاش ، وعند قرن الشباك انضمت إليها أخرى ، وأمرت السائق أن يقلل من سرعته ، بحيث نسير مع السيارتين في طابور واحد وسرعة ماثلة ، وقلت له : أى مخالفة لهذا الأمر تعرضنا لإطلاق النيران ، ولا مسئولية على أحد لأننا خالفنا أوامر السلطات العسكرية ، وعندما وصلنا « عالية » (حيث يوجد طريق منها ينحدر إلى بشامون) وقفت إحدى السيارتين المدرعتين ، واكتفت الأخرى بملاحقتنا وكانت جميع الطرق محروسة وقد ظنوا حتى تلك اللحظة أنني أراوغهم وعند مرتفع ظهر البيدر ، توقفت الثانية عن السير وراءنا ، حينما تأكدت أن طريقنا إلى دمشق لا إلى حكومة الجبال

ووصلت عاصمة سوريا في الحادية عشرة مساءً، وماكدت أدخل قاعة الطعام

(١) هو منزل آل سلام : ومنهم رئيس الوزارة الصديق صائب سلا ..

بفندق أوريانت حتى لحقت سعد الله الجابري ، فتوجهت إليه رأساً ودار حديث قصير أعلمته فيه بما أتيت من أجله وسلمته صورة من احتجاج مصر على حوادث لبنان ، وطلبت إليه أن يكون احتجاج سوريا في أسلوب لا يقل قوة عن احتجاج بقية البلاد العربية ، وأن حوادث لبنان امتحان لقوة النظم الديمقراطية ، وأن أى تساهل سيعرض كيان سوريا نفسه للأخطار ، وانتقلت إلى اجتماع اشتورة فقلت له : « كيف يقبل رجال الشام تناول الطعام على أرض الوطن اللبناني الجريح وهو في محنته » ولما لمس الجد في حديثي قام في الحال إلى دار رئيس الجمهورية ووعدني وعداً أكيداً أن يمهّد لعمل حاسم .

ونمت ليلة هادئة ، وفي الساعة السابعة ، دق باب حجرتي ، فإذا بوزير الخارجية الرئيس جميل مردم ، يخبرني بأن دعوة « اشتورة » قد ألغيت وأن المقابلة ستكون في بيروت ، وسلمني صورة من المذكرة التي وضعتها حكومة دمشق بدل المذكرة التي كانت تنوى إرسالها .

وحدث الله على أن الخطاطرة في بعض الأحيان قد تكون فيها منجاة وقد تكون خير حافز للنفوس العاملة على أخذ الأمور بالحزم والعزيمة .

* * *

وعدت في المساء إلى بيروت ، وفي اليوم التالي زارني الوزير البريطاني الجنرال سبيرز ، أو علمني أنه تلقى من مركز الجيش التاسع البريطاني الذي يتولى قيادته الجنرال هولمز ما يفيد بأن الجيوش الفرنسية تحرّكت صوب بشامون حيث تقيم الحكومة الوطنية وأن بعض القطع العسكرية ركبت رشاشات ومدافع سريعة الطلقات على بعض أكتاف الجبال ، وأن رجالاً من الجيش البريطاني سمعوا تبادل إطلاق النيران .

ولما كانت المعلومات التي لديه تجعله يعتقد باستحالة المقاومة من جانب اللبنانيين لعدم تكافؤ القوى ، فهو يخشى أن يقبض على رجال الحكومة الوطنية

ويعاملون كشوار ، ولذا تشاور مع رؤساء الهيئات السياسية المعتمدة لدى الجمهورية اللبنانية على قبول كل من يلجأ إلى دور المفاوضات . فقلت له أننى مستعد لقبول أربعة من زعماء الحركة إذا طلبوا منى ذلك « فقرارأى على أن يكون صبرى حمادة وثلاثة من نصيبي، وحبيب أبو شهلا والأمير مجيداً رسلان من نصيب البريطانيين » . وواعد بأن يرسل سيارة عسكرية لحملهم إلى فلسطين بمجرد وصولهم إلى بيروت وقضائهم الليل بالمفاوضات ، ثم تحرّسهم قوة من الجيش التاسع . وكان مما قلته له : « أن موظفى القنصلية البريطانية العامة لجأوا إلى مفوضيةتنا

حينما كانت قنصلية عامة يوم أن قامت الحرب بين جنود بريطانيا وحكومة فيشى فلم أتردد لحظة واحدة فى حمايتهم تحت العلم المصرى حتى جاء القنصل العام الأمريكى « المستر انجرت » وتسلمهم بعد الساعة العاشرة مساء من دارنا فكيف أتردد فى قبول وحماية رجال وطنيين يدافعون عن بلادهم وكرامتهم » .

وفى نفس الوقت جاءنى رسول من الحكومة الوطنية يحمل نسخة من بلاغ أصدرته عن حادث الجنود الفرنسيين وأسباب تبادل الطلقات النارية ويحمل إلى تحيات رجالها وثباتهم إلى النهاية .

وفى اليوم التالى بلغنى من أوثق المصادر العسكرية أن أوامر الجنرال هولمز قد صدرت إلى القوة الفرنسية بالعودة إلى مراكزها التى كانت تحتلها وأن القيادة الفرنسية شرحت الموقف لقيادة الجيش التاسع وتتلخص إجابتها فى ان العمليات التى قامت بها لم يقصد منها الالتحام بالوطنيين اللبنانيين ، وإنما كانت القوة تقصد فى تحركاتها وحشودها حماية مستودع الذخيرة فى تلك الجهات وكانت تخشى أن يقع بأيدي الثوار : لقد أنقذ هولمز حكومة لبنان الوطنية بموقفه الحاسم .

وفى ذلك اليوم بالذات بعث الجنرال كاترو مبعوثاً هو المسمى بار الموظف بدار المندوب السامى أرسله إلى الحكومة الوطنية اللبنانية لمفاوضتها على أسس الانفاق فتمسكت بعودة الحالة إلى ما كانت عليه قبل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ أى قبل الانقلاب الفرنسى . . وأحتل كاترو المسكان الأول وبدأت الأزمة تسير فى طريق الحل ...

كسب الحرب بحتم على الدول الربرراضية الكبرى
أن تسرع من حمايتها بشان لاطلطي

سيمجد القارىء فى خلال قراءته لهذه المذكرات و بين سطورها تفسيراً للحوادث التى مرت عليه فى القسم الأول^(١) منها ، وهو الذى عرضت فيه العوامل النفسية التى كنت أعيش تحت تأثيرها ثم ما تلاها من الحوادث فجأت أمامه كشريط انطبعت عليه عدة صور لما رأيته فى تلك الأيام ، وسيطلع القارىء فى هذا القسم على شرح بعض ما جاء غامضاً ، وعلى الأخص الظروف التى جعلت الفرنسيين يحجمون عن مداومة اطلاق النيران فى رابية بشامون ، حينما وجه إليهم الجنرال هولمز البريطانى قائد الجيش التاسع ، أمراً عسكرياً يستعلم فيه عن حركات جنودهم والغريب أن هذه الحوادث أثارَت العالم بأمله وتحديث عنها الصحف فى مشارق الأرض ومغاربها ولكن حينما يتحدث السياسى الأمريكى المشهور المستر سمنر ويلز عن انقلاب لبنان سنة ١٩٤٣ فى كتابه « هذا الزمن الحاسم » تقرأ فى صفحة ٢٠٥ أنه يخالط بين سوريا وشقيقها لبنان فهو يصبر على أن الانقلاب وقع فى سوريا ويقول « ان الجنرال ديجول باشتراك الميسو هيللو أمر بالقبض على رئيس جمهورية سوريا ووزرائه » وسمى هذا القرار عملاً بعيداً عن اللياقة وإن كان ما جاء فى كلامه — لو شئنا ترجمته حرفياً — أشد وقعاً من هذا بكثير إذ يصف من أصدر هذا الأمر بالغباء والسخف .

وتهمنا الفقرة هذه بالذات لأنها تقنعنا بأن السياسيين العالميين يضعون خطوطاً عامة للسياسة العالمية وليس لديهم من الوقت ما يسمح لهم بأن يشغلوا أنفسهم ببحث أو فهم مسائلنا الكبرى فكيف نطلب منهم أن يلعبوا بمسائلنا الصغرى . إننا نطلب المستحيل ونبدو لهم أحياناً فى منتهى البساطة . . . وأظن أن فى هذا القدر الكفاية .

لقد أعطيت للقارىء فى الحديث الماضى صورة عن الحالة التى عشتها فى الأيام الأولى وقد قال بعض خصومى أننى أعطيت لنفسى لوناً براقاً والحقيقة الجردة عن أى مبالغة هى ما رسمته ، ولقد أشرت إلى توالى اجتماعات الممثلين السياسيين المعتمدين لدى الجمهورية اللبنانية أو الذين اعترفت حكوماتهم باستقلال لبنان ، وكانت هذه الاجتماعات تدور غالباً فى السفارة الأمريكية أو فى المفوضية المصرية ، ويرجع أكثر نشاط الممثلين إلى الروح التى أوجدها المستر ودزورث الممثل الأمريكى وليس لى أن أوفيه حقه هنا ، لأننى سأفرد لشخصيته ومكانته وأثره مكاناً خاصاً عند نشر كتابى « خمس سنوات فى سوريا ولبنان » كما أشير إلى المسيو ديلسكويين الممثل البلجيكى الذى أمضى سنوات بمصر ، فقد كانت اتصالاته المباشرة والطيبة مع الفرنسيين خير معوان لزملائه على تفهم وجهات نظر هؤلاء أما المفوضية المصرية فيكفى أن أقول أنها أصبحت مرآة صادقة لروح الشعب اللبنانى بأحزابه وطوائفه وعناصره بشـكل لم يعرف من قبل ، وانى لا أزال أحتفظ بعلاقات وثيقة ولا أنسى ما حييت عواطف اللبنانين والسوريين الأحرار نحوى حينما تركت البلدين ، ولذلك احتلت المفوضية مكاناً مرموقاً واتجهت إليها الأنظار والآمال ، وكانت منها تصدر الأخبار الصحيحة التى تعبر عما يجيش بصدور أهل لبنان وبلاد العرب كافة

وقد تبين لى من استعراض الحوادث أننا أزاء أربعة اتجاهات أو حلول :

أولاً : حل تفرضه فرنسا وحدها للخروج من المأزق ، وهذا يمثل رغبة الجنرال ديجمول ولجنته بالجزائر .

ثانياً : حل يقبله لبنان من جهة ويتم على أيدي الفرنسيين والإنجليز مشتركين من جهة ثانية .

ثالثاً : حل يتم بين لبنان مع اتفاق الدول الكبرى : فرنسا وابلتترا وأمريكا .

رابعاً : حل يتم بين لبنان وهذه الدول الثلاث مع اشتراك الدول التي اعترفت باستقلاله ويكون خطوة أولى لظهور ميثاق الأطلسطى وفكرة الأمم المتحدة فى ميدان السياسة العملية لأول مرة .

إن الأمم العربية قامت بإرسال احتجاجها وتظاهرت جماعاتها ضد الانقلاب ولم تكن تملك غير هذا للتأثير فى المحيط الدولى فهى فى الحقيقة كانت تسير فى فلك السياسة العالمية التى تضعها بريطانيا وأمريكا ، وقد كان أكرم لعزتها أن تسير فى هذا الطريق الأخير وأن يأتى عملها مطابقاً للنظام الذى سيتمخض عنه العالم الجديد وهو نظام الأمم المتحدة والذى كانت تبشیر مجيئه على السنة السياسيين وكان هذا رأى دائماً ، وهو ماسرت عليه فى مباحثاتى ومواقفى بكل صراحة وجراحة . ولم يشأ الجنرال اسبيرز أن يشترك فى المباحثات والاجتماعات التى كانت تدور وإن جاء تعبيره عن رأى حكومته واضحاً بصورة لا تقبل الشك ، فهو يصرح لنا من أول يوم : « بأنه غير موافق بقتاً على حصر المسألة بين فرنسا ولبنان وهو مندهش من تصرفات بعض رجال الإنجليز فى الجزائر الذين يقولون بهذا القول ، وكان يشير دائماً بأن الفرنسى يصعب عليه أن يسلم بما فى يديه وأنه غير واثق من النتيجة حتى بعد إيقاف إطلاق النيران ، ولذلك احتاط لكل أمر واستعد لكل مفاجأة » وكان مما قاله لى بعد عودته من القاهرة :

« لقد تأخر الجنرال كاترو بالقاهرة فى سفره إلى بيروت التى وصلها يوم ١٦ نوفمبر ، وتحادث مع المستر كايزرى هناك مرتين ليكسب الوقت ولكنه شعر من أول مقابلة أن الاعتذار دائماً بعرض الأمر على لجنة الجزائر أمر إن يجدى شيئاً هذه المرة » .

« فأمّا أن يكون الجنرال كاترو مفوضاً لحل الأزمة وإعادة الدستور اللبنانى والإفراج عن رئيس الجمهورية والحكومة المعتقلة ، وإلا فليترك لجنة الجزائر الفرنسية تتلقى اللطمات بمفردها نتيجة لأخطائها » .

« أن الجنرال ديجون لأسباب داخلية فرنسية ، يلجأ أحيانا إلى إستعمال كلمات نابية وعصبية ، ونحن نعلم حاجته لذلك ، ولكن لانقنعنا هذه الأساليب لكي تؤثر على سياستنا في لبنان الذي اعترفنا باستقلاله فأما أن يحصل لبنان على حقوقه وتعود إليه كاملة مع الضمانات الكافية بحيث لا تنزع من يده مرة أخرى وأما أن انسحب كممثل لبريطانيا من الميدان وأعود لبلادي » ، وفي مقابلة ثالثة صرح لي : « بأن العالم الجديد الذي نحارب من أجل الوصول إليه ، لن يقبل هذه الأساليب مرة أخرى في السياسة كوسيلة لحل المشاكل التي تعرض . أن كسب الحرب القائمة يحتم على الدول الديموقراطية الكبرى أن تسهر على حماية ميثاق الأطلنطي وتنفيذه ، وأن تفرس الثقة في نصوصه وتتعهد لها لدى الشعوب المتطلعة إلى الحرية ، وأن يكون هدفها تأييد استقلال هذه الأمم فتساعدنا على الوصول إلى حقها في تقرير المصير والتمتع بمنزلة الأمم الحرة » .

« إنه من العار علينا أن نتراجع أمام أول امتحان تعرض فيه المبادئ التي نحارب من أجلها للتجربة القاسية . كيف ينتظر الساسة منا أن يصدقنا العالم بعد ذلك ؟ . إننا دخلنا هذه التجربة القاسية ونحن على علم بمتاعبها ، لأن الدعاية قائمة ضدنا في كل مكان ، وقد بعثت الأساليب الكلاسيكية البائدة التي تعتمد على إثارة الفعرات الدينية ، والفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، ولكنني واثق من أن شعب لبنان سيتغلب على هذه العقبات . لأن هذه الأساليب لم تعد تنطلي عليه . نعم إن الموقف لا يزال خطيراً ، وستمر أيام صعبة ، ولكن النتيجة التي أمامنا واحدة . وهي العودة إلى النظام الذي كان قائماً في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ . لقد أرسلنا احتجاجاً في صيغة معتدلة إلى الجزائر ، ولم تسكن عباراته تم على شيء ، ولكننا اضطررنا أن نهدد بعد ذلك ، وجاء موقف المستر تشرشل حاسماً ، وقد عرضه على المستر روزفلت الذي رحب به ، ولذلك أعطيت مهلة تنتهي في يوم ٢٢ نوفمبر الساعة الثانية عشرة ، فإذا لم يتمكن الفرنسيون من إعادة الأوضاع السابقة

في الجمهورية اللبنانية ، أعلنت الأحكام العرفية البريطانية ، في أراضي كل من سوريا ولبنان وتولى الجيش التاسع حماية الأمن واضطلع بمسؤولياته .

* * *

أما الوزير لامييركي فكانت نظريته تتلخص في أنه لا يوافق على ترك الأمر بين فرنسا ولبنان ولا يسلّم بتأناً بالنظرية القائلة بأن تنفرد كل من فرنسا وبريطانيا من جهة لحل المسألة اللبنانية وهو يميل إلى الرأي الذي تقدم به الرئيس مصطفى النحاس والذي يقضى بإقرار حالة مؤقتة بين لبنان من جهة ومجموعة الدول المتحدة ومنها فرنسا من جهة أخرى .

إن هذا الاقتراح العملي يدل على إيمان صاحبه بالمثل العالمية وتصميمه على تطبيقها في علاقات الشعوب وهو رأى له وجهته .

ويقول « إن كل السلطات مهما كان نوعهما سواء كانت لبنانية أو فرنسية أو بريطانية تتضاءل وتفكش أمام سلطان القيادة العسكرية للحلفاء وضرورات الحرب القائمة » .

وفي لبنان يعتبر الجنرال هولمز قائد الجيش التاسع ، هو صاحب الرأي الأعلى لا لأنه قائد بريطاني ، بل لأنه يمثل الأمم المتحدة في أراضي سوريا ولبنان . « فالفرنسيون يقولون بعض الأمور الإدارية والمالية الممثلة في المصالح المشتركة والأمن العام ، وهم يقومون بهذه السلطة غير معتمدين على صك الانتخاب كما يخيل إليهم ، بل قد أسندت هذه المصالح إليهم بالوكالة عن القائد المذكور الذي يتحمل وحده أمام الأمم المتحدة المتحالفة مسؤولية الدفاع عن هذه الأراضي ، وعب القتال إذا ما هوجت البلاد ، وأول ما يعنى به هو سلامة الجيوش الحليفة في أنحاء سوريا ولبنان واستتباب الأمن والنظام هنا ، ثم على عاتقه يقع واجب حماية المواصلات وتسهيل الانتقال للوحدات المختلفة وتموينها ، وهو في قيامه بوظائفه هذه تخضع له الوحدات العسكرية ^(١) التي وافقت الأمم المتحدة على وجودها هنا ، وهو يستعين

(١) أى بما فيها من وحدات حكومة فرنسا الحرة . .

بالفرنسيين في شؤون المواصلات البرقية والتليفونية وله أن يكلفهم بما يشاء .
« ولذا فإن أى تغيير يطرأ على الحالة الراهنة وتعرض بواسطته سلامة الجيوش
للخطر أو حدوث ما من شأنه أن يؤثر في الوضع العسكري الذى تهتم به الأمم
المتحدة بأكملها يمس مسؤوليات الجيش التاسع الذى يمثلنا جميعاً هنا ، ولولا
وجوده في هذه البقعة ، لما قامت لفرنسا الحرة قائمة في البلاد ، ولولا وجوده لما قام
استقلال لبنانى ولا دستور ولا حكومة نيابية حرة في أنجائه » .

« إن البلاد العربية بأكملها نعدّها جزءاً من الأمم المتحدة المتحالفة معنا ،
فهى من حقها أن تتأثر بحوادث لبنان وأن تمثل في أى اجتماع يعقد مدة الحرب ،
لينظر في إيجاد حل لمشكلة كل من سوريا ولبنان اللذين يجب أن يتمتعا باستقلال
تام . فالمصالح المشتركة لا يصح أن تبقى بيد الفرنسيين لأن بقاءها يتعارض مع
الاستقلال الذى اعترفت به الدول الديمقراطية ، وقد أصبح واضحاً أن المسيو هيللو
هو الذى أثار المشكلة الدستورية لىكى يضمن بقاء هذه المصالح بأيدي دولته .
ومن رأى الممثل الأمريكى « أن السلطة المعطاة لقائد الجيش التاسع تكفى لأن
تمكنه من أن يصدر أمره إلى جميع الوحدات الفرنسية بالعودة إلى معسكراتها
وئسكناتها ، أنه يعلم أن لديه من القوات العسكرية الكافية ما يسمح له بتنفيذ
قراراته دون أن تهرق نقطة واحدة من الدماء ، وأظن أن الجنرال كاترو والقواد
الفرنسيين يفهمون هذه الحقيقة الواضحة ، أكثر من فهم رجال السياسة الفرنسيين
والدبلوماسيين لهذه الحقائق » .

وفي هذه الاجتماعات عبّرت عن رأيي فقلت أن الشعوب العربية في نهضتها
وكفاحها تحاول أن تخرج من هذه الحرب تحت نظام ديموقراطى صحيح أى تحيط
حق الفرد والجماعة لدينا بضمانات لا تقل عن الضمانات الذى يتمتع بها أى مجموع
أوروبى أو أمريكى ، وأننا في سبيل اقرار هذه النظم الديموقراطية ، وضعنا كل
جهودنا مع الدول المتحالفة لاقرار عودة الدستور في البلدين سوريا ولبنان وإيجاد

حكم وطني منبثق عن ارادة شعبية وقد نجحنا في ذلك . فالاعتداء على هذه الأنظمة الديموقراطية في لبنان هو اعتداء صارخ على المجموعة العربية بأكملها إذ يعرضها للاخطار والنكسات الرجعية ويحرمها من حقها الطبيعي للتمتع بالرفاهية والاستقرار الملازمين لأى وضع أوربي أو أميركي يستمد قوته من إرادة الشعوب ورغبتها لى تعيش حرة حتى تؤدى رسالتها وتسير نحو الرقي والمدنية . فنحن نطلب العدالة للشعب اللبناني والضمانات السكافية لى يعيش حراً سيداً فى بلاده .. » .

« ولذلك قامت مصر بأسرها وارتجت لهذه الحوادث وعبرت بلسان ملكها وحكومتها وشعبها بأنها لن تقف إزاء هذا الأمر مكتوفة الأيدى ، وقد صرح رئيس الحكومة المصرية بأنه سيعيد النظر فى علاقات مصر مع فرنسا إذا لم تحل هذه الأزمة بما يتفق مع كرامة الشعب اللبنانى واستقلاله التام » .

* * *

هذا هو موقفنا ورأينا الذى عبرنا عنه كما ورد فى المفاوضات التى كنا نتداول الرأى فيها وعلى ضوء المذكرات المقدمة منا والتطورات التى تقع كل يوم ، وقد بقى موقف الحكومة السورية أمام الممثلين السياسيين موضع تساؤل وإن كنت أطلعهم على صورة مذكرة الاحتجاج التى سلمنى إياها الرئيس جميل مردم ، وقد تولى الجنرال كاترو فى مذكراته تحديد موقف دمشق فى تلك الأيام بوصفه — نقلاً عن الجنرال أوليفا روجية — إنه كان معتدلاً ، ولقد كان هذا موضوع سؤال وجهه إلى المرحوم رياض الصلح أمام رئيس الجمهورية اللبنانية فى منزله بعد الافراج عنهما فكانت اجابتي عامة ولم أدخل فى تفاصيل ما قمت به فى دمشق . وذلك لقرب الحوادث ، ولأن المصلحة كانت تقضى بهذا الصمت حرصاً على كرامة سوريا التى احتجت وأظهرت تضامنها معنأً بعد ذلك وغيرت فى موقفها المعتدل بعد تدخلى الذى أشرت إليه .

وقد ذكر الجنرال كاترو أن الحكومة السورية بقيت محتفظة بموقفها

المعتدل مدة من الزمن ، وأن الصحافة السورية بعكس صحافة بغداد والقاهرة لم تهاجم فرنسا بشدة وقسوة ، وأنه بعد يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ حينما علمت الحكومة السورية بخبر الإنذار البريطاني الذي وجهه المستر كيزي إلى السلطات الفرنسية ، بدأت تغير موقفها .

ويزيد على ذلك قوله « أن طلب المقابلة في بيروت تقدم به الرئيس جميل مردم » والحقيقة أن موعد المقابلة تحدد في يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ في اشتورة بناء على طلب الجنرال ، أما إلغاء الدعوة وطلب إجراء المقابلة في بيروت فكان بناء على طلب وزير الخارجية السورية ، وقد تم هذا عقب زيارتي لدمشق ومقابلتي لسعد الله الجابري ، وبعد مجازفة خطيرة ، وفي بيروت سلم الرئيس جميل مردم الاحتجاج السوري إلى الجنرال ، وفي هذا الاحتجاج تلاح الحكومة السورية في عودة الأوضاع اللبنانية إلى ما كانت عليه قبل ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ كما جاء في المذكرات الرسمية والاحتجاجات التي وجهتها حكومتا مصر والعراق . والحقيقة أن موقف الحكومة السورية في الأيام الأولى من الانقلاب كان يدعو إلى الحيرة .

* * *

وأعود الآن إلى الجانب الفرنسي وشرح موقفه بعد الانقلاب :

يقول الجنرال كاترو أنه في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ حول الساعة الخامسة مساء حينما عاد إلى مكتبه بمدينة الجزائر بعد أن انتهى من مراسم حفلات عقد هدنة سنة ١٩١٧ سلم إليه مساعدته في الشؤون الإسلامية روبرت مونتائين تلعراقاً من شركة روتر يقول « أن الدستور اللبناني قد أوقف وأن رئيس الجمهورية اللبنانية وبعض رجال حكومته قد قبض عليهم » ولما لم يكن قد وصل إليه أي نبأ عن طريق هيللو فقد هزّ كتفيه قائلاً : « لقد زادها حقاً روتر هذه المرة » . بهذا الحديث المقتضب دخل الجنرال في صميم الحوادث اللبنانية ، وبالاطلاع

على مذكرات المستر كوردويل هل الوزير الأمريكي ، نجد أن حكومة الولايات المتحدة أرسلت تعليمات صريحة إلى المستر مورفي ممثلها بالجزائر في ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٣ لكي ينصح الفرنسيين باتخاذ الإجراءات التي تدعم الاستقلال السوري واللبناني ، وأن أي إجراء يعطل هذا الاستقلال سيحيط بمبادئ وأهداف الأمم المتحدة بالشكوك : ولكن لجنة الجزائر لم تحفل بذلك أو أن مورفي تلسكأ في إبلاغها هذه النصيحة .

وفي نفس اليوم الذي تلقى فيه الجنرال كاترو هذا النبأ دعاه الجنرال ديغول لبحث الحالة على ضوء التطورات المحلية والدولية .

ويصرح بأنه شعر من أول وهلة بأن الحالة جد خطيرة من ناحية المبدأ ومن ناحية النتائج وما يترتب عليها من آثار والتزامات فهي من الوجهة القانونية لا يمكن الدفاع عنها ، لأن فرنسا ألغت الانتداب ، وأقامت نظاماً شبه استقلالي وحياة دستورية ، فالتقبض على رئيس الجمهورية بعد هذا الاعتراف بالاستقلال أمر لا يقره أي عدل أو منطق ، فكيف يمكن الدفاع عنه . أما الآثار السياسية لهذا العمل ، فستكون ازدياد التعاون والتماسك بين البلاد العربية ، وفتح الطريق أمام الجنرال اسبيرز لكي يتمكن من توجيه ضربات للسياسة الفرنسية . فالواجب يقضي باقلال آثار هذا الخطأ ، وحصرها حتى لا يتضخم فتتوالى الأخطاء والنكبات ، وبهذا عرض على الجنرال ديغول فكرة سفره مع المسيو ماسيلي إلى بيروت .

ولقد توقع من المبدأ حدوث التدخل البريطاني ، وفعلاً تم هذا بمذكرة قدمها المستر ماكنزي تبدأ بقوله : « لا يسمع الحكومة البريطانية أن توافق على ازدياد حالة التوتر في الشرق ، ولا يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدي أمام أي اضطراب الأمان فإن قيام الحرب في تلك البلاد ، ولذلك فهي تدرس بانتباه ، هل تدعو الضرورة إلى إمكان تدخل القوات البريطانية واستعمالها لإعادة الأمن ؟

وتطلب الحكومة البريطانية استدعاء الميسو هيللو وإخلاء سبيل رجال الحكومة اللبنانية ؟ .

وقد نظر الجنرال كاترو إلى هذه المذكرة نظرة الرجل السياسي الذى يخترق الحجب ، فهو يقرر أن الأحوال اللبنانية لا تسكفى وحدها لإملائها ، وإنما الدوافع الأصلية هى اتجاهات السياسة العربية التى أخذت بها بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية . ولا يخفى رأيه فى موقف الولايات المتحدة الأمريكية ، التى قال عن مذكرتها أنها وضعت فى قالب وأسلوب أقل حدة ، ولكن هذا لا ينفى اعتقاده بأن الولايات المتحدة سوف تنهج فى سياستها نفس الطريق الذى تسير فيه بريطانيا وتلك هى سياستها دائماً حينما يتعلق الأمر بشئون الشرق الأدنى التى تستوحى فيها توجيهات رجال الاختصاص البريطانيين .

ولقد صدقت فراسة الجنرال فى ذلك ، لأن كوردويل هل حينما يتحدث فى مذكراته عن حوادث لبنان يقول : « أنه شرح الموقف تماماً للرئيس روزفلت الذى كان يستعد للسفر إلى القاهرة ، لى يتبادل الرئيس الأمريكى الرأى مع المستر تشرشل فى مسائل الشرق بأكملها » . فجاءت من الرئيس برقية إلى وزير الخارجية الأمريكية لمستر كوردويل هل تاريخاً ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ أى فى إبان اشتداد الأزمة اللبنانية نصها : « أظن أنه من واجبنا أن نشد أزر بريطانيا فى موقفها إزاء حوادث لبنان وأن نجتهد بأن نزيد من قوته » وفى هذه البرقية ما يؤيد النظرة الصحيحة التى لمسها الجنرال الفرنسى من مجرى الحوادث السياسية التى كانت أمامه ، وهى نظرة منطقية واقعية وتعتبر إلى الآن قاعدة دائمة من قواعد السياسة الدولية حينما يتعلق الأمر بشئون هذا الشرق الذى لم يصل به الإدراك إلى فهم هذه الحقائق .

ترك الجنرال كاترو الجزائر فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ووصل فى مساء ذلك اليوم إلى القاهرة ، حيث استقبله البارون دى بنوا مندوب فرنسا الحرة ومدير

شركة قناة السويس والمسيو فيليول الذى كان يشغل حتى السنوات الأخيرة منصب قنصل فرنسا بالثغر الاسكندرى .

ولقد حدثناه عن الأثر الذى تركته حوادث بيروت فى القاهرة وأن الصحافة بوحى الرئيس مصطفى النحاس وإلهامه هاجمت الاستعمار الفرنسى . وأن المظاهرات الشعبية قامت فى الإسكندرية وأن الزعيم المصرى ينادى بإعادة النظر فى العلاقات بين مصر وفرنسا ويهدّد بقطعها عند اللزوم .

وفى يوم ١٥ نوفمبر تقابل الجنرال مع كايزرى الذى بداله وهو فى حالة مضطربة لتأخر الجنرال عن اللحاق سريعاً بلبنان خوفاً من ازدياد التوتر ووقوع الاصطدام .

ويقول الجنرال كاترو أنه أفهم المستر كايزرى أنه لا يقبل أن يدعى إلى إجراء أى عمل معين بالذات ولا يسلم بأى تدخل خارجى ، وأن سفره إلى الشرق هو دليل اهتمام الحكومة الفرنسية بلبنان ورغبتها فى جعل الاستقلال حقيقة واقعة . ولما سألته عن رأيه فى الحل الذى سيعرضه ، أجاب بأنه سيقدر هذا الحل فى لبنان حينما يدرس الحالة هناك . وفى هذه المقابلة جاء ذكر نقل المسيو هيللو ، فأعرب للجنرال أنه فى هذه الحالة ينقل كل من هيللو واسبيرز ، وتنتهى المشاكل فى الشرق بين الدولتين .

وبعث الجنرال كاترو من القاهرة ببرقية إلى الجزائر تتضمن أقواله مع المستر كايزرى جاء فيها « إن غرض كايزرى الأساسى هو توجيه أنظارى إلى تطور الحالة فى لبنان وخطورتها ، وأن على إنهاؤها يتعلق بقاء العلاقات بين اللجنة الفرنسية وحكومتي إنجلترا وأمريكا ، لأن واشنطن جطون اتخذت موقفاً متفهماً مع الموقف البريطانى تماماً ، فأعلمته بأننى أضع علاقاتنا مع أمريكا وبريطانيا فى المقام الأول ولأسكننى أضع كرامة بلادى وحقوقها فى مقام لا يقل عن ذلك » .

« وأنى لعلى يقين بما تخسره فرنسا إذا قطعت علاقاتها معكم ، ولكنى واثق
فى الوقت نفسه بمدى ما سوف تخسره كل من بريطانيا وأمريكا إذا حدث
شئ مثل هذا » .

وترى أن الصورة التى يعطيها الجنرال فى مذكراته عن حديثه مع الوزير
البريطانى المقيم بالقاهرة تختلف تماماً عن الصورة التى تلقتها المفوضية البريطانية
فى بيروت ، وإن كنت تلحج فى مقدمة برقيته و فقرتها الأولى ما يؤكد صحة
المعلومات التى تحدث بها اسبيرز للعثلين السياسيين فى بيروت .

وفى مساء يوم ١٦ نوفمبر وصل الجنرال كاترو إلى بيروت ليبدأ مهمته .

وفىها بدأ اتصالاته مع العسكريين الإنجليز والأميركيين والفرنسيين ثم مع
رجال السياسة اللبنانيين .. وانتهت كما رأينا بإعادة الأوضاع السياسية إلى ما كانت
عليه والإفراج عن رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ...

مذكرات الجنرال فيجيان المدعو إلى الخدمة

القسم الأول

بين يدي الكتاب القيم الذى وضعه فيجيان عن الحرب الأخيرة وسماه :
« العائد إلى الخدمة » فكانه فرض على نفسه أن يكون جندياً بسيطاً لا قائداً
من القواد . فهو يقول عن نفسه « العائد إلى الخدمة » ولا يقول المدعو إلى شرف
الفضحية وهلم جرأ من الأسماء والمسميات التى اعتدنا أن نقرن بها كل عمل
— مهما كان بسيطاً أو سهلاً — قننا به أو دعينا إليه فاستجبنا .
ويعجبني أنه وضع اسمه مجرداً عن رتبته وألقابه واكتفى بأكبر شرف
فى نظره وهو عضويته للأكاديمية الفرنسية وهنا لم يذكر هذا ، بل اكتفى
بأن قال : « فيجيان من الأكاديمية الفرنسية » .

* * *

بدأت قراءة هذا الكتاب القيم بتمهل وتمعن ، وأخذت أقلب صفحاته
فى القسم الأول الذى يأتى كمقدمة وهى التى سماها القائد الفرنسى : « مهمتى
فى الشرق الأدنى » — وهذا القسم هام فى نظرى لأن ظروف عملى هيات لى
الاتصال بالجنرال والمعيشة والعمل فى البلاد التى كلف فيها بهذه المهمة الخاصة .
ولذلك كنت أقرأ كل صفحة ممعناً وأتعرف بعد تلاوتها على الأشخاص
والحوادث مرة أخرى ، وكانت إقامتى هناك قد شجعتنى على أن أنشر كلمة كتبتها
عن فيجيان منذ زمن طويل ونشرتها بالعدد ٦٥٢ المؤرخ ١١ فبراير سنة ١٩٤٦
من مجلة الرسالة تحت عنوان : « صفحات مطوية — الجنرال فيجيان فى سوريا
ولبنان » . وأود لو أعيد نشرها كمقدمة لهذا الكلام من غير تبديل أو تغيير ،

وللقلزىء الكريم أن يعود إلى هذه الكلمة فى العدد الذى نشرت فيه (السنة ١٤٤٠ من الرسالة) .

ويقول الجنرال فيجيان أنه وصل إلى سن التقاعد والخروج من الخدمة فى ٢١ يناير سنة ١٩٣٥ ، ومع ذلك فقد احتفظت به فرنسا بعد هذا التاريخ فى الخدمة بالجيش كمكافأة له على ما قدم من خدمات إبّان الحرب العالمية الأولى . ولكن هذا لم يمنعه أن ينقطع بإرادته عن حضور كافة المجالس واللجان العسكرية التى كانت تعقد وذلك حرصاً على ألا تمس حساسية من جاء بعده فى مركزه وكان هذا رغم اهتمامه السكلى بالمسائل العسكرية الكبرى وانصرافه إلى درس شئون الحرب دراسة ملأت سنوات حياته بأكملها .

ومضت الأيام فلم تمكنه من أن يقوم بعمل رسمى سوى تمثيل بلاده على رأس البعثة العسكرية الخاصة التى أرسلتها فرنسا فى شهر إبريل سنة ١٩٣٩ لحضور حفلات زواج ولى عهد إيران ، وفى أثناء عودته من طهران كلفته حكومته بمحادثات مع الحكومة التركية ومع ملك رومانيا .

وهكذا بقى بعيداً عن الحوادث حتى جاء شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ حيث كان يقضى فصل الصيف مع عائلته فى بريتانيا الفرنسية ، إذ جاءه فى يوم الثلاثاء ٢٣ من هذا الشهر كتاب من الجنرال « جاملان » بدعوة لمقابلته بغير إمهال فى باريس ، وفى اليوم التالى لَبّى هذه الدعوة وتقابل مع جاملان فى مكتبه برئاسة أركان حرب الجيش الفرنسى ، وقد فهم فيجيان منه أنه يعرض عليه مركزاً عسكرياً هاماً فى الشرق الأدنى ، ويقول جاملان أنه لم يشأ أن يتقدم بهذا العرض قبل أن يتأكد من قبول الجنرال لهذه المهمة ، ويقول فيجيان أنه أبدى استعداده من غير تردد لتحمل عبء هذا المركز العسكرى .

ويفسر قبوله هذا المنصب بأنه منذ شهر سبتمبر سنة ١٩٣٨ وفى إبّان اشتداد الأزمة الأوروبية وتعرض العالم لانفجار الحرب ، تقدم بطلب إلى وزير الحرب

يعرض خدماته في حالة إعلان الحرب واشتبك القتال خصوصاً وأنه يعد ضمن الكادر العامل للجيش مدفوعاً بشعوره رغم تجاوز السبعين من عمره إذ بوسعه أن يقوم بخدمة بلاده ولا يريد أن يبقى بغير عمل في الوقت الذي يحس فيه بقدرته على عمل شيء ما ، وهو في عرضه هذا لا يريد أن يتولى عملاً معيناً أو قيادة خاصة ، وإنما يقبل بكل ترحاب أى عمل يسند إليه .

أما هذا العرض الذي جاء إليه سنة ١٩٣٩ فيعيده إلى منطقة سبق له أن عمل فيها بين سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٤ لما تقلد مركز المندوب السامي للجمهورية الفرنسية في بيروت ، وهو يسره أن يستعيد ذكرياته هناك ..

وهكذا عاد من هذه المواجهة متأكداً بأنه سيذهب إلى غيبة طويلة تحرمه من عائلته وأحفاده ، فأخذ الأهمية لذلك ، ولما عاد لمقابلة جاملان مرة ثانية : أطلعه هذا على الكتاب الرسمي الذي يحدد له هذه المهمة ، وفيه ما يأتي :

« أختير الجنرال فيجان لملء وظيفة القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط .. وتخضع أراضي بلاد الانتداب الفرنسي للجيش الواقعة تحت قيادته ، ويكلف علاوة على ذلك بتنسيق عمل البعثات العسكرية الفرنسية للجيش التركية واليونانية واليوغسلافية والرومانية ، ويكون من حقه الاتصال المباشر مع القيادة البريطانية العليا بمصر التي يصح له أن يتفاهم معها على كل ما يتعلق بالتعاون المشترك بين قوات فرنسا في الشرق وقوات بريطانيا في مصر » .

ووقع رئيس الجمهورية هذا الكتاب وطلب منه « دلاديه » رئيس الوزراء أن يستعد للسفر إلى بيروت عن طريق الجو .

ويحدثنا فيجان عن عواطفه في تلك اللحظات التاريخية الفاصلة فيقول : « إنه شعر بكثير من الألم لترك بلاده وأهله في تلك الأوقات الصعبة ولكنه شعر بأنه قد عاد شاباً لمجرد تشبعه بالفكرة ، أنه قد دعى للعمل بالجيش مرة أخرى ... »

وهكذا خرج من دائرة الشكوك والآلام والتردد التي يعانها الكثيرون ممن تحتم عليهم الأقدار بسبب تقدم سنهم أو حالتهم الاجتماعية والصحية « إبعادهم لأسباب يجهلون » من على ميدان الخدمة العامة أن يقفوا موقف المتفرج أمام حوادث التاريخ الكبرى التي تضع مستقبل بلادهم على كفة الأقدار .

وكانت أولى زيارته للمركز « دى فوج » مدير شركة قناة السويس حيث قدم استقالته من وظيفته التي كان يشغلها كنائب رئيس مجلس إدارتها .
وإني أنقل من مذكراتي التي أشرت إليها قلت أنني نشرت جزءاً منها عن أول مقابلة لي مع فيجنان في مدينة بيروت ...

حينما اشتملت نيران الحرب العالمية الثانية ، عين في سبتمبر سنة ١٩٣٩ الجنرال فيجنان القائد الفرنسي المعروف وصاحب الشهرة الذائعة في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . على رأس جيش الشرق في ميدان البحر الأبيض المتوسط وقد حضر إلى بيروت وجعل عمارة كبيرة ذات عدة طبقات مركزاً لقيادته — وهي العمارة التي أصبحت بعد الاحتلال البريطاني مركزاً لبعثة الجنرال سبيرز — فكانت المقادير قد ربطت هذا البناء بأكبر الحوادث التاريخية لسوريا ولبنان إذ اتخذت في حجراته أخطر القرارات وجرت فيه معظم المفاوضات التي غيرت الكثير من أوضاع البلدين .

وكان الجنرال فيجنان في نوفمبر سنة ١٩٣٩ يقيم في قصر شاق برأس بيروت تعرفه من مفرزة الجنود الجراكسة التي تتولى حراسته ليل نهار والتي كانت موضع انتقاد زميلين لي من ممثلي الدول الشرقية ، وقد حظيت بمقابلة الجنرال في مركز قيادته ، ودارت بيننا محادثات ، ففي المقابلة الأولى لقيته في صباح يوم من أيام شهر نوفمبر ، وكان قد تحدّد موعداً من قبل ذلك بيومين ، وقد أخذت الأهمية لهذا اللقاء لعلمي بمنزلة القائد التاريخية ، ولوثوقي من شخصيته ونظرته النافذة .
ولذلك حرصت على أن أتحين الفرصة وأخرج من المقابلة الأولى ، وقد توطدت

بعض الثقة بيننا ، أو شيء من العلاقة غير الرسمية ، أقصد التي يتخللها بعض الصراحة .

فكيف أعمل لذلك ! ؟

كان على أن استجمع كل معلوماتي وما بقى بالذاكرة من حوادث الحرب الماسية وتجاربها ودروسها ، فمنها بعض ما قرأته في المؤلفات المختلفة وبعض ما سمعته بمعهد زورنيخ العسكري حيث درست الفنون العسكرية لسنة ونصف ثم كان على أن أراجع ما قرأته من مؤلفات الجنرال فيجان نفسه ، وأولها مؤلفه عن « حروب محمد على » ، وهو كتاب معروف ومتداول ، ولم ينقصني سوى كتابه عن « تاريخ الجيش الفرنسي » ، وسرعان ما جبت المدينة باحثاً منقياً لدى باعة الكتب ، حتى حصلت على نسخة من هذا الكتاب فأمضيت ليلتين في تصفحه ، وقرأت المقدمة عدة مرات ، وأخذت أتعرف على أسلوبه وطريقته ، في سرد الحوادث وشرح المعارك التي خاضتها فرنسا . ولا تنس أن فيجان عضو الأكاديمية الفرنسية ، فهو قائد وكاتب وأديب له أسلوبه الخاص وميزته في سرد الحوادث وبوسعه أن يصور بقلمه أدق المواقف .

(1) Campagnes Militaires de Moh. Ali

(2) Histoire de l'Armée Française.

الجنرال ثيجان يقدم تقريراً وافياً عن الحالة العسكرية
إذا دخلت إيطاليا الحربية وتحررت من سجن مصر

القسم الثاني

ولقد أفادني ذلك كثيراً : أولاً . لأنني من ثنايا كتابته تعرفت على الجنرال ومن تقليب صفحات كتابه الأخير فهمت ميوله السياسية ، ولذلك شعرت بهدوء وثبات وكأنني أعرف الجنرال معرفة أكيدة قديمة ولما توجهت إلى مركز القيادة استقبلني ياوره وصعد بي إلى الطابق الثاني وأدخاني إلى حجرة تطل على ناصية المدينة بعكس الجنرال اسبيرز الذي حينما احتل المكان كانت حجراته دائماً تطل على البحر ، ولما استأذن لي من الجنرال أدخلني إلى غرفة متسعة ، وأول شيء لفت أنظارى هو أن حيطانها قد غطيت بالخرائط المفصلة لأفريقيا الشمالية إلى حدود مصر وأخرى لسوريا ولبنان مع الجزء الجنوبي لتركيا وفي مقابل المكتب خريطة كبرى لأوروبا الوسطى تظهر فيها بوضوح تام أراضي الجرج والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والجزء البلقاني الذي يبدأ من مقدونيا ، وفيه أراضي بلغاريا ويوغوسلافيا ، وقد ظهرت عليها التضاريس الأرضية وطرق المواصلات بمختلف الألوان . وقد أكرت من ذكر الخرائط لأن الجنرال يحتاج دائماً إليها للتعبير عن آرائه إذا اتصلت بالناحية العسكرية ، وتتجه أنظاره إليها باستمرار في حديثه وأحياناً يشير بأصابعه إليها .

وكان أثناء الحجرة بسيطاً للغاية ، لدرجة أنه لا يرضى به موظف بسيط بإحدى المصالح إذا أعطى بعض ما يشبه الرياسة في بلادنا مصر . وكان المكتب على شمال الداخل فما أن فتح الباب حتى خف الجنرال من أمام مكتبه مرحباً بي ولازمي حتى جلست على مقعد أمامه ، وعاد هو إلى مكتبه ، معتذراً بأن حالة الحرب لا تمكنه من الحصول على أثناء لائق ورفاهية تامة .

وبعد تناول العبارات المألوفة بدأ حديثه : بأنه ليس غريباً عن مصر ،
إذ هو عضو بمجلس إدارة شركة قناة السويس ، وقد أتاحت له هذه العضوية
رؤية بلادنا ، ثم هو مدعو قريباً لزيارتها بناء على طلب مجلس الحرب الأعلى
للحلفاء لتقديم تقرير واف عن الحالة العسكرية ، وما يتطلبه الموقف الحربى إذا
دخلت إيطاليا الحرب وقررت مهاجمة مصر^(١).

قواته فى بلاد الشرق :

أفادتني معلوماتي التي حصلت عليها بمطالعة ليلتين ، والتي أشرت إليها
فى إلقاء بعض الجمل والتعليقات التي جعلته يطمئن إلى نسبة فهم محدثه لبعض
الأمر والعسكرية ، فاعتدل فى مجلسه وأخذ يتحدث ببعض الإسهاب عن القوات
التي تجمعت تحت قيادته فى بلاد الشرق ، فقال : إن فرنسا لم تقصد من حشد
أن تدافع عن سوريا ولبنان فقط لأن القوات المحتلة للبلدين تكفى لحفظ الأمن
وتوطيد سلطتها ولرد كل عدوان يقع عليهما ، وإنما القصد من تجمع هذه الوحدات
أن تكون تحت تصرف مجلس الحلفاء الأعلى لترسل إلى الجهة التي يبدو الخطر فيها
فهو كقائد لهذه المنطقة على رأس مجموعة جيوش فرنسية بينها قوات مؤلفة من
البولونيين والتشيكوسلوفاكيين وغيرهم ممن لم تمكنهم الظروف أو لم تسمح لهم
وسائل النقل بالالتحاق بوحداتهم الأصلية فى بلدانهم وقال :
إن هذه القوة منظمة تنظيماً تاماً ، وعددها يزيد كثيراً عما يعتقده الكثيرون
بل هى دائمة الزيادة بفضل البواخر التي تنقل من فرنسا ومن مستعمراتها
الرجال والعتاد وغير ذلك .

نظمين مصر :

وهنا اتجه الجنرال لجهة الخريطة الأوربية وقال : إن حملة سلاينيك

(١) راجع الوارد عن هذا الجزء نقلاً عن الجنرال كاترو .

في الحرب الماضية قد قصّرت أجل الحرب وساهمت في النصر النهائي بتعجيل انهيار النمسا والمجر وبلغاريا ، وأعتقد أن مجموعة الجيوش التي تحت قيادتي قد تفتح جبهة ثانية في هذا الميدان ، وأشار إلى سهول المجر المتسعة قائلا : إذا لم تدخل إيطاليا الحرب ولم يطرأ شيء على الميدان الغربي ، فإن الحلفاء قد يضرّبون الألمان بفتح ثغرة من هذه الجبهة ضد ألمانيا ، وقد تكون ضربة حاسمة ، وذلك باعتمادهم على جيش الشرق حينما يتم تجمع وحشد قواته ومعداته . ونفهم طبعاً من حديثه هذا أنه قصد تطمين الحكومة المصرية وتمهيد زيارته القادمة لمصر . وقد كانت النفوس قلقة ودعاية المحور على أشدها .

صعدت فرنسا بالسُمرق :

وكنيت أتلطف على معرفة رأيه في المدة التي قضاها في سوريا ولبنان ، ولذلك أردت أن أنقل الحديث إلى ناحية تشير إلى الماضي ، أى في سنوات ٢٤ و ١٩٢٥ فذكرت له المدة التي أقامها بهذه البلاد ، وأنها برغم قصرها لا يزال يذكروها الكثيرون ففهم مرادى من هذه الناحية وقال : إن أصدقاء الكثيرين يأتون إليه من كل جانب ، وأنه يحب هذه البلاد وأهلها ، وأن صلات فرنسا بالشرق صلات قديمة راسخة لا يستهان بها . .

المعسكرات والشكنات :

والجنرال أقرب إلى الرجل القصير منه إلى الرجل المتوسط الطول ، يبدو ذلك في الخمسين من عمره ، وإن كان قد جاوز الستين وأخذ يقترب من السبعين ، وهو دائم النشاط والحركة ، يظهر لى من حركاته أنه شديد الوطأة على معاونيه إذ يطلب درجة فوق المستوى اللاتيني من الضبط والربط ، وهذه الدرجة غير متوافرة في ذلك الوقت ، لأن جيوشه تنقصها المعسكرات والشكنات ، فهي في حكم المضطرة إلى مشاركة الأهالى في مساكنهم ، وناهيك بأثر ذلك في نفسية الجنود

ومعنوياتهم وخضوعهم لأنظمة الجيوش . ولما كان غالب هذه الفرق قد وصل من أفريقيا الشمالية ، وأكثرهم من الجنود الملونة من أهالي المستعمرات والسنغال والمغرب ، كان جل اعتمادها في النقل على الحيوان أو على عربات يجرها الحيوان فكانت أشبه بالجنود التي زحف بها اللورد اللني عام ١٩١٧ على فلسطين وسوريا وحارب بها الأتراك في الحرب العالمية الأولى فهي ليست جيوشاً أوروبية بالمعنى الصحيح .

أهمية الحرب الفرنسية :

كما نعلم الكثير من هذا ، ولكن ثقتنا بالجنرال كانت كبيرة ولاحد لها ، خصوصاً في فنه وعبقريته ، ولما استأذنت ، ودعني قائلاً : أنه يسره أن يراني من وقت لآخر . ولم تعرض المرة الثانية إلا قبيل سفره إلى مصر في فبراير التالي ، إذ بدأت حديثاً معه فأشرت إلى الماريشال فوش ، وكان الجنرال رئيساً لأركان حربه ، وقلت : أنني أقف في كل مرة أزور الانفاليد بباريس أمام الخريطة الكبيرة التي كان يدير بها العمليات الحربية بالميدان الغربي ، وأعجب من عبقريته ، وأفضى بنا الحديث إلى معركة المارن وأثر فوش ، وإلى النظرية الفرنسية للحروب وعبقرية نابليون وإشادة فوش بها في دروسه بأكاديمية الحرب الفرنسية وفيما طبعه في محاضرات .

وانتقلنا عرضاً إلى الديمقراطية وانفقنا على أنها وأن بدت ضعيفة في الاستعداد الحربي بالبداية إلا أن الكلمة الأخيرة لها ، لأنها ستكسب في النهاية المعركة الفاصلة .

إعجاب الجنرال بالجنود المصريين .. وصفت أسلحتهم للخدمة العسكرية

القسم الثالث

وكان هذا الحديث للشائق يسير متواصلاً إلى أن قطعه بأن أخذ يتحدث عن الجيش المصرى فوجه عدة أسئلة دقيقة مثل : من كم فرقة يؤلف جيشكم ؟ كم شهراً يأخذ التدريب الفنى لجندى المشاة ؟ هل لديكم مدارس لضباط الصف ؟ ما هو انتسايح الجديد والأنظمة الحديثة التى أدخلتها البعثة العسكرية البرية نية على جيشكم ؟ ما هى الوحدة لأساسية التى يبنى عليها التدريب لكى تدخل القتال مستقلة اللواء أم الفرقة ؟ هل لديكم سلاح للمهندسين بالجيش ؟ هل بوسع جيشكم أن يدخل الميدان أمام قوات منظمة على الحرب الحديثة ولصد هجوم جيوش أوربية ؟ ما هو مستوى ضباط الأركان حرب عندكم ، وهل لديكم ضباط درسوا فى دول غير بريطانيا ؟ .

هل أجيب ؟

كانت ثرثرتى حول بعض المبادئ العامة مما جعله يعتقد أنه أمام جندى فى زى ملكى ، أما أنا فقد احترت كثيراً وكنت كمن فتح لنفسه باباً لا يقدر على إقفاله ، ووقفت أسائل نفسى : هل أجيب على أسئلة الجنرال على الطريقة المعتادة لدينا ، وفى صحفنا وأنديتنا ، وكما كان ينشر فى ذلك الوقت . ؟ فأقول : أن جيشنا على تمام الأبهة والاستعداد لتلبية واجب الوطن ، وأن لدينا مخدرات كاملة ، وأن قوادنا من الدرجة الأولى فى فنون الحرب والقتال ، بل إن منهم من وضع خطط الدفاع للصحرى الغربية لا شك فى أن قولى هذا لم يكن يقدم ولا يؤخر ، ولكن أمامى قائداً من كبار

قواد فرنسا سوف يذهب بعد أيام إلى مصر ، وسيلتقى برجالنا وقوادنا ، وسيعرف بالضبط مقدار معلوماتهم ، وسوف يحدث رجال فرنسا عندنا ويقابل الجنرال ويفل والجنرال ويلسون وضباط البعثة البريطانية ، وسيقف علي كل صغيرة وكبيرة فوفقت متردداً ثم قلت : إن الجيش المصرى يتطور بسرعة نحو استكمال أسلحته ، وسترى فى مصر وتسمع الكثير عنه ، ولا شك فى أن الخطوات ثابتة ، ويذكرنى حديثكم بأيام قضيتها بإيران ، والتقيت مرة بأفراد البعثة العسكرية الفرنسية المكلفين بتنظيم الجيش الإيرانى ، فسمعت أحدهم يقول : « أن الحكومة الإيرانية تطنب منا أن نخرج لها ضباطاً صالحين للقيادة بعد دراسة لا تطول أكثر من سنتين ، ونحن فى فرنسا نحتاج إلى عشرين عاماً لتهيئة وتكوين ضباط الأركان حرب الذين تستطيع أن تعتمد عليهم الدولة فى تحريك فرقة من الجنود وقيادتها فى ميدان القتال » .

مميزات الجيش المصرى :

وهنا نظر إلى الجنرال طويلا وابتنس ، إذ فى ذلك كل الإجابة على أسئلته المخرجة ، ولكنى أردت ذلك بقولى له : « إن مواد العمل صالحة وجيدة ، وإن قوة احتمال الجنود وصبرهم من مميزات الجيش المصرى ، بل هى أهم عوامل البناء التى يمكن الاعتماد عليها فى إخراج جيش حديث يعيد بعض مواقف السلف فى الماضى ، ولا شك أنكم كتبتم شيئاً من ذلك فارجعوا إلى ما أشرتكم إليه فى كتابكم » .

فهز رأسه موافقاً على ما قلت . وافترقنا ، وبعد أسبوع من هذه المقابلة سافر الجنرال إلى القاهرة ، ولقى من السلطات المصرية والبريطانية كل ترحاب وأقيمت له المآدب وحفلات النسكرىم ، ومهما مأدبة الرئيس على ماهر التى أقامها على شرف الجنرال فى فندق سميراميس ، وقد دعى إليها كثير من العظماء وأهل

الرأى وكبار ضباط الجيشين المصرى والبريطانى وأدلى رئيس وزراء مصر
بحديث نقلته وكالات البرق فى ذلك الوقت قال فيه :

« إن مصر تغتبط باستقبال القائد العظيم » فيجاند وتقدّر صفاته العسكرية
الممتازة وماضيه المجيد وتحبى فيه ممثل فرنسا النبيلة .

استعراضه مصرى بريطانى هضرى :

وأقيم له استعراض عسكري اشتركت فيه بعض الوحدات الميكانيكية من
القوات البريطانية والمصرية والهندية ، وكان يرافقه القائد البريطانى الجنرال
ويقل أثناء العرض وفى أثناء تفتيشه للوحدات .

الجنرال فيجاند سجل إعجابه بالجنود المصريين واستعمرادهم للخدمة العسكرية :

وتعود بي الذكرى هنا إلى عام ١٩٤٢ ، حينما تعددت مقابلاتى مع الجنرال
كاترو الفرنسى وذلك بعد احتلال سوريا ولبنان ، وفى أبان المفاوضات التى
انتهت بعودة الحياة الدستورية إلى البلدين . إذ أننى قابلته فى يوم ١٦ أكتوبر
سنة ١٩٤٢ وتناول الحديث مسائل متنوعة ، وكان مما صرح لى وقتئذ وقيدته
فى حينه أن قال :

إنه كان حاضراً بالمجلس الحربى الأعلى للحلفاء فى باريس ، وذلك قبل
خروج فرنسا من الحرب ، حينما عرض التقرير الذى وضعه الجنرال فيجاند الذى
سجل فيه إعجابه بالجنود المصريين وحسن استعدادهم للخدمة العسكرية واقترح
وجوب زيادة الجيش المصرى كما أشار إلى ما يجنيه الحلفاء من الفائدة والمعونة
إذا وقف بجانبهم جيش مصرى قوى ، وقد أخذ مجلس الحرب الأعلى بهذا
الاقتراح ، وكان من ضمن القرارات التى وافق عليها .

مقابلات :

وعاد الجنرال فيجاند من مصر فبدأ رحلاته إلى داخل سوريا ، وكثرت تنقلاته وكانت مقابلاته معه بعد ذلك عرضية ونادرة وأغلبها في ميدان السباق ببيروت ، ولكن توطدت مع معاونه الجنرال كايو ومع أركان حربه ومكتبه علاقات ودية ثابتة ، فما اتصلت بشيء لدى السلطات العسكرية عن طريق القيادة ، إلا وأجيب طلبى أو رجائى فوراً أو كان محل اهتمامهم وتحرياتهم بعكس السلطات المدنية التى طالما تمهلت وتأخرت ثم ألقت أسباب عجزها على السلطات العسكرية ، ولقد كان ذلك موضع حديثى فى المفوضية الفرنسية ، خصوصاً فى المكتب الدبلوماسى الذى إذا احتج بالعسكريين بادرت بأن أعلمه أننى مستعد للذهاب إلى هؤلاء رأساً لإزالة ما نشكوه منه ، وكان المكتب السياسى يعلم بما تقدمه السلطات العسكرية من تسهيلات لمصر فى مقابل ما تبذله مصر من تسهيلات للعسكريين من الحلفاء .

هذا هو الجنرال الفرنسى الذى ساهم مساهمة فعالية فى قيادة فرنسا إلى النصر فى الحرب العالمية الأولى ، والذى وطد نفوذ بلاده فى الأشهر الأولى من الحرب العالمية الثانية ببلاد الشرق ، كان فى حركاته ومشيته تفيض منه الطمأنينة والثقة ، فيتأثر منها الناس وتغمرهم لدى مواجهته أو مصاحبته أو رؤيته ، ويشعرون بنفس الثقة والاطمئنان .

وأذكر مرة أنى رأيته داخل الجامع العمرى بمدينة بيروت بمناسبة المولد النبوى الشريف ، فهتفت له الجماهير الإسلامية طويلاً ، وحملته على الأعناق ودخلت به المسجد ... وهو ثابت كالطور .

ولقد رأيت الكثيرين من ممثلى البلاد الأوربية فى المشرق فلم أر مثل فيجاند ، ولقد وصل غيره من الرجال الرسميين ، ورتبت لهم الهاتفات ، إلا أن

الجماهير لم تغمرها روح الحماس الذى كانت تحس بها عند رؤيتها الجنرال الشيخ والشاب فى نفس الوقت .

وفى ليلة من الليالى فى أواخر مايو سنة ١٩٤٠ إستدعى إلى باريس لقيادة جيوش الجمهورية وسد ثغرة سيدان ، لقد تحطمت الجبهة واندكت حصون خط ماجينو فى الشمال والزعحف الألمانى لا يقف ، وراديو برلين يصيح : « لو بعث نابليون من قبره ، لما كان فى وسعه أن يغير القدر المحترم ! » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية .

وكنت جاراً للجنرال كايو ، وقد زالت الكلفة بيننا ، وفى عصر أحد الأيام دعانى بمنزله ، وقال أنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان فأفريقيا الغربية فمراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة الجنرال فيجاند ، إذ يجب أن يكون بجبهة القتال قبل أربعة أيام . قلت أنكم تنتظرون قرارات حاسمة . قال : « أن انقاذنا يحتاج إلى معجزة » .

قالها والدموع فى عينيه . . .

وبعد أيام أعلنت الهدنة . . . فكتب يرى رجال فرنسا وضباطها العظام سيكون أمام آلات الراديو التى تذيع نداء المريشال بيتان كانت من الأيام التاريخية التى لا تنسى . . .

وكنت أتجه بأنظارى إلى الرجل الفرنسى العظيم فيجاند الذى تعاون مع فوش . . . وكان يؤمل أن ينفذ فى الحرب العالمية الثانية تعاليم الماريشال ومبادئ نابليون العسكرية . . .

منطقة أنطاكية وخليج الاسكندرون منطقة عسكرية هامة في تاريخ الدنيا

لمت كفاية الحصان الأشقر نار بمعتلج الكتيب الأحمر
وفتحت أنطاكية الروم التي نضرت معاقها على الإسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانتت تلقى أجنحتها بنات الأصفر

هذا شعر للأبيوردى خاطب به السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان حينما فتحت الدولة السلجوقية أنطاكية ، ولست أعرف ركنًا من أركان الدنيا برز في التاريخ بروز هذه البقعة من الأرض ، فقد لفتت أنظار الإنسان منذ بدأ يفكر وينظم حياته ، فما تأسس ملك أو سيادة أو ظهرت قوة فنية أو دعوة دينية إلا وجعلت من أولى أهدافها امتلاك هذه البقعة التي شهدت مصارع الدول ، وحل صعيدها أرزاء الحروب وما يتبعها من نكبات ، ذلك تاريخها في القرون الغابرة وهذا عهدنا بها اليوم في تاريخنا الحديث . لقد شغلت رجال السياسة بعد الحرب الماضية واهتمت بمصيرها هيئة عصبة الأمم ، ثم كان من نصيبها أن ضمت إلى أراضي الجمهورية التركية وبقيت معها طول الحرب العالمية الثانية ، وما انتهت هذه أوقاربت نهايتها واستقلت سوريا ، حتى قامت تطالب بها ، ولا يعلم غير علام الغيوب ما تحبته لها الأقدار والأيام القادمة .

في الأعصر القرمية :

وإذا ورد ذكر هذه البقعة برز اسم مدينة أنطاكية لأنها رأت من السعد والعظمة في زمن ملكها أنطيوخس الكبير (٢٢٣ - ١٨٧ ق . م .) ما جعلها سيدة المدن . فكان أن أصبحت حاضرة سوريا وفاقت غيرها في الثروة والعلوم والتاجر ، ولما دخلت تحت سلطان روما حصل أهلها على حقوق المواطنين في الدولة

الرومانية ، وإذا بها قد أصبحت إحدى عواصم ثلاث كبرى : روما والقسطنطينية وأنطاكية تدين لها الشعوب .

ولقد حاول بعض مفكرى الغرب من الفرنسيين أن يجعلوا من ملك أنطيوخس تنمة للملك الاسكندر ومن أثر عمله تسكلة لسلطان الغرب على الشرق ، ودليلا على تفوق العقل اليونانى على العقل السامى ، والصورة التى أعطاهالنا العهد القديم^(١) والمؤرخ يوسيفوس عن العاهل اليونانى تنبىء بأنه كان ملكا مستبدًا جباراً ، فقد ورد عنه فى كتاب المؤرخ اليهودى ما يأتى : « إنه دخل مصر بجيش كثيف وعجلات وفيلة وأسطول عظيم فاستحوذ عليها ، ثم قوى أمره وعظم شأنه حتى استولى على كثير من الأمم وإطاعته ملوك فارس وغيرهم من الملوك فداخله العجب والكبرياء وطنى وتجر وسبب الكثير من الآلام لأهل المشرق » .

فهذه القوة التى طغت على الشرق يقول عنها الكاتب الفرنسى إنها بقية من عبقرية الأسكندر ، وإن بقاءها كان من ضرورات بقاء الأصلح ، لأنها تحمل قبساً من روح الهيلينية إلى الشرق ، وأنها قوة دافعة منظمة منشئة لأنها أدّبت الناس فى الشرق وأخذتهم بالسيف وعلمتهم ما لم يعلموا . ولكن روما لم تلمس الخقائق حين ساقّت كتائبها وأخذت أنطاكية مركز هذه الحركة وأنها لما ضمتّ إليها الممالك والعروش التى أنشأها أتباع الاسكندر ، كانت تحارب نفوذ الهيلينية فى الشرق وكانت تحطم بأيديها سيطرة الغرب على الأمم الشرقية . فروما حينما تنازعت مع أهل أنطاكية وقضت على عظمتهم مهدت لشعوب الشرق عودة بدأت بقيام الفراتيين أو البارثيين وهم قوم عرفوا بشدة المراس والصبر على القتال ثم ظهرت فى غضب اليهود بحركة المكابيين وتطورت بظهور المسيحية ضد هذا التحكم الأوروبى فهى فى مذاهبها المختلفة التى يعبر عنها بالكنائس الشرقية المستقلة وتعتبر نفثة مصدور ضد استحواذ أهل الغرب على المسيحية وهى شرعية فى أصولها

(١) العهد القديم كظهر من مظاهر التفوق العقلى والفكرى للشرق .

ومبادئها ومراميها ، وما كان هذا ليحدث لولا اختلاف الكلمة وتعارض المصالح بين روما والإغريق المحتلين لأراضى المشرق ، فلو تم بينهم التعاون والتفاهم والتآزر والتكاتف وما تلييه وشائج القربى ، لما تهيأت الأسباب لقيام الشرق مرة أخرى ولما تفاعلت العوامل التى مهدت السبيل أمام جيوش المسلمين فاستولت بعد قرون قليلة على إرث روما وبيزنطة وما أنشأ الاسكند من مجد وملك قبل ذلك .

وتلك دعوة لها خطورتها لأن معناها أن الخلاف الذى قام بين فرنسا وبريطانيا على سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ يمثل النزاع الذى نشب بين روما وأهل أنطاكية فى المشرق وأن الأمبراطورية البريطانية تلعب اللعبة الخطرة التى أخذت بها الأمبراطورية الرومانية منذ عشرين قرناً فهى قد قضت على نفوذ فرنسا وأبعدتها عن سواحل البحر الأبيض المتوسط فى الشرقية ، كما زحزحت روما نفوذ الهيلينية عن هذا الشاطئ . فكانت النتيجة أن خرج الشرق من تحت سيطرة روما واليونانيين وتقلص حكم العرب عن أمم المشرق بمجىء الإسلام فإياكم أن يحدث لىكم ما حدث للقدماء من قبل ويخرج الشرق من يد بريطانيا وفرنسا على السواء^(١) .

وإنما سقنا هذا الحديث للتدليل على أثر هذه البقعة من الأرض فى عقول القوم من ناحية السيطرة الفكرية والرغبة فى التحكم على مقادير الشعوب من شباك يطل علينا ويثير لنا الكثير من المشاكل . ولقد نظرنا إليها من الوجهة التى يرى بها رجل الفكر الغربى فلم نجرب نظر رجل الدين .

أثر أنطاكية فى المسيحية :

كانت أنطاكية مثل الأسكندرية ميداناً للتنازع بين الوثنية والمسيحية ، ذلك التنازع الذى انتهى بانتصار الفكر السامى^(٢) ممثلاً فى تعاليم معلم الناصرة ،

(١) لم يكن الكاتب الفرنسى يحسب للأمر كان حساباً ..

(٢) أى المسيحية باعتبارها شرقية سامية .

ولكن أنطاكية فاقت الإسكندرية في ناحية أثرها في حياة المسيحية ، فكلتا المدينتين أوتيت حظها من حياة الترف والتغاضى عن الفضيلة . ثم قامت في كل منها دعوة للخير والصلاح ، وترك الدنيا والابتهاال إلى الله . ولكن النكبات المتتانية وخصوصاً الزلازل المدمرة جعلت أهلها في حيرة منها ، وأخيراً قرّ رأيهم على أن يطلقوا على أنطاكية إسم « مدينة الله » وتحصنوا بالفضائل وجانبوا الرذائل وتقرّبوا بهذا الله زلفى ؛ وكان أن عرفت مدينتهم وسط مدن العالم بأنها حازت سلطان الحياة الدينية ، وإذا بكرسيها ينلألاً وسط كراسى ملكوت السماء ، ويقول عنها الناس : ليس في المسيحية كلها بعد روما سوى أنطاكية المدينة المؤمنة الخالدة .

ولذلك لا تعجب إذا وجدت عدداً من رؤساء الطوائف المسيحية يضعها في المكان الأسمى من نعوته وألقابه الكهنوتية فيقول كل منهم إنه صاحب كرسي أنطاكية وسائر المشرق . وهم على حق في ذلك لأن أنوار المسيحية أشرقت على الأرض من هذه البقعة ، وانتقلت المسيحية بأنطاكية من مواجهة شعب إسرائيل إلى مواجهة الدنيا ، وفي ذلك يقول القديس لوقا : « وكان الذين تبعدوا من أجل الضيق قد اجتازوا فينيقية وقبرص وأنطاكية وهم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود ، ولكن قوماً منهم كانوا قبرصيين وقيصريين فهؤلاء لما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع » .

ففي أنطاكية تحوّلت الدعوة المسيحية إلى حركة عالمية . فهذا أثر من تأثير هذه البقعة الفريدة ، التي كانت قبلة الدنيا وجمع مدينة الشرق مع مدينة الغرب ، ولو أدركتها المسيحية وهي في إبان مجدها وسطوتها ؛ أى لو تقدمت المسيحية قرنين من الزمن حينما كانت أنطاكية حاضرة سوريا وقد فاقت قرطاجنة وصور وصيدا ، فالأغلب على الظن أن كانت أنطاكية تأخذ في عالم المسيحية مكان روما .

ويجمع المؤرخون على أن أنطاكية كانت مركزاً هاماً للدعوة المسيحية

فى القرن الرابع وإن كانت هناك من يقرر بأنها كانت منذ البداية أول مركز خرج منه المبشرون المسيحيون إلى أقطار العالم ، وظهر فيها القديس يوحنا فى الذهب بل كانت مسقط رأسه وسطعت فيها أعماله ومعجزاته ، وكان أهلها مائتى ألف نسمة دخل نصفهم فى الدين الجديد وتصدروا الدعوة إليه ، ولذلك تذكرها الكتب المسيحية بأنها المدينة الأولى فى العظمة بعد روما ، وأنها تأتي فى تاريخ الكنيسة بعد القدس ، وهذا ما جعلها مكاناً يؤمه أهل التقوى والصالح والعبادة ويهرع إليها الزوار لرؤية ما كانت تحويه من قبور القديسين والأبرار وما عرف عنها من العجائب والمعجزات .

فمدينة هذا تاريخها يأتى ذكرها دائماً فى الكتب المقدسة وفى تاريخ الكنيسة ويتكرر هذا الاسم فى الطقوس والصلوات ويرد فى مقدمة ألقاب رجال الدين من مختلف الطوائف والمذاهب ، لا شك فى مكانتها وعظمتها واحترامها فى قلوب الناس ، وإن مجرد ذكر اسمها يحرك ذكريات عزيزة على النفس ، وهذا ما تؤكدته الآيات الواردة فى أعمال الرسل . « ثم خرج برنابا إلى طرسوس فى طلب شاول ولما وجده أتى به إلى أنطاكية . وترددا سنة كاملة فى هذه الكنيسة وعلماً جمعاً كثيراً حتى أن التلاميذ دعوا مسيحيين بأنطاكية أولاً . أى أن اسم « المسيحي » استعمل لأول مرة هنا فى أنطاكية .

أثر الموقع الجغرافى الممتاز :

ينعم المرء بمناظر رائعة إذا كان على ظهر باخرة تسير على مقربة من الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط إذ تظهر جبال لبنان وجبال العلويين أمام ناظره وتحته المرافئ متقاربة متشابهة ؛ فإذا جن الليل تبدوا أنوار القرى المتناثرة على سفوح الجبال وهى تتلألأ فى الظلام . إنه منظر يوحى لراكب البحر فى ظلمات الليل البهيم بشعور الأمن والاطمئنان ، فتزول من نفسه مخاوف البحر

ومخاطره فإن وصلت إلى خليج الإسكندرونة وجدت البحر يغزو الأرض ويبدو هذا الجزء منه كأنه بحيرة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات ، ووراءها قم عالية شامخة كأنها تناطح السماء . هذه جبال اللكام عند العرب وأمانوس عند الفرنجة وجبال السكفرة أو كاورطاغى عند الأتراك .

ولقد كنت مسافراً مرة في أواسط الأناضول فبلغت مدينة قيصرية ، وهى التى فتحها ملكنا الظاهر بيبرس وركبت القطار منها متجها إلى الشام ، فوقف بنا عند مخرج نفق على جبال طوروس ، وكان على رأسه محطة بوزانتى ^(١) أشاروا علىّ بالنزول فيها لآخذ منها القطار السريع . من هذه الراية العالمية رأيت البحر ممتداً من بعيد ، وكشفت سهول ولاية أضنة أو كيليسية ، كما تبدو للناظر إليها من نافذة طائرة محلقة فى السماء . قلت هذا هو أول ماتقع عليه أنظار كتائب الزاحفين من الشمال هذا المنظر رآه المأمون والمتصم وهذا ما رآته جنود الصائفة والحمدانيون وعسكر مصر أيام ابن طولون وبيبرس وقلاوون فى عودتهم من حروب أرض الروم بل قل هذا أول مناظر الحياة التى لقيها الصليبيون فى زحفهم على سوريا بعد أيام الويل والحمران التى ذاقوها فى أرباض آسيا الصغرى .

فإذا انحدرت من مضائق الجبال ودخلت السهل واتجهت إلى الساحل كان أول ما يلفت النظر هذه البحيرة التى تكون خليج الإسكندرونة ، لورآها رجل البحر لقال عنها هذى أكبر مرافئ الشرق ، وتصورها الموئل الطبيعى لمئات السفن ، ولو نظر إليها رجل البر لقال هذا مركز من المراكز الممتازة فى العالم . فهنا التصق الخليج بالأرض وكوّنّا فى التاريخ قطعة واحدة وأصبح لها قصة واحدة : هى قصة تلك البقاع من الدنيا التى لها ذنب واحد هو ماحبّتها به الطبيعة وجغرافية الأرض من مزايا تجعلها محط أنظار الدنيا . وهدف أطماع الفاتحين .

(١) هى البدندون حيث مرض المأمون وتوفى ونقل إلى طرسوس ودفن بها .

هذى البقاع ليست كثيرة على الأرض ولكنها خلقت لتكون مسرحاً
للمشاكل والمعارك والتصادم وتتابع الحوادث والخطوب . إن مثلها كمثل بعض
الناس ممن يأتى إلى الدنيا ليثير ضجة بين الخلق من يوم مولده إلى يوم وفاته
كأنهم جاءوا إلى الدنيا تحت طالع من طوابع الضجيج والعراك ، كذلك
هذه الرقعة من الماء والأرض والجبال ، أترها قد برزت للوجود تحت برج
بروج السماء ، فحكم عليها بأن تكون فريسة للطامعين من ذوى الغلبة
والسلطان ، وموطناً للحروب والقتال ، وأن يكتب على أهلها تحمل
مصائب الدهر من ضيق الحصار ونقص فى الأموال والأنفس ، ثم تحمل غضب
الطبيعة فيما تثيره من أوبئة وزلازل ، وأن يكتب فى سجل القدر لهذه البقعة من
الأرض فيقترن اسمها بالعز آناً وتعلو علواً كبيراً حتى تسمو على غيرها من بقاع
الأرض ، ثم يلاحقها سوء الطالع فترى الأيام السود وتذوق الويل المرة بعد المرة
حينما يطؤها الفاتحون والغزاة ، فتندك صروحها ويشقى أهلها وتبكي نساؤها
بكاء طويلاً فى الليل كما يتحدث بذلك تاريخها فى أكثر من عشرين قرناً
من الزمن .

وعريب أمر هذه البقعة : تقوم عليها المدنيات المختلفة وتتبادلها الشعوب
وينطق أهلها بكل لسان ويفنى شعب بعد شعب على أرضها واسكنها تخرج من
وسط النكبات والمصائب وهى باقية لن تبديد ، لأن الحياة لا تلبث أن تعود إليها
من جديد ولا تزال إلى اليوم إنطاكية وما حولها : ترى أسوارها القديمة وتلمس
عظمتها الفانية ترى المدينة صغيرة بجانب ما كانت عليه ، ومع هذا تشعرك
بماضيها ومجدها ، وقد يدخل المرء غير حافل بها فيخرج منها وهو يحمل فى نفسه
ما يدعو لا كبارها ، إن فيها سرّاً يجبر الناس على احترامها .

الحرب العالمية الأولى :

نعم لقد قدّر لهذه البقعة من الأرض أن تبرز خلال العصور الماضية وأن يتحدث عنها الناس من أهل الشرق والغرب ، وسنبذل بعض الجهد لمآتى بشيء من ذكرها فى كل عصر من العصور السالفة وخصوصاً ذلك العصر المملوء بالبطولة والكفاح : عصر الحروب الصليبية ، ونذكر ما حولها من حصون الأفرنج وما أقيم أمامها من حصون المسلمين وقلاعهم والكتابة فى هذه الناحية من أحب الأشياء إلى من يؤمن بعظمة ماضينا ، ولكن هناك ناحية لا تزال خافية عن قراء العربية هى أهمية هذا الركن من العالم فى الحرب العظمى الأولى ، فقد بقيت منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة بعيدة عن ميادين القتال ولم تغمرها الحوادث ولذلك لم يشتهر اسمها ولم يعلم الناس عنها إلا لما أثبتت مسألتها أمام عصبة الأمم وأخذت تتطور مشكلتها بين فرنسا وتركيا ثم أخيراً بين سوريا وتركيا .

ولهذه المنطقة تاريخ طويل فى مدة الحرب وما تلاها من الحوادث ، سنعرضه ملخصاً ما أمكن . . .

اتفاق أنقرة :

حينما قامت الحركة التركية وحصلت حكومة أنقرة على الانتصارات الأولى على اليونان . أرسلت وفداً إلى باريس فى يوليه سنة ١٩٢١ أخذ يفاوض الفرنسيين فى عدة مسائل ، وفى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢١ عقد اتفاق أنقرة الأول وفيه سلمت فرنسا بالحدود التركية التى تبدأ من بياس إلى ميدان اكبس ثم تستمر على شريط سكة حديد بغداد ، وكان من ضمن ما اتفق عليه إقامة نظام إدارى خاص بسنجد الإسكندرونة واعتبار اللغة التركية لغة رسمية فيه .

جاء هذا الاتفاق عقب حرب بين الفرنسيين والأتراك دامت من يناير ١٩٢٠

إلى ١٩٢١ قال عنها الفرنسيون في كتابهم عن تاريخ الشرق ما يأتي : « إنها حرب مقدسة وقومية اتسمت بالقوة والعنف والذين يتصف بهما أهل تلك البلاد وأنها وافقت زمن غليان الحركة السكائية التي استنفرت الأناضوليين في وجه مشروع يشعر بتفكيك الوطن التركي » .

نعجب فلان سوري :

ويتعجب صديقنا الأستاذ آدموند رباط في كتابه بالفرنسية عن الوحدة السورية ويتساءل « كيف سلم الفرنسيون بعد معاركهم الطاحنة في كيليكية وخسائهم فيها بهذه الحدود ؟ ويقول إن في ذلك سرأ سيبقى أمام مؤرخي المستقبل من المعميات التي يجدون الصعاب لفهمها » .

أما نحن فلا نعجب وقد عرفنا النزاع والتنافس بين بريطانيا وفرنسا ، وإنما نتساءل ونقول للكتاب الفرنسي الذي ذكرنا نظريته في مقدمتنا : من كان يمثل دور الإمبراطورية الرومانية في عام ١٩٢١ . بريطانيا أم فرنسا ؟

إن مثل هذه الأمور تأخذ وقتاً طويلاً لكي تكتشف تفاصيلها وما يلابسها من المعميات ، وقد يطرأ حادث طفيف يتمثل في طلب احتلال الإسكندرونة وخليجها فينتج عنه أكبر الأمور ويعيد إلى ذكريات السياسيين مسائل ومشاكل بقيت لمدة طويلة على الكتمان .

هدنة مدروس : خط الهدنة هو الذي أثبت الأتراك بقوة السلاح :

خط الهدنة هو الذي أثبت الأتراك بقوة السلاح ، وهذا ما حدث في عام ١٩١٨ ففي أكتوبر سلمت الدولة العثمانية وأمضت هدنة مدروس ، وكانت الجيوش التركية تحتل منطقة أنطاكية وتشرف على خليج الإسكندرونة وبقيت في حوزتها بعد إمضاء هذه الهدنة ، ولما كانت شروطها تحتم إجلاء الجنود

والضباط والقواد الألمان فقد تقرر سفر الجنرال فون ساندروس ومن معه ، وعليه تسلم القائد مصطفى كمال القيادة ، وقد فهم في مخيلته أمرين : الأول أن الهدنة عقد لوقف القتال بين المتحاربين وأن الأراضى التى فى حوزة الأتراك تبقى معهم حين إمضاء معاهدة الصلح ، والثانى : أن خط الحدود لوطنه هو الذى أثبتته الأتراك بقوة السلاح فى آخر معركة لهم دارت ضد الإنجليز والهنود فى شمالى مدينة حلب عند انسحابهم منها وترتب على هذه المعركة إيقاف الزحف البريطانى على نقطة تبعد ثلاثين كيلومتراً من المدينة ^(١) .

ويقرر فى مذكراته ومخبراته الرسمية أن هذا الخط من صنع يديه ، ولذلك تمسك به حتى النهاية فى مفاوضاته مع الفرنسيين ، ولم يكتف بذلك بل عارض قبل ذلك الحكومة المركزية حينما طلب الإنجليز السماح لهم باستعمال خليج الاسكندرونة والميناء لتموين جيوشهم المحتلة لمدينة حلب ، وتبادل مع رئيس الوزارة مكاتبات فى منتهى الخطورة ، وكانت هذه الفترة محررة لعزيمته وموجهة له فى حياته المقبلة لأنه من تلك اللحظة بدأ يفكر فى تأليف جيش من شرادم الوحدات التى تحت قيادته ، حينما أقنعه الحوادث بأن إنقاذ البلاد يحتم مداومة القتال إلى النهاية .

فالمطالبة بتسليم ميناء الاسكندرونة كان معناه احتلال المنطقة كلها، وقد أثار هذا الطلب مخاوف الفرنسيين لما سيرد بعد ذلك من تفاصيل فى هذا البحث ، كما أثار قلق القائد التركى الذى فسراحتلال هذه المنطقة كرهبة فى احتلال غيرها مما يليها من الأراضى وأن هذا الطلب يهدم الشروط المتفق عليها . فلما طلبت منه الحكومة التركية إجابة هذا الطلب أجابها بصراحة :

(١) من أغرب تحكم الأقدار أن الأرض التى دارت عليها هذه المناوشة هى التى دارت عليها معركة ١٥١٧ بين المصريين والأتراك والتى فقدت فيها مصر ملك الشام ثم أصبحت ولاية عثمانية بعد ذلك ، ثم تبدأ من هذه البقعة مقاومة الأتراك بعد هزائمهم لينتهوا إلى حركة التحرير التى أعوها تحت قيادة زعيمهم الأتاتورك .

« أنا لا أنزحزح عن عميدتى بوجوب تعيين وتحديد التضحية التي يمكن أن تبذلها الدولة بعد هزيمتها » ، وكتب إلى رئيس الوزارة « أنه يعارض الانقياد لرغبات البريطانيين وطلباتهم قبل إزالة ما في نصوص المعاهدة من إبهام ولبس وإلا لن تبقى هناك وسيلة للوقوف أمام أطماعهم » .

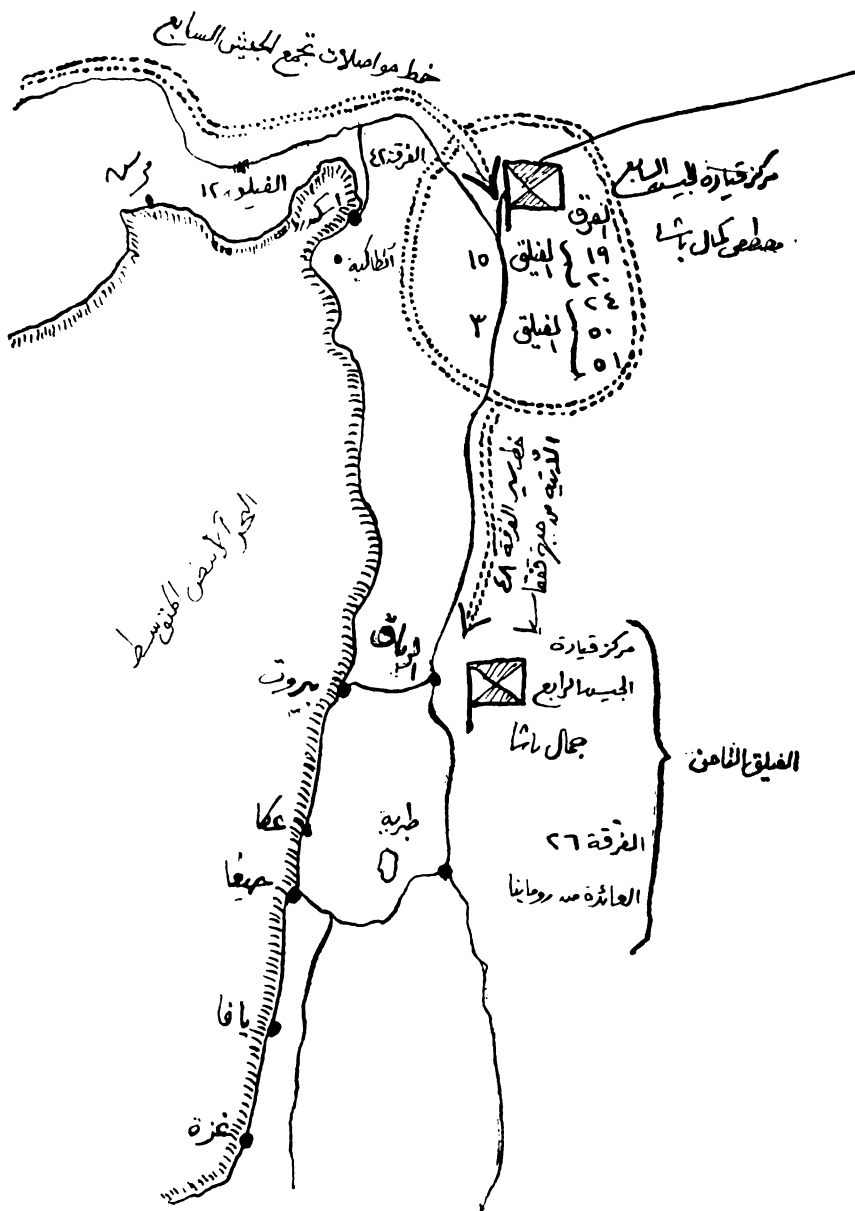
كان الفرنسيون على علم بنيات البريطانيين وهم حلفاؤهم طول مدة الحرب ، وكان الأتراك على علم بما يدور حولهم وما يمكن أن يسببه لهم التساهل والإغضاء عن حقوقهم ، والآن وقد نشرت أغلب وثائق الحرب العظمى الأولى ، أصبح من السهل تتبع المركز الخطير الذي لعبته منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة في استراتيجية الحرب بين السنوات ١٩١٤ و ١٩١٨ .

جيش ييلدريم العثماني :

وسوف نبدأ من الناحية التركية ثم ننتقل إلى وجهة النظر البريطانية : ففي سنة ١٩١٦ تألفت مجموعة من الفرق أطلق عليها اسم مجموعة الصاعقة أى « ييلدريم » وكانت حلب مركزاً لها وتولى قيادتها الماريشال فون فالكنهاين ومعه نخبة من رجال الجيش والبحرية والطيران^(١) ، ومن الاطلاع على التاريخ الرسمى الذى نشرته وزارة الحربية التركية فى نشراتها عن تاريخ الحرب^(٢) ؛ يتبين أن القصد من تأليف هذه القوة هو السيطرة على ميادين القتال فى فلسطين والعراق ثم حماية منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة ضد أى هجوم يشنه الحلفاء ويكون الغرض منه قطع المواصلات العسكرية وتعطيل عمليات تموين الجيوش فى أهم نقطة حساسة فى أراضي الامبراطورية العثمانية وهى شمالى أنطاكية حيث مضائق طوروس .

(١) بينهم فون باين .

(٢) ييلدريم من مجموعة أركان حرية عمومية تاريخ حرب نشراتى .



تجمعات جيش الصاعقة « يملدريم » سنة ١٩١٨

هندنبرج :

ويؤكد هذا ما كتبه المارشال هندنبرج : « لو وفق الانجليز إلى إنزال جنودهم في خليج الإسكندرونة لفقدت تركيا الحرب نهائياً أو اضطرت إلى احتواء في جبال طوروس » ، وكان قد شبه في مذكراته هذه المنطقة بالشريان الحيوى لمتوین الجيوش التي تقاتل في العراق وسوريا وفلسطين وقال : « إن مدافع السواحل لم يكن لها وجود هناك » .

وأشار إلى ما قاله أنور « من أن أملة الوحيد هو ألا يلبس العدو حالة الضعف التي عليها خليج الإسكندرونة » .

ولذلك ختم المارشال حديثه بقوله « إن قيام الدولة العثمانية أو استمرارها في الحرب كان مرتبطاً بمصير هذه البقعة ، وإن الضربات التي لقيتها الدولة بسقوط بغداد وتحطيم جبهة فلسطين جعلت تجمع جيوش مجموعة الصاعقة ضرورياً ، وألزم منه إسناد قيادة هذه المجموعة إلى قائد ألماني معروف وهذا ما شجعه للموافقة على هذا التعيين » . ومن اطلعك على ذلك يتضح ما مرّ بمخيلة مصطفى كمال حينما تمسك بشروط الهدنة ولمس في الإخلال بموادها رغبة بريطانية جديدة لاتخاذ سياسة أشدّ عداء لبلاده ، وقد كان محقاً في ذلك لأن نيات البريطانيين من ناحية خليج الإسكندرونة لم تكن خافية طول مدة الحرب كما قلنا ؛ فقد ذكرت المؤلفات الرسمية لوزارة الحربية البريطانية عن تاريخ الحرب العظمى^(١) ما دار من نقاش بين اللورد كيتشنر والجنرال مكسويل في نوفمبر سنة ١٩١٤ بخصوص إنزال حملة بريطانيا على خليج الإسكندرونة وتوجيه ضربة حاسمة إلى منطقة أنطاكية ونهاية الخطوط الحديدية في جبال طوروس حتى يمكن تحطيم مواصلات الإمبراطورية العثمانية وفصل قواتها الحاربة عن قواعد الأصلية .

وقد تبين من هذه الحادثات أن إحتلال هذه المنطقة قد درسته القيادة

(1) Official History of the War; Military Operations.

البريطانية درساً وافياً ، وكان القصد من إنزال الجنود هو حماية مصر أو منع الحملة التركية الموجهة إلى مهاجمة قناة السويس من إتمام فتح مصر ، وكان هذا المشروع جدياً لدرجة أن نظر إلى الناحية التي ستنتج عنه وهي قيام ثورات بين الأرمن ووسط قبائل النصيرية والإسماعيلية وتحريك كل ما يؤدي إلى انحلال الحكم التركي ، وقد عرض كل ذلك بموافقة الأميرالية البريطانية على مجلس الوزراء ، ولكن كتشتر عاد أمام أسباب عسكرية وسياسية رآها وقتئذ إلى التمسك بضرورة حماية قناة السويس أولاً والوقوف موقفاً دفاعياً سلبياً ثم الاكتفاء بتشديد الرقابة والحصار على شواطئ سوريا بأكملها ، وبادرت القيادة البريطانية بإرسال الفرق البريطانية والهندية التي صدرت هجوماً جمالياً (باشا) على مصر في فبراير سنة ١٩١٥ وتحصنت بمنطقة القتال ...

ثم عادت حملة خليج الإسكندرونة إلى الظهور مرة أخرى ، وكان ذلك في نهاية عام ١٩١٥ حينما فشلت بريطانيا في حرب الدردنيل وقررت إخلاء شبه الجزيرة وسحب جنودها منها فقد جاء كتشنر بصفته وزيراً للحربية إلى ميادين القتال في غاليبولي ومصر ولمس بنفسه سوء الحالة العسكرية قبل الإخلاء وما تحمله من تطورات ومفاجآت وأشار إلى رد الفعل الذي قد يحدث بعد فشل حملة الدردنيل في العالم الإسلامي وإلى خطور وجود عدد من الفرق التركية المدربة على أصول القتال الحديث بعد اشتباكها في معارك الدردنيل وحصولها على التمرين السكاني ، ثم نظر إلى أن دخول بلغاريا الحرب قد فتح الطريق بين تركيا وألمانيا وأصبح تدفق الأسلحة والعتاد ممكناً ، ولذلك تجدد الخطر مرة أخرى على مصر وهي مركز الزاوية في العمليات الحربية البريطانية « . . . وجاء التصريح الذي ألقاه أنور أمام مجلس المبعوثين وقال فيه « إن الحملة الأولى على مصر كانت عملية استكشافية تعرضية وسيعقبها حملة ثانية لاسترجاع مصر » ، فكان كل هذا كافياً لتحريك هذه المحاولات .

الجنرال ماكسويل والدفاع في مصر :

ولذلك ازداد قلق ماكسويل وصارح وزارة الحربية البريطانية بأن إخلاء الدردنيل سيكون شديد الوطأة على المسكفين بحماية مصر وسيكون أثره بعيداً من الناحيتين السياسية والعسكرية إن لم تبادر بريطانيا بتوجيه ضربة عاجلة إلى الدولة العثمانية : وعاد ليعزز اقتراح كتشنر بضرورة إنزال حملة بريطانية على خليج الإسكندرونة بل ذهب في تحمسه أن عرض على حكومته أن احتلال هذه المنطقة يجب أن يسبق عمليات الإخلاء التي ستم في الدردنيل .

ورجعت وزارة الحربية إلى دراسة هذه الحملة وقدرت القوات اللازمة بمائة ألف مقاتل وأخذت القيادة العليا مع قيادة الأسطول تضعان الخطط التفصيلية ، واتفق الطرفان على مبدأ الجمع بين المشكلة السورية ومسألة الدفاع عن مصر ، وضرورة تنسيق العمليات الحربية بين قناة السويس وخليج الإسكندرونة .

كتشنر يقدر اجتماعاً عسكرياً

وعرضت جميع الخطط في الاجتماع الحربي الذي عقده كتشنر في جزيرة مدرّوس ودعى إليه كبار الفواد ، وكان قرارهم ينص على ضرورة احتلال منطقة الإسكندرونة بالإجماع حتى حدثت في هذا الاجتماع على الخرائط الأماكن التي اختيرت لإنزال الجنود على البر .

ولكن هذا المشروع تعرض من الوجهة الفنية العسكرية لانتقاد رئاسة أركان الحرب العامة للإمبراطورية ، ودارت عدة مناقشات طويلة يمجدها الباحث مفصلة في السكتب والوثائق الرسمية ، وفي أثناء ذلك جاءت المذكرة الفرنسية التي قدمها الكولونيل دي بانوس الملحق العسكري بسفارة فرنسا بلندرة ، وهي المذكرة

التي قضت على المشروع لتعارضه مع مصالح الفرنسيين إذ جاء فيها إن أى عمل حربي في هذه المنطقة يجب أن يكون باتفاق الحكومتين لأن فرنسا لا تدافع عن مصالحها الاقتصادية فحسب ، وإنما تضع الناحية السياسية والنفوذ الأدبي قبل كل اعتبار في بلاد تعدها بناء على الاتفاقات الدولية داخلية في مناطق نفوذها .
وذهب رئيس وزارة بريطانيا إلى باريس ، ولما عاد أصدرت الحكومة البريطانية قراراً برفض مشروع الحملة واستبعاد فكرة احتلال خليج الإسكندرونة وإن بقيت كل من تركيا وألمانيا تنتظران هذه الحملة حتى نهاية الحرب العظمى وإعلان الهدنة في سنة ١٩١٨ .

ملخصات هندنبرج

ذكر هندنبرج في مذكراته أن أعباء مدة الحرب لم تكن تسمح له بقراءة التقارير التي يرفعها إليه خبراءه العسكريون فكان يكتب في الملخصات ولكن لفت نظره ما جاء في أحدها من أن نهاية الحرب سوف تقرر في خليج الإسكندرونة ، وذلك باستدراج العدو إلى معركة في كلس^(١) .

قال « كنت أجهل هذا الإسم ، ولهذا كان أول عمل لي هو البحث عنه وقد وجدته إسماً لبلدة صغيرة في شمالي حلب » .

وقد فتح هندنبرج خرائطه واعتدل في جلسته حينما قرأ عليه أحد ضباطه الملحقين بمركز قيادته التقرير الذي وضعه فريق من ضباط أركان الحرب وجاء فيه « ستري أن مصير هذه الحرب سيقدر في كلز وعليه يجب تركيز كل قوانا في تلك الناحية » .

ولقد دهش المارشال الألماني حينما اكتشف هذا الموقع في شمال حلب وقال:

(١) تكتب كذلك برسم كلز .

« إن مصير حليفتنا تركيا قد يقرر هناك لا مصير الحرب العالمية الأولى : »
(راجع ص ٢٥٦) .

وفي عصر يوم ٢٢ المحرم ١٣ (سنة ١٩١٨) دخلت طلائع الجيوش البريطانية مدينة حلب وكانت مؤلفة من الخيالة والهجانة والمشاة تتبعها أرتال السيارات ، وكانت القوات مؤلفة من الإنجليز والاسرائيليين والهنود المسلمين والهندوس والسيخ و بينهم فرقة العمال من المصريين .

وفي الليلة السابقة كان مصطفى كمال قد أصدر تعليمات سرية مختصرة للقوات التركية التي في المؤخرة جاء فيها : « سأسحب هذا المساء القوات الموجودة في النقط الأمامية لحلب وسأجارب الانجليز والعرب غدا في الشمال الغربي للمدينة ، فتدبروا في أمركم وفقاً لهذه الحالة » .

ويزيد في صفحة ٧٦ من مذكراته « وقد تمت الوقائع وكان من نتائج هذا الانتصار أن اثبتُ هناك خطأً وأصدرتُ الأمر إلى جنودي بأن عليهم الثبات في هذا الخط وألا يجعلوا سبيلاً لاختراق العدو له » . وقد كان أن ثبتت الحدود التركية وأصبحت كليس داخل هذه الحدود .

ويقول كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البابي الحلبي الشهير بالغزّي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب صفحة ٦٤٢ من الجزء الثالث « وكانت الجنود التركية الذين انسحبوا من جهات الراموسة والشيخ سعيد قد كمنوا في موضع بتلك الناحية فلما وصلت إليها الجنود الإنجليزية خرجوا من أمكنتهم وأطلقوا النيران فقتلوا منهم على رواية ثمانمائة جندي بينهم ضابط انجليزي كبير أقيم له هناك نصب تذكاري » .

و يعلق مصطفى كمال على ذلك بقوله :

« رحماك يا رئيس ويلسون — كأنك لم تدرك أن الحدود التي لا يدافع عنها السيف أو القوة أو الشرف أو العزة لا يمكن الدفاع عنها بأية نظرية أخرى ،

ولو كانت مبنية على قواعد الإنسانية والحق والعدالة .. » .

ومن الغريب أن الانتقادات التي وجهها الخبراء البريطانيون إلى مشروع كتشتر ترتكز على افتراض وجود تجمع في هذه الناحية وقالوا إن طبيعة المنطقة بأكملها تساعد على إخفاء قوات كبيرة في أماكن مختلفة وتسهل عمليات الدفاع والمفاجأة .

إن الفكرة التي نظر إليها باستهتار القائد الألماني العظيم كانت من ضمن الأسباب الفنية التي أخرت تنفيذ هذه الحملة .

والآن وقد قامت سوريا تطالب بعودة هذه المنطقة إلى أراضيها نعرض هنا هذه الآراء على المهتمين بمستقبل الشرق العربي وأممهم إذ نستخلص منها حقيقة ثابتة وهي أن الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط سيتولاه في المستقبل أهله^(١) ، وإنه لن يقتصر على المضائق وسواحل اليونان وجزر بحر إيجه بل يرتكز على منطقة الإسكندرونة وأن الدفاع عن وادي النيل كما رأينا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدفاع عن هذه الناحية بأكملها في السنوات القادمة أو في الحرب العالمية الثالثة . أما ملاحم العروبة والإسلام على هذه الأرض فلها عودة عن قريب بإذن الله .

(١) كتب هذا في سنة ١٩٤٦ قبل اجتماع كلمة العرب على ميثاق الدفاع الجماعي ..

زيارة لحصن الأكسراد ... قلعة سدع الكنفاج الاسلامى العربى فى الشام

زيارة حصن الأكسراد قصة لا بأس من إيرادها على سبيل الفكاهة كمدخل لهذا البحث ، فقد سبقتها زيارة لحصن آخر هو قلعة طرابلس . ولم يكن لدى برنامج موضوع لزيادة القلاع والحصون التى أنشأها الصليبيون أو احتلوها بالشرق ، وإنما جاءت الزيارتان وليدتى المصادفة ، وإليكم ما دفع إليهما .

حينما جاء الجنرال جوروالقائد الفرنسى إلى مدينة طرابلس عقب احتلال فرنسا للبلاد بعد جلاء الجيوش البريطانية عنها ، فى نهاية الحرب العالميه الأولى استقبل فى قلعتها استقبالا غريباً ، فقد تلقاء جماعة من الجنود الفرنسيين وقد لبسوا لباس فرسان الهيكل Templiers ولباس مقاتلة الاسبتار Hospitaliers ومعنى هذا الاستقبال مظاهرة صليبية بعد سبعائة سنة من انتهاء هذه الحروب . ثم خطب الجنرال وأظهر سروره باسترجاع فرنسا لمعقل من معاقل الصليبيين . وقد عدّ هذا العمل من أخطاء جوروال التى سُجلت عليه ، لأن فرنسا لم تفتح هذه البلاد بجموشها حتى تحتفل باسترجاع حصن نزع منها . ثم إن عقلاء الفرنسيين أشاروا بخفة إلى أن هذه الحروب كانت حرباً عامة اشترك فيها الفرنسيون وغيرهم من الألمان والإنجليز ، وكانت نهاية الحروب خروج الصليبيين بعد هزيمتهم ، فليس من الحكمة فى شيء أن تلصق هذه الحروب ونتائجها بالشعب الفرنسى وحده .

كان قد مضى أكثر من عشرين عاماً على هذه الحوادث حينما زرت مدينة طرابلس ، فإذا بأهل المدينة يتحدثون عنها ، وكأنها حصلت من بضع أيام مضت لله در الجنرال جوروال ! لقد كان أهل طرابلس رجال رباط ومشاغرة منذ القدم ، فإذا هو يذكّرهم بماضيهم ، وإذا هم من جديد من المرابطين المثارين

الذين لم يفقدوا شيئاً من حماسة آبائهم وأجدادهم ، وكان أن تحدثنا طول الجلسة في موضوع مدينة طرابلس وكيف دخلتها جيوش الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب مصر ، وانتزعتها من أمراء الصليبيين ؛ وتحمس الجمع فخرجنا إلى قلعة طرابلس ، وقرأنا الكتابة التي سجلها الفاتح على باب القلعة : فسكان من أثر هذا الاستقبال الفرنسي أن أوجد وعياً قومياً وحماساً في قلوبنا .

وأضينا سهرة حول فتح طرابلس وسير حملتها ، فإذا بالحديث يتناول قلعة الحصن أو حصن الأكراد وهي القلعة التي قامت منها الحملة التي استولت على طرابلس ، وكان خاتمة الحديث أن تقررت زيارتنا للحصن العتيق في يوم من أيام عام ١٩٤١ حينما كانت الحرب العالمية الثانية في أشد أدوارها وطأة : فقمنا في أكثر من ست سيارات على طريق حمص ، في مقدمتها سيارة المرحوم زعيم طرابلس عبد الحميد كرامي ، وما كدنا نترك محطة تل كلخ حتى ظهرت لنا القلعة العظيمة بأبراجها تطل علينا من فوق رابية لا يقل ارتفاعها عن ستمائة ، وخمسين عن سطح البحر ، وهي في صمتها وعظمتها توجي إلى الناظر إليها بأنها تتحدى الأجيال . فكانت الزيارة الأولى جاءت من وحي الاستقبال الفرنسي الذي أقامه جورو ، وأتت زيارة حصن الأكراد نتيجة لما لمسناه ورأيناه عند زيارة قلعة طرابلس . كان كل هذا من غير قصد معين ولا برنامج موضوع .

كتابة مصرين :

وتمت هذه الزيارة في يوم بأمله . فقد سعدت بنا السيارة إلى قمة هذا المرتفع ، ورأينا الأراضي الخصبية التي كان يسيطر عليها أصحاب الحصن ، وظهر لنا البحر من بين المرتفعات : ورأينا كيف كان أهل الحصون يتخابرون بالنيران الموقدة وحينما نزلنا من السيارات واتجهنا إلى باب الحصن أخذتنا الرهبة لدى

قراءة ما كتب بالخط النسخ الجميل من مثال العصور المملوكية القديمة في مصر فأخذنا نحاول القراءة ، فأتى إلينا من باع لـكل منا بطاقة قد صورت عليها الكتابة الخالدة .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا الحصن المبارك ، في دولة مولانا الملك السلطان الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط . . . ركن الدنيا والدين أبو الفتوح بيبرس قسيم أمير المؤمنين ، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ هجرية » . .

نقطة من الوطن :

لا أخفى عن القارىء أنها كانت وكأنها نقطة من نفحات مصر تستقبلنا . أما أنا فقد كنت سريع الخطى ، أقفز ذات اليمين وذات اليسار ، كنت أرى الحصن بأبوابه وأبراجه وأسواره وطبقاته وكأنه قطعة من بلادنا مصر .

وصعدت على الدرج وقلت من هنا صعد أبو الفتوح بيبرس ملكنا بجنده وأمرائه ، وولجت إلى الرحبة الأولى فإذا الحصن الثانى له روعة أكبر من الروعة التى يراها الإنسان للباب الأول : ومن هذا المدخل يصعد الداخل الى مكان القيادة ، فرأيت كيف أبقي الزمن آثار أقدم الحرس ، وحيث موضع الرماح التى كان يحملها الديابة^(١) كنت أراها على يمين الداخل وشماله حتى صعدنا إلى الأماكـن العالية : حيث كانت حجرات عميد الحصن ومأذنته ومكان عبادته .

مناذمة الحصن :

هذه هى النظرة الأولى لهذه الزيارة ، ولست بعالم فى فن هندسة التحصين وعمارة القلاع قديماً وحديثاً ، كما أننى لست مختصاً فى التاريخ وعلم الآثار ، وإنما أكتب كتابة رجل مر بـحصن من حصون المسلمين فأخذته روعة

(١) جمع ديدبان وهو الخارس .

المكان ، وغمرته ذكريات عن بلاده وهو بعيد عنها ، فإذا به ينادى هذه الحجارة القائمة ، ويحدثها ويسعى إلى منادمة الماضى وما فيه من معارك وحروب سمعيا قد يجعل هذا المكان يبوح بسرره وينطق بما كان عليه من أجداد العصور التى ولت .

فالمعلومات التى أقدمها لم أحاول جميعها على طريقة علمية منطقية ولم تكن نتيجة خطة مبيتة ، أو بحث قصدت به أن أظهر مقدار علمى ، وإنما هى نتيجة مطالعات متفرقة فى أوقات متباعدة ، وهذه المطالعات أثارتها زيارتى لهذا الأثر ورغبتى فى إشباع نفسى منه .

أثر التاريخ فى نفسى :

فهناك فريق من الناس يؤمنون بأن قيمة بعض الأشياء هى فى مقدار ما تثيره فى أنفسهم من انتباه أو وعى رغبة فى الاستزادة من التعرف إليها ، ثم فيما تتركه هذه الأشياء فى عقولهم وأذهانهم من دوافع قد تلازمهم مدة طويلة من الزمن ، وتدفعهم إلى عمل أشياء نافعة أحيانا .

وإنى أتشرف بأنى من هؤلاء الذين يؤمنون بأن التاريخ والآثار وكثيراً من محاسن هذه الدنيا ، هى حياة ما دامت تؤثر فينا وتجعلنا نشعر بشعور معين ، وتحت إحاء هذا الشعور نقوم باتمام عمل من الأعمال النافعة المفيدة . وأعترف بأنى مدين لزيارتى هذه إلى حصن الأكراد بشىء كبير من هذا الإحاء الذى لازمنى مدة طويلة ونفخ فى روحى حماساً ، للتعرف على أشياء ، والإيمان بعصور كانت فى مخيلتى قائمة يحيط بها الكثير من الضباب . فأخذت أتحنن الفرص لزيادة معلوماتى عنها وشغل أوقات الفراغ فى تعرف هذه الأيام والكشف عما وراء الحجب من أشياء قد تكون معلومة لأهل الاختصاص ، ولكنها كانت على كل حال مجهولة لى .

وصف القرماء للقلعة :

وللتعرف على هذه القلعة ، أبدأ بأن أنقل إليكم ما كتبه الأستاذ الجليل محمد كرد علي ، صاحب خطط الشام إذ قال : قلعة الحصن ، أو حصن الأكراد أو الكرك Graces Chevaliers ولا تزال محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه ، وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بأن هؤلاء نزلوا الأراضي المقدسة .

ثم : فلننظر بعده إلى يا قوت الحموي صاحب معجم البلدان فقد كتب : منذ أكثر من سبعمائة عام « حصن الأكراد هو حصن منيع ، حصين على الجبل الذي يقابل حصن من جهة الغرب وهو المتصل بجبل لبنان ، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً ، وجعل فيه قوماً من الأكراد كطليعة بينه وبين الفرنج وأجرى لهم أرزاقاً ، فخافوا على أنفسهم فجعلوا يحصنون هذا البرج إلى أن صار قلعة حصينة ، منعت الفرنج من كثير من غاراتهم فنازلوه ، فباعه الأكراد ونزحوا لبلادهم ، وملكوه الفرنج وهو في أيديهم إلى هذه الغاية (أى إلى عهد يا قوت الحموي) وبينه وبين حصن يوم واحد ، ولا يستطيع صاحب حصن أن ينتزعه من أيديهم » .

ثم اختلط عليه الأمر فجاء بذكرى الدواية في حصن الأكراد ويقصد فئة الاستبثار أصحاب الحصن فقال عنهم : هم قوم من الفرنج يحبسون أنفسهم لقتال المسلمين ويمنعون أنفسهم عن النكاح — يقصد إيمانهم بالرهينة — ولهم أموال وسلاح . ويتعاطون القوة ويعالجون السلاح ولا طاعة لأحد عليهم . انتهى كلامه ...

جماعة الاستبصار :

وهذا رأى لكاتب عربي كتيبه قبل استعادة الحصن من أيدي الصليبيين ويهمنا قبل الانتقال من هذا التعريف أن نصصح لياقوت : فأصحاب الحصن هم جماعة الاستبصار لا الداوية كما قال .

والاستبصار هم Les Hospitaliers والداوية هم الهيكليون نسبة إلى هيكل سليمان أو المعبد Templiers وهما منظمقان صليبيتان ، كان الغرض الأساسي من تأليفهما مديد المساعدة لرواد الأراضي المقدسة الذين تنقطع مواردهم ، أو يقعدهم المرض ، ومن هنا تفهم كلمة Hispter ثم ألقي عليهما واجب حماية هؤلاء الحاج . ثم إنتهى الأمر بهما إلى أن أصبحتا قوتين عسكريتين منظميتين لمحاربة المسلمين . وقد حصلت كلتاها على حق احتلال القلاع والحصون ، وعلى حق إدارة المقاطعات وفرض الضرائب ، وعلى حق عقد المعاهدات والهدنة والصلح . فأصبحت كل منظمة حكومة داخل حكومات الصليبيين ، ووصل عدد المنتظمين لهاتين المنظمتين إلى ١٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا على ثلاثة أصناف :

١ — الفرسان : من طبقة النبلاء من مختلف شعوب أوروبا وهم الذين يتولون مناصب الشرف الكبرى .

٢ — الضباط : ويمكن أن يلتحق بهم أبناء الطبقات الوسطى .

٣ — الكتاب : ويتولون وظائف الكتابة والأعمال الدينية الثانوية .

وكان حصن الأكراد معقلا من معاقل الاستبصار : وهم الذين زادوا على أسواره وبنوا الأبراج العالية . وأهم ما بقي من آثارهم القاعة الكبرى ومسكن رئيس الفرسان Logisdu Maitre وغير ذلك . وقد تسلموا الحصن من أمير مقاطعة طرابلس لوجود الحصن على الحدود .

قسم من الموت :

وكانت القواعد المتبعة أن يقسم جماعة الاسبتار ، أو الهيكلين على الدفاع حتى الموت ، ولا يعفون من قسمهم إلا بأمر أعلى من عميد الهيئة (le Grand Maître) فكانوا أهل رباط يتقربون إلى الله بقتال المسلمين بغير هوادة ، وكانوا يعتبرون من مات في قتال الاسلام شهيداً ، ومن عواندهم (التي أخذوها عن المسلمين وأهل المشرق) اطعام أربعين مسكيناً لمدة أربعين يوماً ، وإخراج زكاة العشر للفقراء عن جميع المحاصيل ، بل فرضوا على أنفسهم إخراج رغيف عن كل عشرة أرغفة تخبز في مطابخهم .

وكانت المنافسة على أشدها بين المنظمين ، بل كانت تنتهى أحياناً إلى العداء المفتوح ، وفي منطقة حصن الأكراد كانت قلاع صافيتا وطرطوس في أيدي الهيكلين .

تاريخ طويل وصحاحم بشرية :

والمنطقتين تاريخ طويل في الحروب الصليبية ، ويبرز اسم عميد كل منهما في كثير من الحوادث ، وفي توجيه سياسة الامارات اللاتينية الصليبية . ولذا أفرد المؤرخون المؤلفات الطويلة للتحدث عنهم .

ويهمنا من أمرهم ما كان لهم من السلطان في حصن الأكراد ، فقد ذكر صاحب كتاب les Hospitaliers en Terre Sainte كشفاً بأسماء من تولوا وظائف كبرى من الاسبتار بحصن الأكراد ابتداء من ١١٦٥ إلى ١٢٦٧ وخصوصاً العمداء les Chatelains ذكر من بينهم Pierre de-

Mirmandi Raymond de Pignani Arnaud de Monthron

ويؤكد الكثيرون أن رفاتهم وقبورهم لا تزال في اقبية الكنيسة التي

كانت بالحصن .

ولقد رأيت في متحف الحصن مجموعة من الجاهل البشرية ، وعليها آثار ضربات السيوف ، فهل هي لقوم الاستتار أم من المسلمين ؟ هذا ما يقف التاريخ حائراً أمامه .

الاهتمام العلماء بالقلعة :

لفت حصن الأكراد أنظار رجال الآثار والعلماء من أواخر القرن الماضي ، وكتبوا الكثير عنه ، ولهم المطبوعات والرسوم التي تدل على عملهم المتواصل . وكان آخر ما ظهر من عمل جدى إنشائي : هو عمل البعثة الفرنسية التي أقامت أكثر من عشر سنوات ابتداء من عام ١٩٢٧ وظهرت أبحاثها في المجموعة المسماة Les Châteaux des Croisés التي طبعتها مصلحة الآثار الفرنسية تحت عنوان Le crac des chevaliers وهو كتاب من أعظم الكتب الأثرية تأليف Deschamps . وي زيد من قيمة هذا العمل أن البعثة أعادت هذا الحصن إلى بعض رونقه القديم ، وأخذت في هذا العمل سنوات عدة ، ولذا جاء عملها من الوجهتين : الأثرية والعلمية من الأعمال الخالدة .

وإنى إذا أشير إلى هذا أرجو أن أجد من السلطات المصرية والسورية اهتماماً يفوق هذا الاهتمام لإعادة قلاع القاهرة ودمشق وحلب إلى ما كانت عليه في إبان سطوتها وعزها على نمط لا يقل في قيمتها العلمية والأثرية عما قامت به بعثة حصن الأكراد الفرنسية .

البعثة الفرنسية تنبئى القبور :

وأخذ على البعثة الفرنسية هدمها لقبور من ماتوا من المسلمين ودفنوا داخل الحصن ، ومنهم من كان يحكم هذا الحصن باسم مصر نائباً عن السلطة المصرية ، أذكر من ذلك تربة الأمير صارم الدين قايمار الظاهري السعيدى أول

نائب للسلطنة بعد الفتح ، توفي سنة ٦٧٣ ودفن بالحصن . وحقق سوبرنهم Sodornheim الكتابة التي على شاهد القبر ورسمها ، وليس لهذه التربة أثر بعد الترميمات ، ولم يكن من حقوق البعثة أن تعيث برفات قائد مصرى كبير بعد أن رقدت بالحصن الذى افتتحته جنوده مئات السنين .

الحروب الصليبية :

اعتاد الناس حينما يتحدثون عن أثر مثل حصن الأكراد أن يشيروا إلى الحروب الصليبية وأثرها ونتائجها وبعض حملاتها ، وموضع هذا الأثر في تاريخ هذه الحروب : ولا شك في أن هذه الطريقة واجبة الاتباع ، ولكنى سأخالف هذه القاعدة من بعض النواحي .

ذلك لأن أغلب حملات الحروب الصليبية قد أصبحت معروفة ومتداولة ، ولم يعد من المفيد إعادة الكثير مما قرأه الناس عنها : ثم قد يتسع البحث إلى مناطق تبعدنا عن الغاية التي رسمناها لأنفسنا وهى حصن الأكراد وزيارته .. ولذلك سنشير إلى المنطقة التي فيها حصن الأكراد وأثرها في الحروب الصليبية ، ونأنى ببعض النتائج التي حصلنا عليها من أثر هذه الحروب فيها .

يمكن اعتبار الحروب الصليبية بأنها الهجوم المضاد الأول من الدول المسيحية ضد الإسلام : لأن الفتوحات الإسلامية وانتصارات المسلمين أثارت بوقفتها هجوماً مضاداً Contre Attaque فنحن نرى أن حروب الصليبيين الأولى كادت تقتلع ملك المسلمين بأكمله في سوريا ، وأن وقعة الحروب الصليبية في الإمارات اللاتينية أوجدت الحرب الثابتة في المراكز الحصنة ، والتي دامت حتى أتم المسلمون أهبتهم ، وجاءت هجماتهم التالية التي قذفت بالفرنج إلى الساحل : فكانت هى الرد الطبيعي على الهجوم المضاد المسيحي .

مجموعة الحصون التي ظهرت في فترات الهدوء :

ففي فترة الهدوء والاستجمام بين الهجومين أنشأ الصليبيون خطأ من الحصون وانقلاع ، يبدأ من خليج العقبة ويمر بالكرك والشوبك ، ويلتقي مع سلسلة الحصون التي تحمي أنطاكية ، وتنحدر مع جبال العلويين حتى جبل لبنان .
ففي منطقة الوسط تماماً يقع مثلث مكون من الحصون الثلاثة : في الشمال مصيف ، وفي الجنوب حصن الأكراد ، وإلى الغرب صافيتا .

فهذا المثلث الواقع على منطقة جبلية يسيطر على عدة طرق حيوية بالنسبة لمقاطعة طرابلس الصليبية ، وعلى مناطق زراعية خصبة تجعل المحتلين لهذه القلاع لا يهتمون بغير قلاعهم وأملاكهم ، ويسهل عليهم الاتصال فيما بينهم بالنيران لتبادل المساعدة ، ولصد كل عدوان يأتي إليهم . ولذلك استمرت هذه البقعة شوكة في جنب المسلمين منذ أيام صلاح الدين ومن قبله إلى أيام الملك الظاهر بيبرس .

هدف الحرب تحطيم قوة المقاومة وتدمير العمران :

والحرب هي الحرب في كل الأزمان تتطور قواعدها وأساليبها ولا تتبدل أهدافها . فهدفها الأول : هو تحطيم قوة المقاومة لدى الخصم وتدميره .
ولا شك في أن الحملات الصليبية الأولى لم تصل إلى أغراضها ؛ فإن قوة المسلمين لم تحطم في يوم من الأيام — وإن الفترة بين دخول الفرنج فلسطين وإخراج صلاح الدين لهم من القدس بعد معركة خطين كانت من فترات الثبات والتركز .
وقد دامت ٩٠ عاماً — وكانت كل المعارك الصغيرة من قبيل الهجمات التعرضية التي يقوم بها جيش من وراء الاستحكامات ثم يعود إليها بعد إتمام غرضه .

صلاح الدين ينزع حصونه الصليبيين :

هذه الاستحكامات الدائمة هي القلاع التي أشرنا إليها والتي تمكن صلاح الدين بعد هجومه العام من انتزاع أكثرها من أيدي الصليبيين ، ولكنه توفي قبل أن يتم العمل الذي بدأه ولذلك بقي حصن الأكراد لم يسلم إليه ، وعادت حالة الاستقرار والهدوء وراء القلاع ، وإن كانت تغيرت عقلية ملوك الصليبيين فأصبحت مصر هدفاً لحملاتهم للقضاء عليها حتى يتم لهم تحطيم قوة المسلمين وتدميرها تدميراً تاماً .

الموقف السلمي للخوفاين العباسية والفاطمية :

وهناك حقيقة لا بد من إعلانها وهي تملخص في إفلاس الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر في اتخاذ موقف يسمح لكل واحدة أو لكتلتهما معاً من البروز كقوة مجاهدة مكافئة تصالح لقيادة المسلمين في عراق يمثل الموت والحياة للعالم الإسلامي . فهذا الموقف السلمي إنتهى بهما إلى النتيجة الطبيعية المحتمة وهي زوال الخلافة الفاطمية من الوجود وضعف الخلافة العباسية إلى أن صفت على يد هولاكو .

والقارئ لأخبار الصليبيين عند نزولهم لدمياط وخصوصاً لأخبار نشاطهم وحاسهم عندما وصلت لهم أنباء استيلاء التتار على بغداد يخيل إليه أن قواد الصليبيين قد وثقوا من أن العالم الإسلامي قد زال من الوجود بزوالها مع أن أثر الخلافة العباسية كان ضئيلاً جداً في الحروب الصليبية لدرجة لا يصدقها العقل . . والفضل الأكبر في صد الحروب الصليبية وإعداد أول هجوم إسلامي على معاقل الصليبيين في فلسطين هو لمصر تحت قيادة صلاح الدين الذي ورث هذا النشاط عن نور الدين الشهيد .

وهذا ما أدركه كتاب الصليبيين ، وما شعر به قوادهم بعد وقت طويل وما باح به الجنرال كاترو فقلوه : إن مصر في مطالبتها بعودة الدستور والحياة النيابية في سوريا ولبنان إنما تريد أن تلعب الدور الذي لعبه من قبل صلاح الدين في شئون دمشق .

عمل بيبرس :

والعمل الحاسم لآخر هجوم إسلامي كان لمصر تحت قيادة الملك الظاهر بيبرس هذا الهجوم العام الذي سقطت فيه انطاكية وحصون الشمال ، وأخيراً حصن الأكراد وغيره من حصون الوسط .

ولو أعقبت وفاة بيبرس فترة هدوء واستجمام لعادت الحروب الصليبية مرة أخرى ، ولكن قلاوون وابنه الأشرف خليل كانا أسرع إلى مداومة الزحف واستغلال الموقف ، فلم يقف الهجوم الثالث حتى حقق ما كان يؤمله كل من صلاح الدين وبيبرس ، فسقطت طرابلس ثم عكا التي قال عنها الشاعر في مدح الأشرف خليل بن قلاوون .

صدمتها بجيوش لو صدمت بها صم الجبال أزالها ولم تزل

عقيدة القضاء على الخصم :

ويرجع الفضل إلى إحراز هذا النصر إلى عقيدة القضاء على الفرنج وإنهاء الحروب الصليبية إنهاء تاماً ، تلك العقيدة التي تملك عقول الجنود والقواد وملوك مصر منذ بدأ بيبرس حملاته والتي تتلخص في الاستيلاء على الحصون والقلاع وعدم ترك الفرصة حتى تسترد الولايات اللاتينية استعدادها مرة أخرى ، وعليه أفرغ كتاب الفرنج جعبة شتائمهم على هؤلاء الأبطال ، وكتب جبون يرثي الحروب الصليبية يقول : « ساد سكون محزن غريب مظلم

على طول ذلك الشاطئ الذى ظل زماناً طويلاً تتردد فيه أصداء النزاع العالمى وتمر عليها كتائب المقاتلة » .

أنشأ الصليبيون معاقل وأبراجاً فى الحصون التى احتلوها تشهد لهم بطول الباع والأناة وللعرب والبيزنطيين ، بل وللفرس وغيرهم آثار تشهد لهم أيضاً . وهذا فن يهيم أربابه ، وقد أخرجت البعثة الفرنسية حجارة نحتها العرب وأخرى نحتها الفرنج من أسوار حصن الأكراد ، وفى أسوار قلعة القاهرة من الحجارة ما نحتته أسرى الفرنج ، فقد كانت الطريقة المتبعة استعمال الأسرى فى هذه الأعمال .

حصن الأكراد كرأس حربته موجهة إلى بلاد المسلمين :

وقد استعمل حصن الأكراد وغيره من الحصون فى فترات الهدوء التى دامت بين هجومين عظيمين : كرأس حربته طول مدة احتلاله بالصليبيين لإدخال الرعب فى قلوب المسلمين ، ثم كملجأ يلجأ إليه المقاتلة والفرسان بعد عودتهم من حملة موقعة ليستجمعوا ويستعيدوا قوتهم ليعودوا مرة أخرى إلى الغزو فى أراضى المسلمين . . .

وقد بقى حصن الأكراد ١٣٠ عاماً وهو رأس حربته كما قلنا يهددون بها حصن وما حولها ، ويحاولون دون اتصال المسلمين بالجهات التى تحت حكمهم فى بعلبك والجهات الأخرى المجاورة لها .

نور الدين الشهيد :

ولما شعر المسلمون بأهمية هذا الموقع العسكرى ومدى أذاه فى صفوفهم لجأوا إلى نور الشهيد صاحب دمشق الذى جمع جنوده فى سنة ثمان وخمسين

وخسمائة ونزل تحت حصن الأكراد ، فبينما هو في معسكره وفي وسط النهار ، دهته كتائب الأفرنج من خلف الجبل القائم عليه الحصن ، وأحاطت بالجيش الإسلامي وهو على غير أهبة فأعملت فيه السيف ، وقصد الأفرنج خيمة العادل نور الدين ، فكاد أن يقع أسيراً لولا رباطة جأشه وسرعة خاطره إذ خرج من الباب الخلفي وركب فرساً للنوبة ، وكانت بقيدتها الخلفي فنزل أحد أتباعه من الأكراد فخلها وقتل لساعته ، ولولاه لوقع نور الدين في الأسر .

وفي هذه الحادثة بالذات يقول أبو الفرج عبيد الله بن أبي سعد الموصلي من

قصيدة فائقة :

بنى الأصافر ما نلتم بمكركم والمكر في كل إنسان أخوال الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم غير الأراذل والأتباع والسفل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركزاً كسالبه والحرب دائرة من كف معتمل
وفيهما يخاطب نور الدين :

لا نكبت عنك الأقدار في غرض ولا تنت يدك الأيام عن أمل

وبرغم ما في القصيدة من محاولة الاعتذار أمام الهزيمة والفرار ، فإن العملية الحربية الصليبية كانت ناجحة إذ تجلى فيها عنصر المفاجأة وظاهرة السرعة بدليل تتبع المهزمين حتى حصص . والفضل الموقع الممتاز لحصن الأكراد ، ذلك الموقع الذي أتعب المسلمين أكثر من قرن من الزمان كما قلنا .

الأفرنج يستعملونه حصن الأكراد لها صخرة المسلمين :

ولدينا من قبيل هذا المقال الكثير من الهجمات والمتاعب التي سببتها حامية حصن الأكراد الصليبية لمدينتي حصص وحماة وغيرها من بلاد المسلمين .

ففي عام ٥٩٩ زحف الافرنج من حصن الأكراد إلى مدينة حماة فركب صاحبها وحاربهم في رمضان ، وجاء في السلوك ضمن حوادث سنة ٦٠٣ ان الملك العادل الأيوبي صاحب مصر خرج من مصر إلى العباسية ومنها إلى دمشق ثم برز إلى حمص ، وذلك عقب الحملات المتتالية التي شنتها حامية حصن الأكراد وتعددت الغارات على كل من حمص وحماة ، ونازل الحصن واسر خمسمائة رجل من اطرافه . ولقد نازله قبله صلاح الدين وغيره من ملوك المسلمين ولكنها كانت جميعاً حملات تعرضية استكشافية ، او إذا شئت تأديبية ضد المقاتلين من جماعة الصليبيين المستحكمين في هذه القلعة ولم يعقبها حصار كامل الأهبة والاستعداد كما حدث بعد ذلك .

وقد بقي هذا الحصن قذى في أعين المسلمين يهدد بلادهم حتى تم فتحه في عام ٦٦٨ هجرية على يد الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر وصاحب الفتوحات وهو ما سنفرد له فقرة خاصة تأتي بعد ذلك .

وقبل أن يتم الفتح على يديه اتبع طريقة أسلافه ، وهي الهجمات التعرضية السريعة لجلس نبض الحامية واستنفارها للخروج من وراء الخنادق والأبراج ؛ ففي هذا العام أى في ٣ جمادى سنة ٦٦٨ ركب الملك في مائتي فارس وأغار على أطراف الحصن ثم صعد إلى الرابية ومعه قدر أربعين من الفرسان فخرج عليه عدة من الفرنج ملبسين بالدروع فحمل عليهم وقتلهم وتبعهم حتى دخلوا الحصن . وتقول الرواية إنه صاح بهم ليدعوا رفقاءهم إلى الخروج ، وأشار إلى عدد من معه وكانوا جميعاً بأقبية بيض أى غير مدرعين بالزرد والحديد . وتشير الرواية إلى أنه عاد إلى مخيمه وأطلق الخيول في المروج الخضراء والمزارع التي كانت حول الحصن .

وكانت هذه آخر الحملات التأديبية إذ سقط الحصن بعدها في أيدي الملك الظاهر الذي بادر إلى ترميمه وإعادة إصلاح أبراجه وخنادقه واتخاذها نقطة

ارتكاز لجيوشه في عملياته الحربية ضد الفرنج المحتلين لمقاطعة طرابلس ، فأصبح حصن الأكراد رأس حربة موجهة إلى الغرب بعد أن كان موجها إلى الشرق
أى إلى قلب الأراضى الإسلامية .

ولهذا الوضع أمثلة في الحروب الحديثة فإن الزايرين لمنطقة جبال الكارسو في شمال إيطاليا لا بد عاينوا الحصون السكائنة في جهة سان ميشيل وسابوتينو حيث لا تزال أماكن المدفعية التى استعملها النمساويون وأماكن تلك التى استعملها الإيطاليون بعدهم ظاهرة أى أنها استعملت مرتين . . .

وتحدثنا الرواية بالتفصيل عن بعض ما قام به الملك الظاهر فقد أمضى أياماً في الصيد ، وكان يصنع السهام بيده ويريش النشاب ، وكان يحضر العمارة بنفسه ويشجذهم العمال ويشجعهم بل كان يشمر وينقل الحجارة على كتفيه ، وكان ينزل في الخندق ويحفر بيديه . ولما أتم العمارة وأعاد تركيب المنجنيقات أمر بتجربتها أمامه ليعرف أماكن سقوط حجارتها ومدى إصابتها للأهداف .

وتنتظم الحياة مرة أخرى بحصن الأكراد إذ تولى القيادة فيه الأمير حسام الدين قياز الذى مر ذكره : وأطلق عليه اسم نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات على رأس حامية مؤلفة من ٥٠٠ جندى وعشرة أمراء طبلخانة و ١٥ أمير عشرة .

وبمقارنة هذه الحامية تظهر أنها أقل مما كان يحتل الحصن من جنود الصليبيين إذ كانت تتراوح بين ٣٠٠٠ و ٣ آلاف وهؤلاء يدخل بينهم الخدم والزراع وطوائف من أهل البلاد .

وبعد حسام الدين قياز تعين سيف الدين بلبان الطباخى ثم الأمير علم الدين سنجر الدوادارى . وبوسع المهتمين بالتاريخ المصرى استكمال هذا الكشف حتى يكون مكملًا للكشف الذى ضم أسماء من تولوا القيادة بالحصن أيام الاحتلال الصليبي من رجال الاستتار . . .

انتهى الحصن فى عهد المنصور قلاوون إلى أن أصبح مركز تجمع الجيوش التى حشدت هناك للزحف على مقاطعة طرابلس ، وكان الطباخى يقود الحامية من البرج الذى كان يحتله عميد الاستتار ، ويبحث بطلانعه لاكتشاف الأماكن التى نزلها الجنود قبل حصار طرابلس .

وفى عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون اشتركت الحامية فى أعمال الحصار الرائعة حول مدينة عكا وقد قامت ومعها الجانيق التى سبق أن ركبها الملك الظاهر ومن بينها منجنيق هائل أطلق عليه اسم المنصورى .

أتينا بصورة من الحياة والقتال فى الحصن فى العهدين الصليبي والإسلامي لكي تسهل المقارنة وتركنا فتح الحصن على أيدي المسلمين جانباً حتى لا يكون فاصلاً يضيع المقارنة بين العاملين .

فقد أشرنا إلى عملية قام بها الملك الظاهر تشبه الهجمات التى اعتادها ملوك المسلمين وأمرؤهم ولم يكن يرمى من ورائها إلى هدف معين . وسنرى فى حملته على حصن الأكراد كيف يلجأ إلى أساليب المفاجأة والسرعة وتضليل الخصم . فى السنة التى أتم فيها الملك الظاهر إنشاء الجسر والقناطر القائمة بقرب بلدة شبرا بمصر، قرر فتح حصن الأكراد الذى استعصى على غيره من الملوك والأمراء . وإليك برنامج السفر : غادر القاهرة فى ١٨ جمادى الآخرة ، وصل دمشق الخميس ١٨ رجب ، وفى المدة السابقة لوصوله أى بين ١٨ جمادى و ١٨ رجب أشغل العدو إذ ابتدأت الحملات الخاطفة ضد قلاع الصليبيين فى : جبلة . وفى أثناءها سقطت اللاذقية . صافيتا . المرقب . المجدل . القليعات . طرطوس :

فى يوم ١٩ رجب الموافق ٣ مارس سنة ١٢٦٧ تجمعت قوات الملك الظاهر أمام حصن الأكراد .

ونلاحظ فى هذه الأعمال اختفاء الهدف الرئيسى حتى اللحظة الأخيرة .

جاء إليه ابنه الملك السعيد والأمير بيليك الخازندار وبمجرد وصولهما بدأت أعمال الحصار : إذ أخذت الجنود فى نصب المجانيق وعمل الستائر لحماية الرماة .
اقتحمت الأسوار الثلاثة على التوالى عنوة ماعدا البرج الأخير الذى استحکم فيه فرسان الاسبتار حتى آخر مراحل الحصار .
فى ٧ شعبان سقطت الباشورة الثانية التى تؤدى إلى الحصن الداخلى ، ودخلت العساكر البلد بالسيف وأسروا من فيه من الجبلية والمزارعين ثم أطلقوهم .
وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان طلبت الحماية الأمان فأمهم الظاهر وتسلم البرج الأخير فدخله وكتبت البشائر وترتب أرباب الوظائف بالحصن من جهة المملكة المصرية أى النواب والقضاة وبقي بيد مصر حتى دخول السلطان سليم ديار الشام ، فزال ملك مصر عنها كما زال عن غيرها من البلاد .

* * *

هذا هو حصن الأكراد الذى توجهنا لزيارته ومررنا بأقسامه ، ووقفنا أمام أبراجه ، وفيها أبراج بناها المنصور قلاوون ، ولا تزال الأسماء والآيات القرآنية كما كانت .

ودخلنا أماكن الخيول ، وقد كشفت عنها البعثة الفرنسية فرأينا ما أدهشنا أثر حوافر الخيل ومواضع ربطها والحديد الذى كانت تشكل به . لقد كان الردم يغطى كل هذا ، ولما أخرجته يد الإنسان من تحت التراب إذا به كما كان يوم تركه أصحابه منذ مئات السنين .

وكان للحصن آبار ومجار للمياه حينما كشف عنها وجدت أوانى من النحاس من عصر الملك الناصر محمد ورؤوس النبال والرماح .

وعدت من الحصن وقد غمرتني نفحة من تلك النفحات التى تؤذن بخروج الإنسان من طور ودخوله إلى طور جديد من أطوار الحياة : فقد تغيرت نظرتي

إلى بعض الأشياء ، وأخذت طريقاً لإشباع نفسى بتقليب صفحات الماضى الذى بدأت أحس بأننا قطعة منه .

وإذا بى أوْمن بأن تاريخ مصر والشام وحدة لا تتجزأ ، وأن أية محاولة للفصل بينهما تؤدي بنا إلى نتائج معكوسة أى تقرير مبادئ سلبية يقصد أصحابها توزيع القوى والعزائم وتجريح الأمم الإسلامية وإنقاص الدور الذى ألقته علينا الأقدار وحمله لنا التاريخ كقوة مقاتلة منشئة منتصرة .

وها نحن نعيش فى عصر طابعه السرعة والإقدام ، والبناء والخلق والتجديد ومع هذا لا تزال نسير على خطوات وثيدة والزمن يعدو أمامنا : ذلك لأن عوامل التفكك والانحلال والسلبية لا تزال تعمل فى صفوفنا وتوقنا عن الأهداف الكبرى .

هل كان الذين انتصروا فى هذه الحروب وقادوا الحملات وتغلبوا على الحوادث لهم نظرة خاصة ومنطق خاص حتى تغلبوا على قوات تفوقهم : وأحرزوا النصر وأنا لا نستطيع أن يكون لنا قبس من نظرتهم ومنطقهم ومثلهم العليا وحاسمهم . إن الذين خاضوا هذه المعارك أظهروا نهاية ما يمكن من الإقدام حينما وجدوا القيادة الصالحة ، فهل يجدها معاصرونا الآن ؟ إن استمرار الكفاح والجهاد لمدة تقرب من قرنين لهو أظهر دليل على أن صفات الاستمرار والمداومة ثابتة فى الصفوف بين الأمم الإسلامية ، ولا نحتاج إلا لمن يظهرها ويحسن قيادتها وتوجيهها .

ونحن لا نعيد الحروب الصليبية بمآسيها ومتاعبها ، وإن كانت تتكرر على مقربة منا فى فلسطين ولسكننا نقول : إننا فى حاجة وقت السلم إلى صفات لا تقل عن الصفات التى تحتاجها الأمة وقت الحرب بل قد تزيد .
إننا فى عصر يتطلب انتزاع النصر فى السلم كما انتزع أسلافنا فى الحرب ،

وتخصير هذا يتطلب جمع القوى المشتقة وتنظيمها وتعبئتها ، وهذا التنظيم نوع من الكفاح الدائم المستمر .

إنه يتطلب نوعاً من الهدوء والثبات والعريز والإقدام ، وهي من قبيل الصفات التي تمكن بها أسلافنا من انتزاع النصر في المعارك التي ذكرتها أو أشرت إليها في الكلام عن حصن الأكراد ولا أشك في أن هذه الصفات كامنة فينا وأؤمن أنها ستخرج في القريب لكي نحقق في السلم ما يرى الكثيرون أنه بعيد التحقيق ولكي تنتهي أسطورة المستعمرين التي تقول بأنه ليس في طاقة شعوب الشرق أن تقوم بعمل حاسم ، ولكن وثبتها نحو تحقيق مثلها العليا سيجعل هذا الاتجاه حقيقة ماثلة للعالم أجمع مرة أخرى . . .

وسيكون أكبر دليل نقدمه على حيويتنا ورغبتنا في البقاء والخلود على هذا الكوكب الأرضي .
إنا لمنتظرون .

على هامش حرب العالمية الأولى كيف تستفيد من دروس حملة ندلين

١٩١٤ - ١٩١٨

بين يدي كتاب عنوانه « دروس من تجارب الحرب العظمى ». وضعه الجنرال الألماني البارون فون فرايتاج لورنجهوفن ، وكان صاحبه من خيرة كتاب ألمانيا العسكريين وأطولهم باعاً ، وأقدرهم في الكتابة عن الحرب من الوجهة النظرية . وهو بروسي الأصل ولكنه ينحدر من عائلة كانت تسكن شواطئ بحر البلطيق في تلك المناطق التي ضمت إلى روسيا ، وهاجرت عائلته إلى ألمانيا ، فانضم في الحادية والعشرين من عمره إلى إحدى فرق الحرس البروسية وشغل قبل سنة ١٩١٤ وظيفة هامة في هيئة أركان الحرب العامة في برلين ، وما لبث أن ذاع صيته في السنين التي سبقت الحرب الأولى ، لاشتهاره بكتبه ومؤلفاته العسكرية التي نشرها عن فن الحرب وتاريخ المعارك ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى رشحته خبرته وثقافته ليعين مندوباً عن الجيش الألماني وممثلاته في المجلس الأعلى لهيئة أركان الحرب العامة لجيوش الإمبراطورية النمساوية المجرية .

وقد لمس عن كثب عند بدء الحرب ضعف هذه الإمبراطورية ، وأسباب تفكك جيوشها ، ولكنه كان يلمس الأعداء للعسكريين النمساويين ، ويقول إن جموع الجيوش التي حشدتها دولة العرشين - عرش النمسا وعرش المجر - قد استبسلت في القتال وحاربت بشجاعة، وجاءت هزيمتها نتيجة للأخطاء التي سببتها الهيئات النيابية في البلدين وإهمالها لطلبات هذه الجيوش وقت السلم .

والمعروف أن فشل الخطط الهجومية الألمانية في الميدان الغربي أدى إلى اعتزال السكونت فون مولتسكة من رئاسة هيئة أركان الحرب العامة ، فتسلها فون فالكنهين الذي دعا مؤلف الكتاب وعينه ضمن مساعديه .

واقترع عمل فون مولتسكة على رئاسة بعض الأقسام الفنية التي بقيت في برلين ، أما الأعمال الأساسية التي من صميم عمل هيئة أركان الحرب العامة ، فاستمرت في الميدان تحت إشراف القيادة العامة.

ولما أخفق الهجوم الألماني أمام حصون « فردان » طلب إلى المارشال فون هندنبرج في أوائل أغسطس ١٩١٦ ، أن يخلف فالسكتهاين في منصبه والحق مؤلف الكتاب كمساعد للجنرال لودندورف ، وهو يد هندنبرج البيني ، وقد بقي المؤلف يشغل هذه الوظيفة حتى مات فون مولتسكة في يونيو من السنة التالية ، فخلفه الجنرال لودنبجوفن في وظيفته ، أى شغل منصب الرئيس المنتخب لرئاسة أركان الحرب بأقسامها التي بقيت في برلين ، وكان عملها قاصراً على المسائل الفنية الصرفة ولا تتدخل في تنسيق العمليات الحربية وسير القتال في الجبهات .

وقد انعمت عليه حكومته عقب توليه هذا المنصب بوسام الاستحقاق من طبقة السلم . فكان هذا الانعام دليل تفوقه وأهليته وخير اعتراف رسمي له بأنه أقدر الكتاب العسكريين في الجيش البروسي .

والمعروف أن الذي أنشأ وسام الاستحقاق في طبقاته العسكرية هو فردريك الأكبر عاهل بروسيا ، وقد جرت التقاليد بالإنعام به على القواد والضباط الذين يظهرون مهارتهم في الحروب ، أما وسام الاستحقاق للسلم ، فقد أنشأه فردريك ولیم الرابع عام ١٨٤٢ وأوقفه على من يظهر قدرته على الكتابة في الفنون العسكرية من الوجوهات النظرية والعلمية البحتة ، وعليه فإن حصوله على هذا الوسام دليل تقدير مؤلفاته وأنها بلغت درجة كافية من النضوج تجعله أول ضابط حصل على وسام الاستحقاق من طبقة السلم في زمن الحرب العالمية الأولى .

لقد كتب المؤلف كتابه « دروس من تجارب الحرب العظمى » والحرب القائمة ، ثم طبع بعد انهزام ألمانيا ولم يكده يظهر في عالم المطبوعات حتى تلقفته الصحافة بتعليقاتها المستفيضة ، وقد لفت الأنظار إليه ما جاء في بعض فصوله عن

مستقبل الجيش الألماني ثم جاء في خاتمته التي تقول « لا تزال مستعدين للحرب » .
وأدى نشر فصوله على هذا الملاء أن أخذت الجرائد تناقشها بحماسة وحماس
وتشرح بأسهاب الطرق التي لا بد أن تتبعها ألمانيا بعد انكسارها في الحرب لتستعد
إلى دخول حرب أخرى ، فاضطرت الحكومة الديمقراطية أن تضيق على
الصحافة وأن تحول دون نشر تعليقاتها على الأفكار التي تضمنها الكتاب ،
ولكنها شجعت نشره في داخل بلادها ومنعت إرساله للخارج فلم يتعد ما تسرب
منها إلى البلاد الأجنبية عدداً محدوداً .

ونظرة لهذا الكتاب تجعلنا نحكم بأنه محاولة تمهيدية لتاريخ الحرب العالمية
الأولى ، فهو مؤلف موجه للشعب الألماني لا لرجال الجندية ، ولذلك عده البعض
شبهها بكتاب الماريشال فون مولتكه الكبير الذي قاد الحرب الفرنسية الألمانية ١٨٧٠
وخطه بقلمه وهو في ميدان القتال بفرنسا ، وقدّمه للشعب والأجيال القادمة التي
لم تكن وجدت في ذلك الوقت ، فنشأ على قراءته وتربى على أفكاره ومبادئه
جيل من الناس بأكمله ، هذا هو الذي عاش بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٤ ومن
هذا الجيل نشأ الجيش الذي خاض معارك الحرب العالمية الأولى واستشهد فيها .

وكذلك كتاب الجنرال لوردنجوفن أثر في الأجيال التي جاءت بين سنة
١٩١٨ وسنة ١٩٣٩ أي بين هزيمة ألمانيا الأولى ثم قيامها تحت نظام النازية
ودخولها الحرب العالمية الثانية : لأن الدعوة التي تبناها مؤلف الكتاب : يقول
بطرح المبادئ العالمية والاقلاع عن أفكار السلام الدائم ، والأخذ بفكرة

إنشاء نظام عسكري جديد لألمانيا موطد على دروس الحرب العالمية الأولى ومدعم

يتجاربها القاسية ومعتمد على تقدم العلوم الحديثة وتطور فنون الحرب ، فهو

يدعو إلى أن تخلق ألمانيا لنفسها من هزيمتها نصراً ، وهذا ما وفق الشعب الألماني

إليه بين حربين ، إذ جعل من تعاليم صاحب الكتاب دوافع نفسية مكنته من

تنظيم أكبر قوة عسكرية في العالم وأضحى آلة قتال رآها الناس في الفترة التي وقعت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وهو من القائلين بأن الحرب غريزة متمكنة من طبيعة البشر ، فكما أن طبيعة الناس لا تتغير فالحرب ستبقى ملازمة للإنسان في مستقبل أيامه كما لازمته آلاف السنين وعشرات القرون .

وهذه عقيدة تملكها الشعب الألماني الذي ألف الحروب ونشأ مدرّباً تحت السلاح ، ولذلك تقبلت هذه العقيدة عقلية الجماعات ، فأصبحت حقيقة منطقية ثابتة وإيماناً لا يحتمل الشك ولا يتطرق إليه التردد والضعف . وهو يقول إن الروح العسكرية ليست اختراعاً أوجدهه بروسيا لنفسها أو عارية أخذتها من الأمم الأخرى ، وإنما الروح العسكرية هي بروسيا نفسها . ولما كانت بروسيا أقوى دول ألمانيا ، فليس لدى الألمان أحزاب سلم وأحزاب حرب ، وإنما هناك أمة واحدة تقدر الواجب ، وتؤمن بعظمة الجيش ، وكل اتجاه يخالف هذا القول يعد هراء من قبيل إضاعة الوقت ، أو المناداة بفكرة لا يأبه لها ألماني واحد .

وهو يجهر في مقدمة كتابه بقوله « أن الواجب يفرض علينا أن نكون على بينة وثبت من الدروس والتجارب والحوادث التي كانت نتيجتها وخيمة علينا ، أنه فرض علينا أن نبحثها وندرسها ونحللها في أقسام الجيش وهيئات الحكومة ، إننا دفعنا الثمن غالباً للحصول عليها في ميادين القتال ، وفي داخل البلاد وخارجها ، فعلينا أن نوجه كل نشاطنا القومي ، وما تضعه بين أيدينا أنظمتنا العسكرية من وسائل ، لكي نطيل الدرس ونقلب أوجه البحث من غير إهمال أو تردد ، ولكن بعزيمة وبصيرة وبدون إضاعة وقت : إذ هنا يبرز الوقت كما يبرز في الحروب كعامل فعال له وزنه وقيمته » .

« إننا لا نستطيع أن نستخلص الآراء الصائبة التي تنفعنا أو تمدد النتائج العملية التي تصلح لنا ، إذا قصرنا عملنا على النواحي العسكرية وحدها ، فهي

مع أهميتها القصوى لا نستطيع فصلها عن تطور السياسة العالمية إزاءنا ، ولا
نتمكن من الاستفادة من هذه الدراسة إذا أهملنا التدقيق في الأحوال الاقتصادية
العامة وما أصاب بلادنا منها ، فنحن أمام ما علينا وما لنا ، أى أمام انتصارات
ونكبات ، والتجارب التى هى فى الحالتين مفيدة لنا . نعم لنكى نعمل فى المستقبل
على قواعدها ونسير بهديها .

« إن الغاية من تأليف هذا الكتاب هو إعلام الجيش والشعب بالآراء
الصائبة التى أثبتت الحروب مقدر صلاحيتها ووضع الحقائق والنتائج التى أقمنا
دروس القتال بصحتها : فنحن أمام حوادث عسكرية منها ما هو من صميم فن
الحرب وما هو من عمل السياسة ؛ وما هو اقتصادى بحت ولكنها دروس تعلمناها ،
بدماء أبنائنا وتضحيتهم الكبرى وموتهم فى سبيل المثل الأعلى للبلاد : فما أقمنا
الدليل بصحته تمسكنا به ، وما أظهرت الحرب بطلانه تجنبناه ، ودعونا إلى
الإقلاع عنه . وما ثبت نجاح شئ منه وبطلان بعضه عملنا على تحويله وإصلاحه
ليغلب النجاح عليه . »

وهل هذا النمط يسير المؤلف فى شرح نظرياته وآرائه وتوجيهاته بوضوح
وصراحة ، فيعرض الحالة السياسية والاقتصادية مدة الحرب لدولتى الوسط —
ألمانيا والنمسا — ويعطينا صورة للحالة النفسية للأمة معتمداً على سيكولوجية
الجماعات وأثرها فى رجال الجيش ثم يتكلم عن القيادة وعملها .

ويعد هذه الفصول بأكملها كقدمة للنتائج التى استخلصها وهى فى القسمين
الأخيرين من كتابه « الجيش فى المستقبل » ثم كلمته « لنبقى مستعدين للحرب »
وهما عصارة تجاربه .

والذى دفعنى إلى إعادة النظر والتأمل فى هذا الكتاب وفى غيره من
مؤلفات القائد الألمانى . بعد أن بقيت على رف مكتبى أكثر من عشرين
عاماً — هو ما يعاود رأى العام المصرى — من وقت لآخر — من الرغبة

في تعرف نتائج الحرب في فلسطين ، وأثرها في يقظة الوعي القومي بمصر ، والعمل على استعادة القيم الخلقية التي يبدو لكثيرين منا أنها « انهارت بعد الصدمة الأولى » .

ولما كنت من المؤمنين بأن قيمة أى نظام ويقظة أى شعب يرتكزان على ما يبذله كل شعب من الشعوب من العمل الصامت المستند على إرادة وفكر للخروج من آثار الهزيمة التي عاها حتى لا تهد من كيانه — رأيت من أولى المسائل التي يجب أن يهتم بها الشعب المصرى وأهل الرأى فيه هى مشكلة الحرب الفلسطينية وأثرها وما ألقته علينا من دروس .

فهل لدينا هيئة قائمة أخذت على عاتقها جمع المعلومات والوثائق وتبويبها ودراستها حتى نستخلص بعض الحقائق ونسجل على أنفسنا ما بدا من تقصير في صفوفنا وأنظمتنا ؟

أظن أننا لم نفكر بعد في شئ من ذلك .

إذن أصبح واجباً على المفكرين وأهل الرأى أن يسدوا هذا النقص وأن يكتبوا وينشروا على الملأ ما يعلمون ، حتى يشعر الشعب المصرى بأن هزيمة فلسطين ليس معناها أن يستمر تحت كنفها وفي ظلها إلى الأبد .

إنما هى نتيجة سلسلة من الأخطاء السياسية والعسكرية تمت على أيدي أناس لا يمتون بصلة إلى الفن الحربى ولا يعرفون شيئاً عن أساليب السياسة الدولية .

إن المركز الخاص الذى وجدت فيه مصر والبلاد العربية يجب أن يشرح لنا بأسباب ، وكذلك أماكن التجمع والحشد ؛ ويستلزم الأمر بيان الأسباب التي جعلت زحف الجيوش العربية — ذات التفوق العددي — متسكناً وغير مرتبط بالزم . والإجابة على السؤال المعروف الذى طالما وجهه أحد قواد ألمانيا في مؤلفاته عن الحرب العالمية الأولى .

« هل يأتي الآخرون لشد أزرنا وهل ينضم حلفاؤنا إلى صفوفنا حتى يكون تدخلهم في المعركة الناشئة نافعا وكيف يأتي في الوقت المناسب » .

إننا في حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي أشرت إليه ، نعم في حاجة إليه لكي نحفظ نحن في مصر ، بالروح العسكرية التي ورثناها عن أجدادنا : عن عمرو بن العاص ، وصلاح الدين والظاهر بيبرس . إن المحافظة على كيانتنا واستقلالنا تتم أن نكون موضع ثقة واحترام الأمم الكبرى ، ولكي نصل إلى شيء من ذلك يجب أن نكون أقوياء ، ولن نصل إلى القوة والنصر إلا إذا عرفنا أسباب هزائمنا وعلّة تفككنا وعوامل نكبتنا .

فهل يصل هذا الصوت إلى الأسماع ؟

وهل يكون له صدى ؟!

فزان

بين يدي الأتراك والطلحات والفريسيين

مقدمته :

سمعت شيوخنا من علماء العصر يقولون : « تعرف الشيء هو التمكن منه بواسطة منهج معين » .

قال صاحب لي : « ألا ترى أننا بلغنا الغاية والنهاية ؟ . فنحن وسط الناس أرقام ، وفيينا من العبقرية والذكاء النادر والعلم والفن ما يمكننا من المقدرة والافتدار » .

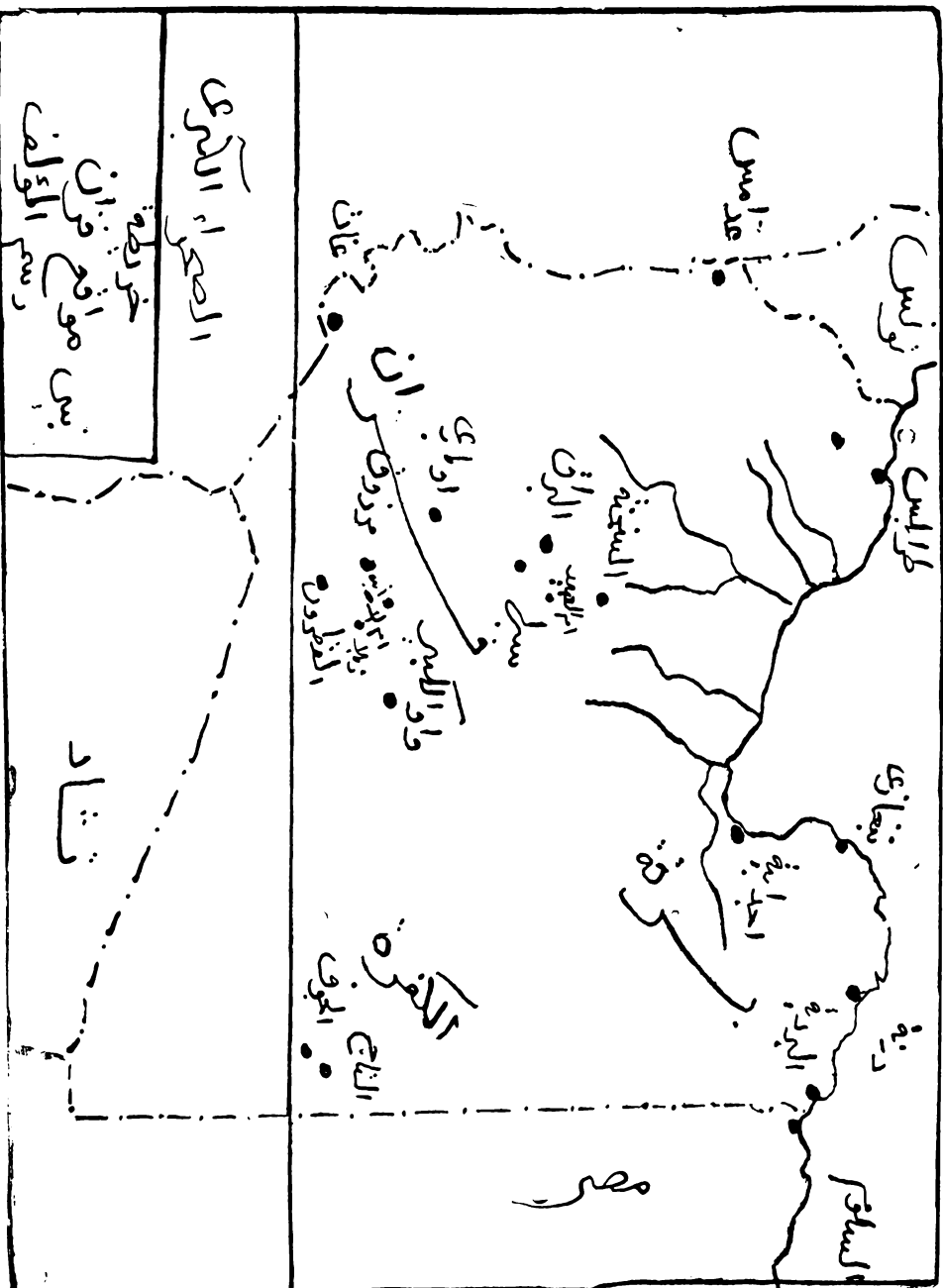
قلت له : « إني معك ، بل نحن على هذا وأكثر ، فقط أعلمني ، أفادك الله ووقاك » .

« لماذا تكتب الهزائم وخسارة المواقف السياسية ، وعدم التوفيق في المسائل الاقتصادية على الجانب الذي نكون فيه ؟ » .

فنظر إلى وسكت ... سكت دهرأ ! ... هذا الحديث أوحى إليّ الكلام عن فزان ...

بين الوحدة والتقسيم :

رأيت اسم « فزان » بارزاً في الأسابيع الأخيرة ، فهي موضع نزاع قائم بين أهل ليبيا و برقة — الذين يطلبون الوحدة لبلادهم أي لا يفرقون بين الجزء النرجي المسمى ليبيا ، والجزء الشرقي المسمى برقة ، ولا يتسلمون بانتزاع الجزء الجنوبي المسمى « فزان » وبين دعاة التقسيم وتوزيع الأسلاب من دول الاستعمار .



منع ممثلى الشعب :

اطلعنا فى الصحف أن فرنسا تحتل هذا القسم المسمى « فزان » وأن السلطات العسكرية المحتلة منعت ممثلى الشعب الليبى ورجال الصحافة العربية من دخول مقاطعة « فزان » أو الاقتراب من حدودها . فحالت بينهم وبين الاتصال بالسكان . وأترك تفسير وقع هذا المنع وأثره فى الضغط على حريات الشعوب المظلومة وحقوق الإنسان .

وصرة قاعة :

إن الوحدة الإقليمية التى ينادى بها أهل البلاد هى وحدة قاعة منذ العهد العثمانى ، واستمرت طول مدة الحكم الإيطالى إذ كان يطلق على هذا الإقليم اسم ولاية أو إيالة طرابلس الغرب حتى جاءت إيطاليا واعتدت عليها فأصدر ملكها فى أوائل سنة ١٩١٢ أمراً ملكياً ، جعل الولاية قسمين : قسم ليبيا وقسم برقة وألحقت قائممقامية فزان بالقسم الليبى ، وبقى الحاكم الإيطالى يسيطر على الأقسام جميعها .

صرد فزانه :

ويجعل الطليان أقصى امتداد فزان ٩٠٠ كيلومتراً من الشرق إلى الغرب و٨٠٠ كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب ، ويجعلون مساحتها أكثر من ٣٠٠ ألف كيلومتراً وهى كما ترون تتوسط تقريباً الصحراء الكبرى بين وادى النيل وشواطئ المحيط الأطلسى وتكون هضبة يبلغ مستوى ارتفاعها ٥٠٠ متر فوق سطح البحر وإن كان يتخللها وديان ومنخفضات تهبط أحياناً إلى ١٥٠ متراً تحت سطح البحر .

مركز تاريخي وجغرافي :

فهي تتمتع بمركز ممتاز جعل منها لعدة قرون مضت ممراً للطرق البرية ، وأصبحت عاصمتها « مرزوق » في وقت ما مركز تجمع القوافل التي كانت تسير من بلاد المغرب ومن مصر وطرابلس وبرقة في اتجاهها إلى بلاد السودان وأواسط أفريقيا .

فالطريق من مصر كان يمر بالجانب وجالو وزيل إلى مرزوق ومنها يتجه جنوباً إلى الأقاليم السودانية ، وأحياناً يتجه إلى حوض النيجر وتيمبوكتو . والمطلع على كتب التاريخ القديمة يذكر الجاليات السودانية التي كانت تأتي من تسكرو و تقطن وادى النيل ويحيطها كثير من ملوك مصر وسلطينها بعطفهم أيام دولتي الممالك ، ثم أتى وقت كانت فيه غات ومرزوق منزلين هامين من منازل الحجاج المسلمين في طريقهم من غرب أفريقيا . وأخيراً فقدت المدينتان هذه الأهمية بعد أن اتخذ الحجاج طرق البحر ، وبعد أن أضاعت الإمارات الإسلامية استقلالها في أفريقيا وخربت الجهات والواحات التي كانت يوماً ما آهلة بالسكان ، عامرة بالمزارع بعد أن حطمها الاستعمار الأوروبي .

ومع هذا فليس ببعيد أن تسترد هذه المناطق منزلة قد تفوق منزلتها الأولى ، إذ أن النصف الثاني من القرن العشرين ينبغي لنا الكثير من المفاجآت وأهمها العودة إلى الطرق العتيقة التي كان أسلافنا يقطعونها في أيام وشهور فإذا بالسيارات تقطعها في ساعات .

مهرأة أحداث تاريخية :

هناك ثلاثة أحداث هامة يجب أن نضعها أمام القارئ حينما نتحدث

عن فزان :

فى مارس سنة ١٩١٤ احتلت إيطاليا مرزوق وخرجت منها فى ديسمبر من نفس السنة .

فى عام ١٩١٧ استردها الأتراك ثم تركوها لأهلها سنة ١٩١٨ حتى استعادها الطليان سنة ١٩٢٩ .

فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٣ دخلتها قوات فرنسا الحرة ولا تزال تحتلها إلى اليوم .
وقد أعلن هذا الفتح الأخير فى بلاغات عسكرية ثلاث :
الأول : يصف العمليات الحربية الأخيرة فى الشمال ويعين الجنرال دلانج Delange حاكما عسكرياً .

الثانى : يعلن سقوط مدينتي سبها ومرزوق معاً .
الثالث : يعدد الأسرى والمغانم ويشيد بعمل الفرق السنغالية التى اشتركت فى المعركة .

بيان ديجول :

وفى ١٧ يناير سنة ١٩٤٣ أصدر الجنرال ديجول بياناً للسكان جاء فيه :
« إلى أهالى فزان الشجعان الكرماء :
أحييكم باسم فرنسا التى حررت بأسلحتها أراضيكم ، وستأخذ من الآن فصاعداً على عاتقها حمايتكم .

إن فرنسا ستبقى فى فزان وفى غيرها الصديقة الخالصة لرعاياها المسلمين .
لقد ترتب على هزيمة العدو المشترك أن أصبحت مقاطعتكم تتمتع بالأمن والرفاهية تحت سيطرة فرنسا . »

* * *

ومن ذلك اليوم ، ظهرت نوايا فرنسا فى أن تنتدب على فزان وجاهرت بأنها جزء متمم للمستعمرات الفرنسية أقرب إلى الجزائر وتونس منها إلى ليبيا و برقة .

بل جاهر رجال فرنسا بأنها المحطة الرئيسية للطريق الجوى بين مدغشقر وفرنسا .

وقيل أن بريطانيا وأمريكا سوف لا تعارضان فى الضم إذا قبلت فرنسا بعض الاشتراطات .

فزانه القريمة :

فماهى فزان حتى تصبح ذات أهمية وموضوع خاص ؟ .

جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى :

« هى ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب تقع فى الإقليم الأول ، بها نخل كثير ، ومدينتها زويلة السودان والغالب على ألوان أهلها السواد » .

وقد ذكرهم جرير فى شعره فقال :

قفراً تشابه آجال النعام به عيداُ تلاقت به فزان والنوب

مما يشعر أن فزان كان إسمًا يطلق على جنس أو قبيل من الناس ، والمسألة تحتاج إلى تحقيق .

ولن أترك هذا القسم من البحث دون أن أشير إلى باب مشهور من أبواب القاهرة هو باب زويلة المعروف باسم باب المتولى ، فقد أطلق عليه هذا الإسم نسبة إلى جنود الدولة الفاطمية الذين كانوا من هذه المنطقة من أقاليم الصحراء الكبرى كان يعرف باسمهم باب من أبواب المهدية عاصمة القواطم بأفريقيا . . .

من السهل التعرض إلى وصف الإقليم الفزانى ومظاهر الطبيعة وتضاريسها من وديان وجبال ، والكلام على طرق المواصلات ، إليها وفى داخلها ، كما أنه من المفيد الإشارة إلى توزيع السكان وأصولهم من عرب وبربر ، وعاداتهم وما يسود هذه الجماعات من معتقدات قديمة وأساليب معاشهم ولكن هذه المعلومات موجودة فى المراجع المختلفة ويمكن الاطلاع عليها ، ومجرد ذكرها لا يعد من

المواضيع الجديدة التي يصح أن أعرضها في بحث فرضت من المبدأ أن يكون الغرض منه تنبيه الأفكار إلى النواحي التاريخية الغامضة من حياة فزان الحديثة والتي تصلح كدروس لنا في الحاضر وتجارب تنفعنا المستقبل .

وهذه النواحي الأخيرة لا يمكن فصلها عن حياة ليبيا و برقة ، فلنبداً بإعطاء صورة من إعتداء إيطاليا على هذا الركن من العالم ، ثم ننقل إلى تقسيم العمليات الحربية التي كانت فزان مسرحاً لها حتى دخلت قوات فرنسا الحاربة هذه المنطقة وحررتها كما تقول .

العدوان الإيطالي على ليبيا :

في أكتوبر عام ١٩١١ رُوِّع العالم الإسلامي والعربي بخبر اعتداء صارخ قامت به إيطاليا على القطر الطرابلسي بغير إعلان حرب وبدون مسوغ . ولم يكن هناك نزاع أو ما يشبه النزاع ، بل كان هناك أمن وسلام . ولم يعلم الناس بأمر مفاوضة انقطعت أو أمر اختلاف على مبدأ أو رأى أو قاعدة مما تختلف عليه الأمم والشعوب فيتخذ ذريعة للحرب ، بل لم يسمعوا بشيء أو بعض شيء مما يحضر الأذهان لهذا العدوان وينبه العقول إلى مقدمه .

وإنما سيرت إيطاليا بوارجها وجحافلها واستيقظ أهل المدن الآمنة طرابلس وبنى غازي ودرنة ، على أصوات المدافع ، تقذف اللحم والموت على القلاع في عقر دارهم . فيا لله من يوم كنا صغاراً لا نعقل من الأمر شيئاً ، ولكننا لمسنا الألم والأسى ، مرسمين على وجوه الآباء والأهل والعشيرة والجيران فحزنت قلوبنا لحزنهم ، ونألما لألمهم .

كنا صغاراً نلهو ونلعت فتركنا اللهو وقاطعنا اللعب ، وشعر كل منا بأن ساعة فاصلة قد دقت في حياته ، نعم كان وقع الاعتداء شاملاً والجرح عميقاً ليس الجراح التي تبرز وتلتئم وتنسى مع الزمن .

وسرت بين الناس موجة دافعة ، من تلك الموجات التي تملأ النفوس
والمشاعر ، وتخفق لها القلوب ، وارتجت مصر من أقصاها إلى أذناها ، فن كتب
عليهم القتال من المجاهدين قاتلوا وقتلوا ، ومن لم يقدر على تحمله جاد بالمال عن
نفسه و بنيه .

وأتى أنور ومعه حفنة ممن باعوا أنفسهم في سبيل الله ، وثبت عرب طرابلس
وعرب برقة ، وعلى رأسهم السيد أحمد السنوسي ليكتبوا بدمائهم ملحمة من
ملاحم الملتزمين والموحدين في دفاعهم وجهادهم واستماتتهم عن أرض أندلس فواجهوا
الموت وعانوا الهزيمة ، كما لاح لهم الظفر والمجد ، وقاتلوا وانتصروا واستشهدوا ،
وامتلأت أيديهم بالعتاد والسلاح وأسرى العدو .

وفجأة خفتت أصوات المدافع وعادت السيوف إلى أغنادها وسادت فترة
هدوء على الجبهة . نعم لقد قامت حرب أشد هولاً ، هي حرب البلقان ، واتجهت
الأنظار إلى معارك في جبهة مقدونيا حيث تعرض ثلاثة ملايين من المسلمين
للهجوم والتشتيت وتساءل الناس عن المصير .

أما مقدونيا فرثاها شوقي بقوله :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت اخلافة عنك والإسلام
وأما ليبيا و برقة ، فقد استعوذ عليهما الطليان ، وترنم قائل بشعر قديم^(١) فقال :
أحقاً خبا من جو رندة نورها وقد كسفت بعد الشمس نورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا والقصور
ترى للأسى أعلامها وهي خشع ومنبرها مستعبد وسريها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها وزائرها في مأتم ومزورها
كلا لم تدم تلك المحنة طويلاً إذ قامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ،

(١) من مرثي الأندلس ومن نظم أبي جعفر ابن خاتمة حوالى سنة ٩٠٤ هجرية ،
أوردها الأمير شكيب أرسلان في كتابه « الحلل السندسية » .

ودخلت إيطاليا الحرب، فارتجت البلاد ثم عادت إلى الجهاد وبدأت ملحمة جديدة من تلك الملاحم الخالدة في تاريخ العروبة التي تقاتل فيها فئة صغيرة فئة كبيرة فيأتيها النصر من عند الله .

لقد فرحت مصر وفرحنا بمعارك درنة وعين زارة^(١) وغيرها من التي من الله بها على المجاهدين والمرابطين وذوى البأس في قتال الطليان وكان ذلك في عامي ١٩١١-١٩١٢ ، أما في أيام الحرب العظمى ، فقد سار المجاهدون فيها من نصر إلى نصر ، بل كان كل يوم يمر يأتي إليهم بنصر جديد من عند الله ، ولم تمض ١٩١٥ إلا وقد زحزحوا الطليان عن برقة واستعادوا فزان ، واقتحموا حصونهم ومعاقلهم واحد بعد الآخر ، واستحوذوا على أسلحتهم وسياراتهم ؛ وأسروا كتابهم المرتزقة من سود وحبش وغيرهم ، ساقوهم بأسلحة الطليان لقتال الطليان . وتلك والله مقدرة لأهل برقة وليبيا .

وتتبعوا المنهزمين وسدوا عليهم المنافذ والطرق . وفي يوم أصبحت العاصمة تحت أزيز رصاصهم ، وغدا الساحل تحت سيطرتهم فأتتهم المؤن والذخائر من حيث شاءوا .

فهل رأيت دفعة كهذه الدفعة أو قوة من المستضعفين يملؤها الإيمان والثقة بالنفس والدعوة إلى الحق والقتال في سبيل الله عملت في القرن العشرين عملاً يشبه هذا ؟ إنها وإيم الله وقفة رائعة .

بمع الحرب العالمية الأولى :

وانتهت الحرب العظمى الأولى ١٩١٨ ، وتدخل الإنجليز والطليان وأهالي البلاد فاعترفوا بنظام ليبيا ومسرطة وأقروا أمارة برقة ووقعوا المعاهدتين وضمنوا استقلال الداخل ، وخيل للناس أن عهداً من الطمأنينة والأمن قد أشرق .

(١) تبعد ١١ كيلو متر من مدينة طرابلس وهي واحة .

وفي يوم من الأيام ، إذا بموسوليني يضرب بموائق إيطاليا وضماداتها عرض الحائط ، ويمحّث بالإيمان المأخوذة ، وينير حرباً ضروساً مهلكة يحاول بأساليبها إبادة شعب بأسره ، كانت تعليماته وأوامره وقراراته واضحة لا شبهة فيها فليراجعها من يشاء يجدها في كتب القوم وما نشره قوادهم .

وكان كبش الفداء شعب ليبيا .

قابل هذا الشعب صدمة الخيانة بشجاعة نادرة . رأى الحرب تفرض عليه في دياره . فواجهها كما يواجهها كل مقاتل كريم كتبت عليه التضحية فقدم بنيه وأحفاده . وضيق عليه الخناق بحصار من البر والبحر ، فتحمل وصبر . وأودى في حريته ومعاشه وماله ودكت بيوته ، ولكن لم ينزل على حكم ظالميه ، ولا تراجع عن مبدأ من مبادئه .

واتبعت إيطاليا سياسة العنف والتشريد مع العصاة ، فلم ترع شيخاً ولا مقعداً ولا طفلاً ولا رضيعاً فخرت منازلهم ونقلت قبائل برمتها .

هذا هو الشعب الأبى الكريم ، الذي حررته الديمقراطية في الحرب الأخيرة واتخذت من اسمه عنواناً ومثلاً لتحرير الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها . والذي جمعت من أفراد ورجاله المتطوعة ، وحاربت بهم ، وقالت للعالم ها أنذا قد رددت الحق إلى أهله ، وأنقذت أول شعب وقع العدوان عليه وأزلت أثر الظلم والطغيان عن عاتقيه .

وترقب أهل البلاد نعمة الخلاص ، وباتوا يعللون أنفسهم بالأمال ، فماذا بهم اليوم ؟ إننا لنسمع الكثير من اللفظ . فمن قائل بعودة هذه الأرض البائسة إلى ساداتها الطليان ، وآخر يقول بانتداب الغير عليهم كأن هذه البلاد خلو من السكان ! إنه ليهمنا نحن معاصر الأمم العربية شأن برقة وليبيا ، ويهمنا شعب هذه البلاد . لماذا ؟ لأننا منه وجودنا . وإنها لصلات الدم والقربى والثقافة والتاريخ

الحى لا التاريخ^(١) المتعجرا الجامد ، ثم ما يوحيه هذا التاريخ المشترك من ذكريات الجهاد والنصر والهزيمة .

إننا نعبّر عن رأيه ونقول : هذا الشعب لا يريد شيئاً مستغرباً أو فوق متناول الإنسان ، إنه يريد أن ينعم بحدوده وبلاده واستقلاله وحرية ، إنه يطلب كيئاناً تحت الشمس شأنه شأن بقية الشعوب الصغيرة الحرة . . .

فهل تجاب دعوته ؟ وهل يجد لتضحياته جزاء ؟ وهل يعترف بجهوده ؟ أم ستعرض بلاده للبتر والتقسيم ، ويوضع مصيره وحرية ليضارب بها فى سوق توزيع مناطق النفوذ ؟ ! .

كان عدد سكان ليبيا و برقة من العرب فى مستهل عام ١٩١٠ أكثر من مليون نسمة ؛ وقد هبط هذا العدد إلى أقل من النصف ، على أثر سياسة التشريد التى اتبعتها الحكومة الفاشستية ، فكأن هذا الشعب قد بذل من الأنفس والأرواح دفاعاً عن كيانه واستقلاله ، ما لم يبذله الشعب الإيطالى طوال قرن من الزمن ثمناً لتحريره ! فهل رأيتُم شعباً يضحي بنصف عدده فى سبيل مثله العليا ؟ هذا هو الشعب العربى فى ليبيا و برقة الذى ينتظر أن يكتب الناس تاريخ جهاده فى الفترة بين حرب بين عالميتين .

والآن أعود إلى نهاية عام ١٩١٤ أى بعد إعلان الحرب الأولى فى الأشهر التى كانت فيها إيطاليا على الحياد .

انسحاب الطليان من فزان فى عام ١٩١٤ :

يقول كتاب إيطاليا العسكريون أن ظروف التعبئة العامة فى إيطاليا ألمات سياسة إخلاء المستعمرة من حامياتها فى الداخل والاكتفاء باحتلال الساحل ، ويعدون هذا الانسحاب بمثابة نكبة كبرى على الدولة الاستعمارية ، فقد كان

(١) يقصد المؤلف تاريخ الفرعونية وغيرها من المدينيات البائدة — التى يحاول البعض حيازة إقليمها .

هروباً سريع الخطى أمام قوات السنوسيين الذين توغلوا في كل جهة . فلننظر إلى ما تم هناك .

لقد كانت برقة دائماً مهد السنوسية ولما اشتد ساعدها امتدت حركتها إلى نواحي المستعمرة الأخرى فسكان الجزء الجنوبي الممتد شمالى فزان من نصيب السيد محمد العابد بن الشريف محمد بن علي السنوسى الحسنى الإريسي الخطابى الذى بدأ الدعوة إلى الجهاد فى تلك الجهات . وقد وجد السيد العابد أنصاراً له عديدين نفذوا أوامره وقاموا بنشر دعوته خير قيام منهم محمد مهدي السنى ابن محمد بن عبد الله السنارى وهو من مواليد السودان .

دعوة فى الصحراء :

وقد انتشرت دعوته حتى وصلت إلى قبائل الطوارق وانضم إليها كثير من زعماء الجنوب الذين بدأوا يهاجمون المواقع الحصينة فى الصحراء التى كان يحتلها الفرنسيون والإيطاليون على السواء . وكان أن تألفت حكومة بدوية تحت زعامة دينية حكمت هاتيك البقاع ، وبقيت تحتل فزان وأجزاء من الأراضى الفرنسية طول مدة الحرب الماضية حتى تقلص ظلها بسرعة غربية حينما أرسل القائد التركى نورى باشا ثلاثة من الضباط المعاصرين الذين نجحوا فى استخلاص فزان والجهات المجاورة واستعملوا أساليب السياسة والدهاء والمفاجأة فى تنفيذ أغراضهم .

غارة ضد مهن :

وكانت أول غارة للشوار ضد حصن سبها الإيطالى فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ إذ حصل الهجوم على الحامية ليلاً حينما علا المجاهدون أسوار القلعة وسلطوا نيرانهم وأعمالوا السلاح فاضطرت القوة إلى التسليم إلا من تمكن من الهرب تحت الظلام منسحباً إلى « سخنا » فى الشمال . جاء فى وصف هذه المعركة أن

رصاص المهاجمين كان ينهمل على عساكر أريتريا فتسمع أنين المصابين كأنك تسمع أصوات الفيران التي أخذت في مصيدة .

ويقول الطليان أن السيد العابد هو المسئول عن مجزرة حصن سبها ، إذ انتقل سراً من الكفرة إلى واحة واو الكبير واتخذها مركزاً للدعاية ، وبعث منها بداعيته مهدي السني الذي دخل وادي الزلاف وهناك دعا الناس إليه وحرص المقاتلين على مهاجمة الحصن ، حتى إذا نجحوا كان على رأس الغنائم وإذا فشلوا عاد إلى سيده . ولما دخلوا الحصن واستولوا عليه أصبح طريق فزان مفتوحاً أمامهم .

حامية مرزوق :

وما كاد يصل خبر الكارثة إلى السلطات الإيطالية حتى تيقنت بحلول الخطر على حاميتها الموزعة في فزان ، فبعثت بسيارات وصلت إلى مرزوق في ليلة من ديسمبر سنة ١٩١٤ ، ثم حملت الضباط والجنود الأوربيين وتركت الحاميات المكونة من عساكر المستعمرات تتلقى بصدورها رصاص الثوار وهي التي تولى قيادتها جاويش عربي من متطوعي الفرق الينية اسمه محمد بن عبد الله من قبيلة بني حبيش .

ولا شك في أن تصرف السلطات العسكرية الإيطالية على هذا النحو كان مدعاة لسقوط هيبة إيطاليا في الصحراء مدة من الزمن ولم تسترجعها إلا بعد مضي سنوات طويلة .

يمنى في جيسمه إيطاليا :

ولابد أن نذكر شيئاً عن هذا اليمنى المتطوع في صفوف الإيطاليين فهو قد بدأ خدمته في الصومال الإيطالي ضمن الجنود الذين اعتادت الحكومة الإيطالية تجنيدهم من عرب الين رغم أن هذا الجزء من أملاك الدولة العثمانية . وقد أظهر

هذا المبنى تفانياً في خدمة إيطاليا إذ توجه في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩١٤ إلى منزل الضباط بمدينة مرزوق فوجده خالياً فجزم بانسحابهم وقرر في نفسه أن يأخذ مكانهم ، فعاد إلى القلعة وأعلم الحامية بأن الطليان قد ذهبوا إلى الشمال لتلقى أوامر جديدة صادرة إليهم بمداومة القتال وسيعودون ومعهم الإمدادات . وهكذا ثبت هذا المبنى على رأس القوة المحاصرة بالقلعة ١٦ يوماً أمام الثوار المحيطين به حتى اتصل بعض هؤلاء رجال الحامية فقررروا التسليم . وتذهب الرواية الإيطالية إلى أنه أخذ العلم الإيطالي الذي كان يرفرف على القلعة وعاد به إلى منزله حيث أحرقه أمام زوجته .

التدريب الإيطالي :

ولما وقع أسيراً أراد السنوسيون أن يستفيدوا من خبرته في تدريب المقاتلين وتجهيئتهم للحرب على طريقة الجيوش الإيطالية فأبى وعد بإبائه من مفاخره لدى الإيطاليين . وإنما نسوق هذه الحادثة بالذات لأن المؤلفين الطليان اتخذوا منها دليلاً على صلاحية التدريب العسكري الإيطالي وتأثيره في بعض النفوس من السكان الوطنيين والوصول بها إلى درجة التضحية في خدمة الحكومة ، وتهمنا هذه الناحية بالذات ، فإن الفرنسيين قد برعوا في تنفيذ العناصر الملونة الأفريقية ، وتقدموا في أساليبهم إلى درجة تقرب من السكمال ، فقد رأينا كيف يتعلم السنغالي القواعد الأولى في هواة وصبر بحيث لا يتعدى التعليم ساعة من النهار موزعة على دقائق معدودة تسمح لهذا الجند أن يستوعب دقائق الأسلحة بطريقة تغلب عليها قواعد علم النفس وبهذا يخرج بعد أشهر وهو متحمس للفرقة وللعلم ولفرنسا .

فإلى الذين يتولون تدريب النش على القواعد العسكرية نسوق هذه الأمثلة للتدليل على أن تجارب علم النفس هي التي يجب أن نسير على هديها للتغلب على المصاعب التي تواجهنا في بيئة منخبات الشباب وتدريب الجنود ، وعزيز علينا

أن نشهد نجاح المستعمر الغاصب في هذه الفاحية في الوقت الذي نرى فيه قصور الأمم الفتية الناهضة عن ملاحظته في التدريب العسكري وتهيئة الأمة لحمل السلاح.

الحياة في فزان بين عهدين :

هذه الفاحية من حياة فزان طول عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ تحت الحكم السنوسي تكلم عنها ضابط إيطالي وقع في أسر السنوسية واعتقل في معسكرى واو الكبير وواو الناموس وطبيعى أن معلوماته التي دونها في يومياته مستقاة مما كان يصل إلى علمه عن طريق الثوار الذين عاش بينهم .

أما الفترة العثمانية التي تولى فيها الضباط الأتراك حكم الولاية فستأتى في القسم التالى وقد تخللها هجوم من المتطوعين الأتراك وعمليات حربية داخل الأراضى الفرنسية في الصحراء الكبرى وأراضى الجزائر والجزء الجنوبي من تونس ، وهى خارجة عن نطاق فزان . وأشير على المهتمين بجهد الأمم المظلومة والمغرمين بالتاريخ الحربى أن يقرأوا كتاب الكولونيل Larcher عن :

la Guerre Turque dans la guerre Mondiale.

استبداء الأتراك على فزان وانزعاجهم الجزء الجنوبي من مستعمرة ليبيا

من أبهى حلقائهم السنوسيين :

ظهر في أفق أفريقيا فى أواخر عام ١٩١٦ نورى باشا شقيق المرحوم أنور باشا إذ وصل إلى السلوم ، وتوجه منها إلى إجدابية ، ثم غادر برقة فى غواصة أوصلته إلى مسرطة التى اتخذها مع من معه من الضباط الألمان والأتراك مركزاً لحركاتهم العسكرية ضد الإيطاليين وهى عمليات لا شك أنها خارجة عن موضوع فزان .

مجازفات نوري باشا .

وكان القائد نوري باشا^(١) في إجدابية حينما عرضت عليه فكرة من تلك الأفكار التي لا يتركها رجل مثله تمر أمامه دون أن ينفذها . وتتلخص هذه الفكرة في أن مهمته في طرابلس الغرب لن يلازمها التوفيق إذ لم يدعم جهاده بعمل حاسم في الجنوب يرمى إلى احتلال مقاطعة فزان وتحريرها من السنوسيين حتى يتمكن من تهديد المستعمرات الأفريقية لفرنسا وبريطانيا . عبر الصحراء الكبرى وشمال السودان المصري .

لذلك أرسل يعثتين إلى الجنوب : الأولى وجهتها واحة الكفرة ؛ والثانية وجهتها فزان :

كانت بعثة فزان مكونة من ثلاثة ضباط : « إحسان ثاقب » و « سنوسي شوكت » و « محمد الأرناؤطي » أما الأول فكان يوز باشياً من أهالي طرابلس وتخرج في المدارس العسكرية العثمانية ، وامتاز بقوة إرادة هائلة ، وكان الثاني من أهالي برقة تعلم في مدرسة المدفعية وحصل على رتبة الملازم . أما الثالث فكان من الضباط المغامرين الذين لا يقف أمامهم عائق ، وهو من كريد .

مخاطرة ومجازفة:

فلتتصور قوة صغيرة تغادر إجدابية . وتتجه إلى الجنوب وتمر بالمرادة ويدر نعيم وزيلة وتسكاد تهاجم من قطاع الطرق نظراً لضعفها وقلة عددها، ثم تصل مع ذلك إلى انتزاع إقليم مثل فزان وتهدد منه المستعمرات الأوروبية الأخرى .

فعلى الطريق الواقع بين أوجلة ومرزوق افترق الأبطال الثلاثة أما أولهم

(١) توفي نوري باشا قتيلاً في حادث انفجار مصنع للذخائر الحربية وهو صهر الأميرة المصرية عفت حسن ، وجاء نعيم في الجرائد المصرية عام ١٩٤٩ .

فاتجه رأساً إلى عاصمة فزان حيث دخلها ، وأقام حكومة باسم السلطان بعد انضمام قوات السنوسيين إلى لوائه . أما الآخرون فكانت وجهتهما واو الكبير حيث استقبلهما السيد العابد السنوسى بحفاوة زائدة وأطلقت المدافع ترحيباً بهما وهنالك قدما إليه هدايا سلطان تركيا وفرماناً بمنحه رتبة الباشوية كما وزعا النقود الذهبية على الجنود والأتباع .

وكان القصد من هذه الحركة الأخيرة شغل السيد العابد حتى لا تتجه أنظاره إلى فزان وما يقوم به الضابط الثالث هناك .

مواصلة المجزول :

ولم يكد الضابطان يغادران واو الكبير متجهين جنوباً حتى وصلت الأنباء بالحركة التي قام بها ثاقب في مرزوق ، ولذلك وجه السيد العابد قوة من رجاله تحت قيادة صهره السيد العاشب زحفت على مرزوق وأجلت الأتراك عنها واستعملت كل وسائل العنف والتشريد مع الأهالى . ثم اتجهت شمالاً إلى الأبيض حيث التقت مع القوة التي جمعها الضباط العثمانيون وهناك دارت معركة فاصلة انتهت بهزيمة السيد العابد وأسر السيد العاشب الذى حوكم على النهب والقتل الذى ارتكب في مرزوق فأعدم شفقاً في سبها ، ولما وصلت هذه الأنباء إلى السيد العابد غادر واو الكبير منسحباً إلى الكفرة .

ضباط مجاهدون :

إن هؤلاء الضباط من أهل طرابلس الذين تلقوا تدريباً عسكرياً في مدارس الأتراك ، قاموا بعمل من أعظم الأعمال وهم فرادى ، وكان اعتمادهم على الجنود الوطنيين الذين جندتهم الدولة العثمانية في الماضى ، ثم على الجنود الذين خدموا في الجيوش الإيطالية ، وأخيراً حينما توطد شأنهم عرفوا كيف يضعون الجنود الوطنيين من المغاربة والطوارق والسنغال إلى صفوفهم .

مخاوف المستعمرون في أفريقيا :

إن هذه الصفحة خطيرة وهي تكاد تقنعنا بمخاوف الدول الاستعمارية في أفريقيا بأكملها إذا قدر لها أن تواجه في المستقبل رجالاً من هذا النوع فيهم التصميم والإرادة ومواجهة الأخطار ، ومن هذا نفهم جيداً مركز فزان في القارة الأفريقية . لأن الذي يسيطر عليها في وسعه أن يملأ السودان والصحراء بالدعوة والدعاية التي يريدونها فيهنز الاستعمار الأوربي ويقلق مضاجعه . . .

فلقد جاء في كتاب الكولونول لارشيه الذي أشرت إليه ذكر بعض عمليات حربية ترتب عليها تسليم مراكز عسكرية فرنسية بعتادها في الحرب العالمية الأولى .

وسائل أولية :

ويشير صاحب كتاب طرابلس Sahara Tripolitanio إلى أن الحكومة التي أنشئت بقزان استطاعت أن تربط مرزوق بخط تلغرافي مع مسرطة باستعمال زجاجات فارغة لنصب الأسلاك ، وذكر أنه لجأ إليهم ولقى لأول مرة معاملة مدنية ، ورأى بعينه حركة القوافل والاتصال بين الشمال والجنوب ، وإلى رجالها يرجع الفضل في ترحيله إلى مسرطة ، حيث ضم إلى معسكر الأسرى الإيطاليين فاتصل بالعالم لأول مرة وعرف أهله بوجوده حياً يرزق بعد أن كانوا قطعوا الأمل من حياته .

وقد ظلت فزان تدار بمعرفة هؤلاء طول مدة حكومة مسرطة حتى أمضيت الهدنة ١٩١٨ فانسحب الألمان والأتراك ثم تولى الحكومة « رمضان الشتموى » وساد فزان عهد من القوضى نتيجة للنزاع الداخلي .

السنفور فولبي الاستعماري :

وفي سنة ١٩٢١ تعين « فولبي » حاكماً للمستعمرة ، فاتجه فكره إلى احتلال مسراطة ، ثم جاءت الحكومة الفاشستية فأقرت سياسة القمع والفتح والتشريد ومع ذلك لم تستطع إيطاليا الوصول إلى فزان إلا بعد ١١ عاماً من انتهاء الحرب الكبرى (أى من ١٩١٨ — ١٩٢٩) .

وعلى ضوء دروس هذه الحقبة وتجاربها أخذت الدولة المستعمرة بمجرد استعادتها لهذه الأراضي تنفذ برنامجاً واسعاً لرصف الطرق ، وأنشأت حصونها على أحدث طراز منها: Forte Elena الذي يعد أقوى الحصون الدائمة في المنطقة الوسطى وهو في مدينة سبها . وسنرى في القسم التالي مشا كل إيطاليا وقوادها مع فزان وأهلها .

إيطاليا تسترد فزان :

حينما يتكلم جراتزاني تنصت السموات العلاء يفتح الناس آذانهم ، إلا أهل فرنسا فهم لا يتركونه من غير أن يناله رذاذ من تقدمهم انظر إليه يقول : « لا توجد على الأرض دولة بوسعها أن تفخر بأنها ختمت حملة استعمارية بالنصر الذي ختمنا به حملتنا على واحتي الكفرة وفزان ، ليس بوسع الفرنسيين أن يدعوا شيئاً من ذلك ، بل نؤكد أمام العالم تفوقنا عليهم رغم الانتقادات التي توجه إلينا من سكان ما وراء الألب (يقصد فرنسا) أو سكان ما وراء المانش (يقصد بريطانيا) » .

ثم انظر إلى ردم الحاسم بعد فتحهم فزان في سنة ١٩٤٣ فيما نشره الفرنسيون بسخريتهم المعروفة ماذا نقول عن هذا الادعاء أنه يشبه من يلبس جلد الأسد ، هذا الغطا . الذي نزع منه جنودنا .

Que répondre à telle vantardise
peau de lion dont d'un coup de griffes nos troupes ont
dépouillé maître Graziani

ثم أنصت إليه في مؤلفه : Pace Romana In libia الأمان الروماني في ليبيا

يحدثنا عن نفسه :

« ها قد أعطيت الكلمة لتحكيم السيف وإنها لكلمة مقدسة حينما نريد أن نفرض إرادتنا على خصم عنيد ؛ إنها مقدسة مائة مرة حينما نقذف بها في وجه الأهلالي الوطنيين الذين صمّت آذانهم عن سماع أى منطق إلا ما توحىه إليهم عقولهم الممجية ، أولئك لا يقنعهم شئ سوى استعمال القوة تصحبها العدالة » .
أرايتم مثل هذا إلا في عهد قيصر !

دفاع عن الفاشيست :

كل أنه إذن يشيد بعمل الحكومة الفاشية التي قررت فرض إرادتها باستعمال السلاح حين يقول إن سياستها تملخص في جملة واحدة : « أصبح من الحتم الخروج من الحالة المبهمة السائدة في المستعمرة وأن تفرض إرادة الحكومة على كل جهة ، وأن يكون فرض التسليم والخضوع شرطاً نهائياً *Sine qua non* لكل عمل سياسى مع الأهلالي ، فعلى كل من يباشر أى سلطة حكومية أن يواجه أهل البلاد بهذه الحقيقة : التسليم بلا قيد ولا شرط ، أو الحرب بلا هوادة » .

رأى استعماري في حقوق الشعوب المظلومة :

وكانت هذه هي السياسة التي نادى بها فولبي الذي وقف من أول الأمر ينادى « بأن حق إيطاليا من الناحية الدولية في امتلاك المستعمرة حق ثابت لا نزاع فيه ، وأن عناد الأهلالي ما هو إلا ثورة يجرّكها بعض الرجال المتعطشين إلى السلطة ؛ تقودهم أطماعهم الذاتية ، فليس هناك روح قومية أو حركة وطنية تحركها عواطف عالية أو روح جماعية ، وإنما هناك أطماع وأغراض وأهواء . فلنضرب ضرباً قاسياً » . فهل وجد المستعمرون في مدغشقر أو في أندونيسيا غير هذا المنطق ؟

تعليمات هيرتزباي :

وجاء جراتزباي ينفذ خطته لاحتلال فزان على طريقته الخاصة ؛ انظر إلى تعليماته التالية الى الوحدات التي يقودها فهي تعبر عن نفسية يجدر بنا تتبعها :

١ — توزع قوات الاحتياطى على أنحاء الجبهة بطريقة تمكن من الاستفادة منها بغير إضاعة وقت لكي يسهل تجمعها واستعمالها إذا احتاج الأمر إليها لضرب العدو ضربات قاصمة .

٢ — تقسم الجبهة إلى أقسام ، ويتولى كل في دائرته مطاردة العدو بواسطة أفواج متحركة *Colonne mobile* تبدأ عملها من نقط إرتكاز مختلفة ومتباعدة ، ولكنها متجهة في سيرها إلى غرض واحد ، أو تظهر أنها متجهة لأغراض متعددة في نفس الوقت مع تلاقيها عند هدف واحد في النهاية ، وبذلك تتوزع قوات العدو للتجمعة أو تفتشر أو تثبت في أماكنها .

استقلال الوحدات السريعة في العمل :

٣ — يراعى أن تستعمل الوحدات على أساس العمل في جبهة واسعة الأطراف ، أى تعمل كل واحدة منها على أنها مستقلة تماماً في تحركها إلى أبعد مدى ، وتترك كل قواعد التعبئة القديمة وأساليبها ، وتعتمد الوحدات على مرونتها في الحركة والتقدم والعودة دون أن تلجأ إلى طلب مساعدة الوحدات الأخرى . يفهم من هذا أنه اتبع نظام الدوريات الدائمة المتحركة بانتظام^(١) .

رأى في المقاتلين العرب :

وقد تقبين من كتابته رأيه في المقاتلين العرب ، فهو لا ترهبه كثرتهم

(١) وهو ما اتبعه الصهيونيون في منطقة النقب عند احتلالها .

العددية ، بل يقرن النصر بالقرار الحازم والتقدم للهجوم ، فلمهم لديه اكتشاف أما كن تجمع الثوار ومهاجمتها بغير تردد ، ويوصى بأنه عند التلاقي يجب شغل العدو وقبول المعركة ، فإذا حاول العرب الانسحاب لا تتركهم قوات الجيش ولا تمكنهم من الراحة واسترداد شجاعتهم ، بل يجب في حال انسحابهم إصابتهم مادياً والفتك بهم ، حتى تفنى قوة المقاومة لدى العدو ولا يستطيع استردادها . ثم عاد فقرر « أنه لا يصح احتقار شأن الثوار ، بل يحسن إعطاؤهم ما يستحقونه ، وليذكر الطليان أن عزيمة العرب وإن بدا مظاهرها قوياً في المبدأ ، إلا أنها لا تستند على قوة دافعة مستديمة ، ولذلك تضعف وتهبط في النهاية ؛ فالمقاتلة من الثوار لا يسعهم أن يثبتوا في المعركة طويلاً أمام قوات نظامية مدربة تدريباً أوروبياً » .

اعتراف بما عليه العرب :

ويهمنا أن نتعرف إلى جميع آرائه فيها ؛ فهو يتكلم بصراحة وبوسعنا أن نصلح أخطاءنا دائماً إذا اطلعنا على ما يكتبه عنا أمثال هؤلاء . أنظر كيف يقرر « أن حاجات العرب في الميدان محدودة . وهم لذلك قادرون على جمع قوات كبيرة وسوقها واستعمالها في ميادين مختلفة . والعربي مقاتل بفريزته وطبعه ؛ فهو لا يهاب المواجهة ولا يخشى التصادم ، ويعتمد على عاملين : مقدرة على التفضيل ليصل إلى توزيع القوة التي أمامه وانتشارها ، حتى لا تعمل كوحدة متكاثفة قوية ثم على المؤثرات الطبيعية الإفريقية التي تصيب الجيوش الأوربية وتسبب لجنودها التعب والإعياء . حينئذ يضرب ضرباته » .

أمر الأساليب الأوربية في قتال العرب :

ثم يعقب هذا بقوله : « إنه في كل مرة تلجئهم الظروف إلى مواجهة حالة قتال تقرب من أساليبنا الأوربية ، ويتحتم عليهم قبول المعركة ، يدب الخلل

فى صفوفهم ، ثم يسهل علينا التفوق والتغلب عليهم لعدم تمكنهم من الوسائل الفنية العديدة التى بين أيدينا» وعلى ضوء هذه التعليمات الصريحة قاد جراتزىانى جنوده فى العمليات التى سبقت فتح فزان ، وهى عمليات بوليسية على حد تعبير إخواننا الهولنديين حينما يتحدثون عن جهاد الشعوب إذا أخذنا بأقوالهم .

بادوليو :

وفى هذه الأثناء جاء بادوليو إلى ليبيا ، وتولى سلطتى الحاكم العام والقائد الأعلى ، وكان هذا فى نظر جراتزىانى فتحاً جديداً عبّر عنه بقوله « بعد عشرين عاماً من التلكؤ والتردد والهزائم تسلّم الأمور إلى يد عسكرية ويوضع لأول مرة برنامج منسجم جامع روعى تنفيذه بإرادة قوية » .

العسكريون يسيطرون على المستعمرة :

وبهذا انتقلت السلطات العليا إلى أيدي العسكريين . فأمر جراتزىانى بأن تكتب هذه العبارات وتعلّق على بابه « ليس لدى هذه القيادة خزينة لدفع مرتبات » . وذلك لاعتماد الحكومة الإيطالية توزيع مرتبات نقدية وهدايا وأسلحة وذخيرة . وقال : إنه رفض من المبدأ الدخول فى مفاوضات أو إعطاء موافق أو وعود ، وصرح فى كل مناسبة ؛ أن الحكومة تريد أن تعرف من هم أصدقاؤها ومن هم أعداؤها ، وأخذ يترنم بمقطوعة من شعر فرجيل الشاعر الرمانى .

Tu regere imperio populos Romàno memento

Parcere subjectus et debellare Superbus

وتعريبه « تذكر أيها الشعب الرومانى أنك ستدعى إلى حكم الشعوب . فاعف عن يلين لك وأخضع الأقوياء لسلطانك » .

وهكذا نرى أن فزان فتحت لنا آفاقاً بعيدة نطل منها على حوادث متعددة نوتعرف على نفسية القواد وغرورهم ورأيهم فيها ؛ وهى جميعاً جديدة بالبحث .

فلنقف قليلا لنكشف أثر الحوادث وتسلسلها التاريخي قبل الدخول إلى المقاطعة وحروبها الحديثة .

فدراسة تاريخية :

فنحن نعلم أن فزان كانت مستقلة تحت حكام من أمراء بني خطاب من قبائل الهوارة ، كما حكمها ملوك من السودان لا تزال بقايا قصورهم وقبورهم قائمة ونحن نذكر نقلا عن صاحب تاريخ طرابلس الغرب المسمى « التذكار » حوادث عن أمراء فزان في ولاية سليمان داي التركي وحروب صاحبها المنصور بن الناصر ابن المنتصر ، ورفضه دفع الأتاوة ، وعما كانه مع الوالي ، ثم هروبه وعودته للملكة وشكوى أهل فزان للسلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم بن سليمان . فهذه حوادث تتكرر في كل عصر حتى يأتي عصر عبد الحميد . هنالك أصبحت فزان منفي لرجال الأحرار من الأتراك والغريب أن يلجأ حكام روما الفاشيون بعد ذلك إلى فزان والكفرة لفرض الإقامة الجبرية على فريق من أعداء العهد الفاشي ، فإذا جنود فرنسا عند فتحها لفزان تحرر بعضهم وكان قد مضى عليهم سنوات وهم مبعدون من أوطانهم .

الاحتلال الأول :

لنذكر بعد ذلك أن إيطاليا جمعت في أواخر سنة ١٩١٣ حملة قوامها ١٢٠٠ جندياً إيطالياً ووطنياً تحت قيادة الكولونيل مياي ووجهتها من طرابلس إلى الجنوب واحتلت المراكز الهامة حتى وصلت إلى مرزوق . ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا كما ذكرنا ؛ ففي نهاية عام ١٩١٤ انسحب الطليان منسحبين إلى الشمال تاركين الجنود الوطنيين وحدهم ، فدخل فزان السنوسيون مع حلفائهم من الطوارق وأقاموا بها حكما لم يدم طويلا ، لأن الأتراك أعادوا الكرة .

فحزحوا السنوسيين عنها وعينوا إحسان ثاقب متصرفاً للأقليم ، وجعلوا المدعو خليفة زاوية في وظيفة محاسبجي للمتصرفية . حدث هذا في سنة ١٩١٧ ، ثم تولى الأخير السلطة في نهاية سنة ١٩١٨ لما غادر الضباط الأتواك البلاد بعد عقد الهدنة . ثم ساد عهد من الفوضى والتنازع بين الأخير وجماعة سيف النصر وشيخ يدعى عبد النبي انتهى باستيلاء الأخيرين على مرزوق ، وطرد خليفة من المقاطعة ؛ فلجأ الأخير إلى الطليان في حالة يرثى لها ؛ فأعطاه جراتزيانى منزلاً وخادماً ، ووعدته بأن يستخدمه في فتح فزان .

خطة استرداد فزان :

وضعت خطة الفتح بناء إرشادات المارشال بادوليو وروعت فيها منتهى الدقة بحيث لم تتجاوز اعتمادات الصرف ٢١ مليون ليرة إيطالية ، أى ما يقرب من ٢٠٠ ألف من الجنيهات المصرية ؛ يدخل فيها تعبيد الطريق إلى سبها ، وإصلاح الطريق من سبها إلى سرزوق ومنها إلى غات على الحدود الفرنسية . تم كل هذا ابتداء من النصف الأول لسنة ١٩٢٩ وتحدد شهر ديسمبر لابتداء العمليات الحربية التي وضعت لها القيادة العامة في طرابلس جميع الخطط الخاصة بتعبئة القوات المكلفة بالفتح وتجهيزها وإمدادها بعربات النقل وبكل ما يتعلق بمسائل التموين والتجمع ونظام سوق الجيش . تاركة لجراتزيانى الناحية الفنية ناحية اختيار الضباط وتدريب القوة المكلفة بالزحف .

طريقة اختيار الضباط :

فحصرهم في اختيار أعوانه ووضع لذلك شروطاً ألزم نفسه باتباعها فاشتراط :

٣ — أن يكون من المتحمسين للمسائل الاستعمارية .

٣ — أن يكون من الذين يتحملون المشاق ويرضون بالتخشن في العيش .
ولما عرف كيف ينتقى ضباطه ، فرض هذه الشروط على ضباط الصف ، ثم أخذ يختبر معلومات رجاله ومقدرتهم ، ففرض على القوة القيام بتمرينات متعددة على حرب الصحراء وخصائصها . واهتم بوسائل الارتباط والمخبرة مع الطائرات حتى يسهل الاتصال بين الوحدات بعضها مع بعض ، وبينها وبين القيادة وطبع كتاباً مختصراً عن فزان وأحوالها ووزعه على الجنود وضباط الصف ، وأخذ في تحضير خريطة مفصلة على أحدث ما وصلت إليه معلومات وابحات السلطات عن طبيعة الأرض والمناطق وأسماء البلاد والمسافات التي تفصلها .

ولم ينس « خليفة زاوية » الذي انضم مع الطليان على رأس مفرزة من الوطنيين ومعه مهدي موسى للانتقام من أعدائهما في مرزوق ، وتحركت القوتان في نهاية شهر أغسطس وقاتلت جماعة من المجاهدين تحت قيادة سيف النصر ، واحتلت ^(١) واحة « البراق » الواقعة على طريق سبها .

تَظْهِيمُ السِّرِّ :

ولما وصل خبر احتلالها إلى طرابلس أصدر بادوليو أمره بالتقدم إلى مرزوق على أن تكون المقدمة مكونة من فوج من السيارات المدرعة ، ومعه كتيبة من جنود أريتريا تحملها السيارات وتتبع كل هذا قافلة تحمل ما يكفي لمدة شهر من المؤن والذخائر . ولما وصلت الحملة إلى براق وجدت أن سبها قد سقطت في يد خليفة ، وبهذا أصبح الطريق مفتوحاً إلى مرزوق .

دروس من أخطاء الماضي وتعليمات جديدة :

يقف الطليان هنا موقفاً خاصاً يشيرون فيه إلى أخطائهم الماضية ؛ فهم

(١) راجع الخريطة .

يدرسون عمليات سنة ١٩١٣ ويقررون أن أسلافهم لم يفكروا في حماية مواصلاتهم^(١). وكان تقدمهم لاحتلال مراكز العدو دون التفكير فيما تتعرض له جنودهم إذا تركوا جيوباً للعدو يشن الغارة منها عليها. وكان أن سقطت حامياتهم وعزلات واحدة تلو الأخرى. ويكشف جراتزياني عن فكره بقوله: «إن هذه الأخطاء لن تتكرر ثانية». ولذلك ترك الزعماء الوطنيين يتقاتلون في فزان ويقيمون حربهم الداخلية المهلكة التي تسلم للرق رقابهم. وأخذ يستعد لحملة واسعة النطاق. وكان ذلك في الشهور بين نهاية أغسطس و ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٩. ولما وصل فجأة إلى سبها أصدر تعليماته التي تتلخص في:

١ — إتمام تطهير الجزء الشمالى بأكمله واحتلال براق وسبها بالقوات النظامية.

٢ — السير دفعة واحدة إلى واو الكبير على الطريق بين مرزوق والكفرة وهي التي خرجت منها الحملة التي وجهها العابد إلى سبها سنة ١٩١٤.

٣ — الهدف الأخير احتلال قطاع مرزوق، أوبارى، غات على حدود الصحراء الفرنسية وكان يقول:

«إن القصد النهائى هو أن تتطور المعركة على شكل ديناميكي فتنتهى بالوصول إلى احتلال نهاية الحدود السياسية، وإخضاع أبعد المناطق مما لا يتصور العرب أن في وسع الحكومة الإيطالية الوصول إليه^(٢)».

وقد نفذت الخطة التي كان السكتان رائدها بحذافيرها، فاستولت إيطاليا على واو الكبير ومرزوق وفي ٢٥ فبراير سقطت غات التي غادرها الثوار منسحبين إلى داخل الأراضي الفرنسية. وفي ٣٠ مارس تركت مفرزة من قوات البادية

(١) ظهرت مثل هذه الأخطاء في حملة فلسطين ١٩٤٩ من الناحية المصرية.

(٢) قارن هذا بعمليات اليهود في النقب وخليج العقبة في حرب فلسطين لاحتلال الحدود السياسية وهم الذين وضعوا هذا الهدف نصب أعينهم ووقفوا في احتلال أراضى لم يكن يحلم باحتلالها أشد الناس تفاؤلاً بينهم كما قال وايزمان.

مراكزها في فزان متجهة جنوباً فاحتلت في ٢ إبريل « جبال طمو » على بعد ١٥٠٠ كيلومتراً من السواحل ، وأتمت حركتها بأن عادت إلى مراكزها عن طريق بئر الوعر . وقد بقيت إيطاليا تسيطر على فزان حتى قامت الحرب الأخيرة ألبس في ذكر هذا ما يحرك في النفس أشياء ؟ نعم لقد انتهى عهد إيطاليا وانتهى جراتزاني وسلمت جيوشه في صحراء مصر ، ولكن الدروس التي أنقأها علينا بزحفه إلى فزان تستحق العناية وتنبهنا إلى بعض الأخطاء التي وقع فيها أسلافنا أو وقعنا نحن فيها . ألم يكن من الأوفق لنا أن نعرف أساليب الخصم العاتي ؟ وأن الاستعمار مجموعة تجارب ؟ والحروب سلسلة من الدروس القاسية ؟ والفرص تأتي ولا تعود ؟ . قبل أن نقحم أنفسنا على غير استعداد في فلسطين ؟

والآن أنتقل إلى الحلقة الأخيرة لفزان وهي احتلال فرنسا لهذا الإقليم .

امتداد فرنسا :

في سنة ١٩٤٠ وقيل عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا ، دعت الحكومة الفرنسية الجنرال والقائد العظيم فيجان لتمولى القيادة العامة ، وسد ثغرة سيدان لقد تحطمت الجبهة واندكت حصون خط ما جينو في الشمال ، والزحف الألماني لا يقف وراديو برلين يصيح « لو بعث نابليون من قبره ، ولما كان في وسعه أن يغير القدر المحتوم » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية^(١) .

وكنتم جارا للجنرال كايو مساعد القائد العام ، وفي عصر أحد الأيام دعاني سرّاً لمنزله ، وقال لي إنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان المصري فأفريقيا الغربية فمراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة فيجان الذي طلب إليه أن ينضم إلى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي ، إذن يجب أن يكون بجهة القتال قبل أربعة أيام قلت . « إنكم تنتظرون قرارات حاسمة لإيقاف هذا الزحف المستمر » قال : « إن إنقاذ فرنسا يحتاج إلى معجزة » . إن ذكر أربعة أيام

للوصول إلى فرنسا هي التي لفتت نظري ، فهذا القائد يغادر بيروت إلى القاهرة: ومنها إلى وسط الصحراء ثم الدار البيضاء ليصل في أربعة أيام إلى فرنسا — التي كان يوسعه أن يصل إليها في ساعات . لماذا كل هذا الوقت ؟؟

استراتيجية المتوسط تفرصه إرادتها:

هذا التغيير الحاسم في استراتيجية البحر المتوسط سببه دخول إيطاليا الحرب. تلك الدولة التي تملك من المراكز ما يمكنها من أن تشل حركة الحلفاء جميعاً. وتجعل من البحر قسامين وتدخل في صميم القارة الأفريقية بقطاع يهدد أملاك إمبراطوريتين كبيرتين لبريطانيا وفرنسا..

ومن هذا تفهم أول مبرر يدفع الفرنسيين للتمسك بإقليم فزان ، على أساس أنه على الطريق الجوي بين مدغشقر وفرنسا .

الرهينة الفرنسية:

وحينما عقدت الهدنة وظهرت حركة الفرنسيين الأحرار التي ترأسها الجنرال ديغول ، أخذ يسعى إلى جمع شمل الإمبراطورية تحت لوائه ، فكان أول من انضم إليه الجنرال كاترو بالهند الصينية ولكن موقف اليابان حال دون استمراره ، فغادرها واتجهت الأنظار إلى منطقة قريبة فكان الكونغو الفرنسي أول المقاطعات التي انضمت إلى الحركة ، والغريب أن الظروف تركت هناك حاكماً وطنياً من الشعوب الملونة ، وهو الذي توفي قبل نهاية الحرب بالقاهرة ، وكان أمل فرنسا يرمى إلى أن تحتفظ بمكان لها على مائدة الحلفاء ، ولذلك تغير اسم فرنسا الحرة إلى فرنسا المقاتلة ، وحاول الجنرال ديغول مراراً أن يسمح له بالجلوس مع روزفلت وستالين وتشرشل ، وكان الأولان يعترضان على وجود فرنسا لأنها سلمت ولم تحارب ، ولذلك اتجهت إرادة فرنسا الحرة إلى تحمل أعباء

قتال في أي جهة ، وكان أن سمعنا بتأليف فرق من المتطوعين وجنود المستعمرات
تتحارب في صف البريطانيين ، وبين أيدينا في سوريا ولبنان ذكريات ضباط البر ،
والبحر والجم ، الذين كانوا يخترقون حدود فلسطين للانضمام إلى قوات فرنسا
المحاربة ، وكان أن ظهرت قوات في ميدان سوريا ولبنان ، ثم على الحدود
المصرية في بئر حكيم حين استبسلت قوة فرنسية أمام قوات تفوقها عدداً من جنود
المحور .

الزمف في إفريقيا :

إلا أن العملية الحربية المنفصلة والمستقلة تماماً عن بقية جيوش الحلفاء ،
هي العملية التي تولتها فرنسا المقاتلة بزحفها من بحيرة تشاد عبر الصحراء الكبرى
وانتهت إلى فزان ، فهي من أعظم حركات حروب البادية .

ولقد كان رأي فرنسا في الحكم الإيطالي وقتئذ يختلف تماماً عن رأيها اليوم
وإليك الدليل من نشرة رسمية لحكومة الفرنسيين الأحرار . وسأ نقلها بالفرنسية

Jamais aucune puissance coloniale n ' a traité avec sussi
peu de pitié . d'humanité on même simplement de bon sens
les populations sur lesquelles des traités leur donnaient des
droits , On n ' a jamais spolié . on n ' a jamais massacré on
n ' a jamais exterminé un peuple , comme les Italiens . ont
fait du peuple tripolitain . Les rapports les plus accablants ,
les photographies les plus significatives s' accumulaient
sur le bureau de la S. D. N. sans que les Etats Sociétaires
prissent le moindre ombrage de ces horreurs . On devine
avec quelle ferveur les Fezzanais attendaient la libération ,

Nous avons trouvé auprès d'eux non seulement le
secours que nous étions en droit d' escompte , mais un
(١) appui amical.

عملية فطرة :

كانت مقدمة هذه الحركة . عملية من أخطر العمليات التي مرت في تاريخ حروب البادية ولكنها أشبه بحركة كشفية منها بعملية حربية . فقد قام من الجانب الفرنسي ضابط إسمه جان كولونا دورنانو من ضباط قوات البادية الفرنسيين واشترك معه ضابطان بريطانيان اجتماعه في القطاع الجنوبي ، حيث تلتقي الحدود بين المستعمرات الإيطالية والفرنسية وحدود السودان ، وكان هذا في ٤ يناير سنة ١٩٤١ وفي ١١ يناير تمكنت هذه القوة المخاطرة من تدمير مطار مرزوق والسودة بعد أن سقط الضابط الفرنسي كولونا دورنانو تحت وابل رصاص الطليان . وتعرضت بعد هذه الحملة واحة كفرة والجزء الجنوبي من فزان لعدة هجمات سنة ١٩٤٢ .

وفي أوائل سنة ١٩٤٣ زحفت قوة الجنرال Leclerc الفرنسي من الجنوب ، وأهم أغراضها احتلال فزان وتحريرها ، وكان مركز التجمع Fort Lamy ثم Faya وأتت المؤن والذخائر بالسيارات من برازا فيل ، وكان عدد القوة الزاحفة ٧٩٨ ضابطاً ورجلاً .

وقد اختير موعد الزحف بين شهرى نوفمبر وفبراير وفي ٢٥ ديسمبر أذيع أول بلاغ عن العملية يعلن دخول القوة في يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ أراضي فزان ، وفي ٣٠ ديسمبر احتلت أم الأرناب^(١) بعد مناوشات مع قوة إيطالية وسلم عشرة من الضباط وأكثر من مائتي جندي وطني وفي الوقت نفسه سلمت البطرون ثم سبها وفي ١٢ يناير سلمت مرزوق .

وكان الاستعداد لهذه العملية كاملاً من جميع الوجوه وجاءت في الوقت المناسب الذي كان الحلفاء يدفعون بجيوش الحور إلى الحدود التونسية ، ولذلك تمكنت القوات الفرنسية بعد احتلال فزان من دخول طرابلس في ٢٥ يناير ، واحتلت في ٢٦ يناير سنة ١٩٤٣ غدامس على الحدود الغربية .

(١) راجع الخريطة .

وقد اشتركت القوات الهوائية الفرنسية وأبليت في المعارك بلاء حسناً ،
ولكن عظمة الحملة هي في تنظيمها وسيرها ، وأنها جاءت حركة مفاجأة رغم أن
الحرب التي واجهت الحملة هي حرب مع الطبيعة أكثر من أنها حرب مع الطليان
وقد دلت عمليات الصحراء من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ على أن قيادة الحلفاء كانت
تحتسب حساباً للمطارات الإيطالية في الكفرة وفي مرزوق وقد ذكر الفرنسيون
أنهم وجدوا في مطار الكفرة البريد السرى الذي كان يرسله حاكم جيبوتي
التابع للحكومة فيشى مما يدل على أن مطارات الصحراء كانت تسمح باتصال
الإيطاليين في أثيوبيا مع دولتي المحور في أوروبا بانتظام . .

هذه هي العمليات التي أدت إلى دخول الفرنسيين فزان وهي بطبيعتها مكملة
لحركات الحلفاء في شمال أفريقيا ، وإن كانت أهدافها تبدو مستعصية أو بعيدة عن
التحقيق ، لو كانت مستقلة تماماً عن عمليات الحلفاء في شمالي أفريقيا ولكنها كعملية
من عمليات الحروب الصحراوية تستدعى أن نقف قليلاً لننتحدث عن الصحراء
أو البادية .

حروب الصحراء :

للصحراء روعة تحدث عنها الكثيرون من أهل أوروبا من رجال الجندية
وغيرها . فخافتها تمثل في نظرهم حدود بحر متسع من الرمال ، يدعو الواقف
على شاطئه أن يركب الأخطار ليكتشف ما وراء الأفق أو هي قطعة من عمل
الطبيعة تتحدى الإنسان — اقصد الإنسان الواعي — وتدعوه أن يقدم عليها
ويواجهها وينازلها ليتعرف على ما تخفيه في أنحائها من أسرار .

روادها :

ولذلك كثر عدد الرواد ، وانتهى الأمر إلى أن أصبح للصحراء حروب
ومعارك وأنظمة علق عليها المستعمرون أهمية خاصة . وكان من أهم مظاهرها
وفوائدها ، أنها تخلق تلك الفئة الممتازة من الرجال الذين تخرجهم مدارس

الحروب الأفريقية والآسيوية يتجار بها القاسية . وبعد أفراد هذه الفئة ذخراً لا يقدر بثمن للبلاد التي تملك المستعمرات الشاسعة البعيدة عن العمران ، والتي يحتاج استتباب الأمن فيها إلى القيام بحملات دائمة ومستمرة ضد أهالي وسكان البلاد الوطنيين الذين يحدثون أنفسهم بالدفاع عن أوطانهم والمطالبة في حقهم بالحياة .
فئة ممتازة :

فلسكى يكون لدينا مثل هذه الفئة الممتازة لنرد العدوان وشره ، يجب أن ندفع بعدد من رجالنا دائماً إلى الأخطار ، فإن لم تكن لدينا حروب ، وجب أن نشجع هذا الفريق أن يتطوع خارج البلاد ، وأن يشترك في أية حروب قائمة بصرف النظر عن ميلنا لهذا الفريق أو ذاك من المتحاربين . إنما يكون غرضنا الأساسي الحصول على تجارب كل فريق وأسابيليه في القتال متجهين إلى تربية روح المغامرة في نفوس ضباطنا . . .

مدرسة للقواد :

من هذه المدرسة تخرج قواد المستعمرين الذين قادوا الحروب في أوروبا ، وكانوا قوة للبلاد التي ينتمون إليها ذلك لأن وجودهم في جو يدعو إلى تحمل المتاعب ومواجهة الأخطار وأخذ المسؤوليات مع الثقة في النفس ، يخلق فيهم صفات ممتازة أهمها الجرأة على الوقوف أمام عقبات تبدو مستعصية ووسط ظروف تعد خطيرة ثم تعويد النفس على أحد القرارات السريعة الحاسمة وتنفيذها ، وهي صفات تبدو في كثير من الأمم وكأنها قد فقدتها مع اليوم الذي فقدت استقلالها فيه . .

وليس معنى هذا أننا معاشر الشعوب الإسلامية في تاريخنا الطويل المملوء بالحروب المتتالية سواء في آسيا أو أفريقيا لم نذق طعم الانتصار وحلاوته ، بل

كان لدينا من هذه الفئة الممتازة كثيرون ، ومنهم من لا يمكن مقارنته بغيرهم من الرجال الأوربيين نظراً لتفوقه ، ومنهم من لا يقل في صفاته عنهم .

أسلاف المسلمين :

ولقد كان بين أسلافنا من قادوا الحملات عبر الصحراء عدة مرات ، ودانت لهم القارة الأفريقية بحسب الأساليب التي كانت متبعة في عصرهم ، فهناك حملات من الشمال إلى الجنوب عبر الصحراء الكبرى وحملات من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب ، قام بها أسلافنا من المرابطين ^(١) والموحدين على شكل أوسع وأعظم مما يفتخر به قواد المستعمرين من الإيطاليين والفرنسيين . ولكننا اليوم مضطرون أن نأخذ عن الغرب وأن نتبع خطواته ، وأن ندرس هذه الحملات ونقلدها حتى في أساليب القتال على أراضينا وأوطاننا .

توغل فرنسا في الصحراء :

في سنة ١٩٠٠ أى بعد مضي سبعين عاماً على حملة فرنسا التي ساقتها على الجزائر احتلت القوات الفرنسية المقيمة في جنوب الجزائر واحة عين صلاح ، وكان هذا الاحتلال بمثابة فتح جديد قابله العالم بالاعجاب لقوات البادية الفرنسية وهي التي يرجع الفضل في تدرجها وتهيمتها إلى الماجور لابرين ، فهذه القوة أشار إليها جراتزياني في كتابه عن إخضاع ليبيا ، وقال إن إيطاليا أدخلت هذا النظام لديها وزادت عليه ، فتولى قيادة رجال البادية الدوقا دواستا الذي أخذ هذا العمل بجذ . ولا أزال أذكر حديثه ^(٢) معي في تريستا عن الأيام التي قضاها وسط الصحراء وكيف كان يعبر عن حنينه الدائم وهو في أوروبا إلى أيامه في تلك البقاع الأفريقية .

(١) يعتبر المؤلف التاريخ الاسلامي وحدة لا تتجزأ .

(٢) جمعت الظروف بين الدوقا والمؤلف في تريستا سنة ١٩٣٧ حين كان يشغل وظيفة

قنصل مصر هناك وتوطدت بينهما صلات .

والمتكلم عن قوات البادية وتنظيمها لا بد أن يذكر العمل الذي قام به الماجور جلوب باشا المسمى بأبى حنيك في بادية الشام ، فهذه وإن كانت بعيدة عن فزان إلا أنها نوع من أعمال الأوربيين يستحق اهتمام أولى الأمر وتفكيرهم ودراستهم .

النتائج :

ماذا نستخلص من مشكلة فزان ؟ نستخلص :

أولاً : اهتمام الدول الأوروبية بالصحراء الأفريقية ، مما يتطلب منا ضرورة التعجيل بإنشاء معهد الصحراء لدراسة مستقبل الصحارى في بلادنا وفي القارة الأفريقية وفي آسيا خصوصاً جزيرة العرب .

ثانياً : إهتمام الدول الاستعمارية بطرق المواصلات عبر الصحراء وهي مواصلات برية وهوائية .

فالأولى ستعود بنا إلى طرق القوافل القديمة ، فعلمينا أن نستعد من الآن لدراسة هذه الطرق ورسمها على الخرائط ثم العمل على تعبيدها واكتشاف مواقع المياه عليها ، أما الطرق الهوائية فأول واجب يتحتم علينا هو إنشاء مطارات حديثة في مناطق الواحات المصرية حتى نكون دائماً على أهبة المساهمة مع الآخرين في تعمير الصحراء والدفاع عنها .

يسير العالم بخطوات سريعة نحو توطيد سيطرة الدول الأوربية مرة أخرى على المشرق والمغرب ، ومشكلة فزان إحدى المشاكل المرتبطة بمستقبل ليبيا ، وقد ظهر للعيان كيف تطورت السياسة العامة بالنسبة لإيطاليا^(١) ، فهي قد كانت تقبل منذ سنتين مساعدة الدول العربية بأصواتها لاستعادة الأريتريا والصومال في مقابل الاعتراف باستقلال ليبيا كاملاً ، أما اليوم فلا أدري هل تقبل ذلك ؟ .

(١) ظهر هذا جلياً في اتفاق بريطانيا وإيطاليا اثر فرنسا في الوصول اليه .

يبدولنا من الناحية الفرنسية أن فرنسا تحاول أن تعمل على إعادة نفوذ إيطاليا كاملاً ، وفي هذه الحالة هل تسلمها حدودها القديمة أم تقتطع فزان ، وإذا سلمت لها بفزان هل تحتفظ بـ ١٠٠.٠٠٠ كيلو متراً من الأراضي التي سلمها لا قال إلى موسولينى ؟ وما هو موقف الإنجليز أمريكان ؟ (١) .

إن موقفهم يتلخص فى الاحتفاظ بالمراكز الاستراتيجية .
ولا يوجد شك فى أن بريطانيا لها مراكزها فى برقة كما لا يوجد شك فى أن أمريكا لها مراكزها فى طرابلس .

فى مصلحة من استقلال ليبيا موحدة . . ؟

هذا ما تلميه تطورات السياسة العالمية ومقدار الثقة التى يحصل عليها أهل ليبيا وبرقة أنفسهم (٢) .

أما أهل فزان فداخل السور الحديدى أسلاك شائكة وجنود السنغال ، مثلهم كمثل ملايين من بنى آدم لا يهتمون بما يسمى حقوق الإنسان : تحرمهم منها أم كانت هى أول من نادى بحرية حقوق الإنسان .

(١) انتهى الأمر بقبول بقاء نفوذ فرنسا على فزان .

(٢) ضاعت للأسف أغلب الفرس التى كان بوسعنا افتتاحها لاجتاد ليبيا موحدة .

المراجع

الخاصة بـفزان

Graziani r. 1 — Cirenaica Pacificata 1932
2 — La Riconquista del Fezzan

Teruzzi A. Cirenaica Verde 1931

Zoli C. Nel Fezzan.

Due Anni de governo del Marsciallo

Bal bo in Libia 1936

La Rinascita della Tripolitania

Immemorie e studi sui 4 anni di governo
del conte Cs Volpi di Misurata 1926

La Jeunen Turquie et la Révolution Capitaine A, Sarrou

Le Guerre Turque dans la Guerre Mondiale, Comman

dant M. Larcher edition Berger Levrault .

Les Gampagnes du Fezzan Ed. France . Levaut Beyrouth :

Cap. Enrico Petraghani Il Sahara Tripolitano

Epopée Seclenc

واحة الجنبوب

في مذكرات المرمرى سبيل مصر

تلقى العالم العربي بترحاب مذكرات الرئيس السابق لأنها كشفت عن بعض ما خفي من أسرار السياسة المصرية، وأصبحت تتم حلقات الوثائق التاريخية . وقد انتظر الكثيرون أن يكون لها نفس الروعة والأثر اللذين تركهما في نفس القارىء مذكرات تشرشل وغيره من جبابرة السياسة في القرن العشرين .

والمطلع عليها في مجلة المصور . يشهد بأن الرئيس قد بذل جهداً في تحريرها وجمع موادها ولكن بعد مضي فترة طويلة على الحوادث والعوامل السياسية ، بدليل أنه لم ينقل إلينا شيئاً واقعياً أو صورة حية لما سجله قلمه وقت هذه الحوادث ، ولكنه تناول بأسهاب بعض المسائل العامة ، وصرّ مروراً على مسائل أخرى . وإني أتمس له العذر في ذلك لأن صفحات المجلة لا تتسع لأكثر من ذلك .

ومن قبيل ما تناوله الرئيس باختصار مسألة واحة جفبوب وخليج السلوم : فقد رسمها بقلمه ليقنع القارىء بأن السياسة الحزبية المصرية قد صورت الاتفاق بصورة سوداء ، مع أنه وفق في حل هذه المسألة توفيقاً انتهى به إلى نتائج معلومة سبق أن وضعتها السياسة المصرية أمام أعينها ، وأنه بهذا الاتفاق حقق لمصر أهدافاً معينة هي من عمله وحده . . ومنها ضم السلوم إلى أملاك مصر .

والذى نعلمه هو أن الحدود العثمانية القديمة كانت تجعل السلوم داخل الأراضي الطرابلسية ، وأن احتلال السلوم حدث مرتين : الأولى في سنة ١٩١١ بواسطة الجنود المصريين عقب إعلان الحرب بين تركيا وإيطاليا مباشرة ، والأخرى في أبان الحرب العالمية الأولى عقب انسحاب القوات السنوسية منها ، وبقيت بيد القوات المصرية منذ ذلك التاريخ إلى أن عقد الاتفاق المشار إليه بين مصر وإيطاليا .

ولقد جاء الاحتلال الأول بناء على أوامر كتشنر تنفيذاً للاتفاقات السرية التي عقدتها الحكومة البريطانية مع إيطاليا والتي تنص على إدخال جزء من الأراضي العثمانية في الأراضي المصرية مقابل الحصول على صمت الحكومة البريطانية ، وحياد مصر إزاء اعتداء إيطاليا على أملاك الدولة العثمانية في طرابلس . وهذه الاتفاقات من قبيل اتفاق سنة ١٩٠٦ الخاص بتعيين حدود مصر الشرقية في سيناء : غير أن الأولى سرية مكتومة والثاني اتفاق عام بين مصر المحتلة من جهة والدولة التي كانت يوماً ما صاحبة السيادة وقد صودق عليه ونشر على العالم .

ولكل منها في نظر السياسة البريطانية هدف واحد لا يتغير هو ضمان الدفاع عن الأراضي المصرية في حالة حرب سواء كان الهجوم من جهة الشرق أو الغرب . ويعجب القارئ أن هذا الهدف كان من ضمن ما أوصت به قرارات لجنة الدفاع الدائمة للامبراطورية في وزارة الحربية البريطانية . منذ عام ١٩٠٦ ، أي بعد حرب البوير ١٩٠١ وانتهائها مباشرة .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى كشفت بريطانيا عن جميع أوراقها وسياستها التي وضعتها لتحطيم الدولة العثمانية وهاجمت المضائق ولكن في سنة ١٩١٥ انتهت حملة الدردنيل بالفشل ، واضطرت الحكومة البريطانية إلى إيجاد لجنة تحقيق لمعرفة نتائج أسباب هذا الفشل : واستعرضت اللجنة قرارات وخطط الدفاع البريطانية ، فظهر أن تفاصيل حملة مهاجمة المضائق وضعتها وزارة الحربية البريطانية مع اشتراك الأدميرالية في عام ١٩٠٦ ، وأن مشاكل الدفاع عن الأراضي المصرية درست من ذلك العهد ، وأن توصيات لجنة الدفاع نفذت . باتفاق ١٩٠٦ لأبعاد الحدود العثمانية عن منطقة القتال ، وكان من ضمن أبحاثها دراسة الحدود الغربية والحصول على خليج السلوم لمصر بناء على إلحاح الأدميرالية البريطانية .

والدليل على ذلك اتفاق ملنر - شالوبا ١٩٢١ بين بريطانيا وإيطاليا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة ، وهو يؤكد ما ورد بالاتفاقات السرية

الخاصة بتوزيع أسلاب الدولة العثمانية بعد الحرب ، وفيه تعترف إيطاليا بضم السلووم وما يتبعها إلى مصر .

إذن نستخلص أن المفاوضات التي أشار إليها الرئيس صدق ، وهدد بقطعها وسافر من أجلها ، كانت تتناول مسائل شكلية للحدود الجديدة بوضع علامات عليها وتعديلها لإدخال بعض آبار المياه ولا تتناول لب الموضوع بل تقرر حالة سابقة مهدت لها الدبلوماسية الأوروبية كل المراحل بين دولتين عظيمتين متحدتان مناطق نفوذها وقواعد الجوار بينهما ، ولم ينقصها سوى إقرار الحكومة المصرية لتسجيل حالة قائمة من المبدأ .

والمستندات والوثائق وأقوال الرجال الذين اشتركوا في هذه المفاوضات كلها تدل على أن الجانب المصري ، أخذ الناحية المظهرية واكتفى بها لأسباب عدة يرجع معظمها إلى المتاعب الداخلية التي تلقاها الحكومات المصرية المتعاقبة من موقف المعارضة الحزبية .

وقد سمعنا هذا من رجال إيطاليين تولوا مناصب هامة ، واشتركوا في هذه المفاوضات من المبدأ ؛ فقد صرحوا بأن اللجنة المصرية الإيطالية نفذت بالضبط ما كان قد اتفق عليه بين إيطاليا وبريطانيا ، وكان موقف الجانب المصري ، مظهرياً أكثر منه جدياً . ومنهم السنيور كوخ ، وزير إيطاليا المفوض والذي كان يشغل وظيفة مستشار بسفارة أنقرة ، وكان من من اشتركوا في هذه المباحثات ^(١) .

وعلى كل حال فإن موقف الرئيس صدق إزاء إيطاليا كان مشرباً بروح المودة والكياسة بدليل زيارته لموسوليني بروما وهي زيارة لم تكن قاصرة على مسألة السلووم وجنوب ، وإنما كانت لتقديم الشكر على تمهل الدكتاتور سنوات في عدم احتلال واحة جنوب ، حتى يتم الاتفاق مع الحكومة المصرية

(١) أحيل على المعاش وكان من أوائل الشخصيات الذين زاروني في روما ديسمبر ١٩٥٢ .

عليه . وقد جاء هذا بالنص في كتاب « تقويم القوات الإيطالية المسلحة » طبعة ١٩٢٧ (صفحة ١٠١١) . إن الحكومة الإيطالية لم تشأ أن تحتل الواحة عسكرياً قبل أن تحصل على اعتراف الحكومة المصرية لها بهذا الحق . هذا طبعاً حفظاً لتقاليد الوداد والصداقة التي لا تريد أن تمسها ولا تستبعد أن يكون الثمن الذي طلبه الدكتاتور بصره الطويل ، هو إتمام هذه الزيارة ، وكان يهيمه في المقام الأول موافقة بريطانيا عليها وقد تم له المراد .

وذلك لأنه كان في وسعه احتلال جغبوب بعد اتفاق « ملرشالويا » مباشرة ، ولكنه انتظر حتى تم إمضاء الاتفاق المصري ، فاحتل الجغبوب يوم ٧ فبراير سنة ١٩٣٦ بقوتين مسلحتين قامتتا في وقت واحد ، إحداها من طبرق ، والأخرى من البردي ، وتلاقتا في الواحة ، لإسداد الستار على مأساة بدأت في عام ١٩٠٢ حينما دخلت إيطاليا في مفاوضات مع دول الاتفاق الثنائي فرنسا وروسيا . والذي أصبح ثلاثياً بانضمام بريطانيا إليه نهائياً ، ولا نخلو سنة ولا مرحلة طول هذه الفترة من الزمن من دون تفاهم واتفاق على احتلال أما كن استراتيجية ، أو الاعتداء على حق من حقوق الأمم المظلومة . ثمناً لخروج إيطاليا من تحالف ، ودخولها في تحالف مضاد للدول التي كانت حليفة لها أي النمسا وألمانيا . . .

* * *

نكتب هذا ليعلم القارئ كيف كان يكتب التاريخ الحديث وكيف تستعمل الحكومات الشرقية جهل الشعب بالحقائق وأساليب السياسة الأوربية للتمويه عليه . .

(تكملة للقسم الخاص ، بفران) .

الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي

أداة قتال وحرب من الدرجة الأولى

La Legion Etrangère

ذكرى أول لقاء في عام ١٩٤١ :

تقع مدينة «تدمر» في وسط الصحراء داخل الأراضي السورية على الطريق الموصل إلى العراق ، ويطلق عليها الإفرنج عليها اسم « بالميرا » ويتحدثون عن زنوبيا ويهرعون لزيارة هياكلها ، ولقد زرتها في عام ١٩٤١ قبل أن تنشب فيها المعارك بين الإنجليز والفرنسيين وكانت تحتلها يومئذ قوة من جنود الفرقة الأجنبية الفرنسية ، ولقد استقبلنا رجالها أحسن استقبال ، ولمست أنهم كانوا من مختلف الشعوب ، وإن كانت غالبيتهم من الألمان ، وفيهم بعض السويسريين ، ولا أخفي أنني رأيت في الفرقة مظهراً من أعظم مظاهر الجندية ومنذ لقيتهم وحادثتهم بدأت أقرأ عن هذه الفرقة وأنتبع أخبارها وحوادثها ، فأعجبت بنظام هؤلاء وقلت لنفسى : « إن مصر العربية في تاريخها الإسلامي الطويل المملوء بآيات المجد والبطولة من أيام أحمد بن طولون وصلاح الدين وبيبرس قد أخرجت للعالم فرقاً ممتازة ، وأخبار المرابطين والمجاهدين بالثغور معروفة ، كما أن الفرق المملوكية المدربة في طباق قلعة مصر قد قامت بما هو جدير باسم ملوك مصر الإسلامية وعظمتهم » ؛ لقد نشأ رجالها على الإقدام والجرأة والطاعة والتضحية ، وتحت هذه الأنظمة تمكنت فرقة المماليك البحرية ، يتقدمها الفارس أقطاي وبيبرس ، أن تقلب هزيمة المنصورة نصراً ، وأن تتغلب على خلاصة فرسان فرنسا.

فإلى هذه الفرقة الممتازة وأرواح رجالها أهدى هذه الكلمة .

مائة عام مضت أمام الموت والأخطار :

في مارس سنة ١٩٣١ أتمت الفرقة الأجنبية الفرنسية مائة عام مرت عليها من يوم تشكيلها ، وقد أقامت فرنسا بمناسبة هذا العيد المئوي نصباً تذكاريّاً في ثكنات « الجنرال فينو » ، ببلدة سيدى ابن العباس بأراضى القطر الجزائرى العربى ، الذى تحمل حملات هذه الفرقة مائة عام ، ولقى الأذى على أيديها ، والعاقل من يتعرف على خصمه ويتتبع عمله ويقيد مظاهر القوة وعوامل النجاح لديه ، وهذا ما ندعو إليه . ومنذ اليوم الذى أقيم فيه هذا النصب التذكارى ، أصبحت للفرقة الأجنبية سنة جديدة . هى أن يقسم أمام هذا النصب الجفدون الجدد يمين الإخلاص لأعلام الفرقة وتسليمهم وتعهدهم بالحفاظة على مبادئها وأصولها وتقاليدها .

كيف تخلف الفرقة بعيرها كل سنة :

وحيثما يأتى يوم ٣٠ أبريل سنة من كل سنة ترتص كتائب وأفواج وسرايا الفرقة الأجنبية أينما كانت وحيثما وجدت ، وتقيم عرضاً عسكريّاً تخليداً لذكرى بطولة من سقط في ميدان الشرف من رجالها . فإذا اختير يوم ٣٠ أبريل من كل عام ليسكون يوم العرض الأكبر ؟

لهذا الاختيار مناسبة هامة ، لأنه في مثل هذا اليوم إبان حرب المكسيك الأهلية في عهد نابليون الثالث ، وهى الحرب التى اشتركت فيها كذلك فرقة مصرية أيام الخديوى إسماعيل . صمدت فى ذلك اليوم مفرزة صغيرة قوامها ٦٥ جندياً من جنود الفرقة الأجنبية ، أمام هجمات ٢٠٠٠ من الثوار المكسيكيين مدة عشر ساعات تحت وابل من النيران وهجمات السلاح الأبيض ، صمدت ولم تتراجع ولم تسلم إلا بعد أن قتل ثلاثة من ضباطها و٤٣ جندياً من جنودها فكم

بقي في صفوفها ؟ ١٩ لا غير ، فكانها كتبت بدمائها صفحة من صفحات الخلود في تاريخها الحربي — ولذلك اتخذت الفرقة هذا اليوم عيداً لها ، ولم تكف بذلك بل جعلت من قصة أبطال هذه المعركة وكما ذلك اليوم سيرة خالدة ومثلاً أعلى يتغنى به أفرادها وجنودها وضباطها ، جعلت من ذلك اليوم درساً يلقنه قدماء الفرقة لـكل مستجد يلتحق بصفوفها ، ويقبل بإرادته أن يحمل السلاح تحت أعلامها .

إن الأنظمة العسكرية تفرغ على المقاتلين والمرابطين تلك الروح الحماسية العالية ، ولكن المثل العليا تبقى دائماً مستقاة من المعارك التي خاض غمارها الآباء والأجداد وكتبوا صفحاتها بدمائهم وتضحياتهم وصمودهم أمام الأخطار ومواجهتهم للموت والفناء .

وبهذه المثل العليا تكوّن الفرق الممتازة ، وتدرّب على مجابهة المصاعب والأخطار ولذا امتاز رجال الفرقة الأجنبية التي تجمع بين أفراد الأمم المختلفة والطبقات المتباينة ، بالإقدام والجسارة والشجاعة ، وتحت هذا التدريب والتلقين أصبحت الفرقة أداة عمراك وقتال من الدرجة الأولى . إننا لا نجد شيئاً أقرب إليها من فرقة الممالك البحرية بمصر أو فرق الإنكشارية في أوائل عهد إنشائها حينما كتبت بدمائها تاريخ الدولة العثمانية .

الفروع الأجنبية في التاريخ :

لقد عرف التاريخ الكثير من الفرق التي تشبه الفرقة الأجنبية الفرنسية ، فقد جند هنبال من الغاليين سكان فرنسا القدماء ، وكان لدى العرب في شمال أفريقيا وفي الأندلس كتائب من الفرنجة والصفالبة تقاتل تحت أعلام المسلمين ، وكان السويسريون يمثلون أقدر الفرق التي تترزق بسيوفها في ربوع أوروبا وتحارب تحت أعلام مختلف ملوكها وأمرائها .

ولما قامت الثورة الفرنسية اتجهت إلى جعل جيوش الجمهورية من أبناء البلاد ، ثم عادت الجمعية الوطنية فأقرت في سنة ١٧٩٢ إنشاء فرقة من الجنود الأجانب ، وتبعها نابليون فأمر بتشكيل فرقة جديدة جعلها من ثمانى كتائب وأطلق عليها اسم فرقة « هوهنلوهى » ، وبقيت هذه الفرقة الأجنبية بعد عودة الملكية لفرنسا ثم سرحت جنودها عام ١٩٣١ ، ثم نظمت وشكلت الفرقة الأجنبية الحالية لتأخذ ، تحت قواعد جديدة ، مكان الفرقة الملقاة ، وهذه هي القائمة حتى يومنا هذا .

لقد صمدت طول تلك السنوات ، وحاربت في حر بين عالميتين ، فأين نجد هذه الفرقة الأجنبية اليوم ؟ .

أين هى اليوم بعد ٢٥٢ معركة :

تتحدث الجرائد الفرنسية فتقول : إن بين كل ١٠٠ جندى يحارب فى الهند الصينية ٦٤ من جنود الفرقة الأجنبية ، بينهم من حارب فى الحرب الأخيرة فى جهات متعددة ومن حمل السلاح فى صفوف النازية والفاشية ومن حارب فى صفوف الشيوعية والديمقراطية ، ويقول رجال الفرقة إن أعلامها خفقت فى ٢٥٢ معركة هائلة فى مدى ١٢٠ عاماً ، وإنهم يحبون فرقتهم ويهرعون للانضمام إلى أعلامها ، لأن شعارها يجذبهم إليها هذا الشعار الخالد : « إن الفرقة الأجنبية لا توجد إلا حيث يكون القتال والتصادم والموت والخطر » ؛ وهم يحبون كل ذلك .

ولذلك أعطيت الفرقة ميزة على غيرها من الفرق : هى أن جرحاها لا يعالجون حيث هم ، وإنما ينقلون من أقصى الأرض وحيثما كانوا ليتموا نفقاتهم ويستعيدوا قوتهم وصحتهم ، بمركز قيادة فرقتهم فى بلدة سيدى ابن العباس ، فإذا أتموا أيام شفائهم وقدروا على القيام بأعبائهم خرج الأصحاء بهيئة طابور للعرض ، أمام

النصب التذكارى المقام فى ميدان الاستعراض ليفتش عليهم قائدهم ويعلق الأوسمة على صدورهم ، ويحدثهم فى كل مرة أن على صعيد هذه الأرض التى تمر الفرقة عليها ، قدر مليون ومائتا ألف مجند مثلهم من قدماء الفرقة فى إبان مائة وعشرين عاماً . ثم يستعيد ذكرى حرب المكسيك ؛ ويضيف : إن أعمال الفرقة سلسلة لانهاية لها من البطولة ، تتجدد كل يوم تحت نيران الحرب والمعارك القائمة ، ولكنها مستعدة من تاريخ الفرقة وتقاليدها ، وإن حرب الهند الصينية فيها مثل لا يقل عن غيره ، إذ فى ٢٥ يولية سنة ١٩٤٨ وقف ١٠٤ من رجال الفرقة الأجنبية أمام أكثر من عدهم مرتين ، فخسروا نصف عددهم وثبت الباقى حتى أتت إليهم الأمداد فى صباح اليوم التالى .

نحت وهج الشمس الإفريقية ولدت :

لقد نشأت الفرقة الأجنبية على أرض أفريقيا وتدربت على الحرب تحت شمسها وأجوائها المختلفة ، ووجهت نيرانها إلى أبناء أهل المغرب ، وهم أهل كرتة وفرّ وعزيمة وقوة فلا بد أن تجند أمامهم فرقة لا تقبل عنهم قوة وشكيمة ومراسا وإن تجمع أفراد الأمم فى صعيد واحد وإن تطبّق أقصى الأنظمة العسكرية عليهم لأكبر دليل فى نظرى على أن دفاع أهل المغرب عن حرياتهم كان دفاعاً مستميتاً امتاز بالتضحية والبطولة إلى أقصى حدّ .

ولذا اختارت فرنسا أن يكون مركز قيادة هذه الأداة الفتاكة ، لا على حدود الرين وجبال الألب ، وإنما فى هذه الأرض الجزائرية التى حملت أعلام المرابطين والموحدين الذين ردوا بعزائمهم وسيوفهم حملات أوربا مجتمعة عن أرض الأندلس وأخروا خروج العرب من إسبانيا أربعمائة عام .

لهذا كله اختارت فرنسا أن تكون بلدة سيدى ابن العباس مركز القيادة . وأن توزع كتائب الفرقة فى كولومب بشار وفى عين صفرة « Sefra » ، وأن

تبعث بسراياها لتعسكر بصفة دائمة في مدن مراكش وفاس ومكناس .
إن شجاعة أهل هذه البلاد تتطلب أن يقف إزاءها أشجع الرجال في جيش
فرنسا ، وهى التى لم تكثف بذلك بل جعلت فى الفرقة الأجنبية مجموعات من
الخيالة وأخرى ميكانيكية وغيرها مدربة على الانتقال فى الصحارى على سيارات
الجيب ؛ إن فرنسا تعتمد عليها فى توطيد سلطانها وجبروتها ، لماذا ؟ لأنها أداة
قتال وحرب من الدرجة الأولى ، وأهل البلاد كذلك يكونون بطبيعتهم
وعزيمتهم أداة قتال وحرب من الدرجة الأولى .

أنظمة عسكرية قاسية تسبب قانونه مخيف زناه « اليساق » :

ولهذا السبب ، جعلت أنظمة الفرقة فى منتهى الصرامة واشترط فى التطوع
توفر طائفة من الصفات أولها تحمل أقصى المتاعب الجسمانية ، والتفانى فى التمسك
بقضايا الفرقة مهما كانت شديدة الوطأة ، وهى تشترط الحصول على النهاية
فى درجات الاحتمال من الناحيتين النفسية والبدنية ، والتجرد من عواطف الشفقة
والرحمة ، لكى يعيش المجند وسط رجال أشداء ويحتمل معايرة رجال لا رحمة
فى قلوبهم .

فلا يعجب القارىء إذا علم بندم الكثيرين بعد التحاقهم بالفرقة لأنهم لمسوا
بعد أن وقعوا على عقد التحاقهم وتطوعهم أن الخدمة فيها ليست بنزهة خلوية ،
وإنما هى من قبيل الاستعباد وفقدان الشخصية ...

ولقد أصبحت الفرقة مع الزمن ملجأ لأولئك الذين فقدوا كل أمل فى الحياة
أو الذين لفظتهم الجماعة وتعذر عليهم العيش فى الأوساط التى ولدوا ونشأوا فيها ،
وهى مدرسة غريبة تؤثر فى الأشخاص فإذا بهم نوعان من الرجال : رجل يأتى
إليها فإذا به ينشأ على تقديسها ويحيا فى محبتها والتفانى فى خدمتها ويجد اللذة
كلها فى القيام بأعبائها والإخلاص لها ، ورجل آخر يعيش ليلعن الساعة التى

وقع فيها على عقد التطوع وقبل الانضمام لصفوف هذه الفرقة . إن بعضهم قد يصل به اليأس إلى الانتحار والقضاء على حياته تخلصاً من أهوالها .

ومن بين الفريق الأول الذى استهوته حياة الفرقة الأحنبية من يهب عمره لها ، فهو لا يعرف عائلة ولا أهلاً ولا وطناً خارج صفوفها ، وينظر بهلع إلى اليوم الذى يقترب بانتهاء أجل انتمائه إليها . إنه يخشى الحرية والعودة إلى الحياة الأولى ، ولذلك يقدم بعض هؤلاء على تجديد مدة تطوعه لخمس سنوات أخرى ، ومنهم من لا ينتظر هذا الموعد بل يهرع قبل مقدمة إلى إمضاء عقد جديد ، لكيلا يواجه المجهول فى الحياة مرة أخرى ، إن أمثال هذا الرجل كثيرون ، لقد ربطوا حياتهم بالفرقة وألقوا أنظمتها وجاءوا ليموتوا فى النهاية تحت أعلامها ويدفنوا ومعهم أسلحتهم ...

* * *

إن أساس التدريب والتربية العسكرية فى الفرقة هو الشعور بأداء الواجب وإلى النهاية ... أما الشجاعة فى الميدان فتحررها المنافسة القائمة بين جنود ينتمون إلى أمم متباينة وجنسيات مختلفة : وتذكىها الفكرة الدائمة فى شعار الفرقة وهى احتقار الموت حتى النهاية وفى كل وقت .

لقد أنشأ من مختلف البلاد البها ليرفئوا امزائهم فيها :

ومن هنا يأتى إليها رجال ، بعد أن فقدوا الأمل فى حياتهم العادية ، تملكهم صفات الإقدام والجرأة ؛ وبعد أن كرهوا الحياة سيطرت عليهم غرائز القسوة واستعمال القوة ؛ وبعد أن تحطمت عواطفهم وحساسيتهم تمجرت أعصابهم وقلوبهم ؛ ثم جاءت ظروف العمل القاسية والخدمة المتلاحقة والتدريب بلا هوادة فجعلت إرادتهم متناسقة وروحهم كأن لا وجود لها ...

ولذلك قال بعض رجال النفس : « إن كل عواطف الإنسانية تموت

فى جندى الفرقة الأجنبية ، ما عدا فكرة واحدة تبقى متسلطة عليه : فكرة إخلاصه لها واعتماده عليها إذ هى نظرة المرحم والموئل والمآل » .
فالفرقة فى نظر الواحد منهم تأخذ مكان الوطن والجنسية والأهل ، وتحل مكان الماضى فتحل مركز الأسرة والأصدقاء والأقارب وكل ما يمت إلى الجند من روابط ، إنه ينزل بإرادته عن كل شئ له ولا يبقى لديه من الدنيا سوى ارتباطه بالفرقة واعتزازه بشرفه العسكرى كجندى مقاتل .

لقد قذفت الحرب العالمية الأولى بمئات من شباب أوروبا . وجاءت الحرب العالمية الثانية فقذفت بالآلاف ، ثم انتابت شعوب القارة الثورات والانقلابات فكان أن خرج كثيرون يهيمنون على وجوههم فى الأرض فلم يجدوا فى وجوههم من نكد الدنيا ومغالبة الأقدار باباً مفتوحاً سوى الفرقة الأجنبية ، أتوها من وسط أوروبا ، من روسيا وألمانيا ، من ضحايا النازية ومن أنصارها ، ومن ضحايا الشيوعية ، ومن حارب تحت لوائها ، فالتقى تحت أعلامها شباب يمثلون أكثر من عشرين جنسية ، فإذا بهذه الفرقة تزيل الأحقاد بين الشعوب المتباعدة وتجعل من حق الزمالة قانوناً له قوة الصخر ومثانة الفولاذ ، ومن هنا تبدو الفرقة الأجنبية الفرنسية أداة قتال من الدرجة الأولى ، تسير إلى الحرب بخطوات ثابتة ، وتواجه الأخطار والابتسامة على وجوه رجالها .

إنها ضرورة إنسانية لازمة لنفوس الكثيرين ، خصوصاً أولئك الذين وهبتهم الطبيعة غريزة الجندية وحب القتال ، والترامى على الأخطار واللذة فى مواجهة الصعب من الأمور ، إن هؤلاء إذا باعوا أنفسهم للحرب ونشأوا على حمل السلاح ، ثم طرأ على بلادهم من الظروف ما يجعل من المتعذر عليهم الخدمة فى جيوش بلادهم يجدون فى الفرقة الأجنبية ما يرضيهم ويرضى غرائزهم وروحهم العسكرية ، فطوبى لهم ! .

الرأي والراية في الجيوش الإسلامية

أرى الراية الصفراء يرى اصطفاها بنى أصفر بالرافعات الهازم
فنسى فلسطيناً وتجي جزائراً وتملك من يونان أرض الأساحم (١)

إن التاريخ الإسلامي بأكماله لا يزال بكراً لم يدرس بعد الدراسة العلمية

الصحيحة . وأغلب ما نشر من الكتب الحديثة عنه هو من قبيل جمع المعلومات
وتبويبها ولذلك جاء أكثر ما بين أيدينا من المطبوعات وهو لا يتعرض لحل
مشكلة من مشكلات البحث ولا قضى بأمر نهائى فى مسألة مستعصاة .

وقد أثير أخيراً فى مجلة الرسالة موضوع لون الراية التى اتخذها صلاح الدين
الجنوده (٢) ، واتخاذ اللون الأصفر الذى يبقى علماً للأيوبيين وملوك مصر من دولتى
الأتراك والشراسة .

والكتابة عن موضوع الأعلام وألوانها ، قد تكون جزءاً من الكتابة
عن أنظمة الجيوش الإسلامية وتقاليدها ، وقد تكون جزءاً مما أطلق عليه
القدماء اسم ترتيب المملكة ونظام المواكب العظام ...

ويدخل فى ترتيب المملكة نظام الملك وتقاليده وأبهته وقواعد المراسم
فى الحفلات العامة .

وكل هذه المسائل لم تدرس بعد الدراسة الكافية فى الدول الإسلامية

(١) الروضتين جزء ٢ ص ١١٦ .

(٢) الرسالة عدد ٨٢٠ ص ٣٤٢ بحث الأستاذ أحمد أبى بدوى المدرس بكلية دارالعلوم

عن القوة الحربية لمصر والشام فى عصر حروب الصليبيين .

ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين إلى نهاية الدولة المملوكية أو إلى نهاية الدولة العثمانية ، ثم قيام الأسرة العلوية بمصر .

وقد تعرض لمثل هذه الأبحاث المرحوم جورجى زيدان فى كتابه عن تاريخ التمدن الإسلامى ، واعتقد أن ما جاء فى هذا الكتاب هو من قبيل جمع المعلومات المتفرقة ، لا من قبيل الدراسة العلمية الصحيحة ، ولم يصل إلى علمى بعد أن هناك من تعرض لدراسة هذه الأمور دراسة علمية سوى الأستاذ « ماير » بالجامعة العبرية بمدينة القدس الذى أخرج كتاباً عن « الرنوك » فوضع بذلك أساساً علمياً يصح أن يتخذ لزيادة الأبحاث وتطورها ومعرفة أصول الرنوك وألوانها وهو عمل يحتاج إلى عناية وتدقيق وإلمام باللغات الشرقية ومدنيات الشعوب الطورانية ولهجاتها ومقدار تأثيرها بمدنيات آسيا وكل هذا عمل لاشك أن المستقبل كفىل بتحقيقه .

أما ما يخص جانبى ترتيب المملكة وتنظيم الجيوش ، فكل دولة من الدول الإسلامية لها طابعها الخاص بها ، ويمكن فيما يخص مصر أن نقسم البحث إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ترتيب المملكة فى زمن الخلفاء الراشدين إلى آخر الدولة الأخشيدية .

القسم الثانى : الدولة الفاطمية .

القسم الثالث : الدول الإسلامية التى بدأت من عهد صلاح الدين إلى ابتداء الحملة الفرنسية .

أما الكلام عن القسم الأول ، فكان ولا يزال ميداناً للبحث والكشف العلمى وجمع المعلومات ، ويظهر أنه كان محاطاً بالغموض فى العصور نفسها الماضية بدليل أن صاحب صبح الأعشى يقول إنه لم يتحرر له معرفة ترتيب المملكة فيها ،

والظاهر له أن أغلب النواب والأمراء حينئذ كانوا على هيئة العرب واستمروا كذلك حتى ولى مصر أحمد بن طولون وأبناؤه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . وهذا الباب الأخير من القسم الأول أى من ابتداء الدولة الطولونية إلى نهاية الأخشيدية يحتاج إلى عناية الباحثين ، والدخول فيه عسير لأن مواده لا تزال قيد البحث والتنسيق .

فإذا دخلنا العصر الفاطمى ، نجد أنه كان موضع عناية المتقدمين وأن بين أيدينا مادة للبحث مدونة ومبوبة وتصلح للدرس والمقارنة .

أى أنه بوسع الكاتب أن يتناول ترتيب المملكة من جهة نظام الملك وتقاليده وأهيمته وقواعد المراسم فى الحفلات العامة كما قلنا ، ثم يعرض للملابس التشريفة الكبرى وما كان يلبسه الخاصة والعامة والجند والأمراء ، ثم يخلص إلى الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العامة كالنواجيد وشدة الوقار والمظلة^(١) وغيرها .

أما الأعلام فى العهد الفاطمى بالذات ، فيحتاج درسها إلى احتراس شديد ، وكذلك دراسة السلاح وأصناف الجند وتعبئتهم فى الصفوف والمواكب ، وأعتقد أن لدينا من المواد والمعلومات ما يجعل دراستها تحت متناول يد الباحث ، لو كان ملماً بالقواعد المعمول بها فى العالم الآن ، إذ لكل دولة من الدول القائمة ومنها مصر مراسمها الخاصة بها وتقاليدها ، كما أن لجيوش البر والبحر قواعد تختلف بعضها عن بعض ولكنها ترجع فى النهاية إلى أصول متعارف عليها . وقد نجد فى بعض هذه الأنظمة بقايا من أثر الشعوب الشرقية واضحاً ملموساً^(٢) .

فإذا اطلعنا على أنظمة الجيش البريطانى ، نجد أن قواعد الأعلام والرايات واستعمالها منظمة فيما يخص ما يرفع منها للملك وللقواد ولأصناف الفرق ، ونجد قواعد التحية بالمدفعية وأنظمة خاصة بالموسيقى^(٣) وغيرها .

(١) صبح الأعشى جزء ٣ صفحة ٤٧٣ .

(٢) يبدو هذا الأثر واضحاً فى نظام موسيقى الجيوش الأوروبية وفى أنظمة كتائب الفرسان

مثل « الإهلان » فى ألمانيا وبولونيا .

(٣) Kings Regulations and Orders for the Army (٣)

وما يقال عن الجيش البريطاني ينصرف أيضاً إلى الجيش الإيطالي ، فقواعد
التحية بالأعلام وغيرها منظمة في كتب معمول بها يطلق عليها *Norme Per
Il Servizio di Presidio*.
فهذه قواعد قائمة إلى اليوم ونحن في حاجة إلى الإلمام بها وتعرفها قبل الدخول
في موضوع الأعلام والرايات ولو كان الكلام عنها تاريخياً ؛ إذ أن إخراج
ما في بطون الكتب من المعلومات وتنسيقها يحتاج إلى تفهم ما يجري به النظام
والعرف في الوقت الحاضر لكي ينجى عملنا على أساس علمي .

* * *

قرأت في البحث الذي نشرته مجلة الرسالة للأستاذ بدوى قوله في تبرير
اختيار صلاح الدين للراية الصفراء « وكأن في ذلك إشارة إلى أن مصر وإن كانت
قد عادت إلى أحضان الدولة العباسية — فهي مستقلة ذات كيان خاص بها » .
وأختلف معه فأقول :

أولاً : إن إعادة الخطبة لبني العباس لم يجعل من مصر ولاية عباسية
وإنما كان هذا العمل دينياً أكثر منه سياسياً أو إذا شئت هو إعادة اعتبار
المذهب السني وضم لولاية من الولايات إلى الأقطار التي تدين بالولاء الديني
لخليفة بغداد^(١) .

ثانياً : إن صلاح الدين حينما اتخذ اللون الأصفر وإن كان يؤمل في الاستقلال
بولاية أو سلطنة لم يقصد ولم يبرر عمله باختيار لون خاص يضعه على أعلامه .
إذن علينا أن ندرس لون العلم على أساس غير هذه الناحية التي أشار إليها
الأستاذ بدوى ونخيل إلى أن العصر امتاز بوجود نظامين : نظام الخلافة العباسية ،
ونظام الملك . وعلى هذا يمكن استخلاص بعض الحقائق الملازمة لهذا الاختيار :

(١) راجع الرسالة ٨٢٠ في ٢١ مارس ١٩٤٩
« ولا نعلم بوجه التحقيق السر في اختيار صلاح الدين هذا اللون وقد ظل العلم
الأصفر علم الأيوبيين والمماليك من بعدهم » .
وهو ما يدخل في التفويض العام الذي كان يصدر من دار الخلافة للمتغلبين من السلاطين كما يأتي
« تقليده الأمور فيما بلغت الدعوة من جميع الممالك » .

للتحرف: شعارها وللسلطنة شعارها :

إن اختيار اللون الأسود لبني العباس قديم والكلام عنه يخرجنا عن غایتنا . وهو لون اشتهر به بنو العباس وأصبح شعاراً لهم منذ إنشاء الدولة العباسية ولا يفهم من هذا أن نظام الدولة العباسية وترتيب الملك فيها حرّم استعمال لون آخر بل كان للدولة عدة رايات وأعلام مختلفة اللون والشكل بدليل ما جاء في الطبرى من أن أحد الخلفاء ولعله المتوكل على الله نصب علماً أبيض اللون وسماه لواء العمل ، وهذه ناحية كما قلت تبعدنا عن الغرض الذى رسمناه لأنفسنا . ولذلك أعود إلى القرن السادس الهجرى وأقول : إنه ورث ما كان متبعاً فى القرنين السابقين : الخامس والرابع ، أى ابتداء من دولة بنى بويه ثم قيام الدولة السلجوقية فالذى أسسه هو أن العالم الإسلامى الذى يدين بالولاء الدينى لبني العباس عاش فى تلك الحقبة من الزمن وبلاده تحمل شعارين : شعار الخلافة بأعلامها وألويتها وتقاليدها وشعار المملكة أو السلطنة بترتيبها وألويتها وأعلامها .

ولم يكن هناك ما يحول دون قيام الشعارين أو النظامين فى وقت واحد ولذلك أجزم بأن صلاح الدين حينما أعلن الخطبة لبني العباس وأقام شعائهم فى المساجد جاء إلى مصر ومعه شعائر السلطنة أو المملكة المتغلبة . وهى منبثقة من نظام الدولة السلجوقية التى كان يتبعها الأتابكة ولو فى مظاهرها وشعائرها ، ومنهم نور الدين الشهيد الذى فتح صلاح الدين مصر باسمه ، وكان تابعاً له وقائداً من قواده على رأس جنود من التركان والأكراد الذين يدينون بالولاء للدولة الأتابكية التى تخضع فى أنظمتها وتقاليدها لآل سلجوق الذين يمثلهم رغم استقلال الولايات وتغلب المتغلبين عليهم ما يطلق عليه اسم :

سلطان السمرطين أو ملك الملوك :

وكان هذا اللقب من مسميات الدولة السلجوقية وهو لا يطلق إلا على من يكون في ولايته ملوك تحت سيطرته . فالملك في نظرهم من يملك مثل الشام أو مصر أو مثل أفريقية أو الأندلس وتكون عدة عسكره عشرة آلاف فارس على الأقل^(١).

فإن زاد بلاداً أو عدداً في الجيش كان أعظم في السلطنة وجاز له أن يطلق عليه السلطان الأعظم فإن خطب له في مثل مصر والشام والجزيرة ، ومثل خراسان وعراق العجم وفارس ، ومثل أفريقية والمغرب الأوسط والأندلس كان سمته سلطان السلاطين كالسلجوقية « ١ هـ . قاله ابن فضل الله في المسالك نقلاً عن علي ابن سعيد^(٢) .

تقليد سلطان السمرقية :

ولدينا وصف كامل للمراسم التي اتبعتها خلافة بغداد في تقليد سلطان السلاجقة وهي جدية بالتأمل والدرس ؛ لأنها تعطينا صورة حية لأساليب هذا العصر^(٣) ثم تجعلنا نعود إلى أوائل دولة بني بويه فنجد أن هذا التقليد اتبع في عهد عضد الدولة فذاخسرو الذي كان أول من خوطب في الإسلام بالملك شاهنشاه^(٤) . ولدينا صورة لتقليد صمصام الدولة سنة ٣٧٣ هـ لا تختلف في مظاهرها

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤ .

(٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ص ٩٢ .

(٣) راجع تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٣ .

(٤) المنتظم من تاريخ الملوك والأمم لابن لجوزي ص ١١٣ .

عن تقليد السلطان الساجوق سنة ٤٤٧هـ^(١). ونعود إلى هذه الحفلة فنعرضها كما جاءت في كتب الأقدمين :

جلس الخليفة القائم بأمر الله يوم السبت ٢٦ ذى القعدة سنة ٤٤٧هـ دخل عليه سلطان السلاطين طغرول بك .
تَوَجَّ وَطَوَّقَ وَسُورَ .

أفيضت عليه سبع خلع سود في زيق واحد واتخذت له بها مملكة الأقاليم السبعة .

شرف بعمامة مسكية مذهبة فجمع بين تاجى العرب والعجم .

لقب بالمتوج والمعتم .

قلد سيفاً محلى بالذهب .

عاد وجلس على الكرسي .

قام ورام تقبيل الأرض فلم يتمكن لموضع التاج الخسروى .

سأل مصالحة الخليفة فأعطاه يده دفعتين .

قلده سيفاً آخر كان بين يديه .

ختم له بتقليد السيفين ، فقلد ولاية الدولتين .

خاطبه بملك المشرق والمغرب .

من ذلك يتضح أن تقليد الخليفة للسلطان تم بمقتضى مراسم موضوعة

روعى فيها جلال سلطان الخلافة وعظمة سلطان الأرض .

(١) بنو بويه سنة ٣٧٣هـ ذيل كتاب تجارب الأمم للوزير أبي شجاع الملقب ظهر الدين الروزراوى ص ٨٤٠ وفيها ركب صمصام الدولة إلى دار الخلافة وخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء وسور وطوق وتوج ، وعقد له لواءان وحمل على فرس بموكب ذهب وقيد بين يديه مثله وجرى عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوى من جميع الممالك وعاد إلى داره .
وجدت البيعة وأطلق رسومها وأقيمت الدعوى وغبرت السكة .

قارن هذه المراسم بحرص الملك الظاهر بيبرس على أن يتم تقليده طبقاً لها عند إعادته للخلافة العباسية في مصر مع اختلاف في بعض مظاهرها .

السلطان وأتباعه من الملوك المنغوليين :

كان أول من ملك من خلفاء الإسلام وتلقب بالسلطان هم بنو بويه ، ثم جاءت دولة آل سلجوق ففاق ملوكها من تقدمهم وأصبحت دولتهم امبراطورية ضخمة ، خطب الملوكها فيما بين الصين وأسوار القسطنطينية ، ثم ظهر في أنحائها المختلفة اتباعها وهم :

بنو طغتكين	بالشام
بنو قطلميش	ببلاد الروم
بنو سكران	بخللاط وارمينية
بنو ارتق	بماردين
بنو زنكي	بالشام
بنو أيوب	بمصر والشام
ثم الترك	الذين ورثوا ملك مصر ^(١)

ويهمنا منهم أمر زنكي : لأن صاحب النجوم الزاهرة يقول « أنشأ بنو زنكي بنى أيوب سلاطين مصر وأنشأ بنو أيوب دولة الترك وأول ملوكهم الملك المعز « أيبك » . فانظر إلى أمر الدنيا وكيف أن كل طائفة سبب نعمة طائفة »^(٢) .

وتم هذا التسلسل في سيادة الممالك وتولى أراضيتها وكل بيت جاء من اتباع

(١) تاريخ بن خلدون صفحة ٢٦ طبعة مصر ١٩٣٦ جزء ١ .

(٢) النجوم الزاهرة صفحة ٢٦٨ جزء ٥ .

من تقدمه وأصل الأتابكة أى آل زنكى هو قسم الدولة آق سنقر وكان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه ابن ألب ارسلان السلجوقى . وكان آق سنقر من أتباع هذا السلطان وملازمه وموضع ثقته . وبدأ ملكه فى حلب^(١) والذى أشار بتوليته هذه المدينة الوزير نظام الملك . ولم يكن ملكشاه هذا ملكا الملوك بل كان من جملة السلجوقيين المتغلبين على البلاد .

إذن كانت ولاية البيت الأتابكى فى نطاق الدولة السلجوقية ، واستمرت هذه التبعية قائمة مدة زنكى وفى أيام نور الدين الشهيد ، وهى العلاقة القائمة بين التابع والمتبوع . كانت تنعكس أحيانا حتى لا تصبح شيئا ، ثم تظهر واضحة فى ترتيب المملكة وقواعدها ومرد ذلك إلى سلطة المتغلبين على الأراضى التى يفتحونها أو يستولون عليها . وبقدر ما يزيد استقلالهم يزيد تمسكهم بتقليد من كانوا هم تابعين لهم فى أبهة الملك والسلطنة وأخصها الأعلام وترتيب الجيوش ونظام الأقطاع .

وتبدو هذه التبعية فى ثنايا التاريخ غير واضحة تماما ففى كتيبه مؤرخو مصر والشام ، ولكن مؤرخى المشرق ، أقصد بذلك بغداد وما يليها من الأقاليم يتحدثون عنها فى فقرات متباعدة .

ومن قبيل هذا ما جاء فى ابن الجوزى عن حوادث سنة ٥٣٨^(٢) من أن . العلاقات ساءت بين السلطان وزنكى ، حتى جمع الأول العساكر تقصد الموصل والشام وترددت رسل زنكى « حتى تم الصلح على مائة ألف دينار تحمل فى ثوب فحمل ثلاثون ألفا ثم تقلبت الأحوال فاحتجج إلى مداراة زنكى وسقط المال وقيل بل خرج ابن الأنبارى فقبض المال » .

(١) كانت حلب والموصل ضمن أملاك السلجوقيين قبل تغلب الأتابكة عليها : إذ استولى عليها ملكشاه السلجوقى عام ٤٧٩ هجرية .

(٢) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم طبع حيدر أباد (فك الله قيدها) جزء ١٠ ص ٥٦ .

ولوشئنا تفصيل هذه العلاقات نخرجنا عن موضوعنا إلى دراسة الامبراطورية السلجوقية وعلاقاتها مع التابعين لها ، ومع ذلك أنقل فقرة لتفسير ما جاء في ابن الجوزى فنحن نعلم أن زنكى وجد ولايته وقد أحرق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب . الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها وبيت سكران وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عمه صاحب مردين ثم الفرنج وأخيراً صاحب دمشق .

ولذلك جاء في أعلام النبلاء نقلاً عن الروضتين « أن زنكى كان ينتصف منهم ويغزو كلا منهم في عقر داره ويفتح بلادهم ما عدا السلطان (مسعود السلجوقي) فإنه لا يباشر قصده ، بل يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته »^(١) وفي هذا تفسير الحاجة إلى مداراته .

ودليل على أن الخلافة كانت تنكمش أحياناً فلا تملك من الأمر شيئاً أمام سلطان السلاجقة والمتغلبين وأن سلطان هؤلاء كان ينصرف إلى السيطرة على أراضي الممالك ، وهذا ما أجاب به الخليفة سنة ٥٣٠ حينما طالبه زنكى بمال لتجهيز الجند إلى واسط إذ قال « البلاد معكم وليس معى شئ فاقطعوا البلاد »^(٢) أى أعيدوا توزيعها .

من هذا يتضح أن الخلافة العباسية أصبحت في ذلك الوقت مظهراً دينياً أكثر من أن تكون صاحبة قوة وغلبة ، وأن شعائر الخليفة السني العباسي وإن مبادرة السلاطين والملوك إلى الحصول على تقليد الخليفة ، كان القصد منه أن يرتكز الملك والفتح على أسس شرعية متفقة مع قواعد الدين : لا الخضوع

(١) أعلام النبلاء جزء ١ صفحة ٥١٦ .

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ابن الجوزى جزء ١٠ صفحة ٥٥ .

إلى ملك العباسيين والإقرار بسيادتهم الفعلية .^(١)

فنور الدين حينما يرسل صلاح الدين لفتح مصر ، يفهم أنه يمد في سلطانه وهذا في حرصه على الإستقلال بمصر لا يجر بما يبيته في نفسه ، بل يحتفظ بمظاهر التبعية في شعار المملكة وترتيبها ، كما كان يحرص الأتابكة في الإحتفاظ بمظاهر التبعية لآل سلجوق ما دام هؤلاء على شيء من القوة والعظمة ، فإذا ضعف السلاجقة أو الأتابكة أخذوا البلاد لأنفسهم وحصلوا على إقرار الخليفة كما حصل من قبلهم آل سلجوق على الملك والسلطنة .

وفي ذلك يقول صاحب الأعشى^(٢) « واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلقتها في الديار المصرية خالقتها في كثير من ترتيب المملكة وغيّرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكي ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام » .

والمس أن الأتابكة لم يبتدعوا بل ساروا على سنن السلاجقة في كل ما استحدثوه من أنظمة ثم كانوا حريصين على أن يحتفظوا بمظاهر السلطنة السلجوقية في الأعلام والرايات وأنظمة الجند والأقطاع وغير ذلك . بل كان اتخاذ الأعلام السلجوقية مما يقوّى مركزهم ويجعلهم مساوين لأصحاب هذا العلم ثم جاء صلاح الدين فنحى نحوهم واتخذ شعائر السلطنة على أعلامه ابتداء من فتح حلب كما سيأتي .

الأعلام :

حدد صاحب الأعشى هذه الأعلام بقوله^(٣) « هي عدة رايات منها

(١) كان قيام السلطين في بغداد وما حولها مما أدى إلى إنسراع الخراب إلى كثير من أراضي العراق الخصبية .

(٢) جزء ٤ عند كلامه على ترتيب المملكة .

(٣) صفحة ٨ جزء ٤ .

راية عذيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة وراية عظيمة في رأسها خصلة الشعر تسمى الجاليش ورايات صفراء صفار وتسمى الصناجق .

والدخول في شرح هذا التقسيم واستعمال كل نوع واصله مطلب صعب المرتقى ، ولكنني أكتفي بالإشارة إلى أن استعمال هذه الأعلام كان من عمل الدولة الكبرى أولاً أى من شعائر الدولة السلجوقية قبل أن يستعملها ملوك مصر من الترك أو الأيوبيين أو آل زنكي الذين كانوا في ذلك مقلدين لا مبتدعين .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة تاريخه : « وأول من حمل السنجق على رأسه من الملوك في ركوبه غازي ابن زنكي وهو أخو السلطان نور الدين محمود بن زكي صاحب الشام » . ونقل هذا صاحب صبحى الأعشى^(١) فقال : « إن غازي أحدث حمل السنجق على رأسه فتبعه الملوك في ذلك وألزم الجنود أن يشدوا السيوف إلى أوساطهم ويجعلوا الدبابيس تحت ركبتهم عند الركوب » .

ويفهم عن عبارته أنه اخترع هذا الشعار الذى أخذ به بعده أبناء عمه في الشام ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة يقول : « الملك غازي ابن زنكي بن آق سنقر التركي أخو السلطان نور الدين محمود الشهيد الأتابكي هو أول من حمل السنجق على رأسه من الأتابكية ولم يحمله أحد قبله لأجل ملوك السلجوقية » . ويقول صاحب عقد الجمان « وهو أول من حمل رأسه السنجق من أصحاب الأطراف فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية » .

إذن كانت الأتابكية أقل من السلطنة^(٢) وكان أصحابها من ملوك الأطراف وكانوا يتحاشون الأخذ بظاهر السلطنة ، التى هى من حقوق ملوك آل سلجوق

(١) من الجائز أن يكون السلجوقية أخذوا الكثير عن تقديم من ملوك الترك .

(٢) قال ابن العديم : كان أتابك جباراً عظيماً ذاهية وكان الشاوش (الجاويز) يصبح خارج باب العراق وهو خارج من القلعة : فارن هذا بنظام النوبة والنفخ في البوقات وترتيب وضرب الدبادب والكوسات .

الذين لهم وحدهم هذا بانتمائهم إلى البيت المالك الذى يمثله سلطان السلاطين كما يفهم أن ملوك الأطراف كانوا يحاولون أن يشبهوا بمن هم أعلى منهم ، وأن هؤلاء كانوا يمنعونهم من ذلك حتى لا يرقوا إلى مرتبة تقرب من مرتبة من يتولى الرئاسة والصدارة بين السلاطين لأن استعمال شعار السلطنة معناه التساوى فى المرتبة والقوة ^(١) .

ويظهر من كلام فضل الله فى عهد دولة المماليك والأتراك : « أن من عادة السلطان إذا ركب يوم العيدين ويوم دخول المدينة يركب وعلى رأسه العصائب السلطانية وهى صفر مطرزة بألقابه وترفع المظلة على رأسه وهى قبة مغطاة بأطلس أصفر مزركش عليها طائرة من فضة مذهبة يحملها بعض أمراء المثئين وهو راكب فرسه إلى جانبه وأمامه الطهردارية مشاة وبأيديهم الأظفار » .

ويعلق صاحب المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ناقل هذه الفقرة بقوله : « العصائب المذكورة حرام وقد بطلت الآن والحمد لله » مما يدل على كراهية الناس لها النوع من مظاهر الأبهة المأخوذة من ترتيب ممالك آل سلجوق وبنى بويه وغيرهم .

(١) فارت لفظ أتابك مع أتابورك وأتaman والأخير يطلق على زعماء القوازي ودخل هذا اللفظ فى اللغات الروسية والبولونية والألمانية . سبب تسمية زنى بالأتابك : إنه لما تقلد الموصل سلم إليه السلطان محمود السلجوق ولديه الب أرسلان وفروخ شاة المعروف بالحفاجى إرييها . فلهاذا قيل له أتابك لأن الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، أما التركيه هو الأب وبك هو الأمير فتابك مركب من هذين المعنيين .

وكانت القاعدة لدى هذه الشعوب أن يفرق فى سن البلوغ بين الأولاد وآبائهم حتى ينشأوا على تربية بعيدة عن تأثير الوالد والوادة ولذلك أصبح فى بلاط كل أمير وملك عدد من أولاد الملوك والأمراء يربى فى كنفه كما كان هناك نظام يقضى بتسليم أولاد السلاطين ليربوا فى كنف من يوثق فيه من كبار رجال الملكة .

لاحظ تطور الأتابكية فى مصر إلى أن أصبح اللقب يطلق على من يتولى الوصاية على السلطان الفاصر ، ثم انتهى إلى أن أطلق على قائد الجيش فقيـل للامير أوزبك أتابك العساكر المصرية : وهو لقب عظيم يشعـر بالرابطة بين القائد وجنده .

ولسكن اللون الأصفر بقى حتى نهاية استقلال مصر بل وأدخل على المظلة
وهى من بقايا ترتيب الفاطميين مع أنها من صميم المراسم المصرية وليست من
تقاليد ملوك الشرق الأتراك وغيرهم .

اللون الأصفر واللون الأسود :

الذى أمكننى استخلاصه هو أن اللون الأصفر أصبح شعار السلطنة والأسود
استمر للخلافة بل أن العصائب أصبحت فى بعض الأحيان من تقاليد الخلافة
فى مصر : وهذا من أغرب ما أدخل من شعائر الملوك المتغلبين على نظام الخلافة
المفروض أن يستمر عريقاً فى تمسكه بمراسم الأبهة العباسية ولا يأخذ بمظاهر أجنبية
عن العروبة والإسلام . فمن ناحية اللونين والعلمين أشير إلى ما جاء فى السلوك .
« إن رسل^(١) ملك القبطاق وصلت إلى مصر ومعهم كتاب بالخط المغلى
يتضمن أنه أسلم ويريد أن ينعت نعتاً من نعوت الإسلام ويهجزله علم خليفة
وعلم سلطاني يقاتل بهما أعداء الدين » .

وجاء فى تاريخ أبى الفداء^(٢) من حوادث ربيع الآخر سنة ٧٣٢ هجرية
حينما جاء ابن أبى الفداء بعد وفاء والده إلى القاهرة فى ربيع آخر سنة ٧٣٢ هجرية .
« ركب بشعار السلطنة الملك الأفضل الحموى بالقاهرة ، وبين يديه الناشية ،
ونشرت العصائب السلطانية والخليفة على رأسه وبين يديه الحجاب وجماعة
من الأمراء وفرسه بالرقبة وأمامه الشبابه وصعد إلى القلعة » وفى هذا تصديق
لما بدأ به هذا البحث من قيام شعارين .

فلا محل إذن للتساؤل عن اللون الأسود العباسى وعدم اختياره للاعلام فى مصر
بعد زوال الدولة الفاطمية إذ أن ولاية الأيوبيين كانت مرتكزة على آل زنكى

(١) هو منجو بن طوغان بن باطو دوش بن جنجيز خان السلوك صفحة ٧١٦ .

(٢) تاريخ أبى الفداء صفحة ١٠٥ جزء ٤ .

وهؤلاء يتبعون آل سلجوق ويتقلدون بهم ولذلك لما دخل صلاح الدين حلب وتيقن من ثبوت ملكه « نشر سنجق السلطان الأصفر على سور القلعة وضربت له البشائر »^(١).

فهو قد شعر في هذه اللحظة بقوته ، ونحا نحو السلاطين من آل سلجوق ، وطمع في أن يعامل مثلهم ، فأنخذ شعارهم وجعل علمه أصفر اللون ، وهو علم السلاطين الذين يسيطرون على الأرض^(٢) ، وطمع أن يضل إليه التقليد من خليفة بغداد^(٣) بإقامته سيداً على الأراضى والممالك التى دانت له .

تراث الدولة السلجوقية :

إننى لا أزعم أن آل سلجوق ابتدعوا كل شئ ، بل أقول إن طبيعة الأشياء تحتم أنهم أخذوا ممن تقدمهم أشياء ليس بوسعى تحديدها بواسطة ما لدى من مراجع ، وإنما عمل الباحثين سوى موالاة البحث عنها ، ولكنى أقول أن أثرهم كان كبيراً في ترتيب نظام الممالك التى جاءت من بعدهم : وأقول أن نظام الأقطاع في التاريخ الإسلامى لن يقدر له البحث العلمى الصحيح بدون أن نلم بأصل هذا النظام في أواسط آسيا ونرجع إلى نشأته الأولى .

(١) أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ص ١٣٢ ج ١٠ نقلا عن الروضتين .

(٢) في سنة ٦٥٥ أرسل آخر خلفاء بنى العباس المستعصلا بالله : الحلقة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبي .

(٣) لاحظ العلاقة بين السلطان والأراضى التى يحكمها واللون الخاص بالسلطنة لما سيأتى في هذا البحث ومى علاقة تفويض لا تملك :

« طلب العادل من السلطان صلاح الدين كتاباً بولاية حلب ككتاب البيع والشراء فامتنع صلاح الدين وقال إنما تكون إقطاعاً : ولما اجتمعوا قال : « أظننت أن البلاد تباع أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها ونحن خزنة للمسلمين ... أو ما علمت أن السلطان ملكشاه السلجوق لما أوقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا الفقهاء » أعلام النبلاء صفحة ١٥٠ جزء ٢ .

وكذلك نظام الجيوش وتعبئتها ومراتبها تأثرت إلى حد كبير بما أدخله السلجوقيون ، وإن تقدّر قوته دولتي المماليك العسكرية حق قدرها بدون أن نلم بما كانت عليه أنظمة جيوش السلاجقة .

ولم يكن أثرهم قاصراً على مصر والشام بل شمل الجزء الشرقي من العالم الإسلامي وأخذ به ملوك خوارزم من بعدهم^(١) « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية جرى على منهجهم أو ما قاربه وجاءت الدولة التركية وقد تنفحت المملكة وترتبت فأخذت في الزيادة وفي تحسين الترتيب وتعظيم الملك وقيام أهله ، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها ، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب وفاقت سائر الممالك وفخر ملكها على سائر الملوك »^(٢) .

وفي ذلك قول الأستاذ فييت : « إن سلاطين المماليك كانوا الوحيدين الذين نجحوا في تاريخ مصر في تأسيس امبراطورية ضخمة »^(٣) .

أما تفسير اختيار الياية الصفراء الذي أشار إليه بيمبرس في كتابه إلى بومند صاحب طرابلس الشام بقوله « إن رايئنا الصفراء قد علت على رايئكم الحمراء وسادت الأرض » فأردّه إلى أواسط آسيا حيث منبت السلاجقة ، فقد وجدت في كتاب « تاريخ مدينة الأنراك »^(٤) تأليف « ضياء كوك ألب » « إن الأتراك اتخذوا لعناصر الحياة : الماء والتراب والنار ألواناً : فالسواد الماء والبياض للنار واللون الأصفر للأبيض وقال « طوبراغك رنكي صاريدر » .

(١) تاريخ أبي الفداء ص ١٣٨ جزء ٤ .

ضرب خوارزم شاه لأولاده النوب الحس في أوقات الصلاة على عادة الملوك السلجوقية .

(٢) دولة الأنراك بمصر . ترتيب المملكة صبح الأعشى ج ٤ ص ٥ .

(٣) كتاب مساجد القاهرة ص ٤٧ .

(٤) طبعة استانبول ص ١١١ ج ١ .

فهل اتخذت الراية الصفراء من القدم شعاراً لسلطان الأرض ؟

إنه ليصعب على أن أقرر شيئاً من ذلك . حتى بعد المعلومات المتفرقة التي وضعتها أمام القارئ ، لأن ما نعلمه عن آل سلجوق وبنى بويه وآل سبكتكين وغيرهم من المتغلبين لا يزال في حاجة إلى الجمع والتبويب والتنظيم . وإن كنت أقرر أن بحث نظام الإقطاع في تلك الأزمان سيفتح لنا حتماً الطريق الذي يوصلنا إلى نواح لا تزال مجهولة ، أرجو أن يتولاها المهتمون بالتاريخ الإسلامى بعنايتهم .

ولا أزال على رأيي من أن كتابة التاريخ تستلزم الإلمام بأنظمة الجيوش وترتيب المملكة وأن المسلمين أخذوا بأنظمة واستحدثوا لأنفسهم أنظمة وكانوا قوة دافعة .

وقد تركوا للاوروبيين الكثير من أنظمتهم ومستحدثاتهم في فن الحرب وسوق الجيش وتنظيم الوحدات . . وهذه أمور يجهاها الكثيرون ممن يتعرضون للتاريخ الإسلامى .

جميع من المغول دقوا انبئهم

الأستاذ الدكتور محمد صلاح من أساطين أساتذة القانون في مصر كتب
مقالا عن قوانين المغول في مصر نشرته جريدة الأهرام في عددها الصادر
في ٢٧/٧/١٩٥٠ وقد تضمن آراءً ناضجة رأيت أن أعلق عليها بما يأتي
مع تقديري لعلم الأستاذ ومكانته .

جاء في هذا المقال « اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة من هؤلاء
المغول سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أبيبك » ولا صلة
بين المغول والبحرية إذ المعروف أن المعز أبيبك تركاني والمظفر قطز خوارزمي
وكانا من أشد أعداء المغول جنساً ، أما البحرية فأصلهم من أتراك روسيا التي كان
يسكن الجزء الجنوبي منها قبائل القفجق وسلالتهم القوزاق وسكان روسيا وجزء
من رومانيا وإليهم يفتسب الظاهر بيبرس وقلاوون وخلاصة أمراء الدولة التركية
بمصر^(١) وقد سببت غارة أبناء جينغيز خان على جنوب أوروبا تشتيت وهجرة
هذه العناصر التركية وكان مجي هؤلاء لمصر عن طريق البحر من موانئ « بحر
أزوف » (بحر الأزق) فسمو بالبحرية لذلك ولو أن المقرئ يقول أن التسمية
نسبة لجزيرة الروضة حين كانت قلاع الملك الصالح .

ويحاول بعض الكتاب المعاصرين الزج بالمغول في حياة مصر الإسلامية
رغبة في الإقلال من شأنها وللحط من كرامتها . والحقيقة أن العناصر التركية
خدمت مصر والإسلام أجل الخدم واعترف المؤرخون المعاصرون بذلك وكان
ابتداء اتصال الأتراك بمصر من أيام المأمون والمعتصم والمتوكل ثم استقل بها

(١) راجع صبح الأعشى جزء ٤ صفحة ٤٥٦ القبجاق جنس من الترك أهل حل وترحال
ومنهم معظم جيش الديار المصرية . راجع ابن بطوطة حينما ذكر المسجد الذي أنشأه الناصر محمد
في شبه جزيرة القرم ص ٢٤٥ طبعة ١٣٢٢ جزء أول .

آل طولون ثم آل الأخشيد وهما دولتان قامتا على شجاعة وكفاية رجلين عظيمين وكلاهما من أواسط آسيا التركية.

ولما دخل المعز لدين الله الفاطمي مصر تأثر بما سمعه في المشرق عن شهرة الأتراك في الحروب وله كلمة مع قائده جوهر (راجع المخطوط صفحة ١٠٨ جزء ٢) ولما ظهر العزيز بالله على هفتكين التركي اصطنعه سنة ٣٨٠ وضم بعد ذلك منجوتكين ونشأت فرق من الأتراك في الجيش الفاطمي .

أما المغول فجنس آخر والذين خدموا مصر منهم فمعروفون في التاريخ من سلاطين وأسماء وقواد وأهمهم السلطان كتبغا الذي حارب في معركة شقحب مع الناصر محمد ضد بني قومه وجي* به للحرب محمولا على محفة وكل من أسلم من المغول حسن إسلامه وهم الذين نشروا الإسلام في ربوع روسيا « جاء في السلوك صفحة ٧١٦ » وصلت (لمصر) رسل تدان منجوب بن طوغان بن باطون دوشى بن جنجيز خان ملك القيقاق بكتاب بالخط المغولى يتضمن أنه أسلم ويريد أن ينعت نعتاً من نعوت الإسلام^(١) .

وجاء ذكر قوانين المغول وأهمها السياسة في كتب المؤرخين المسلمين كما يأتى : المعروف عن جنجيز خان أنه صاحب « التورا » و « اليسق » ويقول صاحب النجوم وهو تركى « إن التورا باللغة التركية المذهب واليسق هو الترتيب : والأصل الزاهرة فى الياسة أو السياسة إن سى بالعجمى ثلاثة ويسا بالتركى الترتيب وعلى هذا مشى القطار من يومه إلى يومنا هذا وانتشر ذلك فى سائر الممالك حتى ممالك مصر والشام وصاروا يقولون سى يسا فتلقت عليهم فقالوا سياسة على تحاريف أولاد العرب فى اللغات الأعجمية » .

(١) راجع رحلة ابن بطوطة حيث يتبين منها انتشار الإسلام فى تلك النواحي عند بداية المائة الثامنة البحرية : وإقامة المساجد والزوايا والأربطة وكثرة الفقهاء والعباد فى أنحاء روسيا الحالية فى الجزء الجنوبى منها .

والغريب أن هذه السككية شائعة بالريف في مصر فقد سمعت من يقول
« احكم بالعدل يا فلان أنت شرع وسياسة » أى أنه يحل معضلات الأمور
بالشريعة الإسلامية والسياسة وهو لا يعلم منشأ الكلمة فى الأصل .
إننى لا أشك لحظة فى أن العاهل المغولى هو صاحب التورا واليسق وهما قانون
المغول .

ولكن هل هذه القواعد استعملها الترك قديماً فى بواديهم وأن الذى
جمعها جنجير خان وألزمهم بصفته الخان الأعظم باتباعها .
يحتاج الأمران إلى دراسة وتدقيق قبل إصدار حكم قاطع .
أما كلمة « سى ياسة » فيخيل لى أنها استعملت قبل مجئ المغول المشرق
سنة ٦١٨ هجرية .

ولقد كنت معنياً ببحث هذه النقطة بالذات وذلك عقب اطلاعى على نص
غامض فى كتاب الروضتين جزء أول صفحة ١٧٨ عن حوادث ٥٦٦ هجرية
وظهور جنجير خان كان حوالى ٦١٨ بآسيا الإسلامية فيكون بينهما نصف قرن
وأكثر وهذا النص :

« لما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده
واستبداد ابن أخيه عبد المسيح بالأمور وكان يبغضه لما يبلّغه من خشونته والمباغة
فى إقامة السياسة ... »

وأنى أعتقد بأن النص إن صح كما ورد يَحتمل أن السياسة بين جيوش السلاجقة
كان معمولاً بها قبل مجئ المغول غير أن المباغة والافراط فى تنفيذ أحكامها كان
مكروهاً لدى نور الدين الذى غلبت على طبعه التعاليم الإسلامية فأصبح ليناً رقيقاً .
وإن الأتابكة وهم من أتباع السلاجقة لا بد أنهم نقلوا عوائد الترك وأنظمتهم
من أواسط آسيا . وهذه العوائد خاصة بأنظمة الجيوش والإقطاعات ولا تمس الدين
ولا المعاملات بشئ وقد جاء فى صبح الأعشى جزء ٤ ص ٥ « واعلم أن الدولة
الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية خالفتها فى كثير

من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية » .

ويظهر مما كتبه ياقوت عن بلاد الترك أنهم كانوا أهل مدنية وأنظمة فهو يصف العمران في خوارزم وقرغانة واشروسنة وما يطلق عليه الآن تركستان الصينية والتركستان الروسية وهو يقرر ويكتب ما رآه بنفسه ويقول إن خراب هذا العمران جاء بعد أن تملك خوارزم شاه البلاد وقضى بإجلاء السكان سنة ٦٠٠ . وإن إخلاء البلاد سهل على المغول القضاء على خوارزم شاه في سنة ٦١٧ فتخرب الباقي ، فليس بمستبعد أن تكون لهم قواعد لضبط النظام بين الجيوش المتفرقة وأخذ الجنود بالشدة ولكن ياقوت المحوى يقول .

« وهم أعظم الناس طاعة لكبرائهم وأطفهم خدمة لعظائهم » .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة ص ٢٨٨ جزء ٦ .

« ولما تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أحب أن يسلك في ملكه بالديار المصرية طريقة جنجيز خان بهذا وأموره ففعل ما أمكنه — كما استمر أولاد جنجيز خان في ممالكه التي قسمها عليهم في حياته على طريقته في « التورا » و « اليسق » إلى يومنا هذا » وعليه بأن جاء دخول النظم المغولية لمصر على يد أقوى خصوم المغول وأشد الملوك عداء لهم .

وقد أطلعت في السنوات الأخيرة على بعض الأبحاث التي نشرت بالجلات والتي يحاول أصحابها لأسباب غير معروفة ولا مفهومة الحط من قيمة الخدمات التي أدتها مصر الإسلامية للعالم وخصوصاً الإقلال من شأن دولتي المماليك في مصر والشام وانتقاص قدر السلاطين العظام والظعن في شخصيتهم من ذلك قولهم عن دولتي المماليك أن السلاطين أوقفوا العمل بالشرعية الإسلامية بإيجاد نظام

حجوبة الحجاب فتعدى الحاجب حدوده وأخذ يحكم في المواريث متخطياً ولاية القاضى الشرعى . وهذا غير صحيح إذ أن سلاطين مصر ضربوا مثلاً رائعاً في احترام رجال القضاء الإسلامى ونزلوا على أحكامهم حتى فيما يخص صميم عمل الدولة وهى صفحة رائعة . أما نظام الجند وترتيب أمور الإقطاع وتدريب المستجدين من المماليك وجنود الحلقة فتحتهاج نكثير من الشدة والعدالة وتوقيع العقوبات الرادعة وهذا ما أخذ به هؤلاء الملوك والقادة نقلاً عن دولة آل سلجوق ثم عن قوانين المغول ووجدنا بيبرس يأخذ بنظام جنكيز خان ويطبق الشدة والعدالة لينتصر بنظام جنكيز خان ضد أولاده وأحفاده من المغول . وهكذا سارت الأمور إلى نهاية الدولة المصرية .

والغريب أن النزاع بين الحجوبة والقضاء الشرعى لم يسمع به فى الوقت الذى كانت أنظمة مظاهر بيبرس معمولاً بها بل ظهر حين تراخت الأحكام وتعدت تنفيذ العدالة وحصل التساهل فى أخذ الجند والمماليك بالشدة اللازمة لهم وهو نزاع لا يفهم من قيامه أن الحجوبة أتت للقضاء على شرائع الإسلام بحال من الأحوال .

وفهم من مقال الدكتور محمد صالح أن نظام الحجوبة أنشئ لجماعات المغول التى أتت لمصر واختلطت بأهلها مع أن الحجوبة نظام قائم للجند المصرى أساسه فض المشاكل الناشئة عن توزيع الإقطاع لأن الإقطاع ليس ملكاً للأمير يتصرف به تصرف المالك فلا يورث عنه وإنما هو منحة ليقوم الأمير بالجهاد فى سبيل الله فعليه أن يستعد بجنده وسلاحه ومماليكه لهذا الواجب فإذا مات صاحب الإقطاع التزم السلطان أن يقوم بالمحافظة على حقوق الجند والمماليك الذين قام فى الأصل الإقطاع على أسلحتهم ودمائهم وعلميه فبقدر ما تطبق العدالة فى تصرف هذه الشؤون بقدر ما تكون جيوش المسلمين على أهبة للجهاد . وبقدر ما يسود

الظلم وتعم الفوضى بقدر ما يفقد الجيش روح المقاتلة والكفاح . فالشدة توجد النظام ، والعدالة توجد القوة المقاتلة التي تبذل الدماء .

فلم يحدث في تلك الأيام وبعد إدخال هذه الأنظمة أن هُزمت مصر أمام الصليبيين . أو ولي جنودها الأدبار في معركة قائمة أمام المغول أو غيرهم وإنما كان تاريخ مصر حلقة مستمرة من الانتصارات المجيدة ، ولذلك دهشت من مقال الأستاذ الذي يضع عهداً إسلامياً عظيماً ويحشره بين عهود الرومان والبطالمة والأغارقة ثم يقحم بالعرب وسط هذه الشعوب الظالمة وأننا نؤمن بأن العروبة ومصر صنوان لا يفترقان . فالعناصر التركية والمغولية ذابت في بوتقة المصرية لأن مصر إسلامية عربية كما ذابت العناصر العربية في بوتقة الأتراك لأن تركيا إسلامية فلا محل إذن لوضع العرب وأسماء الاسلام وملوكه مع غيرهم في الأمم المستعمرة والغاصبة . . .

تحقيقات في المقال :

جاء في المقال اسم بيرا وصحته « البيرة » بكسر الباء وسكون الياء وهي قلعة في البر الشرقي من الفرات وموقعها في تركيا اسمها الآن « بيرة جك » وجاء في التعريف « ولها منعة وعسكر » وكانت داخل أقاليم حلب في الدولة المصرية ولها حاكم وجند من مصر أما الحدود المصرية فكانت شمال ملاطية عند قلعة درندة وقد جاء في صبيح الأعشى أن نياحة البيرة تقدمه ألف وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

تركت هذه الأنظمة الاقطاعية ألفاظاً معينة في مصر منها كلمة غزبة ولا اختلاف على معناها وكلمة الوسية التي اختلف المفسرون على معناها وقد جاء في السلوك « وفيها انتقل سعر الفول من ديار مصر من خمسة عشر دينار إلى ثلاثين ديناراً المائة أردب بحكم المشتري ولعلوفة الوسية العادلة خمسة آلاف أردب

وجاء في حاشية الدكتور زيادة « الوسية لفظ مشتق من اللفظة التركبية اوسى ومعناها الدار وكل ما يتبع صاحبها من حاشية وحشم وحيوان » نقلا عن بلوشبه ص ١١٢ ويقول دوزى فى قاموسه « الوسية هى المرعى المشاع » والصحيح الوسية نسبة إلى الوس^(١) القبيلة الكبيرة أو مجموعة الشعب وتطلق على الاقطاعات المشاعة أو أراضى الشيوخ أى التى تبقى مشاعاً بين الأمراء والجنود فلا تدخل فى إقطاع أحداً بل تبغى بيد السلطان لمساعدة من يفتقر إقطاعه وقد استعملت إلى اليوم بالأرياف فى مصر للدلالة على الأرض التى تبقى بذمة المالك فلا يزرعها أحد من المزارعين .

(1) Ulus.

خط سير الجيوش المصرية لتحرير لبنان أيام هلاطين دولة عماليك

إن الطريق الموصل بين بعلبك ومدينة طرابلس يعد أعلى طريق معبد في الشرق الأدنى ، ويخترق مناطق من أجل المناطق في جبال لبنان ويمر قريباً من شجر الأرز الذي عاصر القرون الطويلة . وكلما اتجهت لزيارة هذه الجهة الخالدة واجتازت بلدتي بشرى وأهدن تواردت الخواطر تترى على ، ومرت أمامي ذكريات حوادث التاريخ ، ففي سنة ٨٨٢ هجرية قام الأشرف قايتباي برحلته المشهورة إلى أقصى الحدود المصرية في الشمال حيث كانت القلاع المصرية الإسلامية في داخل الأراضي التركية الحالية .

وكان وصوله إلى بعلبك في يوم السبت ١٩ جمادى الآخرة وغادرها الأحد وقت الظهر متخذاً طريق طرابلس مخترقاً الجبال العالية فأمضى الليلة في عقبة « ليمونة » على ارتفاع ١٩٦٠ متراً من سطح البحر . ويقول كاتب رحلة السلطان إن الطريق إليها كان وعراً وهي وسط الجبال تحيط بها أشجار الكثرى .

ولما اجتاز العقبة اتخذ طريقة إلى الحدث (حدث الجبهة) حيث صلى الصبح ومن هذه إلى كفر قاحل ويسمى صاحب الرحلة كفر قاهر . والطريق إليها يمر بحوالى ٣٦٠ لفته ، ثم انحدر السلطان إلى طرابلس فوصلها في مساء الاثنين وأقام بها إلى الخميس ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ .

وهذه الرحلة تعيد إلى مخيلتي الحملات التي وجهها جند مصر الإسلامية إلى هذه النواحي فأنا لا أذكر للقارئ ما كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهي عن تاريخ سنة ١٢٨٣ نقلاً عن بعض الكتب للصلاة عن فتح « جبهة بشرى » وحصار

« أهدن » كما لا أعرض لما كتبه من تاريخ أسراء الغرب وما جاء فيه نقلا عن النويرى والصلاح السكتي في فتوح المصريين للكسروان لأن العبارات الواردة في كتابه صفحة ٢٩ هي بعينها التي أوردها ابن الفرات في كتابه جزء ٨ صفحة ١٤٢ مما يدل على أنهم جميعاً ينقلون عن مصدر واحد حينما يتحدثون عن توجه الأمير بدر الدين « بیدار » قائد السلطنة بمصر ومعه العساكر المصرية وصحبته أسراء الجند يقصد جبال كسروان في شهر شعبان سنة ٦٩١ (١٢٠٢) ميلادية . وإنما اكتفى بالنبوءات أى الحملات التي جاءت بعد ذلك وأولها الحملة التي قام بها جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام في عهد الملك الناصر محمد . آقوش هذا ترجم له صاحب الدولى السكامة فقال عنه « آقش الأفرم الجرکسى كان من مماليك المنصور (قلاوون) ذكر عنه أنه النمى من أستاذة ولاية الشام فأجابه السلطان « ما هو في أيامى » وذكر صاحب الدرر نقلا عن ابن فضل الله العمري : إن الأفرم كان يتردد على فقير مغربى بالقرافة في مصر فقال له الفقير : « ماذا تعطينى إذا صرت يوماً نائب السلطنة بالشام » ، فقال الأفرم « ومن أنا حتى تسند إلى نيابة الشام » قال الفقير : « لا بد في ذلك وإذا حصل هذا تصدق بألفى درهم عند السيدة نفيسة وبألف عند الإمام الشافعى » .

وذكر الأفرم أنه نسى كل هذا وفي يوم من الأيام وقد عاد هارباً من حروب غازان ملك التتار بعد نوبته الأولى وفتح دمشق فوصل القاهرة ، وبينما هو يتجول بالقرافة تذكر قول المغربى فأحضر الدراهم وفرقها في الموضعين . ويقول صاحب الدرر السكامة « كان الأفرم فارساً بطلاً عاقلاً جواداً يحب الصيد وكان خليقاً الملك لماسيه من المهابة والحماية ، وكان خيراً عديم الشر والأذى يكره الظلم ولم يحفظ أنه سفك دم أحد ولا لوجه شرعى ، وكان يعاشر أهل العلم كابن الوكيل ^(١) وكان

(١) الشيخ الصدر بن الوكيل : — هو العلامة أبو عبد الله محمد ابد الشيخ الإمام مفتى المسلمين زين الدين عمر بن مكى بن عبد الصمد المعروف بابن الوكيل شيخ الشافعية في زمانه =

لأهل دمشق فيه محبة مفرطة ومدحه جماعة من الشعراء . أما هو فبلغ تلهفه على دمشق وأهلها مبلغاً جعله يقول « لولا القصر الأبيض (الأبلق) والميدان الأخضر ما خليت بيبرس وسلار ينفردان بملك مصر » . وهما مكانان بدمشق . ولذا أقام إحدى عشر عاماً وأنشأ بها ^(١) جامعة المشهور سنة ٧٠٦ الذي تولى الخطابة فيه قاضى القضاء شمس الدين محمد بن عطاء العز الأوزاعى الحنفى . ويعجبني فى الأفرم هذا الود لمدينة دمشق وهذه المنزلة التى أوجدها لنفسه هناك حينما تولى نيابة السلطنة عن مصر فى ربوع الشام وما تم على أيديه من عظام الأمور .

ذكر صاحب البداية والنهاية أنه عقب انكسار التتار وأخلأهم لدمشق حدث ^(٢) : فى الجمعة ١٧ رجب ٦٩٩ أن أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر . وفى يوم السبت ١٨ رجب ٦٩٩ نودى بأن تزين البلد لقدم العساكر المصرية وفى يوم ١٩ رجب ٦٩٩ فتح باب الفرج مضافاً إلى باب النصر . وفى ١٠ شعبان دخل الجيش الشامى وعلى رأسه نائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش الأفرم فى جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وخرج الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنه لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم » .

== ولد سنة ٦٦٥ وتوفى بالقاهرة ١٤ ذى الحجة ٧١٨ كان منزله بجوار جامع الحاكم ، درس بعدة مدارس بمصر والعلم ، كان يتكلم فى الحديث والطب والفلسفة وعلم الكلام . ص ٨٠ جزء ١٤ ابن كثير . النجوم الزاهرة ص ٢٣٣ جزء ٩ والمنهل الصافى وطبقات الشافعية « صاحب كتاب الأشباه والظائر » ولد فى دمياط ودفن فى تربة الفجر ناظر الجيش بالقرعة ومن شعره :

أقصى منأى أنت أمر على الحمى ويلوح نور رياضه فيفوح
حتى أرى سحج الحمى كيف البكا وأعلم الوراق كيف تنسوح
(١) راجع ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ص ١٩٣ . ابن كثير فى جزء ١٤ ص ٤٢ . هذا المسجد قائم الآن .
(٢) ابن كثير ص ١٢ جزء ١٤ .

« ولما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤسائهم إلى الشيخ فاستتابهم » .
« وفي يوم الأحد ١٣ ذى القعدة عاد الأفرم من طريق الجبال فتلقاه الناس
بالشموع على طريق بعلبك في وسط النهار . »
هذه هي النبوة الأولى فلننتقل إلى ما يليها: —
الجملة الثانية .

وكان خطر التتار جاثماً على الصدور رغم انتصار المصريين في البر والبحر
ورغم حروبهم ضد الأرمن في سيس ورغم أنهم فتحوا جزيرة أرواد سنة ٧٠٣
وكان بقلعة دمشق علم الدين «أرجواش» وهو من أقدر قواد مصر فصعد بالقلعة
فاقتدت به بقية القلاع الشامية ، ومع كل هذا اشتمد الجزع وقفت الخطيب في
الصلوات وقرىء البخارى بالمساجد حينما ظهرت طلائع التتار وأخيراً جاءت
المعركة ، أى وقعة شقحب المشهورة التى وقف فيها الناصر محمد مع خليفة الزمن ،
وانتصر فيها جند مصر والشام ، وكان النساء والأطفال على أسطح المنازل والمآذن
يتتبعون مراحل المعركة وقد كشفوا رؤوسهم وارتفعت أصواتهم بالدعاء .
وسرت سنتان على تلك الحوادث فإذا بالأفرم يقوم من دمشق لقيادة حملة
إلى الجبال بعد أن استراحت الجيوش الإسلامية واستعادت قوتها .
ذكر المقرئى فى السلوك هذه النبوة على الترتيب الآتى :

سنة ٧٠٤ توجه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية فى ذى القعدة من
دمشق ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش المنصورى إلى أهل جبل كسروان بدعومهم
إلى الطاعة فلم يجيبوا فجمعت العساكر لقتالهم .

سنة ٧٠٥ سار الأمير جمال الدين آق كوش الأفرم نائب الشام من دمشق
فى عساكرها لقتال أهل كسران ونادى بالمدينة من تأخر من الرجال والأجناد
شفق فاجتمع له نحو الخمسين ألف راجل ، وزحف بهم لمهاجمة أهل تلك الجبال
وتأزلمهم وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ،
قتل فيها الملك الأوحى شادى بن الملك الزاهد داوود وأربعة من الجند ، وملك

الجليل عنوة ووضع السيف وأسروا ستمائة رجل وغنمت العساكر منهم مالا عظيما وعاد إلى دمشق في أربع عشر صفر ٧٥ .

* * *

وفي المقرئى : أن السلطان أقطع في جمادى الآخر جبال كسروان بعد فتحها للأمير علاء الدين ابن معبد البعلبكي وسيف الدين بكتمر عتيق بككتاش الفخرى^(١) ، وحسام الدين لاجين ، وعز الدين خطاب العراقى ، فركبوا بالشر بوش وخرجوا إليها فزرعها لهم الجبلية ورفعت أيدى الرافضة عنها .

وسنعود بعد قليل إلى هذا الإقطاع بالذات لأهميته .

ويظهر جلياً أن أهل الجبال كانوا السبب المباشر لشن الغارة على أراضيهم فقد ذكر صالح بن يحيى : فى تاريخ بيروت ما يأتى عن النوبة الثانية نقلا عن النويرى :

« كان أهل كسروان قد كثروا وطفوا واشتدت شوكتهم وامتدوا فى أذى العسكر عند انهزامه من التتر سنة ٦٩٩ (١٣٠٠ ميلاديه) وتراخى الأسر عنهم وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجهالهم المنيعه وجوعهم الكثيرة وأنه لا يمكن الوصول إليهم » .

وهكذا يتضح أن الفوضى عمّت جبال كسروان وأن الاعتداء حصل على الجيش عند تراجعه من حملة التتار الأولى قبل موقعة شقحب ، وفى ذلك يقول أبو الفداء وهو معاصر أنه على أثر حملة الأمير أقوش الأفزم ٧٠٥ ظهرت تلك الجبال الشاهقة بين دمشق وطرابلس ، وأمنت الطرق بعد ذلك ، وهذا يفسر اجتياز هذه الطرق بالذات بواسطة السلطان قايتباى بعد قرنين تقريباً من الزمن حينما اشتدت الحوادث بين مصر من جهة ودولة حسن الأكبر « اوزون حسن »

(١) لما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطته الفخرى فامتنع وأشار بعودة الملك الناصر محمد بن قلاوون ص ٢٤٤ النجوم الزاهرة .

ثم مع بنى عثمان من بعده وذلك للتأكد من أمن الطرق إذا قدر للجيش
المصرية أن تتراجع فلا تهاجم من الخلف .

ويستمر صالح بن يحيى يحدثنا فيقول :

في ذى الحجة ٧٠٤ هـ جهز إليهم (أى أهل كسروان) جمال الدين آقوش
الأفرم نائب الشام زين الدين عدنان ثم توجه بعده تقي الدين (ابن تيميه)
وقراقوش وتحديثنا معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك فعند ذلك
رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية .
وهذه العبارة نقلها البطريق اسطفانوس الدويهي في كتابه وأخذها منه
المطران الدبس في كتابه تاريخ سوريا مشيراً إلى أن الأفرم أمر الجلبين أن
يصلحوا شؤونهم مع التنوخيين (أى أمراء العرب في لبنان حلفاء المصريين)
وأن يدخلوا في طاعتهم فلم يحصل اتفاق فافتى العلماء حينئذ بقتالهم لاستمرارهم
على العصيان ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع
تزداد من كل ناحية .

وفي كتاب صالح بن يحيى : أن آقوش الأفرم توجه من دمشق بسائر الجيوش
في يوم الاثنين ؟ المحرم سنة ٧٠٥ (وهو ما جاء في ابن كثير ص ٣٥) وجمع جمعاً
كثيراً من الرجال نحو ٥٠ ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين ، وتوجه
سيف الدين أسندمر نائب طرابلس ، وشمس الدين سنقرجاء المنصوري نائب
صفد ، وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس ، وكان قد نسب إلى مباظنتهم
فجرد العزم وأراد بجهاده في هذا الأمر أن ينفي عنه هذه الشناعة التي وقعت به ،
فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه واجتمعت على العصاة العساكر واحتوت
على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً يطانها ، وقطعت كرومهم
وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد واستخدم اسندمر جماعة
منهم في طرابلس بحاكميته وخزائنه من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين .

وأقطع بعضهم (أخبازاً)^(١) من حلقة طرابلس واختفى بعضهم في البلاد واضمححل أمرهم وخمل ذكرهم .

وينقل المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت للماروني عن ابن الحريري وابن سباط « أنه في يوم الاثنين ثانی محرم سار آقوش الأفرم نائب دمشق بخمسين ألفاً بين فارس وراجل إلى جبل الجرد وكسروان التي حيال بيروت . فجمع الدرور رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل والنقت الجوع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحريمهم وأموالهم وأولادهم ونحو ٣٠٠ نفس واحتموا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبية فوق أنطلياس بالقرب من مغارة البلانة فدافعوا عن أنفسهم ولم يقدر الجيش أن ينال منهم ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب الشام أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكس وهالوا عليه تلا من التراب وجعلوا الأمير قتلوا حارساً عليهم مدة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار .

وفي أسباب هذه النوبة يقول صاحب كتاب أخبار الأعيان في تاريخ جبل لبنان أن أهل كسروان والجبال قتلوا أميرين من التتوخيين حين تعرضوا للعساكر الإسلامية في واقعة جبيل .

وأن نائب الشام آقوش الأفرم أراد حقن الدماء وبعث الشريف زين الدين ابن عدنان للتوسط في الصلح بين الأمراء التتوخيين وخصوصهم فلم يقبل هؤلاء . هذه صفحة أولى لتلك الحملات وسنرى كيف أثرت في تاريخ لبنان وعلاقات أمرائه مع مصر الإسلامية التي خاضت أشد الحروب هولا وكتبت أعظم ملاحم التاريخ .

ثلاثة من سلاطين مصر العظام يبدو عملهم خالداً أمام الزمن في هذه البقعة من الأرض : الملك الظاهر بيبرس صاحب الفتوحات الكبرى ، ثم المنصور

(١) جاء في ص ٣٣ تحقيق الأب لويس شيخو أخبار وصحتها على ما يذكر (أخبازاً) .

قلاوون الذى حاصر مدينة طرابلس ستة وعشرين يوماً ، ثم فتحها بالسيف ، وأخيراً الأشرف خليل ابن قلاوون صاحب الفتح الأشرق من الممالك الساحلية والجبليّة وهو الذى بقى لمدة قُرُون والناس يُورِّخون فى لبنان الحوادث على ذكره وتأتى هذه الحملات فى عهد الناصر محمد تكملة لتلك الفتوحات .

ولكن الباحث فى تاريخها يسير دائماً فى المراجع التى بين أيدينا وهو يتلمس الأسماء والمواقع وسط الصعاب التى يقيّمها المعاصرون والمؤرخون والنسّاج . فهناك طائفة من أسماء البلاد والمقاطعات تغيرت مواضعها مع الزمن أو تعدلت حدودها ، ومع اعتمادى على الخرائط التفصيلية التى وضعتها القيادة الفرنسية مدة عهد الانتداب ومع أننى زُرت أغلب المناطق لعدة مرات أراى أحياناً وسط بحر واسع الأطراف فى المسائل التى تحتاج إلى تحقيق ، أراى أخوض فأوفق فى بعض الشئ ولا أوفق فى البعض الآخر فأتركه ليتمكّن غيرى من تحقيقه .

ويحصل الخطأ فى النقل من النسخ التى بين أيدينا ، أو فى عدم اعتناء المؤرخين عند كلامهم على الحوادث فيطلقون أسماء عامة مثل جبال الجرد والكسروان من غير تحديد .

فقد جاء ذكر بعض الحملات فى الجزء الشمالى الجبلى الواقع بين الممالك الساحلية والممالك البعلبكية : والمعروف أن كسروان هو الإقليم الجبلى الذى تقع فيه مدينة « بسكنتا » وهى التى كانت تسمى قديماً باسم « العاصية » لصعوبة مسالكها والمرور إليها من وادى الجناح . ومع أنهما قسمان فى التقسيم القديم داخلية وخارجية فالداخلية حدها من نهر الكلب إلى نهر إبراهيم ، والخارجية حدها القديم من نهر الكلب إلى الحد الفاصل بينها وبين مقاطعة المّتن : وتمتد الحدود من البحر إلى الجبال : ومع علمنا بهذا التحديد يطلق المؤرخون اسم كسروان تساهلاً منهم على بقاع تقع فى الجزء الشمالى من هذه البقعة بالذات ويتكرر هذا فى معظم من كتب بعد حوادث الفتوحات التى تمت فى عصر الملوك الثلاثة .

ولكن المدقق يجد أن الحوادث التي كانت مدينتنا «أهدن» و «بشرى» مسرحاً لها تقع في مقاطعة كانت تسمى باسم «جبة بشرى» في هذا العهد ، ثم أصبحت «جبة الحدث» في عهد قايتباى : وفي هذه الناحية بالذات مقاطعة كانت تسمى الضنية وهي ترد في كتب المؤرخين باسم جبال الظنيين : ولقد اعتمدت في تحقيق هذا الاسم على مصدرين :

الأول : هو ما ورد في وثيقة الهدنة التي عقدها الملك المنصور قلاوون صاحب مصر مع جماعة الاسبتار وبيت طرابلس (٦٨١ هـ ١٢٨٠ م ^(١)) .
الثاني : ما جاء في كتاب الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق ^(٢) .

جاء في عقد الهدنة ذكر بلاد السلطان الملك المنصور : « ما هو مجاور لطرابلس ومحاذ لها من المملكة البعلبككية جميعها وجبالها وقراها الرحلية ^(٣) والجبليية وجبال الضنيين » .

وجاء في المرجع الثاني : « لما قدمت الفرنج من إنطاكية سنة ١٠٩٩ ، وفد إليهم إناس من المردة من جبل سير وصقع الضنية » . فجبال الضنيين هي إقليم أو صقع الضنية الذي أشرنا إليه والواقع في الجزء الشمالى من إقليم جبة بشرى وهذا الإقليم ينحدر من أرز لبنان إلى سير ثم إلى طرابلس » .

ومن هذا نعلم أن ذكر «أهدن» و «بشرى» في إحدى الحملات لا يجعل لكسروان شأنًا وبينها وهذا البلاد مناطق : أو قطاعات كانت تسمى باسم بلاد واقعة على الساحل أو في الجبال كما يتضح ذلك من وثيقة الهدنة نفسها .

فقد جاء فيها عند الكلام على بلاد الفرنجة أى الأبرنس صاحب طرابلس ما يأتى :

(١) ملحق ٦ للسلوك طبع الدكتور زيادة .

(٢) طبع المعلم بطرس البستاني .

(٣) قولة الرحيلة لا يفهم وإنما أرجح الرحلية : أى قرى بلدة زحلة .

طرابلس ما هو داخل بها ومحسوب عليها . أنفة وبلادها . جبيل وبلادها .
ثم صنم جبيل وبلادها (وأرجح أم جبيل) . البترون وبلادها . (وكها على الساحل)
وضع هذا النص عن قصد — ثم عرقاً وعدتها ٥١ ناحية .
وما هو للفارس روجار دى لالا ولاى من قبلى طرابلس .

أقول إننا إذن فى حاجة ماسة إلى جمع نصوص الوثائق المملوكية من عقود
الهدنة ومواثيق الصلح الموزعة فى السكتب وتحقيق كلماتها حتى تراجع مراجعة
صحيحة لكى نستفيد من محتوياتها : هذا علاوة على المراسيم الخاصة بولاية العهد
أو الصادرة بتولية الأمراء أو بالإقطاعات : ومن بعض هذه الوثائق يتضح مدى
اتساع الإمبراطورية الإسلامية لمصر فى أزهى عصورها بلا استثناء وقد جاء فى نهاية
عقد هدنة المنصور قلاوون « وما سيفتحه الله على يده ويد ولده وعساكرها
وجنودها من الممالك والحصون » .

وقد تمت الفتوحات جميعاً حتى ذكر ابن الفرات « ولم يتأخر بالبلاد الشامية
غير فلاحها وهم داخلون فى الذمة » .

وأرجح أن الجزء الجنوبي من لبنان حيث كان يسكن أمراء الغرب من
آل بختر التنوخيين لم يتعرض لهذه الحملات ما عدا الجزء الشمالى ، إذ المعروف
أنهم كانوا حلفاء وأعوانا لمملوك مصر^(١) ابتداء من الدولة التركية المعز إيبك ،
إذ جاء فى كتاب صالح بن يحيى ذكر منشور المعز إيبك الأمير سعد الدين خضر ،
وجاء فيه أن الأمير زين الدين بن على وفد على السلطان قطز واشترك محارباً
فى معركة عين جالوت لما قهر المصريون التتار ، وجاء فيه ذكر عدة مراسيم أرسلها
الظاهر بيبرس إلى الأمراء وقال عنهم « الأمراء المتنافرون على صيدا وبيروت »
وكذلك ما صدر من ابنه الملك السعيد بركة خان ، ولم تكن صيداً وبيروت

(١) هكذا تتكلم الوثائق وإن كان التاريخ يعيد هذه العلاقات إلى الأيوبيين وقد تكون
من عهد الفاطميين .

يبدد المصريين في ذلك الوقت . ويبدو مؤرخو الحروب الصليبية في حيرة من موقف بعض الأمراء التنوخيين .

فالأب لويس شيخو يستخلص من حادثة معينة أن بعض الأمراء كان حليفاً للصليبيين فيقول إن أحد خصوم الأمراء المسمى تقي الدين نجاب بن أبي الجيش سعى بهم زوراً إلى ملك مصر الظاهر بيبرس مدعياً أنهم حالقوا الفرنج وخانوا الدولة . وأعتقد أن هذه الحادثة بالذات تحتاج إلى عناية المشتغلين بالتاريخ المصري لأن المسكتبات التي صدرت من جهة الأمراء لبلاط القاهرة وإجابة الملك الظاهر بإقرار أقطاعهم وتحديد بلادهم تكشف لنا عن ناحية فذة من عظمة الظاهر وسياسته . ولا أعتقد بوجود سياسة للأمراء مرسومة للعمل على ناحيتين في تلك الحقبة بالذات خصوصاً وقد بدأت طلائع الظفر والمجد والقوة تبرز بروزاً في ناحية الجانب المصري تحت عبقرية الظاهر ومن جاء بعده من الملوك العظام .

والظاهر أن العلاقات بين أمراء الغرب ومصر أقدم من ابتداء الدولة التركية بل كانت متأثرة دائماً بملك مصر بدليل أنه لما وقعت النفرة بين الملك الشهيد محمود نور الدين زنكي ملك الشام والملك صلاح الدين يوسف الأيوبي ملك مصر كان هؤلاء الأمراء يوالون صلاح الدين وكانوا يعضدونه على محاربة الأفرنج وكان ملك مصر يجعلهم أمام عساكره^(١) .

وقد أبلى الأمراء كمارأينا في حروب قطز وبيبرس ثم في أيام قلاوون في معركة حمص حين اشترك من جنودهم تحت قيادة الأمير قرقماز ما مقداره أربعة آلاف مقاتل هذا خلاف ما قاموا به في صد هجمات التتار أيام الناصر محمد بن قلاوون وامل هناك فترة غامضة في تاريخ لبنان هي فترة الخمس سنوات التي أدخل فيها وادی التيم فلم تبق فيه غير حاصبياً مسكونة : ذلك حينما تقدم التتار في زحفهم

(١) يهمننا العثور على وثائق أيوية في هذه الناحية .

أيام الملك الناصر محمد فاضطر الأمراء إلى التراجع أمامهم لهذا أرجح أن المشاكل التي جاءت بعد حملات الأشرف خليل تحت قيادة بيدار أي حملات الناصر محمد تحت قيادة جمال الدين أقوش الأفرم كانت نتيجة للتقليل والفوضى التي سادت الجزء الجنوبي من لبنان في تلك الفترة من الزمن : أي بين ٦٩٨ و ٧٠٥ هـ .

ويقول المطران الدبس في الجزء السادس من كتابه « أما من هم الذين سماهم صالح بن يحيى الجرديين وسماهم الدويهي الجبلين فلا شك أنهم غير الكسروانيين ونرى أنهم سكان العمل المسمى إلى الآن الجرد ومن قرأه رشميا وشارون وبقاير وبحمدون وإنهم كانوا دروزا » .

ويؤكد خروجهم عن طاعة الأمراء التنوخيين وإنهم كانوا يسطون على بلادهم وإن نذير جمال الدين أقوش أمرهم أن يصلحوا شئونهم مع الأمراء ومع قلة المصادر أو صمت المراجع فالدلائل المنطقية تجزم بأن هؤلاء هم الذين انتهزوا فرصة إخلاء أراضى التيم من أهلها فاعتدوا على بعض أملاك الأمراء وهم الذين انسحبوا بعد ذلك إلى مقاطعة كسروان ويظهر أن الجرديين كانوا دروزا ، والكسروانيين كانوا مواردنة فتخلفوا أمام زحف المصريين : وهرب الدروز بعد أن دارت عليهم الدائرة في معركة عين صوفر إلى غربى كسروان أى إلى نيبية وانطلياس التي كانت حينئذ من كسروان وكان نهر الجمانى الفاصل للمقاطعة من الجنوب^(١) .

ويعجبني صاحب البداية والنهاية^(٢) حينما يتكلم عن شيخ الإسلام ابن تيمية فهو يعرفنا بأن الشيخ خرج ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين فاستتابوا خلقاً منهم وألزمهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً ومنه نعرف أن وسيط أو نذير الأمير جمال الدين أقوش هو المسمى زين الدين بن عدنان كان

(١) نفس المصدر صفحة ٢٧٣ .

(٢) جزء ١٤ ص ٣٥ .

يشغل وظيفة نقيب الأشراف بدمشق وحدثت هذه الوساطة في مستهل ذي الحجة سنة ٧٠٤ .

إذن سبقت الحملات بعثة سياسية دينية ، وفقت في إقناع البعض ولم توفق في إقناع البعض الآخر وهؤلاء الآخرون هم الذين أفتى العلماء بقتالهم . لأنه في ثاني المحرم سنة ٧٠٥ خرج نائب السلطنة الأفرم جمال الدين أقوش وجنوده إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة (أى وادى التيم) السالف الذكر ويقول ابن كثير « فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً » ثم أردف « وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير وأبان الشيخ علماً وشجاعة وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغما » .

وفعلاً بدأ أعداؤه حملة الافتراء والأكاذيب والدسائس عليه شأنه شأن كل الرجال النافعين القادرين على العمل بإخلاص وشجاعة في هذا الشرق . وأعود إلى ماسموه جبال الجرد : فهذه نهايتها آخر حد ولايات الغرب شمالاً وفيها بلدة المديرج الواقعة على طريق الشام .

وفيها نهر الصفا وبها كانت واقعة عين صوفر المشهورة : ويحدثنا صاحب كتاب أخبار الأعيان عن حملة الجرديين (سنة ٧٠٢ هـ - ١٢٩٣ ميلادية) إنها بدأت بمنشور أرسله الملك محمد الناصر بن قلاوون إلى جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق وإلى أسندمر نائب طرابلس وإلى سفقر المنصوري وإلى الأمراء التنوخية يأمرهم بمحشد الجيوش لمحاربة كسروان وأهل الجبال جاء فيه « من نهب امرأة كانت له جارية أو صبيّاً كان له غلاماً ومن أتى منهم برأس مقتول كان له دينار لأن المذكورين كانوا نجدة الأفرنج » .

ويقول المطران الدبس نقلاً عن الأسقف جبرائيل ابن القلاعى أن المعركة دارت عند جبيل وأن القدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدماً منهم خالد مقدم مشمش ثم سنان وسليمان مقدماً إبلنج ثم سعادة وسركيس مقدماً لحفد .

ثم عنتر مقدم العاقورة ثم بنيامين مقدم جردين . ويقول إنهم رتبوا ألفين مقاتلا كمنوا على الفيदार وألفين على نهر المدفون . (راجع الخريطة)

ومن مراجعة وثيقة هدنة المنصور قلاوون يتبين لنا أن هذه البلاد واقعة خارج الجرد وكسروان بل هي داخل القطاع الواقع بين قطاع البترون وقطاع كسروان أو هي تكون ما أسميه قطاع جبيل الواقع بين موقع فيدار وبلدة البترون وتتوسطه مدينة جبيل ، ويرتفع إلى بلدة العاقورة في الجبال وبلدة تنورين أمامها وكانت ضمن أملاك صاحب طرابلس ولما زال حكم الصليبيين أصبح فتح هذه البلاد هيناً على المصريين ويقول صاحب تاريخ الأعيان بدون أن يذكر المصدر الذي استقى منه « حينئذ اندفعت سكان الجبال على جيوش الإسلام اندفاق الماء المنهر » « واقتحم مقدم مشمش على قائد جيش الإسلام واجتزر رأسه » « ووقعت الكسرة على جيوش الإسلام وتمدقت منهم الكتائب والأعلام » . ويصف ملاحقة الجبيليين لأمرء الغرب (حلفاء المصريين) إلى عقر ديارهم وكيف قتل الأمير محمد وأخوه الأمير أحمد من أبناء محمد بن كرامة التنوخى وكيف أن المنتصرين زحفوا حتى أحرقوا بلاد عين صوفر وشملبخ وعين زوينه وبحطوش من قرى أمرء الغرب التنوخيين في الجرد الشمالى .

تلك هي رواية المراجع المسيحية عن الحوادث التي تقدمت الحملة التي قادها الأمير جمال أقوش الأفرم سنة ٧٠٥ وانتهت إلى بما جاء في هذه المراجع بالذات « ثم أحاطت العساكر بتلك الجبال المنيعه وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات فأخربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا الكنائس وقتلوا وأسروا جميع من فيها من الدرزية والنصرانية وزلت قلوب أهلها » . « ثم أمر جمال الدين أقوش أن تستقر التركان في ساحل كسروان » ونشأت بذلك أمارة آل عساف وسكن التركان بلدة ذوق ميكائيل وحفظوا الدروب والمسالك ، ونظم الأمير جمال الدين الأفرم طريقة الاتصال بالنيران بين الساحل

ودمشق : إذ كانت تقام شعلة نار في رأس بيروت ومنها إلى جبل بوارش ومنها إلى بيرس ومنها لجبل بالصالحية ثم إلى قلعة دمشق حتى تصل الأخبار في وقتها ، وترتب الحمام الزاجل بمحطاته وخيل البريد إلى دمشق عن ثلاث طرق ، وهكذا انقطع اتصال الأفرنج بأهل كسروان انقطاعاً تاماً ودخل أهل الجبال في طاعة ملوك مصر فلما قامت الفتنة بين الظاهر برقوق والأميرين الناصري ومنطاش انضم لعمكر الشام العربان والتركمان وأهل كسروان والجرد من أهل لبنان ، ولما عاد برقوق للملكة بعث بجند مصر إلى الساحل فأخضعت البلاد بأكملها وجاء في أخبار الأعيان أن الظاهر برقوق توجه بنفسه إلى بلدة بشرى فأقام يعقوب بن أيوب مقدماً وكتب له صحيفة نحاسية ثم نزل إلى « دير قنوبين » حيث مدافن بطارقة الموارنة فأنعم على الدير العتيق بإعفائه من الأموال الأميرية بموجب صحيفة نحاسية .

وأعود فأقول بأن القطاع الشمالي من لبنان حيث يقع أرز لبنان كان خارجاً عن نطاق الهدنة (بين قلاوون وصاحب طرابلس) كما قلنا ولذلك جاء في كتاب البطريك اسطفانوس الدويهي إنه وجد في أرض الحدث بقرب دير القديس يوحنا كتاباً للصلاة مدوناً فيه ما يأتي عن فتح أهدن وبشرى :

إنه في سنة ١٢٨٣ أي بعد هدنة طرابلس التي تمت في أيام المنصور قلاوون بعامين « إن العساكر الإسلامية سارت إلى فتح جبة بشرى وصعدت إلى وادي حبرونا وحاصرت قرية أهدن ، وتم فتحها بعد أربعين يوماً وأخربت القلعة والحصن الذي على رأس الجبل » ولم يكن بوسع الأفرنج في طرابلس ولا جماعة الاستبثار تقديم المساعدة لأهل أهدن لارتباطهم بنصوص عقد الهدنة ولذلك أتم المصريون فتحها قبل سقوط القطاع — الكسرواني وقطاع جبيل في أيديهم وقد رأيت كيف تمسكن الظاهر برقوق بلباقته بعد قرن من الزمن أن يحتذب

قلوب هؤلاء السكان الأشاوس وأن ينقلهم من معسكر أعدائه إلى معسكر
الحلفاء الأوفياء : فله دره .

أما الأمير جمال الدين أقرش الأفرم نائب السلطنة فبقى بنياية الشام حتى
دخلت سنة ٧١١ لما نقله الملك الناصر محمد إلى نياية طرابلس بإشارة الإمام بن تيمية
فبقى بها حتى انضم إلى قراسنقر وذهباً سوياً إلى بلاد التتار بعد أن أديا لمصر
أكبر الخدم .

الجنرال كاترو في ٢٦ أكتوبر ١٩٤١

مهدة إلى بعض زملائي الذين لم يفهموا من الدنيا إلا
أنها خلقت لتحقيق رغباتهم وشهواتهم ، ووسيلة لاقتناء المال
واقتراس الدرجات ..

صفحة مطوية في خزانة القضية العربية :

إن الحوادث التي انتهت بدخول الحلفاء إلى أراضي سوريا ولبنان صفحة
لا تزال مطوية ، وكان وجود الإنجليز والأمريكان مع الفرنسيين يشاركونهم
في الأمور من الأسباب التي عجلت بإدخال تغييرات على أنظمة الحكم ، وإني
لا أتعرض لها هنا ولا أذكر أعمال ممثلي بريطانيا وأمريكا في طريق تحرير
البلدين وإنما أنتقل مع القارىء إلى إعلان الاستقلال السوري الأول .

إعلان استقلال سوريا :

ففي يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤١ ، أعلن الجنرال كاترو استقلال سوريا ،
وبعد مضي سنة على هذا اليوم احتفلت سوريا بعيد استقلالها تحت رئاسة المرحوم
الشيخ تاج الحسنى رئيس جمهوريتها بهذا العيد ، وقد دعيت إلى هذه الحفلات
وسافرت مع ممثل أمريكا المستر أنجرت الذى يشغل الآن وظيفة هامة في صندوق
النقد الدولي ولقد أنصتنا إلى الخطاب الذى ألقاه رئيس الجمهورية ولفقت نظري
العبارة التالية :

خطاب رئيس الجمهورية :

« لقد نلنا استقلالنا كاملاً غير منقوص ، ناجزاً غير مؤجل ، وسوف نمضي في حمل لوائه ، والاضطلاع بأعبائه ، غير مفرطين بحق واحد من حقوقنا ، غير متخلين عن مظهر واحد من مظاهر سيادتنا » وكان يؤكد أننا وقفنا من ناحيتنا في مصر وبقية البلاد العربية نشد أزره لذا أعقب على ذلك بقوله : « أما البلاد العربية فكان موقفها موقف الشقيق المغتبط بحرية شقيقه . وقد كانت الحكومة الملكية المصرية ، أول حكومة شرقية تقدمت باعترافها الرسمي باستقلال سوريا وتبعتها حكومة المملكة العربية السعودية فالمملكة اليمنية بكتب تنطق عن أخم العواطف الأخوية ، وسورية التي تؤمن بأنها جزء من المجموعة العربية لا يسعها إلا أن تشكر شقيقاتها العربيات على تضامنها معها في هذا الموقف ونصرتها لها » .

خطاب الجنرال لافرو :

وقد رد عليه الجنرال بخطاب طويل أشاد فيه بفرنسا وكفاحها ودافع عن سياسته بقوله : « إن الوعد لم يتأخر والثقة لن تخيب بل إن الآمال قد تحوات إلى حقائق وها هي فرنسا قد حلت روابط الوصاية واعترفت لسوريا بالرشد فدخلت فعلاً وسط الدول المستقلة ذات السيادة » .

بعد مضي سنة على اعلان الاستقلال :

وتفهم من بين السطور في كل هذه الخطب أن مضي سنة على هذا الاستقلال لم يقنع الدول الحليفة ولا غيرها بأن الاستقلال جدى ولذلك تعمد رئيس الجمهورية الراحل وممثل فرنسا أن يعيد التأكيدات بأن الاستقلال جدى وأن الثقة لن تخيب .

وتلمح من ثنايا الخطاب الأول أن الحكومة السورية قد اطمانت لصدور الاعتراف المصرى الذى تعجلت اصداره الحكومة المصرية التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولكن الحقيقة أن الجو استمر مكهرباً بين الحلفاء من يوم إعلان الاستقلال إلى يوم الاحتفال بمرور سنة على إعلانه .

لقد مضى ذلك العهد بأيامه وحوادثه ولكن صورة الرجلين الجنرال كاترو والشيخ تاج الدين الحسينى لا تزال منطبعة فى مخيلتى وإنى أصرح القارىء بأنى كنت أجد فى الشيخ — رحمه الله — صديقاً وفيماً لأصدقائه وكنت أحبه من صميم قلبى ولم أتردد لحظة واحدة فى أن أصرحه برأى الذى كونته عن الاستقلال الذى كان يدافع عنه إذا علمته رغم اعتراف الحكومة المصرية به أنه استقلال مزيف ، ولما توفاه الله حزنت لوفاته وسرت وراءه حتى مررده الأخير . أما الجنرال كاترو فكان يمثل فى نظرى قوة بين رجال الجندية فى فرنسا لأنه قائد عسكري ممتاز فحسب بل لجمعه بين السيف والقلم أو الشرع والسياسة ولتمسكته من صفات ممتازة : أهمها سرعة التنفيذ مع دهاء سياسى ووعى شامل ونظرة واسعة .

لقد سمعت عنه كثيراً قبل مجيئه إلى سوريا ، وكان أول مقابلة لى معه بحضور الجنرال ويلسون القائد البريطانى المعروف بمصر ، والذى قدمنى للجنرال الفرنسى فكان أول ما لفت انتباهى عند لقياءه هى تلك النظرة الهادئة النافذة إلى الأعماق .

ومع أننى أمضيت سنوات على اتصال دائم به فقد كنت لآخر لحظة لا أدرى إذا كنت قد اكتسبت ثقته أو بعض هذه الثقة : إننى أسلم بأننا كننا نلتقى فى رأى سويّاً على أشياء ونختلف فى أخرى ، ولعل أهم ما اكتشفه لى عند أول مقابلة هو أننى لا أنظر جدياً إلى الوضع الذى سماء بالاستقلال السورى ، بالرغم من أن الحكومة الملكية المصرية التى أمثل مصالحها وأمثلها قد اعترفت

رسميا بهذا الاستقلال، وقد انتهى بأن عدنى في نظره المسئول الأول في أن رجال حكومتى لم يدعموا هذا الاعتراف بإيجاد تمثيل دبلوماسى لمصر فى دمشق .

والجنرال الفرنسى مثل غيره من الرجال الأوربيين الذين اتصلوا بطوائف مختلفة من رجالات العرب والأمم الشرقية وعرفوا نقاط الضعف فىنا ، ولذلك أتقن أساليب التأثير على هؤلاء وعرف كيف يصل إلى قلوبهم وضمهم لصفه وإقناعهم بمباشاته فى وجهة نظره عندما يعرض عليهم شتى المسائل التى يناقشهم فيها .

لقد عرضت على القارئ صورة من يوم الاحتفال على مرور سنة على الاستقلال الأول فلنقلب هذه الصفحة ونعود إلى الوراء إلى ما يقرب من سنة أى إلى أول مقابلة مع الجنرال كاترو فى مكتبه ببيروت بعد عودته من دمشق عقب إعلانه استقلال سوريا وكنت قد عدت فى دمشق بعد إبلاغى لحكومتها اعتراف الحكومة المصرية بهذا الاستقلال وكان ذلك فى يوم الخميس ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤١ وكان استقباله لى بترحاب زائد عن المعتاد ، وكان أول جملة نطق بها أن أعرب عن اغتباطه وسرووه باعتراف مصر بهذا الاستقلال الذى جاء وكأنه على موعد مع هذه الأحداث ، فابتسمت وقالت : « أن لفرنسا من المنزلة الخاصة فى بلادنا ما يجعل لمثيلها سواء من جهة فيشى^(١) أو من جهة فرنسا المقاتلة ، ثقة فى القلوب ووزناً لكلامهم لدى السياسيين المصريين ولذلك لا تعجب إذا جاء الاعتراف وكأنه على موعد مع الأحداث » .

فنظر إلىّ وعلى فيه ابتسامة وخلع نظارتيه واعتدل فى جلسته ثم قال :
« إننى أدرس فى هذا الوقت تأسيس نظام جديد للحكم فى لبنان ، وسأعلن فى القريب إلغاء الانتداب حتى تتمكن الحكومة اللبنانية من أن تعان للعلا»

(١) كانت علاقة مصر مع فيشى ولم يكن هناك اعتراف برجال فرنسا الحرة .

استقلالها التام أسوة بما تم في سوريا ، فهل تظن أن الحكومة المصرية ستبادر بالاعتراف بهذا الوضع الجديد أسوة بما تم في دمشق .

الحق أقول والله على ذلك شهيد ، أنني لم أكن على استعداد للإجابة على مثل هذا السؤال ، وليس باستطاعتي استعمال ألف والدوران على طريقة عباقرة السياسة في الشرق ، ولم يكن لدى من الصفاقة ما يدفعني إلى التملص من الإجابة ، فتموقت مدة ثم قلت « إنني أخلع صفتي الرسمية فلا أعبر عن رأي الحكومة المصرية لأنني لا أعرف بالضبط اتجاهاتها ولكنني لو كنت في مكانها لتمتعت قليلاً قبل الإقدام على السير في هذه الخطوة . وإعلان هذا الاعتراف » . قال « أنا أفهم تماماً وجهة نظرك ، ولكنني أصارحك بأنني أنوى بإخلاص تنفيذ هذا الاستقلال الذي يدور بخالك في البلدين ، أي على النمط الذي سارت عليه بريطانيا في مصر والعراق ، وإنني سأعمل على تمكين الحكومتين السورية واللبنانية من توسيع سلطاتهما شيئاً فشيئاً لكي تتسلم كليهما بجدارة كافة أعبائهما وفي مقدمتها الشؤون الخارجية وسترى أنه بمجرد أن تضع الحكومة السورية نظاماً لوزارة خارجيتها سنعيد الحق المعطى لسوريا بتعيين الممثلين السياسيين لها في الخارج .

« ولا أخفي عليك أنني سوف أحتفظ فقط بإدارة الأمن العام في البلدين ، نظراً لظروف الحروب القائمة ولارتباط الأمن العام بسلامة الجيوش الحاربة » . قلت له « أن موقف بريطانيا مع مصر والعراق لا يعد مثلاً أعلى بالنسبة

لتحقيق آمال الشعبين العراقي والمصري نحو الحرية ، بل أننا في مصر ننتظر حتى

نهاية الحرب للمطالبة بما يجيش في صدورنا من أهداف وهو الوصول إلى الوضع

الذي يتمتع به أي شعب أوربي أو أميركي ، ونحن في مصر لا نواجه بريطانيا بالعداء وهي تقاتل بجميع مواردها في حرب طاحنة بل نرجو مخلصين أن تخرج منتصرة منها ، لأن في انتصارها مع حلفائها تقرير مصير العالم الديمقراطي ، الذي اعترف

بمحقوق الفرد ونأدى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها واستقلالها ثم أننى لا أَدافع عن سياسة معينة فى الشرق ، ولكن الذى سمعته مراراً من الممثلين السياسيين من المحايدين أن فرنسا سبق لها أن اعترفت باستقلال كل من سوريا ولبنان ثم نقضت ما التزمت به .

وهنا نظر طويلاً إلى بانتباه زائد وقال « يا صديق أننى أسير فى تنفيذ سياستى على نقيض السياسة التى اتبعها الكونت دى مارتيل الذى نصح حكومته بإيقاف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ بعد أن دافع عنها وبدأ فى تطبيقها وسار شوطاً بعيداً فى تنفيذ موادها . أما أنا فقد بدأت بإلغاء الانتداب وارتبطت بإعلان الاستقلال وتقرير الحكم الوطنى ولم أفكر فى بعث المعاهدة وشروطها ولكننى سأسير فى طريق يؤدى حتماً إلى تنفيذ المعاهدة خطوة خطوة ومرحلة بعد مرحلة حتى أصل إلى تحقيق الاستقلال ، واحترام بنود المعاهدة بأكملها . فانظر إلى الفرق بين السياستين .

قلت : « إن كل الطرق كما يقولون تؤدى إلى روما ، فإذا كان قصدك الاستقلال ونييتك احترامه فإن له شرائط لم تأخذ بها » . قال : ما هى ؟ قلت : « وهل يوجه سؤال عنها وأنت تعرفها جيداً من أسنة المتكلمين عن الشعبين ومن صحافته ورجال السياسة فإن طلبتهما من ممثل دولة شقيقة للشعبين وصديق لـكم فهى : إعادة الدستور الذى أوقف وإجراء انتخابات حرة ، وتدعيم نظام ديمقراطى طبقاً للمبادئ التى يحارب من أجلها المعسكر الديمقراطى من أجل إنشاء العالم الحر وكسب الحرب .

قال « وهل أشك فى أن سياسة فرنسا الحرة ترمى إلى هذه الغاية وأنا ناستهدف إعادة الأوضاع الدستورية فى البلدين . ولكن على الطريقة التى التزمت بها من غير أن يحدث ضغط علينا فى ذلك أى بالأسلوب الذى تقرره فرنسا المقاتلة بالاتفاق مع السوريين واللبنانيين على انفراد بدون تدخل شخص ثالث » .

عندما وصلنا إلى هذه النقطة ورأيت الحماس باديا عليه لم أشأ أن أعلق على هذه الخاتمة ولمس هو صمتي فنقل الحديث بلباقة إلى ناحية أخرى لم تكن في صالحى بتاتا فقد أعرب بأسلوبه الخاص وكلماته الملتقاة بأفنديته العالية عن عظيم شكره وامتنانه لما لقيه من ترحيب السلطات المصرية له أثناء إقامته بمصر حتى أنه لم يشعر بأنه غريب هناك ، لأن روابط الصداقة التقليدية مع فرنسا والراسخة في نفوس الساسة المصريين وأهل الرأي من جهة ورجالها من جهة أخرى تجعل العيش في مصر محبباً إلى قلب كل من يؤمن بهذه الصلات التي دامت أكثر من قرن ونصف « وإن بلادكم عظيمة حقاً » .

ثم وجه سؤالاً يقصدنى فيه بالذات إذ قال « متى تظن أن مصر ستقرر إيجاد علاقات دبلوماسية وتنشئ مفوضية لها بدمشق » .

قلت « أننى أرجح أن الحكومة ستكتفى في الوقت الحاضر بقنصليتها العامة في بيروت لتمثيل مصالحها في البلدين ، وقد تعيد النظر في قرارها إذا دعت التطورات الجديدة في البلدين إلى شيء من ذلك » .

قال « وما رأيك إذا تقدمت سوريا بمثل هذه الرغبة وطالبت إنشاء مفوضية لها بمصر » . قلت « أننى مستعد لنقل هذه الرغبة للحكومة متى إذا تقدمت بها وزارة الخارجية السورية بطريق رسمى » قال : « إن الجرائد المصرية بأسرها قد رحبت بهذه الخطوة التي أعلنتها فرنسا أى باستقلال سوريا وأنه حريص على قراءة الملحقات التي ترفع إليه مترجمة عن الصحافة في مصر وهو يحكم بعد قراءتها على مبلغ النضوج السياسى الذى وصلت إليه الصحافة المصرية وطريقة فهمها ومعالجتها لهذه الشؤون » . ولما لمس صمتى قال « أن لديكم حقيقة رجالاً من الطراز الأول وصحافة ممتازة » فلم أعلق على شيء من هذا لاعتقاد أذنى سماعه كل يوم .. من الأوروبيين الذين لا يؤمنون بحرف واحد مما يتولون .

ثم صرح لى أنكم سرتم بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بنفس الدور الذى تجتاره سوريا الآن وعرفتم كيف توطدون استقلالكم على أساس متين ، وهذا ما قاله لى الكشيريون من رجالكم وهم أصدقاء لى .

وأخيراً اعتدل وألقى فتاحة الخطابات على مكتبه وقال (بهذه المناسبة أننى أتبع باهتمام سياسة مصر ورغبتها فى إيجاد تعاون مع البلاد العربية فى ميدان الاقتصاد والثقافة وأظن أنك من الذين يعلقون أهمية خاصة على هذه الشئون العربية) .

قلت نعم اننى أحد هؤلاء الذين شينتهم ويسرنى أن تتحقق أهداف هذه الحركة التى تزال فى خطواتها البدائية التحضيرية .

وقال : إننى أهنتك لأنك وفقت فى زمن قصير إلى أن تجعل مركزك فى بيروت حائزاً على احترام الهيئات السياسية بأكلها فى سوريا ولبنان .
فهزئت رأسى ولم أعقب بشئ .

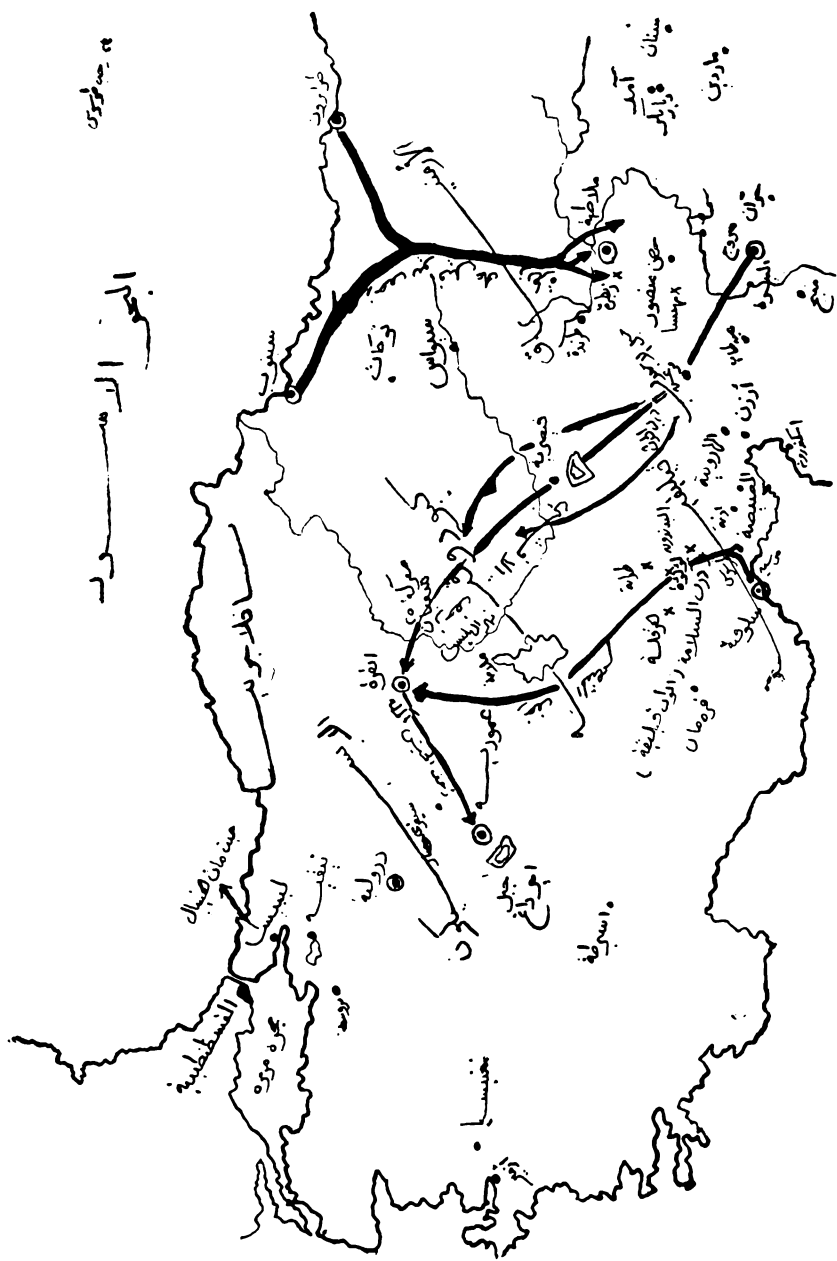
وبديهى أن القارىء فهم ما كان يحول بخاطر الجنرال الفرنسى ، فقد أفرغ كل ما فى جعبته لىكى يشعرنى بأنه يعلم كل شئ فى مصر ويعلم اتجاه رجائنا الرسميين وغير الرسميين ، ثم أخذ يلوح لى بما كان ينتظرنى من مركز سياسى ممتاز فى سوريا ولبنان .

ولما كنت من أولئك الذين يؤمنون ببعض المثل العليا ، ولا يهتمون بالمراكز التى يهرع إليها الكشيريون ، لأننى نشأت وعشت وكأخت من أجل أفكار ومبادئ وآراء معينة ، لم أجد فى نفسى من القوة أو الشجاعة ما يجعلنى أحيى عن هذه المثل العليا إرضاء لشهوة وقتية . قلت له :

« إننى هنا أقوم بواجبى على قدر طاقتى وأشعرا نى أوفق أحياناً وأخطئ فى كثير من الأحيان وأن درجتى ومنزلتى فى بلادى لا تسمحان لى أن أطمع بأن أكون أول وزير مفوض أو سفير لمصر فى سوريا ولبنان » وانتهى الحديث .

و بعد مضى سنة على تلك المقابلة كنت لا أزال على رأس التفصلية العامة
التي توليت أعمالها منذ عام ١٩٣٩ عقب إعلان الحرب العالمية الثانية مباشرة ،
ولم ترفع إلى مفوضية أو سفارة بعد إعلان الاستقلال في البلدين سوريا ولبنان ،
و كنت في نظر بعض الناس العقبة التي تقف في سبيل إنشاء تبادل التمثيل السياسى
أو الرجل الذى يحول دون اعتراف مصر باستقلال لبنان الذى أعلنه الجنرال
كاترو ، فكنت الشرقى الوحيد الذى رفض الخير القادم عليه وفضل أن يفوته
القطار وهو جالس على رصيف المحطة

ومع ذلك كنت أثق في قوتى وأؤمن بأننى أدبت للشعبين السورى واللبنانى
أكبر الخدم بتضحيتى بنفسى في سبيل المثل العليا التى تمسكت بها وكسبت بها
المعركة النهائية ...



نهج القصص على عموديه

مقدمة في دراسة التاريخ وكتابه:

ليست، دراسة التاريخ وكتابه علماً فحسب ، بل إن كتابته وإخراجه للناس صناعه وفن ، إننا نكتشف الماضي ونحاول أن نتعرف على دروسه لبنى المستقبل لا لنعيش في الماضي .

إننا نبرز صفحات العظمة والجد والخلود ونظهر الموقف الحاسمة في تاريخنا ، لكي يشعر أفراد الأمة والجماعات بالدور الذي لعبته الأمم الإسلامية في تاريخ العالم ، إن التاريخ يلقي النشأة الرسالة التي حملها الأجداد في كفاحهم وثباتهم ، وحينئذ يؤمن هذا الجيل الحاضر بقدسية الرسالة التي يحملها والتي سيستلمها للأجيال القادمة حتى تظهر وتبرز مظاهر العظمة فينا وتتحقق على أيدينا آمال المستقبل .

إننا جزء من هذا العالم الإسلامي الكبير ، الذي هزّ الدنيا وجعلها تتحدث عنه ، فالتاريخ الإسلامي هو جزء هام من شخصيتها ، وإذا درسناه يجب أن نتعرف على الدوافع النفسية والخلقية التي حركت الآباء والأجداد ، والتي جعلت هذا السلف العظيم ، يعيش ويعمل ويكافح في سبيل تحقيق المثل العليا وفي سبيل الدفاع عن أراضيه وحماية مدنية كانت لها المنزلة الأولى في عصرها .

إن التغلب على الطبيعة بالإنشاء هو أكبر مظاهر هذا العصر ؛ كما أن هذا الإنشاء والعمل على تحقيقه وإيجاد الأشياء ومواجهة الأعمال الكبرى هو الدليل الناصع على حيوية الأمة وقدرتها على الثبات ، ولا يمكن لأمة من الأمم أن تقف في حياتها هذا الموقف الحاسم ، إلا إذا أقنعتها كل يوم بأنها تحمل في عروقه (م - ١٦)

دماء أولئك الأبطال الذين وقفوا في التاريخ أمام تقلب الأزمان وانتزعوا بجرأتهم وثباتهم وتضحياتهم النصر والظفر والغلبة .

إن تاريخ الفتوحات الأولى وتخليد ذكرى أولئك الذين انتصروا في الحروب الصليبية هي دروس لنا ، بل إن كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي هي ملك لنا لأنها صورة خالدة لبطولتنا .. بل هي الدليل المادى الذى نقدمه للعالم أجمع على أحقيتنا فى الحياة والخلود والبقاء على هذه الأرض .

إن الأمة الحية هي التى تعيش لتكافح وتعمل وتخلق كل يوم معركة لتنتصر فيها ولا يمكن أن تصل لذلك بدون أن تتملكها إرادة قوية تدفعها لهذه الغاية : ومصر ستملك حتما هذه الإرادة الفعالة إذا عرفت كيف تكتب تاريخها الحى الذى يفيض بالعظمة والقوة .

إن التاريخ الإسلامى هو الضمان الوحيد لمستقبلنا لأنه بدروسه مدرسة للساسة والقادة ، إنه سيدفعنا لبذل الجهود والتضحية ويشعرنا بالمثل الأعلا الذى عاش الأجداد فى ظلاله وانتزعوا النصر وهم يقاتلون تحت بنوده .

من السهل أن تمحو المقطم والأهرام ولكن من الصعب أن تمحو صفحات التاريخ الإسلامى ومعاركه وانتصاراته وأمجاده من صعيد مصر .

أهمية زحف المعنصم :

الحملة التى نعرض عليها هنا من أكبر حملات المسلمين على بلاد الروم ، لا لأنها توجت بالنجاح ، ولكن لما صاحبها من الاستعداد والتجهيز من السلاح والعدد والآلة ومقدار الرجال وطريقة جمعهم وسوقهم وما حملوه معهم من حياض الأدم والروايا والقرب وعدد الدواب التى حملت كل هذا مع آلات الحديد والنفط وما يلزم للحصار ^(١) .

ثم أسماء الرجال الذين اشتركوا فى هذه الحملة من قواد المسلمين من مختلف

الأجناس ؛ فلدينا أسماء قواد العرب وأسماء قواد الأتراك والفراغنة وأسماء قواد الأعاجم وغير ذلك فمن اصططنهم العرب أو كانوا من الروم أو الأرمن وغيرهم ثم أسلموا . فهي حملة من أكبر الحملات التي رآها التاريخ من جهة التجهيز والسير في الطرق وسوق الجيوش وما لازمها من استراتيجية واعية وتطبيق لفن الزحف وربط الجيوش مع بعضها وتحديد الزمن .

فهي جديرة بالبحث والتنقيب وتحقيق أسماء الرجال وتحديد أسماء البقاع والأماكن والمراحل التي سارت فيها .

وليس هذا بالأمر الهين كما سترون ، بل أن مجرد ضبط الأسماء والأعلام وضبط التواريخ من أصعب ما يعرض له الباحث في هذه الحملة :

فقد المصادر :

لأن المصادر التي بين أيدينا لا تزال غير وافية ، مثال ذلك : أن رحيل المعتصم كان في يوم الجمعة ٢٤ رجب وتقدمه القائد أشناس^(١) في ٢٢ رجب يوم الأربعاء وفي ٢٥ شعبان كان واقعة « الأفشين » مع ملك الروم وفي ٢٦ رمضان وصل المعتصم إلى عمورية التي حاصرها لمدة خمس وخمسين يوماً .

وليس لدينا تفاصيل عن وصول الجيش إلى مدينة أنقرة ولا عن تاريخ التجمع في مدينة سروج ولا عن المدة التي أخذها الأفشين في طريق درب الحدث ، وإنما لدينا ما يفيد بتجمع المعتصم بجيوشه في مدينة سلوقية وانتظاره لمدة شهر وأنه

(١) ص ٢٣٢ النجوم الزاهرة :

أما التعريف بأشناس فإنه من كبار القواد بحيث أن المعتصم جعله في فتح عمورية من بلاد الروم على مقدمته ويتلوه محمد بن ابراهيم بن مصعب وعلى المينة إيتاخ القائد وعلى الميسرة جعفر بن عبد الله بن الحياط . وعلى القلب عفيف بن غنبة وفيما ذكرناه كفاية لمعرفة مقام أشناس

عاد من عمورية إلى بغداد عن طريق منبج ومنها إلى نصيبين ثم إلى بعينافّة
وليس لدينا ضبط لتواريخ الوصول والقيام في العودة . . .

اشترك العالم الاسلامي فيها :

وتقول كتب التاريخ أن المعتصم قطع أسماء العرب من ديوان الحرب
واسبذل بهم الأتراك ، ثم تُظهر حملة عمورية أن جيوش المعتصم فيها العرب
والأتراك والمغاربة والأعاجم وكل من دخل في دين الإسلام ، فليس لدينا حملة
أو حرب من الحروب تسترعى النظر وتدعو الناس إلى البحث والتدقيق مثل حملة
عمورية التي هي من أهم حملات الدولة العباسية وأجدرها ، أن تكون موضع
تحقيق المؤرخين والباحثين .

ربما أتساءل مع القارىء ، لماذا اخترت هذا الموضوع كمثال من أمثلة زحف
المسلمين وجهادهم فأقول :

صورة عمورية والمعتصم في ذهني كناسي :

إنني كنت في السنوات الأولى من دراستي الابتدائية بمدرسة الناصرية حينما
جاء أحد شيوخ دار العلوم وكانوا يلبسون هذا الزي الإسلامي الجميل أي الجبة
والعمامة . جاء ليلى درساً في التاريخ الإسلامي على طلبية السنة الثالثة الابتدائية
وكانوا يختارون للتمرين والتدريب العملي بإلقاء درس أمام أساتذتهم ، فوزّع
علينا ورقة مطبوعة ، عليها عشرة أسطر تتلخص في هجوم الروم على « زبطرة »
وأخذهم السبايا من النساء والأطفال وأن امرأة صرخت وقالت « وامعتصماه »
فوصل خبرها إلى الخليفة فقال « لبيك » وركب من ساعته ومعه الجيوش فأنّاح
على عمورية وافتتحها وقال أبو تمام يمدحه « السيف أصدق أنباء من الكتب »
فكانت الفكرة التي أخذتها عن المعتصم وحربه تشبه الفكرة التي أخذتها عن

السموأل حينما رفض أن يسلم درعاً لاسرى القيس أو لغيره واستعصم في حصنه ودارت الحرب وقال قصيدته المعروفة .

ولما سألنا الشيخ صاحب الحديث عن المعتصم ، قال انه الثامن من بني العباس ، وعن عمورية ، قال إنها مدينة بأرض الروم ، وانتهى الدرس .

وهو كما ترى درس لم يترك أى أثر في نفوسنا ، وإنما كان بمثابة حصنة مطالعة ، أو امتحان أداه المعلم النامى وحصل على الدرجات التى تؤهله أن يحمل شهادة تمكنه من اقتناص وظيفة عامة هى كما يعلم الجميع وظيفة مدرس اللغة العربية في إحدى المدارس الابتدائية .

هكذا كان درس التاريخ في أيامنا .

أثر المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار :

أما الأثر الذى توطد في نفسى فجاء عن التاريخ الإسلامى نتيجة المحاضرات التى ألقاها علينا رجل من نوادر رجال مصر ومن أشجعهم وأشدهم تمسكا بـتعاليم وعظمة هذا التاريخ الإسلامى الذى طالما أهملناه ، أعنى به المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار . كنا في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق وكانت الدراسة في الصباح فأخذنا نتلقى دروساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة — وتعلمنا جميعاً على هذا الأستاذ الكبير الذى عرفنا منه المراجع مثل الطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرهم . كان إلقاءه رحمة الله عليه وقت الدرس يحرك مشاعر الطالب فهو إذا تحدث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد وقرن التاريخ بالأدب وتحدث حديث المؤرخ الواعى الذى يعيش في الفترة التى يتكلم عنها ، فهو لا يسرد لك الحوادث فحسب ، بل يعلق عليها وينتقل بك إلى تلك الفترة فكأنك عشت فيها وعرفت رجالها وسمعت خطبهم وكان رنين كلامه قوياً ، يتغلغل في النفس ، فكنت أخرج من الدرس وفي تخيلتى الألفاظ والكلمات التى استعملها وأبيات الشعر التى رتلها ، فتلازمنى ، فأجد نفسى مدفوعاً بنفسى إلى مراجعة هذه

النصوص واستكمالها لكي تلصق في ذاكرتي لأتكلّم بها وأستشهد بما فيها ، ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرّفت التاريخ الإسلامى واطلعت على كنوزه وكتبت فيه . . .

فإليه يرجع الفضل الأول ، وانى أعدّه في الطليعة الأولى من خدّام هذه النهضة الإسلامية المباركة — إننى لأزال أذكر اللقاء الذى تم بيننا بحضور المرحوم الدكتور عبد الحميد سعيد بعد عودتى من تركيا في سنة من السنوات وكيف قلت إن دروس الأستاذ قد دفعتنى إلى تتبع « عمورية » ومكانها والطرق الموصلة إليها ، وأن محاضراته قد جعلتني أبحث أين درب الحدث وأين حصن الطوانة^(١) وأين دارت معارك الصائفة ، وأين زبطرة^(٢) ومضيق الدرب وباب مضايق البدندون . . على ضوء هذه المعلومات فلاأحاول أن أقدم صورة واقعية .

(١) حصن الطوانة : انظر الخريطة .

(٢) معجم البلدان جزء ٤ صفحة ٣٧٤ طبع مصر .

(زبطرة) بكسر الزاى وفتح ثانية وسكون الطاء المهمة وراء مهمة . مدينة بين ملطية والحدث في طرف بلد الروم . سميت بزبطرة بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام عن السكبي . . وطول زبطره في الإقليم الخامس من جهة المغرب ثمان وخمسون درجة وثلاث وعرضها ثمان وثلاثون درجة . . وقال أبو تمام يمدح المعتصم .

لبيت صوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

فتوح البلدان للبلاذرى صفحہ ١٩٥ .

قالوا : وكان صراج عبد الواحد حمى لحيل المسلمين فلما بنى الحدث وزبطره استغنى عنه فزدع ، قالوا : وكانت زبطرة حصنا قديما روميا ففتح مع حصن الحدث القديم فتحه حبيب بن مسلمة الفهرى ، وكان قائما إلى أن أخرجه الروم في أيام الوليد بن يزيد فبنى بناء غير محكم فأناخت الروم عليه في أيام فتنة مروان بن محمد فهدمته فبناه المنصور ، ثم خرجت إليه فشنه فبناه الرشيد على يدى محمد بن ابراهيم وشحنه ، فلما كانت خلافة المأمون : طرقة الروم فشعثة وأغاروا على سرح أهله فاستاقوا لهم مواشى فأمر المأمون بمرمته وتحصينه ، وقدم وفد طاغية الروم في سنة عشر ومائتين يسأل الصلح فلم يجبه إليه وكتب إلى عمال الثغور فساحوا في بلاد الروم فأكثروا فيها القتل ودوخوها وظفروا ظفرا حسنا إلا أن يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد بن يزيد بن أسيد السلمي أصيب ، ثم خرجت الروم إلى زبطرة في خلافة المعتصم بالله أبى اسحاق بن الرشيد فقتلوا الرجال وسبوا النسوة وأخربوها فأحفظه ذلك وأعاضبه ، ففزاهم حتى بلغ عمورية وقد أخرب قبلها حصونا فأناخ عليها حتى فتحها فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية ثم أخربها وأمر ببناء زبطرة وحصنها وشحنها فرامها الروم بعد ذلك فلم يقدرُوا عليها .

دراسة إيجابية :

أن القاعدة التي يسير عليها كتاب التاريخ الحر بنى تتلخص في دراسة وعرض أمور معينة :

أولاً : — أسباب الحرب .

ثانياً : — تجمع القوات المحاربة من الطرفين وخط سيرها إلى ميدان المعركة .

ثالثاً : — شرح أدوار الحرب ومعاركها .

رابعاً : — نتائجها ومقدار الظفر الذي حازه المنتصر وأثر ذلك في الحروب القادمة .

وسنبداً في الكلام على حرب عمورية بمقدمة تاريخية عن أسباب هذه الحرب :

أسباب الحرب :

في ١٣ خلت من جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هجرية توفي الخليفة المأمون غازياً وفي يوم الجمعة لأيام بقيت من رجب صلى الجمعة اسحق بن يحيى بن معاذ في مسجد دمشق ، فقال في خطبته : « اللهم وأصلح الأمير أخ أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد » وهكذا بدأ المعتصم حكمه .

وفاته المأمون :

توفي المأمون غازياً في بلاد الروم وجاء بالطبري صفحة ٢٠٧ ، جزء ٦ ما ذكره سعيد ابن علف القاري عند مرضه ووفاته ، ثم عن حمله إلى مدينة طرسوس ودفنه في دار كان يملكها خاقان^(١) خادم الرشيد ، وكيف صلى عليه وكيف وكلوا به

(١) جاء في كتاب الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب المنسوب لابن شحنة الحنفي صفحة ١٠٠ — قال نقلاً عن كمال الدين بن العديم — قرأت بخط ابن عمرو الطرسوسي قاضي المزة قال « والعجب أن عبدالله مأمون دفن في بطانة محراب طرسوس بسلاحه ولما ملكت جيوش الدمشقي طرسوس سقط محراب الجامع وسقط المأمون بسلاحه فاخذ الدمشقي سيفه ورد الباقي على حاله إلى موضعه .

حرساً من أبناء مدينة طرسوس ، وغير ذلك من التفاصيل التي لا محل لذكرها هنا — وإنما تهمننا وصية المأمون لأخيه المعتصم وما جاء فيها من اهتمامه بأمر خراسان ، إذ كانت قد وصلت إليه الأنباء عن انسياق حركة الخرمية التي قامت في سنة ٢٠١ وتجاهها إلى الجنوب وقد تطورت ثورتهم في عهد المعتصم ، فأصبحت حركة « بابك الخرمي » الشغل الشاغل للمعتصم وقواده وجيوشه ، وكان من نتيجتها ظهور قوم يسمون « الحمرة » خرجوا بالجلال فلقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب وكان عليهم قائد اسمه « برسيس » أو « فرسيس » أسكنتهم دولة الروم في أطراف طرابزون فكانوا هم بأعمالهم أول سبب من أسباب قيام حملة عمورية في عهد المعتصم .

المؤلف في مظهر وفاة المأمون :

وصل إلى القطار في سنة ١٩٣٤ من مدينة قيصرية إلى محطة بوزانتى فطلب إلى النزول بها انتظاراً لقطار الشرق السريع الذاهب إلى حلب ، فوجدت نفسى في هذه المحطة العالية لمدة ثلاث ساعات ، فإذا بي في المكان الذى يقال له باب مضايق البدندون ، في نفس المكان الذى توفى فيه المأمون وفي نفس الجهة التى أوصى فيها المأمون المعتصم بقوله « والخرمية فأغزهم ذا حزامه وصرامة وجلد ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك » .

وصية المأمون :

وقد قام المعتصم عقب وفاة المأمون بهذه الوصية خير قيام ، لأنه في طريق عودته إلى بغداد وصلت إليه الأنباء بانتشار هذه الفتنة واتساعها ، وكان المأمون بجيشه قد احتل جزءاً من شمال مضيق البدندون وهو الذى يقال له حصن الطوانة^(١) وبقياه

(١) وفي تلك السنة أمر المعتصم بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانه وحل كل ما بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكن من الناس إلى بلادهم الضرى ص ١١٦٤ .

قائمة على يمين الطريق الموصل إلى بلدة نجدة (راجع الخريطة) .
فأمر المعتصم بهدم هذا الحصن ونقل الرجال الذين فيه إلى الجهة الجنوبية
من جبال طوروس تقصيراً لجهة القتال . .

حروب بابل :

وانجحه بكل قوته إلى حروب بابل الخرمى فاقتلع الفتنة من الجبال وقضى
عليها في همدان وما حولها فانتقلت الحروب من الجنوب إلى الشمال في أراضى
أذربيجان وأرمينية حيث تولى الأفشين مقارعة بابل الخرمى وضيق عليه المنافذ
واكتث صولته . فى تلك الأثناء طلب بابل الخرمى من الدولة البيزنطية أن
تهاجم أراضى المسلمين فوجهت قوة حاصرت « قصر يانة » وأراد تيوفيل الاتصال
ببابل ولكن قوة بابل كانت فى نهايتها وقد أدرك الأخير ما هو عليه من خطر
فاتصل بتيوفيل محرّضاً وقال إن قوات الخليفة العباسى قد جمعت كلها للقضاء
على ثورة الخرمية وأن الخليفة عاجز عن مقاومة الثورة الداخلية ومداومة الحرب على
الحدود ، لأنه أشرك فى حرب بابل حائل ملايسه وظاهيه ، مستعملاً التديليس
على ملك الروم ، إذ أن بين قواد المعتصم من يسمى « جعفر بن دينار بن عبد الله
الخياط » وهو من قواد العرب ، ومن بينهم قائد تركى اسمه أيتاخ وقيل أن بابل
تظاهر بقبوله الدخول فى المسيحية ووعده بأن يدعو إليها بين أتباعه وأنصاره .

صحة تيوفيل :

وتمكن ملك الروم من أن يرسل حملة فيها عدد من البلغار والسلاف ومعهم
الفرس من أتباع بابل الذين هزموا من إقليم همدان ولجأوا إليه ، وكان قيام هذا
الجيش من طرازون متجها إلى حصن زبطرة الذى كان يحتله المسلمون والذى يحمى
فى المقدمة مجموعة من الحصون الإسلامية المعروفة جيداً فى الأقاليم الفراتية العليا .

هذه المجموعة التي تحيط بالفرات وتكون نصف دائرة بين آمد وملطية^(١) وهي حصن منصور وسميساط وبهنسة وغيرها .

(١) صبح الأعشى ص ١٣١ جزء ٤ .

(ملطية) : بفتح الميم واللام وكسر الطاء المهملة . وبعدها ياء مثناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في الآخر . ضبطها ياقوت والمجد بفتحيتين ثم سكّون وقال ياقوت : كسر الطاء وتشديد الياء من قول العامة . وهي مدينة شمال حلب يميله إلى الشرق على نحو سبع مراحل منها . قال ابن السعيد : وهي قاعدة بلاد الثغور ، وموقعها في الاقاليم السبعة . قال في « الأطلال » : وطولها إحدى وستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة ، ووافقه في « القانون » على الطول وجعل العرض ثمانيا وثلاثين درجة ؛ وقد عدها ابن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرى بلاد الروم على مرحلة . قال صاحب حماة : والألّيق عدها من بلاد الروم . ثم قال : وعدها بعضهم من الثغور الجزرية . قال في « الروض الماطر » : وكانت قديمة فخرتها الروم فبنّاها أبو جعفر المنصور يعني ثاني خلفاء بني العباس في سنة تسع وثمانين ومائة (اهله مصحف عن ثلاثين فإن المنصور تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة . وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة ، ونقل ياقوت أنه أرسل من يبني ملطية سنة أربعين ومائة) . وجعل عليها سورا محكما — وهي بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار ، وهي مسورة ، في بسيط من الأرض والجبال محتفة بها من بعد ، ولها نهر صغير يمر يسورها ، ولها قني تدخلها وتجري في دورها إلا أنها شديدة البرد — وهي في شمالي الجبل الدائر الذي بسيس في غربيه ، في الجنوب عن سيواس ، وبينهما نحو ثلاث مراحل ، وفي الغرب عن كفتا وبينهما نحو مرحلتين . وقد ذكر في « تقويم البلدان » . أنها فتحت في سنة خمس عشر وسبعمائة .

فتوح البلدان ١٨٩ .

وقالوا : وجه عياض بن غنم حبيب بن مسلمة افهرى من شمشاط إلى ملطية ففتحها ثم أغلقت ، فلما ولي معاوية الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة ورتب فيها رابطه من المسلمين مع عاملها وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشقها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوائف ، ثم ان أهلها انتقلوا عنها في أيام عبد الله بن الزبير وخرجت الروم ففتحها ثم تركها فترها قوم من النصاري من الأرمن والنبط .

وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده ، قال : كان المسلمون نزولوا طرندة بعد أن غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ثلاث وثمانين وبنوا بها مساكن وهي من ملطية على ثلاث مراحل واغلة في بلاد الروم . ومنطية يومئذ خراب ليس بها أناس من أهل الزمة من الأرمن وغيرهم فكانت تأتيمهم طالعة من جند الجزيرة في الصيف فيقومون بها إلى أن ينزل الشتاء ويسقط الثلوج فإذا كان ذلك قفلوا ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه رحل أهل طرندة عنها وهم كارهون ، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو واحتملوا فلم يدعوا لهم حتى كسروا خوابي الخل والزيت ثم أترهم ملطية وأضرب طرندة وولى ملطية جموعة بن الحارث أحد بني عامر بن صعصعة .

وقد بقيت زبطرة مجهولة التحديد وكان إسمها يظهر في الكتب متعدد النطق. فهي أحيانا زبطرة وزابطرة وزو بطرة ولقد عرفت بقاياها بالقرب من مدينة تركية اسمها الآن فيران شهر في الجنوب الغربي من ملاطية وزبطرة هي المدينة التي جاء ذكرها في تاريخ العرب بأنه عند دخول الروم صاحبت امرأة هاشمية وقالت « وامتصاه » .

وكان أمل ملك الروم في زحفه أن يتصل بالثوار القائمين في أرمينيا وأذربيجان كما قلنا ، فاحتل مدن : زبطرة وشمشاط^(١) وملاطية . وشمشاط هي غير

== قالوا : وخرج عشرون ألفا من الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائة فنزلوا على ملاطية فأغلق أهلها أبوابها وظهر النساء على السور عليهن العمام فقاتلن ، وخرج رسول لأهل ملاطية مستقيتا فركب البريد وسار حتى لحق بهشام بن عبد الملك وهو بالرصافة فندب هشام الناس الى ملاطية ثم أتاة الخبر بأن الروم قد رحلت عنها فدعا الرسول فأخبره وبعث معه خيلا ليرابط بها وغدا هشام نفسه ، ثم نزل ملاطية وعسكر عليها حتى بنيت فكان يمر بالركة ، دخلها متقلدا سيفا ولم يتقلده قبل ذلك في أيامه .

(١) ياقوت الحموي جزء ٥ صفحة ٢٩٣ (شمشاط)

يكسر أوله وسكون ثانيه وشين مثل الأولى وآخره طاء . هجمة . مدينة بالروم على شاطئ الفرات شرقيها بألوية وغربها خرتبت وهي الآن محسوبة من أعمال خرتبت ... قال بطليموس مدينة شمشاط طولها احدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة طالعا النعائم بيت حياتها الجدى تحت ثلاث عشرة درجة من السرطان يقابلها مثلها من الجدى بيت ملكها مثلها من الحمل عاقبتها مثلها من الميزان وهي في الاقليم الخامس . وقال صاحب الزيج طول شمشاط اثنان وستون درجة وعرضها ثمان وثلاثون درجة ونصف وربع . وشمشاط الآن خراب ليس بها إلا أناس قليل وهي غير سميساط هذه بسينين مهملتين وتلك بمجمعتين وكلاهما على الفرات إلا أن ذات الإهال من أعمال الشار وتلك في طرف أرمينية . . قيل سميت بشمشاط بن ليفز بن سام بن نوح عليه السلام لأنه أول من أحدثها . وقد نسب اليها قوم من أهل العلم . منهم أبو الحسن علي بن محمد الشمشاطي كان شاعرا وله تصانيف في الأدب وكان في عهد سيف الدولة بن حمدان وله في علي بن محمد الشمشاطي :

ما للزمن سطا على إشرافنا	فتحزموا وغضاعن الإنباط
اعدادوا لدوى العلى أم همة	سقطت خالتها إلى السقاط
خضعت رقاب بني العداوة أذرات	آثارها تنفذ تحت سياط
حتى اذا ركضت على أعقابها	دلف النبط الى من شمشاط
صدق المعلم أنهم من أسره	نحب تسوسهم بنو سنباط
آباؤك الاشراف الا أنهم	أشراف موش وسامخ وخلاط

سميساط لأن سميساط تقع على نهر الفرات أما شمشاط فتقع في الجهات الشمالية منها . وكان دخول ملاطية صلحا .

ولم يتمكن جيش الروم من التوغل أكثر من هذا فعادت الحملة عن طريق طرندة الواقعة في الشمال الغربي من ملطية . ودخل تيوفيل مدينة القسطنطينية محاطاً بمظاهر الخفاوة وظهر بثياب أرجوانية على عربة تجرها خيول بيضاء ، وألبس تاج النصر وتلقى صياح الشعب على نمط أباطرة الرومان القدماء .

دراسة الحصون الإسلامية وأهميتها :

إن موضوع دراسة هذه الحصون الموزعة على الحدود الإسلامية من أدق المواضيع التي لم يتعرض لها أحد من المؤرخين إلى اليوم ، لأن لكل حصن قصة ولكل مدينة تاريخ ، وكان يسكن هذه الحصون قوم من مختلف العناصر الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها وقد باعوا أنفسهم للجهاد وأوقفوا حياتهم على رد العدوان .

منها زبطرة التي انتهكت حرمانها وقام منها أناس وصلوا لرفع شكائهم إلى مقام الخليفة في مدينة سامرة أو « سُرَّ من رأى » فأمر المعتصم بعد مقابلتهم بالاستعداد لحرب الروم ، ودخل عليه عمه ابراهيم بن المهدي وأنشد بين يديه قصيدته المعروفة :

يا غارة لله قد عاينت فانتهمكي هتك النساء وما منهن يرتكبن

هب الرجال على أحرارها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنهب ؟

في هذه الأثناء كانت ثورة بابك قد انتهت ورجع قائد المعتصم المشهور الأفسس إلى « سُرَّ من رأى » وقد أفاض عليه الخليفة بكل مظاهر التكريم ، ودرس معه الطريقة التي يرد بها عدوان دولة الروم على حدود بلاده ، وكان أول ما فكر فيه لوصول إلى عمورية .

عمورية^(١):

والغريب أن كتب التاريخ تذكر بأن عمورية لم يقصدها جيش إسلامي قبل المعتصم ، ولكن المراجع التي تتكلم عن مادة الثغور تقول ومنهم ياقوت الحموي ، الذي ينقل عن مؤرخ قبله اسمه أبو صالح ، فيقول بأن معاوية غزا عمورية سنة ٢٥ هجرية — ويقول بأن معاوية غزى الروم سنة ٣١ هجرية . من ناحية المصيصة فبلغ در والية وهي مدينة اسكيشهر الحالية وتقع في شمال عمورية . وقال إن هذه الثغور أى طرسوس وأضنة والمصيصة موضع اهتمام الخلفاء ، ولا يتولاها إلا شجعان القواد من الراغبين في الجهاد .

الهدف الأساسى لمحمة عمورية :

إذن وضع المعتصم الهدف الأساسى من حملته « عمورية » وجعل خطته الوصول إلى أنقره واختار مكانين للتجمع والحشد : الأول — مدينة سروج وهي الواقعة في شمال سوريا بين حرّان وعينتاب وأسر الأفشين حيدر بن كاوس أن يتجمع بعساكره وقواده في هذه المدينة سروج ، وهي التي تقع في الجنوب .

(١) مادة الثغر ياقوت ص ١٨ جزء ٣ .

قال أبو صالح غزا معاوية عمورية سنة ٢٥ وجد الحصون بين انطاكية وطرسوس خالية فوق عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزواته ثم أغزا بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره معاوية أن يفعل مثل فعله : قال وغزا معاوية سنة ٣١ من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما رجع جعل لا يمر بمحصن فيما بينه وبين انطاكية إلا هدمه . قال المؤلف رحمه الله ثم لم يزل هذا الثغور هو طرسوس وأدنة والمصيصة وما ينضاف إليها بأيدي المسلمين وكان الخلفاء مهتمين بأمرها لا يلونها الا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد والحروب بين أهلها والروم مستمرة والأمور على مثل هذه الحال مستقرة حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف الدولة .

من مجموعة الحصون الأمامية التي أشرنا إليها أى التي تسمى الحصون الفراتية نسبة إلى الفرات بعضها على النهر وبعضها في شماله وهي التي تحمي الجزيرة ، وتعتمد على الحصون الأمامية في ملطية ودرندة وزبطرة والتي إذا خرجت منها الجيوش متجهة إلى بلاد الروم تتخذ درب الحدث المشهور .

أما التجمع الثاني هو الأساسى في هذه الحملة فقد جعله المعتصم في مدينة سلوقية^(١) القريبة من البحر والتي تقع على مسيرة يوم واحد من مدينة طرسوس^(٢)

(١) ياقوت الحموى جزء ٥ ص ١١٦ .

(سلقية) بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحت وقاف مكسورة وياء أخرى خفيفة . مدينة وكورة ببلاد الروم وربما سموها سلوقية وهي من ناحية الشام بعد طرسوس يتولاها عامل الدروب وقد ذكرت حدودها في باب الروم وقيل أن الدروع اليها منسوبة وكذلك السكاب وليس قولهم فلان يقرأ بالسليقة من هذا في شيء لأن ذلك يراد به الفصاحة والبلاغة ويقال لها سلقية أيضا .

(سلوقية) ياقوت جزء ٥ صفحة ١١٥ .

في كتاب الفتح لأحمد بن يحيى أن الوليد بن عبد الملك أقطع جنود انطاكية . أرض سلوقية عند الساحل وصير عليهم الفلتر وهو بسيط من الأرض معلوم كالفدان والجريب بدينار ومدى قمح ففمررها وجرى ذلك لهم وبني حصن سلوقية . قلت أنا ولعل السيوف السلوقية . والسكاب السلوقية منسوبه اليها وقرأت في كتاب الحسن بن محمد المهلبى وقد كان في جبال الثغر الجارح والسكاب السلوقية الموصوفة من بلاد سلوقية فنسبها اليها وهو صحيح .

(٢) (طرسوس) بها قبر المأمون ، وعليها سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب في كتاب سير الثغور للطرسوسى أبي عمرو بن عبد الله في كل سور خمسة أبواب حديد فأبواب السور المحيط بها حديد ملبس وأبواب السور المتصل بالخندق حديد مصمت وعدد شرافات السور الأول الذى يلى المدينة ثمانية آلاف شرفه وفيه من الأبراج مائة برج .

بين طرسوس والبحر اثني عشر ميلا .

صفحة ١٨٤ تابع ابن السمنة .

معجم البلدان لياقوت صفحة (٣٨) .

مدينة بفسور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم عليها سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب يشقها نهر البروان . وقالوا سميت بطرسوس بن الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام . وقيل أن مدينة طرسوس أحدثها سليمان كان خادما للرشيد في سنة نيف وتسعين ومائة

قاله أحمد بن محمد الهمداني . . قال أحمد بن الطيب السرخسي رحلنا من المصيصة نريد العراق وإلى أذنه ومن أذنه إلى طرسوس وبينها وبين أذنه ستة فراسخ . وبين أذنه وطرسوس فندق بفا والفندق الجديد وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب ويشقها نهر البروان .

معجم البلدان لياقوت صفحة (٣٩) .

لما فتح نفقور طرسوس نصب في ظاهرها علمين ونادى مناديه من أراد بلاد الملك الرحيم وأحب العدل والنصفة والأمن على المال والأهل والنفس والولد وأمن السبل وصحة الأحكام والإحسان في المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا . وعدد أشياء جملة فليصر تحت هذا العلم ليقل مع الملك إلى بلاد الروم ومن أراد الزنا واللواط والجور في الأحكام والأعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع عليه وغصب الأموال وعدد أشياء من هذا النوع غير جملة فليحصل تحت هذا العلم إلى بلاد الإسلام فصار تحت علم الروم خلق من المسلمين ممن تنصر وممن صبر على الجزية . . ودخل الروم إلى طرسوس فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ثم يتوكل ببابها ولا يطلق لصاحبها إلا حمل الخف فإن رآه قد تجاوز منعه حتى إذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على مافيها وتقاعد بالمسلمين أمهات أولادهم لما رأين أهاليهن وقالت أنا الآن حرة لا حاجة لي في صحبتك فنهن من رمت بولدها على أبيه ومنهن من منعت الأب من ولده فنشأ نصرانيا فكان الإنسان يجيء إلى عسكر الروم فيودع ولده ويبكى ويصرخ وينصرف على أقيص صورة حتى يكي الروم رقة لهم وطلبوا من يحملهم فلم يجدوا غير الروم فلم يكروهم إلا بثلث ما أخذوه على أكتافهم أجره حتى سيروهم إلى انطاكية . . هذا وسيف الدولة حتى يرزق بما يافرقين والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الفرس ونعوذ بالله من الخيبة والحذلان ونسأله الكفاية من عنده . ولم تزل طرسوس وتلك البلاد بيد الروم والأرمن إلى هذه الغاية . . وقد نسب إليها جماعة يفوت حصرهم . .

معجم البلدان لياقوت صفحة (١٨) ج ٣ .

وقد نسبوا إلى هذا الثغر جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد . . منهم أبو أمية محمد بن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسي الثغري كذا نسبه غير واحد من المحدثين وهو بغدادى المولد سكن طرسوس وسمع يوسف بن عمر اليماني وعمر بن جيب القاضي ويعقوب بن اسحاق الحضرمي وأبا عاصم النبيل ومكي بن ابراهيم والفصل بن دكين وقيضة بن عقبة واسحاق بن منصور السلولى واسود بن عامر شاذان وغيرهم روى عنه أبو حاتم الدازي ومحمد بن خلف وكيع ويحيى بن صاعد والحسين بن ابراهيم المحاملى وغيرهم وسئل عنه أبو داود سليمان بن الأشعث فقال ثقة . وأما ثغرا اسفيجاب فلم يزل ثغرا من جهته وقد ذكر اسفيجاب في موضعه . نسب إليه هكذا طالب بن القاسم الفقيه الثغري الاسفيجابى كان من فقهاء ما وراء النهر .

وهي التي تجدها الآن على الخرائط التركية «سيلفكة» أو «سولى» غرى مرسين .
ويهمنا هذا المرفأ بالذات لأن مواد التموين التي كانت تنقل بواسطة البحر
كانت تصل إلى جيوش المسلمين من مصر وشمال أفريقيا والشام إلى هذه المنطقة .
كما أن جنود المتطوعة من المصريين العرب والمغاربة الذين يمدون الصائفة
في كل سنة كانوا ينزلون في هذا الشاطئ بالذات .

= (قبر المأمون طرسوس) . معجم البلدان لياقوت صفحة (٣٩) .

وبها قبر المأمون عبد الله بن الرشيد جاءها غازيا فأدركته منيته فات فقال الشاعر :
هل رأيت النجوم أغنت عن المأمون في عز ملكه المأسوس
غادره برصتى طرسوس مثل ما غادروا أباه بطوس

وما زالت موطننا للصالحين والزهاد يقصدونها لأنها من تقور المسلمين . ثم لم تزل مع المسلمين
في أحسن حال وخرج منها جماعة من أهل الفضل إلى أن كان سنة ٣٥٤ . فإن تقفور ملك
الروم استولى على التقفور وفتح المصبصة . ثم رحل عنها ونزل على طرسوس وكان بها من
قبل سيف الدولة رجل يقال له ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه فسلما إليه المدينة على الأمان
والصلح على أن من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من
عين وورق أو خرثي ومالم يطلق حمله فهو لهم مع الدور والضياح واشترط تخريب الجامع
والمساجد وأنه من المقام في البلد على الذمة وأداة الجزية فعل وأن تنصر فله الجباء والكرامة
وتقر عليه نعمته قال فتنصر خلق فأقرت نعمهم عليهم وأقام نفر يسير على الجزية وخرج أكثر
الناس يقصدون بلاد الإسلام وتفرقوا فيها وتلك تقفور البلد فأحرق المصاحف وخرب المساجد
وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بني أمية إلى هذه الغاية .

صبح الأعشى صفحة (١٣٣) ج ٤ القلقشندي .

بفتح الطاء والراء المهملتين جميعا وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية —
هكذا ضبطه في « الباب » والجارى على الألسنة سكون رائها وهي مدينة من بلاد الأرض
على ساحل بحر الروم شمالا بغرب عن حلب وموقعها في الأقليم الرابع . قال من « تقديم
البلدان » : اقيام أن طولها ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيقة وعرضها ست وثلاثون درجة
 وخمسون دقيقة . قال في « الروس المطار » : وهي مدينة مسورة بناها الرشيد في سنة
سبعين ومائة وأكملها في سنة اثنتين وسبعين ولها خمسة أبواب : باب الجهاد وباب الضفاف
وباب الشام وباب البعر والباب المسدود والنهر يشق في وسطها وعليه قطران داخل البلد .
قال ابن حوقل : وهي في غاية الحصب وبينها وبين بلد الروم جبال هي الحاجز بين الروم
والمسلمين وبها دفن المأمون بن الرشيد وكانت استعادتها من الأرمن في الدولة الناصرية أيام
السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون .

تقدير عدد رجال الحملة :

يقدرّون عدد الجنود التي جمعها المعتصم لهذه الحملة بمائتي وخمسين ألف مقاتل والأمر يحتاج لتحقيق : ذلك لأن الدولة الإسلامية وهي تتحمل عبء الدفاع عن الحدود الشمالية جعلت من أولى أعبائها إيجاد قوة من المتطوعة والمقاتلين الدائمين أو المستقرين في تلك الأماكن المعرضة لهجمات الروم . فهناك من الجنود ما يعتبر قائماً بالخدمة بصفة مستمرة في هذه الجهات ، ولذلك فأني لا أستبعد أن تكون القوة التي أتى بها المعتصم من أنحاء الممالك الإسلامية مضافاً إليها حاميات هذه الحصون لا تقل عما ذكره المؤرخون ، ثم إن النظر إلى أسماء قواد الأتراك والعرب والأعاجم يدل على أن هذا الجيش كان من أكبر الجيوش التي ساقها الدولة العباسية في عنفوان مجدها .

قواد الأتراك والفراتنة في هبش المعتصم :

اشناس كان على المقدمة وهو من أقدر قواد المعتصم .

ايتاخ على المغاربة والأتراك

الأفشين حيدر بن كاس بطل الحملة على بابك وبطل عمورية وأنقرة

إنما الأفشين سيف سلّه قدر الله بكف المعتصم

من سلالة ملوك اشروسنة (راجع مادة افشينه) .

عمرو الفرغانى بن أربنجا وصحتها أريعا .

بغا^(١) على ساقه عسكر المعتصم في العودة اشتهر أيام المتوكل

(١) تاريخ ابن عساكر جزء ٣ صفحة ٢٧٢ « جاء ضمن من اسمه بغا » ذكر .

(بغا) أبو موسى الكبير أحد قواد المتوكل قدم معه دمشق سنة ثلاث وأربعين ومائتين ثم أنه أرسله لغزو الصائفة فزاعها وفتح عليه كان شجاعاً ومن شجاعته أنه كان يوماً ذاهباً في طريق طبرستان فعرض له قوم من أهلها وقالوا له أعز الله الأمير إن في بعض هذه النياض سبعاً قد استكلب على الناس وأفنائهم فقال لهم كونوا معي إذا أردت الرحيل غدا حتى تقفوا على موضعه فلما رحل من الغد انفرد في عشرين فارساً من غلماناه ومعهم قوسه ونشابان في منطقتة ، فلما

أَسْمَاءُ الرُّعَاصِمِ :

غَطْرِيفُ الْخَوْجَنْدِيِّ (نسبة إلى خَوْجَنْدِ)

مَالِكُ بْنُ كَيْدَرٍ

الشَّاهُ بْنُ سَهْلٍ وَهُوَ الرَّأْسُ بْنُ الرَّأْسِ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةِ خِرَاسَانَ

يُقَالُ سَجِسْتَانُ

السَّنْدِيُّ بْنُ بَخْتَاشَا

قَوَادِ الْعَرَبِ :

هَرَمْتَةُ بْنُ النَّضْرِ الْخَتَلِي الْوَالِي عَلَى مَرَاغَةِ (مَدِينَةُ مَشْهُورَةٍ بِشَمَالِ إِيرَانَ)

عَجِيفُ بْنُ عَنبَسَةَ

جَعْفَرُ بْنُ دِينَارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَلِيطِاطِ

مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ

ابْنُ الْأَفْطَعِ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ السَّعْدِيِّ

أَحْمَدُ بْنُ الْخَصِيبِ

أَبُو سَعِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ

يَمَكُنُ دَرَاةَ شَخْصِيَّةِ الْقَوَادِ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَقَدْ اخْتَارَ بَعَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا لِأَهَمِّيَّةِ عَلَى غَيْرِهِ .

== صار في الفيضة ثار السبع فأخذ نشابة فرماه بها في لبته فراق السهم فيها الى الريش وركب السبع رأسه فنزل بها اليه وحده فوجده ميتا ففاسوه بالأشبار فكان من رأسه الى رأس ذنبه ستة عشر شبرا ووجدناه أخص الشعر الا معرفته وكتب القوم بذلك الى المتوكل فوجه اليه بسبع خلع من خلعه الخاصة وخمسمائة ألف درهم وأشياء أخر صلة له وجزاء على قتله السبع قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا قولهم ووجدناه أخص يريدون أنه لا شعر عليه كما قال الشاعر .

قد خست البيضة رأسي فإ أظفر يوما غير تهجاع

وكان بقا مملوكا لدى الرياستين الحسن بن سهل وكان مع شجاعته من أهل الرواية وولاه المستعين ديوان البريد وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائتين .

على بن حسن الريدانى
احمد بن الخليل بن هشام
الحارث السمرقندى
العباس بن المأمون
مات ودفن فى منبج
عبد الله بن الواضح

نقش اسم عمورية على الأعمام :

وقد نقش المعتم على الألوية التى تحملها الفرق وعلى التروس التى تحملها الجنود اسم « عمورية » ففهم الناس وفهم الخصم أنه جاد فى الوصول إلى هذا الهدف الذى وضعه أمامهم ، ولذلك قابل هذا التجمع تجمع رومى من جيوش بيزنطة التى قامت من القسطنطينية ووقف عند درولية وهى مدينة اسكيشهر الواقعة فى شمال حصن عمورية أو أن عمورية واقعة على الطريق الموصل إلى مدينة درولية على مسيرة ثلاثة أيام — فوصلت الأنباء بقوة الجيش الإسلامى المعتمى فتقدم عدد من قواد الروم ينصحون الإمبراطور بإخلاء عمورية من سكانها إلى مكان آخر منعاً لنسفك الدماء . ولكنه رفض أن ينزل على هذه النصيحة .

النقسم الإدارى لدولة الروم :

ويعد تقسيم الدولة البيزنطية من ناحية المناطق العسكرية الخطرة من أدق الأمور وهو يحتاج إلى اهتمام خاص . فهم يطلقون اسم الاستراتيجوس على كل من يتولى منطقة محصنة ويطلقون اسم البطريك وإسم الاسبتار . ولذلك بعث تيوفيل بكثير من أعظم قواده وقد قتل منهم إثنان فى حصار عمورية : والأسماء التى تطلقها الدولة البيزنطية على بلاد آسيا الصغرى تستدعى تحقيقاً خاصاً فقد جاء فى شعر لأبى تمام ^(١) :

وطئت هامة الضواحي فلما أن قضت نجها من القيدوق
(صحتها قبذوق بالباء وهى Cappadocia)

ألهتها السياط حتى إذا استفت بإطلاقها على الباطلوق
(الجزء الشمالى من الأناضول Paphlagonia)

شنها شرباً فلما استباحث بالبقلار كل سهل وثيق
سار مستقداً إلى البأس يزجى رهجاً باسقا إلى الأسبق
(هى أبسيكون الجزء الواقع غربى قبذوقية وعاصمته بسيموس Pisidia)

خطة المعتصم فى غزو عمورية :

أما الخطة التى وضعها المعتصم باتفاق قواده فتقرر غزو أرض الروم من جهتين.
فى الشرق والجنوب هذا مع تعيين سير الجيش الأساسى من طرسوس شمالاً إلى
درب المضايق وهو يسمى درب السلامة أى أبواب كلـكيا ثم يتجه إلى أنقرة
حيث تلتقى به القوات المختلفة التى زحفت من جهة الشرق أى من مدينة سروج
واتخذت لها منافذ مختلفة ومتعددة .

درب الحدث :

وتتفق جميع المراجع على أن جيش الأفشين اتخذ طريق درب ^(١) الحدث
وهو الطريق الموصل من مرعش فهل اتجه مغرباً أم اتجه إلى الشمال . الأغلب أن
سراياه اقتحمت كل الطرق . . ومنها درب ملاطية الذى دخل منه الأفشين .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢٢٦ المجلد ٩ .

« الحدث » أو الحدث الحراء قلعة على الحدود طالما ذكرت فى الحروب التى نشبت بين
العرب والروم . وهى تسمى عند اليونان Adata ولم تعرف بعد على موقعها الصحيح ، لأن
هذه المدينة هجرها أهلها هجراناً أكثر من ستة قرون . غير أنه لا شك فى أن مكانها لم
يكن بعيداً عن اينكلى Inekli على نهر آق صو ، وهو الذى يسميه ياقوت (ج ٤ ، ص ٨٣٨)
نهر حورث ويقول إنه ينبع من بحيرة الحدث ويصب فى جيحان .

وروى ابن سراييون Sarapion أن النهر يصب فى عدة بحيرات صغيرة تعرف الآن
بكونوك كول وأغصلى كول وباش كول ، وهذه الرواية أدق من الأولى إلا أن ابن سراييون
أخطأ ، كما بين « له سترانج » Le Strange فى قوله إن هذا النهر رافد من روافد نهر القاب
(Melas)

وقد أخطأ رمزي Ramsay في كتابه المسمى A Shetch of the Historical Geog- rophy of Asia Minor ٢٧٨ م عندما وضع الحدث « أداتا » على مقربة من شمال مرعش . واستولى جزء من العرب بقيادة عياض بن غنم على قلعة الحدث في خلافة عمر بن الخطاب ، ودمرها الروم عام (١٦٢ هـ — ٧٩٩ م) ولكن أعيد بناؤها بأمر الخليفة المهدي في العام نفسه ، ومن ثم سميت للمهدية أو المحمدية تمجيداً له . ولكن هذين التسميتين لم يستطيعا أن يحللا محل الاسم القديم .

وكان للمدينة عند العرب أهمية حربية كبيرة لأنها تتسلط على أحد الطرق الحربية العظيمة الخارجة من حلب (عينتاب) إلى البستان في آسيا الصغرى ، في حين يذهب طريق آخر إلى البستان ماراً بمرعش .

ولهذا حصن هارون الرشيد الحدث ، واعتبرت من أهم الثغور . وكانت القلعة نفسها مشيدة على تل يسمى الأحيدب . أما المدينة نفسها فكانت في حزم مرعش ؛ وهوجت كثيراً في حروب بازيل الأول (٨٨٢ م) وليو السادس (٩٠٤ م) وغانت بلاء أعظم عند أحرقتها بارداس فوكس سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) فاستجار أهلها بسيف الدولة (انظر هذه المادة) فأجارهم من غير تردد ، وانتصر انتصاراً عظيماً بجوار المدينة في سنة ٣٤٣ هـ (٩٥٤ م) ، ثم أمر بإعادة بنائها . ولكن ذلك لم يتم لأن الروم انتصروا مرة أخرى ، وأصبحت لهم اليد الطولى في هذه البقاع . وظل الأمر على ذلك إلى أن جاءت سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) وفيها أعاد مسعود أمير قونية السلجوقي هذه المدينة إلى ملك المسلمين . وظلت في قبضتهم إلى أن انتزعها منهم أرمن سيس بقيادة قسطنطين والد هيثوم ، فحمل هذا يبرس على إلقاء جيش إليها سنة ٦٧١ هـ (١٢٨٨ م) ، فاستولى على المدينة والقلعة وذبح أهلها ودمر المدينة تدميراً ومن هنا عرفت بكينوك أى المحرقة (ولهذا ينبغي تصحيح القراءات المختلفة الواردة في المقرئى والمدشق) .

وبقي هذا الإملاء إلى يومنا هذا علماً على البحيرة والسهل حيث كانت تقوم الحدث (أداتا) يوماً ما .

المؤلف : راجع صفحة ١٤٣ جزء ١٤ صبح الأعشى « رسالة الفاضل محي الدين

ابن عبد الظاهر رحمه الله بفتح الملك الظاهر يبرس لمدينة قيصرية من بلاد الروم واقتلاعها من أيدي التتار ، واستيلائه على ملكها وجلوسه على تخت بني سلجوق ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية كتب بها إلى صاحب بهاء الدين بن حنا وزير الملك الظاهر .

« حتى وصلنا الحدث الحمراء المسماة الآن بكينوك ومعناها المحرقة . وكان الملك قسطنطين والد صاحب سيس قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها وتملكها وعمرها بقصد الضرر لبلاد الإسلام والتجار . فلما كان في ٦٧٢ سير مولانا السلطان إليها عسكر حلب فافتتحها بالسيف وقتل من بها — لاحظ أن صاحب مقال دائرة المعارف ينقل التسمية عن صبح الأعشى ولا يذكر المصدر فيخيل إلى القارئ أنه صاحب اليد الأولى في اكتشاف الخطأ عند ذكره اسم كوينوك » .

(١) البلاذرى ١٦٣ .

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي ، قال : خرج ميخائيل من درب الحدث في ثمانين ألفاً فأتى عمق مرعش فقتل وأحرق وسبي من المسلمين خلقاً وصار إلى باب مدينة مرعش وبها

عيسى بن علي ، وكان قد غزا في تلك السنة فخرج إليه موالى عيسى وأهل المدينة ومقاتلتهم فرشقوه بالنبل والسهام ، فاستطرد لهم حتى إذا نجاهم عن المدينة كر عليهم فقتل من موالى عيسى ثمانية نفر واعتصم الباقون بالمدينة فأغلقوها فحاصروهم بها ثم انصرف حتى نزل جيحان وبلغ ، الخبر ثمانية بن الوليد العيسى وهو بدقيق ، وكان قد ولي الصائفة سنة إحدى وستين ومائة فوجه إليه خيلا كثيفة فأصيبوا إلا من نجا منهم فأحفظ ذلك المهدي واحتفل لإغزاه الحسن بن قحطبة في العام المقبل وهو سنة اثنتين وستين ومائة ، قالوا : وكان حصن الحدث مما فتح أيام عمر فتحه حبيب بن مسلمة من قبل عياض بن غم وكان معاوية يتعهد بعد ذلك ، وكان بنو أمية يسمون درب الحدث السلامة للطيرة لأن المسلمين كانوا أصيبوا به فكان ذلك الحدث فيما يقول بعض الناس ، وقال قوم : لقي المسلمين غلام حث على الدرب فقاتلهم في أصحابه فقبل درب الحدث ، ولما كان زمن فتنة مروان بن محمد خرجت الروم فهدمت مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها كما فعلت بعلطية ، ثم لما كانت سنة إحدى وستين ومائة خرج ميخائيل إلى عمق مرعش ووجه المهدي الحسن بن قحطبة ساح في بلاد الروم فنقلت وطأته على أهلها حتى صوره في كنائسهم ، وكان دخوله من درب الحدث فنظر إلى موضع مدينتها فأخبر أن ميخائيل خرج منه فارتاد الحسن موضع مدينته هناك فلما انصرف كالم المهدي في بنائها وبناء طرسوس فأمر بتقدم بناء مدينة الحدث ، وكان في غزاة الحسن هذه مندل العزى المحدث الكوفي ومعتز بن سليمان البصري قائمًا على بن سليمان بن علي وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت الحمدية وتوفي المهدي مع فراغهم من بنائها فهي المهدية والحمدية ، وكان بناؤها باللبن وكانت وفاته سنة تسع وستين ومائة واستخلف موسى الهادي ابنه فعزل على بن سليمان وولى الجزيرة وقنسرين محمد بن إبراهيم بن محمد ابن علي ، وقد كان علي بن سليمان فرغ من بناء مدينة الحدث وفرض محمد لهم فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان في أربعين دينارًا من العطاء وأقطعهم المساكن وأعطى كل امرئ ثلثمائة درهم ، وكان الفراغ منها في سنة تسع وستين ومائة ، وقال أبو الخطاب : فرض علي بن سليمان بمدينة الحدث لأربعمائة ألف فأسكنهم إياها ونقل إليها من ملطية وشمشاط وسميساط وكيسوم وذكرك ورعبان ألفي رجل .

البلادري ١٩٤

قال الواقدي : ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الأمطار ، ولم يكن بناؤها يستوثق منه ولا محتاط فيه فتشملت المدينة وتشعث ونزل بها الروم فنفرق عنها من كان فيها من جندها وغيرهم ، وبلغ الخبر موسى فقطع بعثا مع المسيب بن زهير وبعثا مع روح بن حاتم وبعثا مع حمزة بن مالك فات قبل أن ينفذوا . ثم ولي الرشيد الخلافة فأمر ببنائها وتحصينها وشحنها وإقطاع مقاتلتها الساكن والقطائع .

وقال غير الواقدي : أناخ بطريق من عظماء بطارقة الروم في جمع كثيف على مدينة الحدث حين بنيت وكان بناؤها حين قد حمل بعضه على بعض وأضررت به الثلوج وهرب عاملها ومن فيها ودخلها العدو فخرق مسجدتها وأخر بها واحتمل أمتعة أهلها فبناها الرشيد حين استخلف .

وحدثني بعض أهل منبج ، قال : إن الرشيد كتب إلى محمد بن إبراهيم بإقراره على عمله فجري أمر مدينة الحدث وعمارتها من قبل الرشيد على يده ثم عزله .

ابستراء العملياتات في سروج :

وتدل أسماء القوادع على أن هذه القوات التي تجمعت في بلدة سروج كان فيها قوات من الأكراد والأرمن وأهل خراسان وكان فيها والى مراغة وهى الواقعة في أذربيجان وبهذا يصدق قول المراجع الرومية في أن أمير ملطية صحبه متطوعة من الأرمن في صفوف المسلمين .

أما الجيش الأساسى ، فقد جعل المعتصم المقدمة تحت قيادة القائد أشناس والميمنة ايتاخ والميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وجعل القلب تحت قيادة عجيف بن عنبرة .

خط السير على درب طرسوس :

جعل المعتصم الهدف الوصول إلى أنقرة ، في مرحلة الزحف الأولى وفي يوم الأربعاء ٢٢ رجب تقدم أشناس في درب طرسوس إلى مرج الصفصاف الواقع قرب حصن لؤلؤة ، ولما مر من أبواب كيليكية وهى درب المضايق — كما قلنا — احتل الطوانة ^(١) وتقع — كما قلنا — على يمين الطريق الموصل إلى مدينة نجدة ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم (راجع الخريطة) .

ثم سار بقية الجيش وبين كل فريق والآخر مسيرة يوم ، ووصلت الأنباء حينما وصل اشناس إلى مرج الأسقف وهو مرحلة على الطريق الواقع شمالى جبال طرسوس — بأن جيش الروم يتجمع على نهر الهليس ليهاجم جيش العرب بعث المعتصم بخطاب إلى أشناس يطلب إنيته التمهّل في السير ، وذلك لأن مؤخرة

== قالوا : وكان مالك بن عبد الله الخثعمي الذى يقال له مالك الصوائف وهو من أهل فلسطين غزا بلاد الروم سنة ست وأربعين وغنم غنائم كثيرة ، ثم قفل : فلما كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلا بموضع يدعى الرهوة أقام فيها ثلاثا فباع الغنائم وقسم سهام الغنيمة فسميت تلك رهوة مالك .

(١) الحصن الذى بناه المؤمن ثم هدمه المعتصم .

الجيش وقافلة الأمتعة لم تكن بعد قد تحركت من مكانها وأخذت طريقها على الدرب : لاحظ ارتفاع الجبال في هذه الناحية ومصابب الحماية والوقاية من المفاجئة . و بعد ثلاثة أيام وقد قطع أشناس مرحلة في السير وصل إليه كتاب من المعتصم لكي يبعث بمفرزه تقدمية تأتي إليه ببعض أسرى الروم حتى يقف على معلومات بشأن جيش الامبراطور ، وقد اختار أشناس من جنده عمرو الفرغاني بن إربغا — وهو من الفراغنة أى من سكان فرغانة — على رأس مائتي فارس فتمكن من تصيد بعض الأسرى وعلم منهم بأن معسكر امبراطور الروم على مقربة منهم وأنه يعد كميناً في الجبال ليفاجيء به جيش العرب عند خروجهم من دروب جبال طوروس . على عدة دفعات — أو عند محاولتهم اجتياز النهر .

طلائع أشناس :

وقد تمكن أشناس من إرسال عدة طلائع جابت المناطق الواقعة في شمالي المنطقة التي يحتلها ، فأفضت إليه بمعلومات قيمة عن تجمع الروم وانتظار الامبراطور لجيش العرب وأنه كان على وشك أن يأمر بالتقدم ثم بالهجوم على العرب لولا وصول أخبار إليه تقول بأن جيشاً عربياً آخر دخل أرض الروم من ناحية الأرمنياق أى أرمينيا وهو كما نعلم الجيش الذي يقوده الأفشين وعليه نجحت الخطة التي وضعها المعتصم مع قواده في مخاتلة الخصم وتوزيع قواته ، لأنه في تلك الفترة بالذات اتجهت أنظار ملك الروم إلى أن يتجه بنفسه للقاء الجيش العربي الذي يقوده الأفشين القادم عليه من الشرق . وعين أحد قرابته على رأس الجيش للمعسكر لمقابلة الجيش العربي الذي يقوده المعتصم والزاحف من الجنوب . ولما وصلت هذه الأنباء إلى القائد أشناس بادر بإبلاغ المعتصم الذي كان أول ما فكر فيه أن يبعث بأنباء اتجاه الجيش الرومي إلى الشرق وجعل عشرة آلاف درهم لمن يصل إلى الأفشين ويعلمه بذلك حتى يأخذ حذره قبل الاشتباك .

ويظهر أن تقدم الأفشين كان غير مقتصر على درب الحدث وحده إذ أن بعض وحداته وسرايه ولجت من جهات أخرى، وعلى كل فليس لدينا من المراجع ما يحقق الطرق والمراحل التي قطعها الأفشين لحين وصوله إلى أنقرة ولكن تقدمه يدل على عقل جبار ومقدرة خارقة للعادة .

فقال الأفشين :

وفي الكتب العربية أن جيوش الأفشين التقت مع عسكر ملك الروم وقت صلاة الظهر وقاتلهم قتالا شديداً ثم رجعوا إلى موضع عسكر الملك فوجدوا المعسكر خالياً بعد أن اختل عسكره .

في هذه الأثناء تقدم أشناس في طريقه إلى أنقرة فلما كان على بعد ثلاثة أيام منها علم من أسير وقع بين يديه أن الأفشين على مقربة منهم فلم يصدقه وكانت أنقرة قد أخليت وخرج بعض أهلها قاصدين بعض الملاحات القريبة منها ، فلما وصلت طلائع أشناس علم من أهل أنقرة بخبر المعركة التي نشبت بين الأفشين وجيش الإمبراطور وهي المعركة التي بدأت في يوم الخميس ٢٥ شعبان وتمكن الروم من الحصول على انتصارات أولية فيها وسببوا بعض الخسائر للمسلمين ثم تقدمت فرسان المسلمين وقت الظهيرة فانتزعوا النصر من خصومهم وسببوا هزيمة الروم وطالت المعركة حتى الليل فتمكن هؤلاء من ترك ميدان القتال . ويقال بأن الهجوم الذي شنّه المسلمون أوقف نتيجة نزول الأمطار التي سببت في ضعف أوتار سهام الحار بين من عساكر الترك ، وهي النقطة التي سئل عليها الأفشين بعد ذلك « كيف ترك ملك الروم يفر دون أن يسعى للقبض عليه » .

فقال « أن الملوك تبقى على بعضها » يقصد بذلك أنه ملك من سلالة ملوك أشروسنة وهي إقليم من أقاليم التركستان وهو أن أبق على ملك الروم

كأنما يعامله كملك يعامل نده . وعليه فقد هرب الامبراطور من وسط جنده وشق له طريقا وسط طلائع جيش الأفشين متجها إلى مدينة أماسيا في الشمال .

قواد الروم :

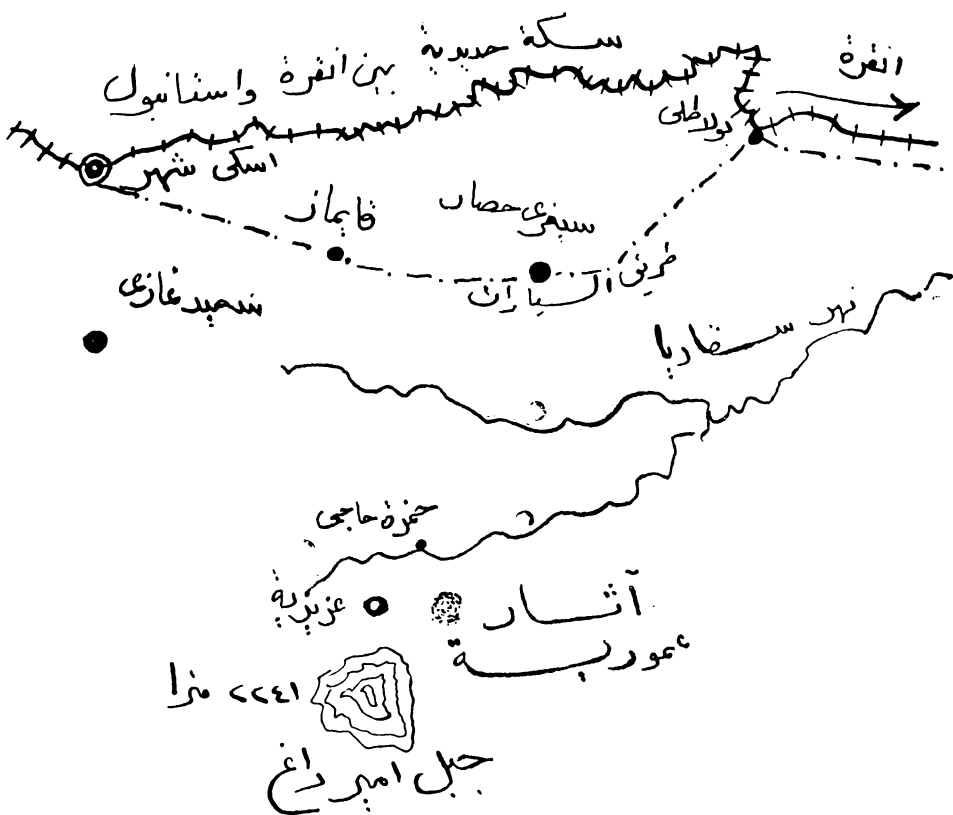
وتروى كتب التاريخ البيزنطية أن القواد الذين نجوا من المعركة سجدوا تحت أقدام امبراطور وطلبوا منه أن يحكم عليهم بالإعدام ، فأبى وأمر بجمع بقايا جيشه الذي تمت هزيمته علي يد الأفشين واستعد للزحف من أماسيا على أنقرة .

اجتماع فكي الكهنة :

جاءت هذه الحركة بعد فوات الفرصة لأن الخطة التي وضعها المعتصم ونفذها الأفشين بعقبريته الحربية أتمت ضم فكي الكهنة على مدينة أنقرة التي دخلها المعتصم بعد أن دخلها أشناس قبله بيوم واحد .

وفي اليوم الثالث جاءت الأنباء من الأفشين تنبئ بقدومه على أمير المؤمنين وفي اليوم التالي وصل هازم بابك الخرمي وهازم الامبراطور تيوفيل منضما إلى الخليفة المعتصم .

لقد أثر هذا النجاح العظيم بعد الكارثة التي حلت بجيش الروم في نفسية الامبراطور تيوفيل الذي بعث بالبعوث إلى المعتصم وأدعى بأن قواده تجاوزوا أوامره عند أخذهم زبطرة وتعهد ببناء المدينة المحرقة علي نفقته وأن يعيد إلى المعتصم سكان زبطرة ، فلم تؤد هذه التوسلات إلى نتيجة بل احتفظ المعتصم بالرسل لديه إلى أخذه مدينة عمورية .



موقع عمورية على الخرائط الحديثة (صفحة ٢٦٧)

أبن عمورية؟؟

إذا فتحنا خريطة آسيا الصغرى ونظرنا إلى الطريق الموصل من قونية إلى اسكى شهر نجد أن موقع عمورية على هذا الطريق .

وإذا نظرنا إلى خريطة تفصيلية نجد أن عمورية تقع جنوبى سقرى حصار وهى التى توهم كثيرون من المؤرخين والكتاب أنها عمورية ، والحقيقة أن عمورية تقع جنوبى نهر سقار ياعلى مقربة من قرية تدعى حمزة حاجى وعلى شرق قرية تسمى عزيزية — وهى فى كنف جبل يسمى « أمير داغ » ويطلق الأتراك اسم « آتار قلعة » على بقايا عمورية .

ولا شك فى أن الوصول من أنقرة إلى عمورية يحتم المرور على « سقرى حصار » وهى المدينة التى وحدت بين بعض آثارها نقود باسم تيوفيل ولوحات حجرية باسم قواده الذين دفنوا فيها .

سقوط عمورية :

إن المرحلة الثانية لزحف جيش المعتمد على عمورية تبدأ من أنقرة حيث قسم الخليفة الجيش إلى ثلاثة أقسام وجعل بين كل واحد منها فرسخين واحتل المعتمد الوسط . ونقل أشناس من المقدمة إلى الميسرة وجعل الافشين على اليمين واستغرق السير إلى عمورية سبعة أيام ولا تتحدث المراجع عن هذه المراحل السبع ، ولقد كننا نشوق إلى معرفة كل مرحلة منها لنضع على الخرائط بالضبط طريق السير ومكان التوقف .

وتقول المراجع العربية أن أشناس كان أول من وصل إلى عمورية وردها يوم الخميس ضحوة فدار حولها دورة بعسكره ثم جاء بعده الافشين فى اليوم الثالث وكانت عمورية فى أزهر أيامها وكان سورها يشمل أربعة وأربعين برجاً ، ولما جاء المعتمد قسمها بين القواد فجعل إلى كل واحد منهم عدداً من الأبراج على قدر ما تحت قيادته من الجند ، فصار لكل قائد ما بين البرجين إلى عشرين برجاً ، وقد دام

الحصار خمساً وخمسين يوماً ، وكان الجيش قد أتم الأهبة والاستعداد لهذا الحصار كما عقد أهل عمورية العزم على المقاومة إلى النهاية ، وقد بدأ المجاهدون بحفر الخنادق حولها ثم وضعوا المجانيق التي بدأت تقذف الأحجار الضخمة ، وكانت أعمال الرجال الموكلين بنقب الأسوار تتم من داخل عجلات معطاة وتحميمهم رماة يرسلون سهامهم إلى من كان على الأسوار وقد مات من الجانبين عدة آلاف في الأيام الثلاثة الأولى من ابتداء الحصار .

وتقول الرواية العربية ، إن رجلاً من عمورية جاء إلى المعتصم وأعلمه بموضع في المدينة يمكن مهاجمتها منه لأن الأمطار التي هبطت أحدثت سيلاً سبب سقوط قسم من السور ، فأمر المعتصم بنقل مضر به إلى ذلك الموضع وحشد المجانيق على ذاك البناء وسلط حجارته عليه ، فلما رأى أهل عمورية ذلك لجأوا إلى كل ما لديهم من وسائل الحيل واستعملوا الخشب وبطنوه بالجير لتخفيف وقع الأحجار وتكرار الضرب المتصل من المجانيق المركزة فتداعى كل السور من هذه الناحية . وأراد قائد عمورية أن يتصل بالامبراطور ويعلمه بتهدم السور وموقف الحامية المحاط بالأخطار وبقوة الجيش الإسلامي المحاصر وما هو عليه من بأس وأنه اعتزم على خروج الحامية ليلاً ومواجهة الحصار وافتتاح طريق بين الأعداء ووجه الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلّام رومى فخر جاً من المدينة وعبرا الخندق ووقعا في الجهة التي يحتلها أبناء الملوك الشرقيين الذين يحاربون تحت قيادة عمرو الفرغانى — فلما وقعا بين يدي الجند سأله بعضهم من أين أنتم فقالا نحن من أصحابكم قالوا من أصحاب من فلم يعرف أحداً من قواد أهل العسكر يسميانه فحىء بهما إلى الفرغانى ابن أربغا فوجه بهما عمرو الفرغانى إلى أشناس الذى أرسلهما إلى المعتصم الذى أمر بتفتيشهما فوجد معهما الكتاب ، فلما قرأه المعتصم أمر للرجل الذى يتكلم العربية والغلّام الرومى ببدره فأسلما وخلع عليهما . ثم أمر بهما بالمرور حول عمورية .

وقد أدى هذا إلى زيادة الحرص على المدينة وأمر المعتصم أن تكون الحراسة ليلاً ونهاراً وأن يبيت الفرسان على دوابهم بالسلاح وهم وقوف كيلا يفتح الباب ليلاً فيخرج من عمورية فريق من حاميتها .

وقد بقيت الحراسة كاملة والنوبة للفرسان على ظهور الدواب ، والخيول بسروجها حتى انهدم السور ما بين برجين في الموضع الذي وقف عليه المعتصم . ويظهر أن القتال كان شديداً حول عمورية وأن جرائم الشقاق الذي ظهر بين قواد المعتصم بدأت حول عمورية إذ أن بوادر التنافس بين أشناس والأفشين ظهرت هناك ، وكلاهما من قواد الأتراك ، فقد كان أشناس وجنده أول مهاجم ولما لم يصل إلى نتيجة حاسمة تقدم الأفشين في اليوم التالي فقاتل جنده والمعتصم يرقبه من أعلى فرسه وحوله أشناس والأفشين فقال المعتصم مظهراً رضاه وإعجابه ما أجل القتال اليوم ، وكان عمرو الفرغاني غير بعيد فأضاف « هو خير منه بالأمس » وعليه وضعت مؤامرة لاغتيال المعتصم ثم وضعت مؤامرة للتخلص من الأفشين ^(١) .

وفي اليوم الثالث كانت الحرب على المعتصم وجنوده وكان معه المغاربة . ويقول المسعودي : المغاربة والمصريون والأتراك والقائم عليهم أيتاخ ثم تحولت الحرب في نهاية هذا اليوم لصالح العرب .. واستمر الأمر كذلك والثغرة تتسع يوماً بعد يوم والحامية تدفع عن الثغرة ، وأخيراً تقدم القائد الرومي المكلف بالموضع الذي تهدم من السور وطلب التسليم وخرج إلى المعتصم وقال لأصحابه ألا يحاربوا حتى يعود ، ولكن الهجوم استمر ، فإذا بعبد الوهاب بن علي أحد اتباع المعتصم يرمى إلى الناس بيده أن أدخلوا المدينة فدخل العرب مدينة عمورية وقد انتهت مقاومة حاميتها .

ليس من حق أن أطيل هذا البحث بالكلام على ما لحق عمورية وكيف رجع المعتصم من أواسط آسيا الصغرى وما حمله من الأسرى والغنائم إذ أن هذا

(١) ظهر العداء في صفوف القواد الأتراك بين حزب أولاد المرنك وعلى رأسهم الأفشين وعمرو الفرغاني وحزب المصطنعين من أتباع الخلفاء والولاء أمثال أشناس .

يخرجنا عن الهدف الذى وضعنا البحث فى نطاقه ، وإنما أذكر أن زحف المعتصم وجيوشه « قد تسكّل بالنجاح والظفر » .

وأنه حقق الأهداف التى وضعها المعتصم أمامه ونفذ خطة محكمة وقد تلقى العالم الإسلامى أنباء انتصاره بمظاهر السرور والفخر .

أبو تمام :

وفى عودة المعتصم لبغداد وعند مدينة المصيصة^(١) وقف الشاعر أبو تمام بين يديه .

(١) ١٦٩ البلاذرى . (راجع الخريطة)

محمد بن سعد عن الواقدى وغيره ، قال : لما كانت سنة أربع وثمانين غزا على الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فدخل معه درب أنطاكية وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانا من الجند فيهم ثلثمائة رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة المعروفين ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبني فيها مسجدا فوق تل الحصن ثم سار فى جيشه حتى غزا حصن سنان ففتح وجوه يزيد بن حنين الطائى الأنطاكى فأغار ثم انصرف إليه ، وقال أبو الخطاب الأزدي :

كان أول من ابتنى حصن المصيصة فى الإسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله ابن عبد الملك فى سنة أربع وثمانين على أساسها القديم فتم بناؤها وشحنها فى سنة خمس وثمانين وكانت فى الحصن كنيسة جعلت هربا وكانت الطوالع من أنطاكية مطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف . وعدة من كان يطلع إليها ألف وخمسمائة إلى الألفين ، قال . وشخص عمر بن عبد العزيز حتى نزل هربى المصيصة وأراد هدمها وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها فأعلمه الناس أنها إنما عمرت ليدفع من بها الروم عن أنطاكية وأنه إن أخبرها لم يكن للعدو ناحية دون أنطاكية فأمسك وبني أهلها مسجدا جامعاً من ناحية كفريا واتخذ فيه صهريجا وكان اسمه عليه مكتوبا ، ثم إن المسجد خرب فى خلافة المعتصم بالله وهو يدعى مسجد الحصن ، قال : ثم بنى هشام بن عبد الملك الرض ثم مروان بن محمد الخصوص فى شرق جبعان وبني عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا فلما استخلف أبو العباس فرض بالمصيصة لأربعمائة رجل زيادة فى شحنتها وأقطعهم ، ثم لما استخلف المنصور فرض بالمصيصة لأربعمائة رجل ثم لما دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة أمر بمران مدينة المصيصة وكان حائطا متشعنا من الزلازل وأهلها قليل فى داخل المدينة فبنى سور المدينة وأسكنها أهلها سنة أربعين ومائة وسماها العمورة وبني فيها مسجدا جامعاً فى موضع هيكلكان بها وجعلها مثل مسجد عمر مرات ، ثم زاد فيه المأمون أيام ولاية عبد الله بن طاهر بن الحسين من ناحية المغرب وفرض المنصور فيها لألف رجل ، ثم نقل أهل الحصن وهم فرس وصقالبة وأنباط نصارى ، وكان مروان أسكنهم إياها وأعظم خطا فى المدينة عوضا عن منازلهم حتى ذرعوا ونقض منازلهم وأغانهم =

وأنشده البائية المشهورة :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفاع لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

فترلت الدنيا هذه القصيدة العصماء خلال القرون والغريب أن الشاعر

العربي مدح في شعره أكثر من واحد من قواد المعتمض في مقدمتهم الأفشين

وجعفر بن رودنيار ومحمد بن يوسف الثغري .

وهو كما قال الأستاذ محمد البهيتي في كتابه عن ابى تمام صفحة ١٤٤ .

« قد لعب بالبديع لعبا وروض أو ابده ترويضاً تراه يجانس بين الألفاظ

الأعجمية والألفاظ العربية » .

على البناء وأقطع الفرس قطائع ومساكن ، ولما استخلف المهدي فرض بالمصيصة لألني رجل ولم يقطعهم لأنها قد كانت شجنت من الجند والمطوعة ولم تزل الطوالع تأتياها من انطاكية في كل عام حتى وليها سالم البرلسي وفرض موضعه الخمسة مائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير فكثر من بها وقوا وذلك في خلافة المهدي .

وحدثني محمد بن سهم عن مشايخ الثغر ، قالوا : ألحت الروم على أهل المصيصة في أول أيام الدولة المباركة حتى جلوا عنها فوجه صالح بن علي جبريل بن يحيى البجلي إليها فعمرها وأسكنها الناس في سنة أربعين ومائة وبني الرشيد كفريا ويقال بل كانت ابتدأت في خلافة المهدي ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق ثم رفع إلى المأمون في أمر غلة كانت على منازلها فأبطلها وكانت منازلها كالخانات وأمر فجعل لها سور فرفع فلم يستمع حتى توفي فأمر المعتصم بالله بإتمامه وتشريفه ، قالوا :

وكان الذي حصن الثقب هشام بن عبد الملك على يد حسان بن ما هويه الأظاكي ، ووجد في خندقه حين حضر ساقا مفترط الطول فبعث به إلى هشام ، وبني هشام حصن قطر غاش على يد عبد العزيز بن حياة الأظاكي ، وبني هشام حصن مورة على يد رجل من أهل أنطاكية وكان سبب بناءه إياه أن الروم عرضوا لرسول له في درب اللكام عند العقبة البيضاء ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجراجمة وأقام ببغراس مسلحة في خمسين رجلا وابتنى لها حصنا وبني هشام حصن بوقا من عمل أنطاكية ثم جدد وأصلح حديثا ، وبني محمد بن يوسف المروزي المعروف بأبي سعيد حصنا بساحل أنطاكية بعد غارة الروم على ساحلها في خلافة المعتصم بالله رحمه الله . حدثني داود بن عبد الحميد فاضى الرقة عن أبيه عن جده أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفي قبل ذلك .

وفى نظرى أن شعره مصدر للتاريخ لم يدرس بعد الدراسة الكافية ، فعلى أولئك الذين اتخذوا الأدب صناعة لهم أن يعودوا إليه .

* * *

أما أنا فأختصر البحث لأقول أن زحف المعتصم على عمورية يمثل فى نظرى عبقرية القواد المسلمين من مختلف أجناسهم من عرب وترك و فرس .
واضع فى المقام الأول منهم الأفشين هذا القائد العظيم الذى يرجع إليه الفضل الأول فى الزحف وفى تحقيق الانتصار على الروم قبل سقوط أنقرة ولست أدعى شيئاً غير معلوم فإن قدرته العسكرية ظهرت فى مصر وفى إبان فتنة بابل . وفى زحفه من سروج إلى درب الحدث ثم إلى أنقره فهو عميد قواد المسلمين فى القرن الثالث الهجرى .

* * *

برهنت حملة عمورية على تفوق قواد المعتصم وعلى تفوق الجيوش الإسلامية فى الزحف والحماية والوقاية ، وكانت من الحملات التى فاقت فى أهبتها وترتيبها وسيرها كل الحملات التى تقدمتها .

وقعة زعزت مدينة قسط طين حتى ارتجت بسوق فروق

فوحق القنا عليه يمينا هى أمضى من الحسام العتيق

فى الوقت الذى يقف فيه العالم الإسلامى وقفته الكبرى ليؤكد للدنيا مرة أخرى إننا أحياء علينا أن نستوحى من تاريخنا مواقف العظمة والتضحية ، وعمورية أحد المواقع التى نقف أمامها لنقول فى مواجهة الدنيا إننا لا نزال أحياء وفى وسعنا أن نتزع النصر والغلبة وأن نكتب الملاحم التى كتبها الأجداد بنفس العزيمة الصادقة والتصميم الذى لا يلين .

دائري صالحية مصر ؟

حيث كان مركز تجمع الجيوش المصرية الإسلامية

موقعها :

أما موقعها فعلى نهاية الخط الحديدى المعروف بها ، وكانت تربطها بالقنطرة
سكة حديدية ، أقيمت أيام الحرب الماضية ، ثم نزع قصبانها الحكومة المصرية
لسبب لا يعلمه إلا الله ، و بقيت المحطات بين الصالحية والقنطرة أنقاضاً ، تذكر
الناس بحملة فلسطين ١٩١٥ وأنفار السلطة وكانت القطارات تمر على الخط بعد
منتصف الليل ، ولا يزال صدى أصوات المجندين للسلطة وأغانهم البريئة ين
فى أذنى ، حينما كنا صغاراً فيقطع نومنا الهادئ صغير القطارات العسكرية تحمل
العتاد والرجال للجبهة فى شرقى القنال .

بجمالها :

وصالحية مصر ، فيها جمال الواحة ، وجمال الريف ، ولقد دخلتها وقت طلوع
الفجر ، فأخذتني روعة الصحراء ، ورأيت الرمال ممتدة إلى نهاية البصر ،
تلك الرمال التى قال عنها العرب : الجفار والغرابى والهبير ، وهى الواقعة وراء
جبال طىّ إلى أرض مصر ، أما نخيلها فيبدو كغابة من غابات إقليم الشرقية ،
التي ينفرد بها إقليم الحوف كما كان يطلق عليه قديماً ، إذا أتيت إليها من الغرب
مشرقاً ، شممت لأرض الحوف نسيماً أرق من نسيم الدلتا ، لأنه يحمل أريج

الصحراء ، وإذا نظرت إلى نخيل الصالحية عند الشروق أو في ليالى القمر ، شهدت منظراً لا تشبع العين منه ، وتحس في صالحية مصر بالنشاط الذى يملأ النفس والجسد ، ويجعلك تفكر فى آفاق بعيدة فيما وراء النظر ، فيما وراء هذه الرمال ، حيث مشرق الشمس ومطلع سراج الدنيا . والصالحية من بناء سلطان عظيم ، هو الملك الصالح نجم الدين أيوب طيب الله ثراه أنشأها سنة ٦٤٦ هجرية على طريق القوافل بين مصر ودمشق ، لتكون منزلة لعساكر الإسلام ، إذا خرجوا من مصر للجهاد فى الأراضى المقدسة ، أو عادوا من الحرب إلى مصر ، وبنى بها قصراً وجامعاً وسوقاً ، وكان ينزل بها ويقيم فيها ، ودخلها من بعده الكثير من ملوك مصر وأمراءها فى ذهابهم للفتوح وعودتهم منها ، ولذا تألق اسم الصالحية فى تاريخ مصر العربى ، وعرف صعيدها الكثير من العز والمجد ، وورد ذكرها فى مختلف التواريخ والسير .

أهلها :

وأهاها من صميم العرب ، لهم فى التاريخ المواقف الخالدة ، وكانت الرئاسة فيهم ولا تزال إلى اليوم فى آل الحوت ، وهم فرع من بنى سليم^(١) ، جاءوا مع السيد عزاز صاحب الجزيرة البيضاء ، وكانت هذه النواحي وما حولها من قديم الزمن وقبل بناء الصالحية منازل للجماعات من القيسية واليمينية ، وكان كبيرهم ربيعة بن قيس ، ورد ذكره إبان حوادث المأمون وأخيه الأمين ، فهو الذى تمسك ببيعة الأمين الخليفة العباسى ، وكانت مصر قد خطبت باسم المأمون وله عامل بالفسطاط فبعث برجل اسمه الجروى ، هذا الذى سار فى جماعة من نخم وجذام إلى بلدة فاقوس ، فنزل مع قومه بها . وكانت له مع قبائل البلاد وقائع وحروب .

(١) خطط على مبارك باشا .

وكانت هذه المناطق موطناً للعرب ، من بنى عمرو و بنى حرام و بنى عقبة و بنى زهير و بنى واصل و البقرية ، وهم الذين تفرقوا في النواحي و عمروا القرى و البلاد ببطونهم و أخذهم .

بناؤها على الدروب :

ولما تم بناؤها أصبحت الصالحية من أهم منازل الدرب السلطاني الذي كان يربط مصر القاهرة بقلعة دمشق ، طوال الأزمان الماضية ، وقد وصفه المقرئ فقال إنه كان عامراً إلى سنة ٨٠٦ هجرية وكان لا يخلو من المسافرين لأنه ممر البريد السلطاني بين العاصمتين . ولما جاء الفرنسيون رسموه على خرائطهم ووضعوا عليها أماكن الآبار ، وساروا فيه بجندهم إلى الشام وفي عودتهم إلى مصر .

ذكر بانى :

ولقد قطعت الطريق بين مصر و فلسطين في ذهابى إلى سوريا و عودتى منها مراراً عديدة ، و كنت أقطع القنال أحياناً من السويس و أحياناً من الاسماعيليه مخترباً سيناء ، و كنت كلما لاح لى نخل القرين و أنا على مفترق الطريق قبل بلدة التل الكبير ، أذكر الدرب السلطاني القديم ، الذى كان يتجه من العباسية إلى بلدة القرين ثم إلى الصالحية و أحدث نفسى بالآمال فأقول « متى يعبد للسيارات فتسير عليه » ، و متى تهتم السلطات المختصة بالنواحي التاريخية ؟ أليس فى كل مرحلة منه ذكريات ، و فى كل محطة بريد أثر أو بقايا أثر ، يتحدثنا عن ماضينا الجيد الذى يحاول البعض أن تنساه مصر ، و ما كان لمصر أن تنساه .

ابن بطوطه :

و هذا الدرب السلطاني يعرفه ابن بطوطه الرحالة المشهور فقد سار فيه و تحدث عن منازلها و وصفها بقوله « و لكل منزل منها فندق ينزل فيه المسافرون

بدواهم ، وبخارجه ساقية للسبيل وحانوت للشراء » وذكر الصالحية عند نزوله بها .

عبد الغنى النابلسي :

أما الشيخ عبد الغنى النابلسي فكان أوسع وصفاً منه حينما تناول الصالحية بكلامه ، فقال « وفي داخل القرية جامع السلطان قايتباي وعمارته متينة ، له إيوان عريض فيه المنبر والحراب وله منارة عظيمة . . . وأهلها حارتان متميزتان في الألفاظ والمعاني فمنهم القيسي الأحمر واليني الأبيض » .

القيسية واليمنية :

ولو شئت دليلاً على قيام القيسية واليمنية بقرى مصر ، فاذهب اليوم إلى بلدة السماعنة من قرى فاقوس ، تجد فتياتها لا يتخذن غير اللون الأبيض لخمارهن ، وإذا جئت لجزيرة سعود وجدت نساءها يلبسن الحزام الأحمر ولا تعرف واحدة منهن شيئاً عن النزاع القديم الطويل الأمد بين اللونين ، والذي يمكن تتبعه من خراسان إلى ما وراء النهر في أواسط آسيا والعودة به إلى أيام الجاهلية ، والتحدث عنه في الجزيرة الخضراء أي بأرض الأندلس .

مركز لتجميع الجيوسه :

ونعود إلى الصالحية فنقول إن موقعها على طرف الأراضى الزراعية وعلى حافة الصحراء ، قد جعل منها مركزاً هاماً لتجمع وحشد الجيوش الإسلامية في القرون الوسطى ، حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية ، فورد اسمها كثيراً في حملات ملوك مصر ضد هولاكو وأبنائه وأحفاده ، وكانت لها شهرة تاريخية بتوالى هذه الحروب وتتابع الأحداث التاريخية والمواقف الرائعة التي حدثت بها .

هجوم التتار :

ففي سنة ٦٥٦ هجرية دخل هولاكو بغداد مقتحمًا الجزء الغربي من بلاد المسلمين ففضى على خلافتهم ، وكان جده قد سبقه عام ٦١٨ فدمر الأجزاء الشرقية من أرض الإسلام في بخارى وسمرقند والرى ، فأراد أن يتم عمله بتدمير مصر والشام ، ولذا زحف على حلب واستولى عليها ، وبعث برسالة إلى سلطان مصر الملك المظفر قطز ، يهدد ويتوعد ، وسار إلى دمشق ففتحتها ، وكان المظفر من أبطال المسلمين ، فلم يرهبه التهديد ولا الوعيد ، وكانت جيوش هولاكو لا تقهر ولم يسبق لقوة في العالم أن هزمتها أو صمدت أمامها ، فاكتمست بقية الشام ووصلت طلائعها إلى غزة فقام المظفر قطز يدعو إلى الجهاد ، واتخذ الصالحية مركزاً تجتمع فيه .

الجيو سه المصرية :

وكان الناس في قلق وخوف ووجل ، حتى هاجر الكثيرون إلى بلاد اليمن وبرقة والنوبة ، ولما تكامل حشد الجنود في معسكر الصالحية ؛ طلب السلطان الأمراء وتحادث معهم بشأن الرحيل لقتال هولاكو وجنوده ، وكان الرأي الغالب أن جيش التتار لا يقاوم ولا يدفع ، فلم ينطق أحدهم بكلمة واحدة بل امتنعوا عن الكلام فاحتد السلطان وقال لهم « يا أمراء ، لكم زمن تأكلون أموال بيت المال وأنتم للجهاد كارهون ، وأنا متوجة فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع لبيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » ولما جاء الليل ركب المظفر قطز وقال « أنا ألقى التتار بنفسى » .

فقويت العزائم وسار الأمراء معه وتحرك الجيش إلى الشام ، والتقى الجمعان في يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية بأرض فلسطين في بلدة عين جالوت .

وهى المعركة التى صرخ فيها السلطان ثلاثاً « وا إسلاماه » فمن الله بالنصر المبين .
عليه ، فخلصت الشام ونجت مصر .

تجميع جيسم مصر بالصالحية :

كان هذا الجمع فى النصف الأخير من سنة ٦٥٨ بالصالحية ، وكنت كلما قرأت عنه فى المراجع ؛ أحدث نفسى ؛ متى أرى نصباً تذكاريّاً على ربوة عالية فى ميدان متسع ، يذكر الناس ويوحى إلى الأجيال القادمة ، بهذه الوقفة الرائعة . به وهذه كلمة واحدة قد غيّرت تاريخ المشرق ولو صدر مثلها من ملك من ملوك أمة من الأمم لنقشوها على الأحجار وللقنوها للأحداث والنشء عندهم ، وليس هناك أحق من الصالحية فى نظرى بمثل هذا الأثر ، الذى يعلم الناس ما يجولون من آيات تاريخهم ، لأن على أرضها قيلت هذه الكلمة الفاصلة .

تاريخها :

ويطول بنا الكلام إذا تحدثنا عن كل ملك نزل بها وأقام فيها ، ولكنى أكتفى بمناسبة سارة . فى يوم الإثنين ٢٠ المحرم سنة ٧٠١ عاد الناصر محمد ابن قلاوون من الصيد بالبرية إلى معسكره بالصالحية وكانت هناك بعثة من قازان ملك التتار من سلالة هولاكو ، فخلع السلطان على الأمراء واستعرض الجيوش فدهش السفراء من زى عساكر مصر واستعدادهم ، وقال المقرئى « إن الرسل أدخلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية بين يدى السلطان ، وقد أوقدت الشموع الشموع والفوانيس والمشاعل وغيرها ، حتى أن البرية أصبحت حمراء تلتهب نوراً وناراً ، فخلع عليهم وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم » وانصرفوا بكتاب من الملك الناصر .

ومثل هذا كثيراً لو تناولناه بالجمع فى تاريخ الصالحية لأخرجنا كتاباً عنها .

ولكنها نظرات عابرة في حياة بلدة أعزها ولها مكانة في نفسى ، أكتبها لعلنى بأن البلدان والرسوم والأطلال مثلها كمثل الرجال تتسكلم أحياناً ، وتوحى عن ماضيها ولا سيما إذا حفل هذا الماضى بعظام الأمور .

الغورى :

ونزلها آخر ملوك مصر المستقلة ، السلطان الغورى فى يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخرة سنة ٩٢٢ هجرية ، ولما أراد الرحيل إذن لخليفة الإسلام وللقضاة الأربعة أن يتقدموه إلى غزة . وكانت رحلة بعيدة عن السعد ، اختتمت بها مصر حياتها الحرة ، فانتهى عهد وبدأ بها عهد ، وجاء ذكر الصالحية فى تاريخها كنفعة غير مسموعة ، وسط قطعة موسيقية مملوءة بنغيات أقوى ، ولكنها كانت للأسف نغبات الحزن والأسى والدموع . . .

مركز الصالحية :

هذه صالحية مصر ، أشير إليها كى يذكرها الناس فى وقت نسى الناس فيه كل شىء ، وتقرر الحكومة المصرية فيه إنشاء مركز جديد ، يقطع من أراضى مركز فاقوس ، فتقلب جميع الأوضاع ، وتدرس مختلف الأسماء ، وشقى القرى والبلاد ، وتنسى الصالحية ، كما نسينا تاريخها ومنزلتها — واجتهد أن أذكر الناس بها ، وأحاول ذلك المرة بعد المرة ، فلا يسمع لى أحد ، ولكن الصالحية هى من بناء ملك عظيم ، وكانت من منازل عظماء الملوك ، ومنها خرجت جيوش الإسلام وعادت إليها منصوره . فكم منا يعرف ذلك ويذكره ؟ وكمن أهلها يعرف أن هذا الثرى الذى يمشون عليه ، حمل أعلام العز والجد والقوة والعمل فى سبيل الله ؟ لن يضيرها أن تتجاهلها وزارة الداخلية المصرية ولكن يضيرها أن ينساها الناس ولا سيما أهلها .

المصون والقدرع التي فتحها الناصر محمد بن قلاوون في ملكه الشريف

مقدمة :

أفرد الدكتور على إبراهيم حسن في كتابه « دراسات في تاريخ الممالك البحرية » باباً عن السياسة الخارجية ضمنه حروب مصر وعلاقاتها مع الدول الأجنبية ، وهو بحث شيق دل على سعة اطلاعه وتدقيقه حينما عرض لما يتعلق بدول المغول في فارس والقفجاق والهند ، ولكنني دهشت حينما أفرد قسماً لدولة سماها أرمينية وأدخل في حروب مصر معها فتح ملطية وآمد وغيرها من البلاد الإسلامية إذ قال في صفحة ١٦٨ « إلا أن الأرمن قد عاودوا العصيان فأرسل إليهم الناصر حملة وأمر تفكز بالانضمام إليها ، فخرج في أول محرم سنة ٧١٥ وحاصر ملطية ودخلها في يوم الثلاثاء ٢٣ محرم من تلك السنة . » وفي صفحة ١٦ « توالى انتصارات جنود الناصر ففتحوا مدينة عزقية من أعمال آمد في سنة ٧١٥ ثم فتحوا آمد بعد ذلك وقد ساعدت الأحوال السيئة في بلاد أرمينية الناصر محمداً على غزوها فقد تولى عرشها الملك ليو الخامس . »

أرمينية :

والمعروف أن أرمينية الجغرافية لم يكن لها وجود سياسى في ذلك الوقت ، ولم تكن ملطية ولا آمد تحت سلطان الملك ليو الخامس ، وإنما كانت هناك مملكة للأرمن على أطراف بحر الشام وكان صاحبها يطلق عليه « ممتلك سيس » وقد انحصر ملك الأرمن في منطقة من السهول حول مدينة سيس تحيط بها الحصون التي أنشأها المسلمون والصليبيون واحتلها الأرمن وتحصنوا فيها ، وكانت هذه الإمارة تخضع أحياناً خضوعاً إسمياً لمصر وتحالف المغول إذا جاءوا للفتح

وتدارى ملوك الروم من سلاجقة وتركمان ، إذن فلا علاقة بين هذه المقاطعة والحروب التي قامت في عهد الناصر في ديار بكر والجزيرة وأرض الروم وترتب عليها فتح ملطية وآمد وغيرها فقد حضر أبو الغداء تجمع عسكر مصر والشام في حلب ولازم الحملة في خروجها لفتح ملطية وحدثنا عن المراحل التي قطعها الجيش المصرى من عينتاب إلى نهر الرزبان وصحته مرزبان إلى رعبان فالنهر الأزرق قال « وجعلنا حصن منصور على يميننا » ثم إلى زبطرة حتى حصار ملطية ولم يذكر لنا الأرمن في طريقه ولا في عودته كأصحاب دولة وسليمان وإنما ذكر في ملطية حاكما اسمه جمال الدين الخضر وهو من بيت بعض أمراء الروم . وأما كن هذه المواقع التي مرت بها الحملة في سيرها وعودتها معروفة على الخرائط وهي بعيدة عن أراضي ملك الأرمن في سيس . وما قلناه عن ملطية ينصب على آمد الواقعة على نهر دجلة وبينها وبين « ليو الخامس » ممالك سيس مراحل وأراض شاسعة منها ما هو تحت حكم مصر ، ومنها ما هو على حدودها في الولايات التي كانت خاضعة أو متحالفة مع خانات أو إيلخات مغول فارس، وهي بقاع إسلامية لم يكن للأرمن وملكهم شأن بها . ودليلنا على صحة ما سقناه قول صاحب البداية والنهاية عند ذكره فتح ملطية « وقد كانت ملطية إقطاعاً للجوبان^(١) أطلقها له ملك التتار فاستناب بها رجلا كريها فتعدى وساء وظلم فكاتب أهلها السلطان الناصر وأحبوا أن يكونوا في رعيتة » . صفحة ٧٣ جزء ١٤ .

أبو الفداء :

وفي أبي الغداء ما يشرح شكوى أهل ملطية إذ قال « إن المسلمين الذين كانوا بها اختلطوا بالنصارى حتى إنهم زوجوا الرجل النصراني بالمسلمة وكانوا يعدون الإقامة للتتر ويعرفونهم بأخبار المسلمين » صفحة ٩١ جزء ٤ .

(١) راجع ما كتبناه عن الجوبان صفحة ٢٨٦ من هذا الكتاب .

قاضى ملطية :

ويظهر أن قاضى ملطية كان أول من تلقى جند الناصر وطلب منهم الأمان لبلد لأن له يداً في هذه الشكوى التي جعل من ضمن ما جاء فيها ما يبرر استفزاز حمية الناصر الدينية وإن كان أبو الفداء يضيف إلى ذلك سبباً آخر هو تعرض أهل ملطية لجند مصر المقيمين في القلاع الشمالية مثل قلعة الروم وبهنسى وكختا وكركر في غدوهم ورواحهم . ويذكر المقرئى في السلوك (صفحة ١٣٤ جزء ٢ للدكتور زيادة) إن التعرض كان ضد الفداوية من أهل قلعة مصياف الذين أرسلهم الناصر لاغتيال قراسنقر المقيم بمدينة مراغة وإن الكردي الذي تغلب على ملطية وجي أموالها قبض عليهم وترتب على ظهوره أن نائب ملطية من جهة جوبان ويقال له بدر الدين ميرامير بن نور الدين خاف أن يأخذ الكردي نيابة ملطية منه فكتب الناصر واتفق معه على تسليم البلد إليه ، وقد خص فتح ملطية بصفحة فيها تفاصيل عن تسليم المدينة واحتفال نائبها والتشريف والخلع التي وجهت إلى أعيانها ، ولم نجد فيها ولا فيما لدينا من المراجع إشارة أو كلمة يفهم منها أن ملطية كانت تحت حكم « ليو الخامس » .

أخطاء المؤلفين :

ونحن نلتبس للدكتور على إبراهيم حسن عذراً لأن السير وليم موير في كتابه « تاريخ الممالك في مصر » ذكر في الصفحة ٨١ (طبعة مصر مترجمة) « أرسل السلطان الحملات على بلاد الأرمن التمسعه وحصرت عساكره ملطية » ، وجاء من بعده الأستاذ أنور زقلمة فوضع كتاباً عن « تاريخ الممالك » طبعة مصر كتب في صفحة ٦٣ منه « وعاد الأرمن مرة ثالثة للعصيان عام ١٣١٤ في عهد الناصر فأرسل لهم حملة قوية حاصرت مدينة ملطية » . وفي ذلك ما يشعر بأنهم

ينقلون جميعاً عن مصدر واحد وصاحب هذا المصدر إما اختلط عليه الأمر ولم يفرق بين ولاية سيس وأرمينية الجغرافية أو فهم من وجود طائفة من الأرمن في ملطية أنهم أصحاب الأمر والنهى فيها ، أو هو على علم تام بهذه الحقائق ولكنه كغيره من كتاب الغرب الذين لا يملكون التحرر من تقاليد الحروب الصليبية ولذلك ينظرون دائماً بمنظار مكبر إلى كل ما يذكر بآثارها ، ولما كانت ولاية سيس من تلك البقايا فهم يحملونها برغم أنف الزمن دوراً مهماً في التاريخ والحروب والعلاقات السياسية ويضيفون إليها بلاداً إسلامية طال عهدها بالإسلام وأهله ، ويكبر على أنفسهم الاعتراف بأنها ولاية صغيرة في كيليكية .

واجب العلماء :

وواجب علمائنا في التاريخ وضع الأمور في نصابها وإعادة الحق لذويه ، ودولة المماليك من الدول الإسلامية التي لم ينصفها التاريخ وتعرضت لشتى الهجمات من مؤرخي الغرب ، ولكن الدكتور على إبراهيم حسن أنصفها في كتابه وهذا من دلائل النهضة القائمة والوعى التاريخي لإعادة القيم الحقيقية لذلك العصر فله عظيم الشكر والثناء .

ولاية حلب :

وقد اطلعت بعد كتابة ما تقدم على تحديد نيابة حلب في عهد الناصر كما جاء في مسالك الأبصار ونقل ذلك صاحب صبح الأعشى فإذا فيه « ولاية حلب متصلة ببلاد سيس والروم وديار بكر و برية العراق وتحتها من الشمال بلاد الروم مما وراء الهندى وبلاد الأرمن على البحر الشامى » .

بلاد الأرمن :

ويفهم من ذلك أن بلاد الأرمن يقصد عند ذكرها الأراضي الواقعة على خليج الأسكندرون والبحر الأبيض المتوسط وهي التي يطلق عليها اسم كيليكية أو ولاية أدنه التركية حالياً والتي يخترقها نهر سيجان وجيجان من الشمال إلى الجنوب : وعرفت بهذا الاسم في هذا العصر الذي نتحدث عنه وإلا فهي قديماً بلاد الثغور والعواصم وفيها قبر المأمون بطرسوس وضمت إلى مصر من عهد أحمد بن طولون ولها تاريخ طويل ومعارك وأيام .

ولما تملكها الأرمن بعد الحروب الصليبية تعرضت لهجمات المصريين فانزع الملك الظاهر بيبرس قلاع بغراس والبهنسى ودربساك سنة ٦٨٨ ثم فتح الأشرف خليل بن قلاوون قلعة الروم ٦٩١ وهي نهاية ما وصل إليه الأرمن شرقاً، وافتتح الناصر الحصون الواقعة في الشرق من جيجان ، ثم جاء الأشرف شعبان ففتتح عاصمتهم سيس وبقية ما حولها من البلاد على يد قشتمر المنصوري نائب حلب وبذلك أصبحت ولاية أدنه بأكملها تحت حكم مصر حتى الفتح العثماني .

الحصون والقلاع

وجاء ذكر الحصون والقلاع التي تسلمها الناصر من ملك الأرمن في كتب التاريخ وليس بينها خبر عن ملطية أو آمد ، ونظرة بسيطة إلى خريطة مفصلة لتلك المنطقة تجعلنا نتحقق من مواقع القلاع التي ضمها الناصر من بلاد الأرمن وهي تكون مع الأراضي ما يشبه المثلث قاعدته خليج الأسكندرون بين يباس وإياس وأدمة الهارونية (نسبة لهارون الرشيد) وهي جميعاً شرقي نهر جيجان . ويقول أبو الفداء « وهو ملك كبير وبلاده كثيرة » ويقول صاحب السلوك « وأقطع السلطان أراضى سيس لنائب حلب ونائب الشام وغيرها من الأمراء وأقر فيها جماعة من التركان والأجناد ، فاستعملوا الأرمن في الفلاحة وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب ورتب فيها عسكر » .

حقيقة الجلاء

ولكن الكتب التي أخذت من المصدر نفسه تقول بجلاء عسكر مصر ومنها كتاب الدكتور على ابراهيم حسن الذي يقرر في صفحة ١٦٩ « ثم جلت جيوش الناصر بعد أن أجمعت كثيراً من الأسلاب والغنائم » والحقيقة أن الجلاء كان عن الأراضي الواقعة بين النهرين أى شمال المصيصة وأدنة .

ملك الأرمن

أما ما كان شرقي جيحان فهو الذي تناوله الأقطاع ، ودليلنا على ذلك أن ملك الأرمن بعث بمفاتيح القلاع إلى القاهرة : وهى إياس (٣ قلاع) والهارونية والنقير وكودا والحميمصة ونجيمة » كما جاءت فى كتاب تاريخ سلاطين مصر والشام . ويضيف أبو الفداء سر فندكار والمصيصة وكوبرا ، ويقول « ضرب المسلمون برج إياس الذى فى البحر واستنابوا بالبلاد المذكورة نواباً »...
فأين هذا من تجنى المراجع الأوروبية علينا ومن ينقل منها فى غير تحقيق وتثبت ؟

هجمات التركمان

ومع بقاء ملك الأرمن فى عاصمته سييس حتى عهد الأشرف شعبان تحت حماية ملوك مصر بقيت بلاده معرضة لهجمات التركمان وعسكر ابن قرمان من آسيا الصغرى ، ولذلك نجد أن كتب التاريخ تحدثنا باحتلال جنود الناصر لبعض القلاع الواقعة على سفوح جبال طوروس أو التي تعترض الطرق الموصلة للجبال ، نذكر على سبيل المثال قلعة كولاك فى شمالى طرسوس على خط عرض واحد مع الهارونية وهى فى نهاية الغرب من ولاية أدنة ، وهناك « بارى كودك » افتتحها باى دمير الخوارزمى فى عهد الناصر وهى إلى الشمال من طرسوس ، ومنها « قلعة لؤلؤة » وهى شمالى كولاك .

تفسير تسليم القلاع

ولا أجد تفسيراً لاحتلال هذه المناطق غير أن ملك الأرمن سلم بما بين يديه
من الحصون التي على الشرق بشرط حمايته من الغرب فصرح المصريين باحتلال
الحصون والمضائق التي يتسرب منها التركان وعسكر ابن قرمان من الجهة الشمالية
والغربية لمهاجمة بلاده .

إن التاريخ علم يتقدم مع الزمن شأنه شأن غيره من العلوم وقد يأتي لنا
المستقبل بنصوص تفسر لنا كل ذلك فلا أجزم بشيء نهائي

شهداء الاسلام المجهولين :

سيف الدين جوبان نائب مملكة التتر

شهداء المسلمين هم الذين قتلوا في سبيل الله ويحسبهم الناس أمواتا وهم أحياء
عند ربهم كثيرون ولو شئنا لعددنا الكثير من شهداءنا المعترف باستشهادهم في
سبيل الحق وموتهم في الدفاع عن العقيدة ولكننا نرغب في أن نشيد بذلك
الفريق من المسلمين الشهداء الذين عاينوا الموت ، وبقي إسمهم مطمورا
وعلمهم مجهولا .

كلنا يعرف شيئا قل أو أكثر عن مملكة التتار أو المغول التي كان على رأسها
« هولاكو » الذي دمر بغداد واستباحها سنة ٦٥٦ هـ والتي سببت المتاعب
والآلام للمسلمين لما ارتكبته من المظالم وكانت سياستها تقوم على القوة العاشمة
ونزع الرحمة من النفوس وقد أنشأ « جنكيز خان » عقوبة القتل لمن يرق قلبه
من جنود التتر فيطعم أسيراً أو يسقيه .

ويشأء ربك أن تضعف هذه القوة شيئاً فشيئاً أمام قدسية الرسالة المحمدية فإذا بها تصبح قوة إسلامية وإذا بهؤلاء الذين تغلبوا على الإسلام قد أخذوا يدافعون عنه ولكن بين الفترة الأولى والثانية أو بين الكفر والإيمان مهلة من الزمن هي التي يبدو فيها الاستشهاد عظيمًا وتبرز فيها أسماء الشهداء من الذين يغتبرون الرعيل الأول الذي دعا إلى الحق بين هؤلاء القوم . . .

وأعرف من هؤلاء أميراً كبيراً من أمراء الدولة التترية والتي يطلق عليها في التاريخ الإسلامي « الدولة القانية » نسبة إلى القان أو الخان الأعظم . هذا الأمير هو سيف الدين جوبان قال عنه الذهبي « كان بطلاً شجاعاً مهيباً شديد الوطأة كبير الشأن على المهمة صحيح الإسلام ذا حظ من صلاة وبر » وقال عنه صاحب النجوم الزاهرة بعد أن وصفه برسوخ القدم في الإسلام « أنه أجرى للياه إلى مكة المكرمة في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وسبعائة وأنشأ مدرسة بالمدينة المنورة كانت مجاورة للحرم الشريف » .

لفتت نظري هذه العبارات فأردت أن أتبع شخصية هذا الأمير الذي غلبت عقيدته الإسلامية على جنسيته المغولية فرأيت أن هذا الأمير وصل إلى أعلى الدرجات في بلاده حتى كان نائب المملكة ووزيراً لعاهلين من كبار ملوك التتر هما « خودابندا » و « أبي سعيد » وقد دفعه إيمانه إلى إقرار الصلح وحقق دماء المسلمين في كل مناسبة عرضت عليه ويرجع إليه الفضل في جمع الشمل وتوطيد المسالمة بين الملك الفاصر محمد سلطان مصر وملك التتر « أبي سعيد » .

فقد كانت الحرب بين هؤلاء وبين ملوك الإسلام في مصر لا تنقطع ونزات جيوش المغول على مدينة الرحبة في رمضان وحاصرت قلعتها ونصبت المنجنيق عليها ولكن الأمير المسلم في جيش المغول حال دون استعماله ضد عسكر مصر وعمل كل ما في طاقته لمنع القتال وكان يقول لمن يثق فيه « ماذا يقول الخلق عنى لو غلب القان على الرحبة وسنقك دم أهلها وهدمها في رمضان . في هذا

الشهر المعظم ؟ أما كان عنده نائب مسلم يبدى له النصيحة ويثنيه عن عزمه ؟ »
وقفل جيش المغول راجعا إلى إيران وجاء حتن دماء المسلمين على يديه .
وذكر المقریزی « أنه بعث برسول خاص إلى الدولة المصرية يطلب ضيعة
خربة من ضياع مصر المتروكة لينفق من ماله على عمارتها وأن يجعلها وقفاً على
الحرمين الشريفين .

وكان له ولدان نشأ كل منهما في الإسلام ووصل أحدهما إلى أعلى الرتب
العسكرية لدى المغول وهي قيادة عشرة آلاف مقاتل وتولى الثاني الحكم عن
دولة المغول في آسيا الصغرى . . . » لم تترك الوشايات ولا الدسائس هذا البيت
عامراً لأنه لمع في الفترة التي جاءت للمغول قبل أن يثبت الإسلام في قلوب
غالبيتهم وكان ملوكهم ينظرون بعين الشك إلى أمور لو جاءت بعد ذلك الزمن
لاستساغها عقولهم .

وجاءت نكبة الأب عن طريق أبنائه فقد غضب الخان على الإبن الأول
فقتله فخاف الإبن الثاني على نفسه وفر من بلاد الروم إلى مصر وتلاحقت
المصائب فجاءت الخاتمة على الأب الذي لجأ إلى مدينة « هرات » فاستقبله
حاكمها وأنزله بقلعتها ثم قتله ظلماً .

وكانت للشهيد ابنة هي زوجة الخان فحزنت على والدها وعملت على نقل
جثمانه من بلاد الأفغان إلى مكة المكرمة حيث طيف به حول الكعبة بين
التهليل والتكبير ، وذهبوا به إلى عرفات ، ثم إلى المدينة المنورة حيث
دفن بالبقيع .

فهذا رجل من شهداء الإسلام مات مظلوماً وقضى شهيدا لم يذكره قومه
لغضب عاهلهم عليه ولم يذكره غيرهم رغم أياديه البيضاء عليهم ومساعدته إياهم .
إن العمل الذي كان يشغله كنائب للملكة وصلته بالملك ووالد لزوجة الخان لم
يمنعه كل منهما من أن يقوم بما يفرضه عليه إيمانه وتفانيه في خدمة هذا الدين

لخفيف حتى دفعه إيمانه لأن يرسل بالكتب علي نصال من « النشاب » إلى
عسكر مصر وأمرائها المحاصرين في قلعة الرحبة يقوى عزائمهم ويدعوم إلى
الثبات حتى لا يقعوا في أيدي الجنود المغول الذين تحت قيادته .

وأمثال هذا الشهيد من شهداء المسلمين كثيرون في تاريخنا نبعثهم من
النسيان لنبرز تلك العالمية الكبرى في الإسلام التي تعلو على الأوطان والأجناس
والألوان وهي قوة هذا الدين وفيها تتمثل عظمة الرسالة المحمدية .

كل هذا ما يدعونا في أن نفكر في أثر الإسلام في شئون هذا الكون ،
لأننا لانجد في تاريخ العالم نظاما آخر يدانيه أى ينقلب أمام هدايته أعدائه
من الخصومة الشديدة له إلى الدفاع عنه ويصبحون سيوفا يذودون عنه
ويستشهدون من أجله ... فطوبى لهم ...

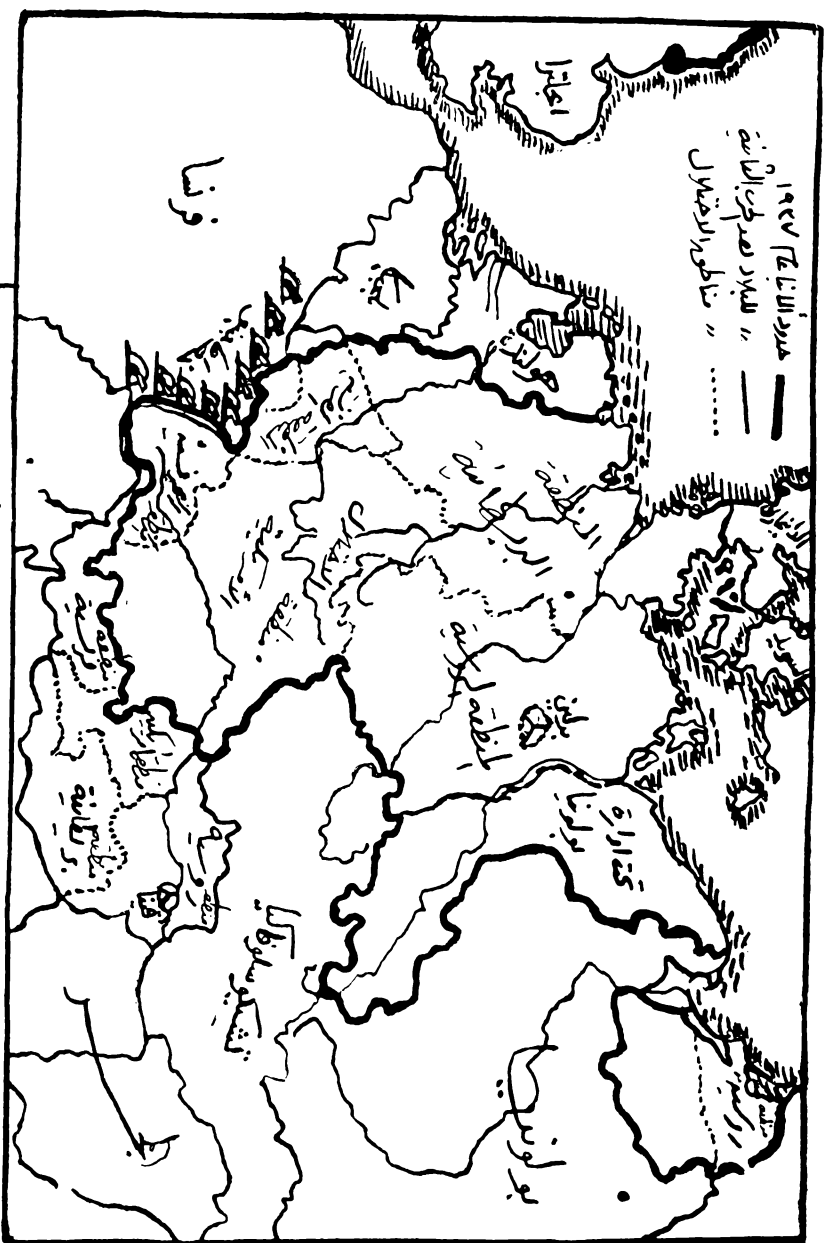
الدفاع عن أوروبا الغربية

دراسات عسكرية عن الحرب العالمية القادمة

أوراق متناثرة من روما :

وقعت أمام نظري بعض الأوراق التي كنت جمعتها بروما في أوقات فراغي في تصفحي للجرائد ، فإذا بها داخل ملفات صغيرة : تحت عناوين « حلف الأطلنطي » « دراسات استراتيجية » ، « أعباء إيطاليا في الدفاع عن أوروبا » هي كما قلت قصاصات من الصحف الإيطالية يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة طول يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٥٢ وهو تاريخ انعقاد مجلس حلف الأطلنطي في باريس . كنت قد جمعتها وصنفتها على أمل كتابة تقرير عن هذا الاجتماع مدة شغلي لمنصب سفير مصر بروما ولكن الأيام لم تسمح لي بكتابة حرف واحد منه ، لماذا ؟ لأن حياة الفرد منا ليست ملأ سكا له فقد يفكر يوما في شيء ثم يبدأ العمل لتنفيذ ما أوصله إليه تفكيره ثم تخطر له مسألة جديدة ثم أخرى . وتنتهي به الأيام فإذا بكل المحاولات التي بدأ بها تنتهي إلى لا شيء ، فيقنع بالوقوف في مكانه ويترك كل المشاريع التي خيل إليه أنه بوسعه تنفيذها أو إخراجها إلى خير الوجود فإذا بها تقف ثم تنتهي بأن تصبح ذكريات أو خاطرات .

من هذه الأوراق المنشورة والتعليقات اليومية تكونت لدى فكرة عن موضوع الدفاع عن غرب أوروبا ، وهو موضوع هام ، لأنه يتعلق بعرض بعض المسائل العامة ذات الطبيعة الواقعية أي المتصلة بمقائق هذا السكون أقصد من المواضيع التي يحياها العالم كل يوم وكل ساعة .



خريطة قنين مناطق الاحتلال في أوروبا والروسية

موضوع هام :

أى يتناوله رجال السياسة الأوروبية والأميركية بأبحاثهم ويتناوله رجال العسكرية بمشاريعهم وآرائهم .

فهل هو جدير بأن يأخذ بعض الوقت ؟ ؟ هذا يختلف الآراء : لأن السؤال الذى يعرض لأول وهلة هو وما دخلنا نحن فى حلف بعيد عنا ؟ وما شأننا فى تناول أبحاث وآراء قد تبدو لنا بعيدة الاحتمال لا تمسنا فى قريب أو بعيد أو على رأى القائل منا « لا ناقة لنا فيها ولا جمل » ؟ وهذا الكلام وجيه على علته وله أنصاره . . خصوصا وأن فتح هذا الموضوع الشائك قد يفسر بأننا من أنصار كتلة الغرب أو كتلة الشرق أو إننا نحابى زيدا حينما ضرب عمروا . الحقيقة إننى لم أنظر لشيء من ذلك ، وإنما نظرت فى دراستى لهذا الموضوع إلى أشباع رغبة إنسانية هى الاطلاع على ما يفكر فيه الغير أو لماذا يشغلون أنفسهم بهذا الأمر العظيم « الدفاع عن أوروبا » ؟ فإذا نقلت للقارئ صورة واضحة معقولة عددتنى سعيداً لأن بعض الوقت الذى صرفته فى القراءة قد أفاد وأن بعض الجهد التى بذلته فى الجمع والتبويب قد لقي بعض التقدير فى نظره .

لست بخبير :

وأود أن أعلن أننى لست بخبير فى هذه الشؤون وإنما أنا رجل ينقل ويلخص ويستخرج بعض الحقائق والمعلومات ثم يلائم فيما بينها ويجعلها فى صورة سهلة مقبولة لفهم بعيدة عن التعقيد .

الحضرمون أمثالى كثيرون : أقصد الذين شاهدوا الحرب العالمية الأولى وحضروا الحرب العالمية الثانية وقد يمتد بهم الأجل حتى يروا الحرب العالمية الثالثة القادمة :

المحروب مدرسة كبرى :

وطبيعى أننا شغلنا أنفسنا لربع قرن فى المعاهد والجامعات و بعد تخرجنا منها فى ضبط نتائج الحرب الأولى وما كدنا تتم هذه الدراسات أو بعضها حتى دهمتنا الحرب العالمية الثانية ولا نزال نفكر فى آثارها ونتائجها .

والحقيقة الماثلة أمامنا هى أن الحرب الأخيرة لم تحطم ألمانيا وحدها بل حطمت

القارة الأوروبية بأكملها التى أصبحت بين قوتين قوة السوفييت فى الشرق ، وقوة

أميركا فى الغرب ، وانقسمت إلى شطرين قسم يستمد حيويته من الشرق ، وقسم يستمد حيويته من الغرب وفى وسط غمرات هذه الحرب الباردة يعيش الملايين العديدة من سكان أوروبا بين القلق المستحوذ عليهم لحاضرهم ومستقبلهم . حينما سقطت أوديسا فى أيدي السوفييت بعد استرجاعهم للأراضى التى احتلها الألمان فى زحفهم إلى استالينجراد ، لقيت بطريق المصادفة فى بيروت أحد رجال الوكالة اليهودية العائدين من العاصمة الروسية فكان أول تعليق له على الحوادث : « لقد ظهرت المتناقضات » قلت « ماذا تعنى » ؟ قال « إن بوادر الشقاق والنزاع بين المعسكرين الحليفيين قد ظهرت ، وقد انقسم عالم ما بعد الحرب إلى شطرين السوفييت من جهة ، وأميركا وحلفائها من جهة أخرى ، وأخذ كل منهما يستعد لجولة ثالثة » .

اجتماعات التمهيد هدمت مؤقتة :

فإذا نظرنا أمام التحليل المنطقي منذ ذلك التاريخ إلى اليوم نجد أن اجتماعات يالطا وطهران و بوتسدام وفيما بينها اجتماع أوتاناو بكندا لم تسكن سوى اجتماعات تهدئة لتركيز خط هدنة وهمى يبدأ من بلاد الشمال ويخترق ألمانيا إلى النمسا ثم يوجوسلافيا وفتركيا وإيران وحدود الصين والملايو وكوريا ، إن الاجتماعات القتالية

والثورات المتعاقبة وتدخل أميركا في كل هذا لم يكن له من أثر سوى إيجاد خط حدود وهمي كما قلت يمتد مئات الآلاف من الكيلومترات بين كتلتين عالميتين : تستعدان للجولة الثالثة وفي الصفحة الأولى من كتاب الجنرال جودريان الألماني Kann Westeuropa Verteidigt Werden يشير إلى كتاب وضعه جول فيرن الكاتب الفرنسي تحت إسم «ثمانون يوما حول الأرض» فيقول إن الزمن قد تغير فأصبح العالم يحتاج إلى ساعات للتعرف عليه .

أوروبا سياسة خاضعة لعوامل خارجية :

وفي الكتاب الذي وضعه Mikshe War between Continents .

يقول : إن العالم يواجه حالة فريدة لأول مرة في التاريخ إذ أصبحت سياسة الدول الأوروبية خاضعة لعوامل عالمية خارجة عن النطاق الأوروبي وتأثيراته وصراميه وأهدافه أى أن أوروبا فقدت سيطرتها على الحوادث العالمية وأصبحت هذه الحوادث العالمية هى التى تسيطر على شعوب أوروبا وتوجهها وتقودها وتسوقها فى المستقبل .

فإذا ظهرت لنا جلياً هذه الحقيقة يجب أن نسلم بأن مشاكل الدفاع عن أوروبا الغربية قد أصبحت عالمية أى أن عبء الدفاع عنها أصبح يقع فى المقام الأول على قوات تأتي من خارج نطاق القارة الأوروبية أى أصبح الدفاع عن غرب أوروبا جزءاً متمماً لخطة دفاعية كبرى قد أخذت أميركا عهداً على نفسها أن تقوم بالقسط الأكبر منها ... لحماية العالم ومنع العدوان عنه .

وجود أميركا :

ولا شك فى أن وجود العامل الأمريكى فى أوروبا قد أثار المشاكل لحكومات هذه الشعوب الأوروبية وللأميركان أنفسهم ، ولأن تدخلهم هذا كان سبباً

فى إيجاد عدة قواعد عسكرية موزعة على أوروبا وأفريقية ، فلننظر ماذا يقولون فى أوروبا عن ذلك . إن فريقاً كبيراً ينادى بأن النزاع هو تنافس للسيطرة على الأرض وأن مشروع مارشال ما هو إلا الطريق لتمكين السيادة الأميركية على أوروبا ، وأن الدول الغربية ستصبح مستعمرات للدولار ، وإن الاستعمار الأميركي يحشد قواه لأجل زيادة التسليح ويثير الحروب لكي يجد مكاناً لتصدير أسلحته وتجرّبها^(١) .

كل هذا قد قيل ويكفى أن نفتح جرائد الشيوعيين فى فرنسا وإيطاليا لنقرأ المقالات الضافية كما يكفى أن تنصت إلى إحدى محطات الإذاعة بالبلاد الواقعة تحت سيطرة السوفييت لنسمع الكثير من ذلك .

* * *

لقد ظهرت التناقضات منذ اليوم الأول وأخذ كل فريق يستعد لمنازلة الآخر ، وليس من موضوع هذا البحث التكلم عن مشاكل الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط أو الشرق الأوسط أو أواسط آسيا أو متاعب الشرق الأقصى وهى المناطق التى يقال عنها مناطق الاحتكاك الدائمة ولا نقدم صورة عن الاستراتيجية التى أطلق عليها اسم جديد هو الاستراتيجية العالمية أو الكونية Planetary Stratgy كل هذا بعيد عن متناول هذا البحث المبسط الذى يجب أن نحدد له أغراضاً واضحة وهى : الدفاع عن أوروبا الغربية وحدها فلا نخرج عنها .

* * *

(1) « La Lutte pour le repartage du monde déjà partagé »

le Plan Marshall est une Organisation de l'hégémonie américaine en Europe. «Les autres pays marshallisés en simples colonies américaines». L'imperialisme fabrique des armements. pour faire la guerre, fabrique des guerres. pour faire écouler des armements.

راجع كتاب : « Demain l. Armée Française »

توزيع الأعباء العسكرية على بريطانيا وأمريكا :

إذا وضعت على خريطة أوروبا خطاً بين تريستا وإجدابية أو العجيلة ونزلت جنوباً إلى أفريقيا ثم سرت على حدود سويسرة وألمانيا الغربية إلى الدانمارك وبلاد الشمال فهذه هي أوروبا الغربية في المعنى الحديث المتفق عليه أي أن أسبانيا وأراضى المغرب العربي تدخل بأكملها ضمن هذا النطاق الجديد .

ألمانيا الخط الأصمى للدفاع عنه أوروبا :

وحيثما يتكلم هرمان رواشنج الألماني يقول « ان ألمانيا كانت لمدة عدة قرون الدرع الأممى لأوروبا ، بل كانت لغاية الحرب الأخيرة مركز هذه القارة قد انتهى الأمر بها أن مسحت من الخريطة الأوروبية بواسطة من سمام السياسيين الديماجوجيين أى الذين لا ينظرون لأكثر من أنوفهم Nos politiciens
Demagogues .

ولدينا فى مقدمة كتاب Gudrian بحث شيق من الحملات التى تعرضت لها أوروبا من الشرق وقد وضع لها خريطة تبين اتجاهات هذه الحملات منذ عهد اثيلا فى سنة ٤٥١ إلى معركة تاننبرج سنة ١٩١٤ وكيف وقفت جميعاً فى ألمانيا وايدكر من بينها معركة على نهر الأودر أوقف بها الزحف المغولى سنة ١٢٤١ على أوروبا .
عين جالوت :

إن هذه المعركة الفاصلة تشبه المعركة التى أوقف بها المصريون تحت قيادة قطز وبيبرس زحفا مغوليا على مصر عند عين جالوت وكانت مظاهر الشجاعة التى أبدتها قوات المماليك البحرية مضرب الأمثال لعدة قرون بعد ذلك ، وهذا ما جاء فى كتاب صبح الأعشى .

« وكفى بالنصرة يوم عين جالوت لما كسر المظفر قطز صاحب مصر عساكر

هولاكو ملك التتر بعد أن عجزت عنهم عساكر الأقطار .

وكانت المعركتان وتقارب تاريخهما موضوع حديث لى فى ألمانيا فى زيارتى لها عام ١٩٥١ مع أن الذى عرف عن زحف المغول بعد استيلائهم على أقاليم روسيا وبولونيا والمجر أن توقفهم عن فتح أوروبا كانت بناء على أمر صدر للقائد سابوتاي وزميله باتو بالعودة إلى مقر الخان الأكبر فى قره قوروم لحضور اجتماع قواد الجيش المسمى قورولطاي فى انهم .

فى هذه الناحية بالذات يوجه الألمان اهتمامهم بالدراسة المستفيضة لبيان الدور الذى لعبته أمتهم فى تاريخ الدفاع فى أوروبا حتى يوجهون الأنظار إليه^(١) .

زحف المسلمين على أوروبا :

ولن أترك هذه الناحية بالذات من غير أن أشير إلى زحف المسلمين أكثر من مرتين إلى أوروبا وإن كان هذا خارج نطاق هذا البحث وإنما يمسنا من قريب إذ

(١) ظهر جيش المغول فى سنة ١٢٣٩ تحت قيادة سابوتاي وباتو فى المناطق التى نطلق عليها اسم روسيا الآن والتى كانت مجالا للهجرات الآسيوية دفعوا أمامهم قبائل الفجاق التى كانت تسكن الجزء الجنوبى من روسيا ومن هذه الدفعة جاء الملك الظاهر بيبرس لمصر واتجه الباقى إلى أراضى المجر ويوجوسلافيا ومقدونيا وأهلها من سلالة هذه الهجرة لم يكن القصد من هذه الحملة التى اتجهت إلى بولونيا فتح أوروبا وإنما كانت تحت قيادة بابدار لحماية المينة للجيش المغولية التى انحدرت إلى سهول المجر .

جاء زحفها على ألمانيا من طريق كرا كوفيا حيث هزمت البولونيين ودخلت برسلاو واقتحمت خيولهم نهر الاودر سباحا فى Ratibor فتحصن دوق دوك بوهيميا فى Ligniz ثم هزموه فى Wahstalt وقتلوه ومعهم عميد هيئة فرسان التوتون .

كان جيش الأوروبيين مكونا من فرسان سيليريا وبولونيا وعدد من الصليبيين الألمان وقد تحمل متطوعة من عمال مناجم جولدبرج سيليا من نبال المغول ثم دخلت قوات الحياالة الألمانية التى جاهدت ثم لم تلبث أن ولت الأدبار أمام قوة وضغط المغول وتكتيك الأنظمة العسكرية الآسيوية وقد ذكرت الراجح البولونية استعمال الدخان للتغطية والغازات التى أثارى رعب الأوروبيين . وكانت أبواب ألمانيا وأوروبا مفتوحة أمام الزحف المغولى وقد بقى الجيش عشرين يوما فى سيليزيا ثم اضطر للعودة .

يرجع الكثير مما لقيناه في حياتنا السياسية من متاعب إلى الأثر الذي تركته هذه الفتوحات في نفسية الشعوب الأوروبية إزاءنا إلى اليوم .

* * *

وإذا اطلمت على الكتابين الذين وضعهما Lothrop Stoddard

The Rising Tide of Color Against White World Supremacy.

The Revolt Against Civilisation

نجده يضع زحف المسلمين من الشرق إلى الغرب ضمن الحملات التي قامت بها الشعوب المتأخرة والمتبررة على مدنية الرجل الأبيض وليس هذا رأيه لحسب بل رأى الكثيرين ممن أعماهم التعصب الديني وهو ما لا يمكن التسليم به ويظهر أن إهمال دراسة التاريخ الإسلامي في مصر يرجع إلى إيمان بعض رجال السياسة والتعليم المسلمين وأهل الرأي بمصر بأمثال هذه الادعاءات والتي جاءت حتى على لسان ولز وغيره من دعاة سيطرة الرجل الأبيض على العالم .

وللألمان الحق كله في أن يشيروا مثل هذا الجدل فيما يختص بالزحف من الشرق على بلادهم لكي يثبتوا أحقيتهم للعالم الحر في المساهمة الفعالة للدفاع عن أوروبا الغربية وإن بلادهم من دعائم المدنية الأوروبية .

وسنرى في كلامنا مقدار تطور الفكر الألماني في هذه الناحية ورغبته في أن يساير فكرة التعاون الأوروبي والحلف القائم والاتجاه الجديد لإحياء المانيا مرة أخرى . كما أن هذا الأمل الألماني يقابله أمل فرنسي ولكن بأسلوب آخر .

رأى الألمان والفرنسيين :

ولكي نسير على خطه أقرب إلى المنطق ما أمكن نجد من واجبنا استعراض المشاريع الفرنسية والألمانية وهي التي تتفق على رأى واحد فيما يختص بأوروبا فشكلها تقول : « بأن الحرب العالمية الثانية جعلت إمكانيات أوروبا العسكرية

والاقتصادية فى حاجة إلى المساعدة الأميركية » وجميع هذه المشاريع تقول « بأن
الفرص التى أمام أوروبا لا يستهان بها ، وإن وسائلها غير محدودة بل هى أكبر
مما يتصوره أهلها ، وأن الخطوات التى سارت عليها الشعوب الأوروبية الغربية
بمساعدة أميركا نحو الإنشاء والتعمير والاستعداد الحربى كبيرة ولا ينقصها سوى
الإيمان بمقدرتها والثوق من إمكانياتها أى أن العامل النفسانى وحده هو
الذى ينقص هذه الشعوب فى الوقت الحاضر ، لكى تبرز مرة أخرى لتدافع
عن نفسها » .

رأى فيجاند :

ويقول الجنرال فيجاند وهو أحد كبار قواد فرنسا : « إن الظروف قد وضعت
أوروبا الغربية فى مركز لا نظير له ، وأن الفرص مواتية لها لكى تسترد مكانتها
الأولى كأكبر قوة عسكرية فى العالم » . ولذلك فهو يقف ضد كل دعوة للتردد ؛
بل يجاهر بأن تقدم بلاده فرنسا على أن تحمل أكبر الأعباء العسكرية فى القارة
الأوروبية ويقول أن انقسام العالم إلى شطرين أدّى إلى أن كلامنا السكتلتين الشرقية
والغربية تدعى المحافظة على السلام ولم يمنع هذا من أن كل واحدة منهما أن تستعد
للجولة الثالثة ، ويظهر أن الاتحاد السوفيتى يصرف أكثر من ٢٠ ٪ من دخله
على التسليح وأن السكتلة الشرقية تحتفظ بما يقرب من مليونين وثمانمائة ألف
مقاتل تحت السلاح . ويقدر بعض المراقبين العسكريين أن قوة الاتحاد وحده
تتراوح بين ١٥٠ و ١٨٠ فرقة من الجيش العامل منها عدد لا يستهان به من
الفرق المدرعة أو الفرق الميكانيكية السريعة أى ما يقرب أو يزيد على ٢٥٠٠٠
ألفا من الدبابات والسيارات المدرعة هذا غير ما لدى الاتحاد من قوات هوائية
على أنتم استعداد فإذا أضفنا تفوق الروس كما ظهر فى الحرب الأخيرة فى مدفعيتهم
تبين لنا صحة رأى القائل بأن لديهم من الوحدات المخصصة لسلاح المدفعية ،

والتي تصل في أهبتها وتشكيلها إلى معدل فرقة كاملة للمدفعية أى لدخول الحرب على نظام فرق قائمة بذاتها :لكى تحتل أماكنها اسد الثغرات فى أى جهة . فاذا انتقلنا إلى البلاد الواقعة وراء ما يطلق عليهم الخلفاء باسم الستار الحديدي وإذا أخذنا فى الاعتبار القوات البحرية الناشئة ، وجدنا الاتحاد السوفيتى قد وفق فى إنشاء آلة محكمة للحرب شديدة البطش معتمدة على ملايين من الرجال يمدون هذه الآلة بجهودهم وثقتهم بإيمانهم .

وليس من مقصد هذا الحديث التكلم عن أثر الاكتشافات الذرية الحديثة ومقدار ما يلزمها من حظ فى المستقبل إذ أن الطرفين يدعى كل منهما أنه على علم بأسرار هذه القوة الجديدة ، ولكن الشئ الظاهر الواضح لنا هو أن الكتلة الشرقية لديها جيوشها وهى قائمة بعدد رجالها وعدتها وتلادها وعلى استعداد للقيام بما يفرض عليها ، بينما الجهود التى تقوم بها حكومات الجانِب الغربى لا تزال محدودة ولذلك . يقول أعداء الكتلة الشرقية : إن الغاية والنهاية للاتحاد السوفيتى هى تحقيق الثورة العالمية بالعنف وأن هذا الاستعداد القائم لا يخفى وراءه بقاء أغراضاً للسلم والطمأنينة والأمن وراحة الشعوب كما يدعى .

الجيش الأحمر مهمته دفاعية :

و يقول أعضاء الاتحاد السوفيتى أن أساس تشكيل القوات السوفيتية من يوم أنشاء الجيش الأحمر هو حماية الثورة وضمان السلم ؛ بل إن أغلب الكتب التى ظهرت فى روسيا أو فى خارج النطاق السوفيتى عن تطور الجيش الأحمر أشارت إلى أن أساس التعبئة والعمل والتنظيم فى الجيش هو دفاعى أكثر منه هجومى . فمن الظلم والإجحاف أن يسند إلى القائمين بالأمر هناك سياسة تتجه إلى الفتح إلى العدوان .

رأى الفيلسوف رينان في الروس :

ويميل الجنرال فيجاند حينما يكتب عن هذه المسألة بالذات أن ينقل نبوءة جاءت على لسان الكاتب والمفكر الفرنسي رينان بعد حوادث سنة ١٨٧٠ « أن الروس مثل تفين السماء الذى يكسب بذنبه النجوم فهو سيسوق في يوم من الأيام قطعان آسيا الوسطى من أتباع جنجيز خان والشعوب الصفراء ويزحف بها على أوروبا » . وهنا يتساءل الجنرال كيف يمكن السكوت لمدينة عريقة في مسيحيتها وتراثها القديم من تقدم الإغريق والرومان أمام هذا وتخضع لقوة إسيوية؟

قوة أوروبا في تسلحها :

ولذلك فلا أمل لشعوب أوروبا إذا لم تأخذ بأسباب القوة ، أى أن أوروبا لكي تحافظ على السلم يجب أن تكون شعوبها مدججة بالسلاح ، لأنها مهددة بالزحف الشيوعى والاستعمار السوفيتى ولا ينقذها سوى الاستعداد الحربى ، وأن يشعر أبنائها بضرورة الدفاع عن استقلالها وعن أراضيها وعن مدينتها المسيحية . ويوجه فيجاند السؤال التالى هل تملك أوروبا وسائل الدفاع عن نفسها وهى لديها الإمكانيات لتصد العدوان عنها ؟

هنا لا يتردد القائد الفرنسى من المجاهرة برأيه كما يأتى : « نعم إن بلاد حلف الأطلسنى تملك من الإمكانيات العسكرية ما يجعلها فى مركز أكثر ثباتاً من مركز روسيا وأتباعها » .

وهنا يقع الجنرال فى تناقض غريب لأنه حينما يتكلم عن أوروبا الغربية يضيف إليها إمكانيات الولايات المتحدة وتعداد سكانها . ثم يريد أن يدخل فى حسابه سكان المستعمرات ، ويقدم إلينا صورة مطولة عن إنتاج الحديد والصلب والنفحاس وغيره . ثم تنتقل من كل ذلك إلى أيام الحرب العالمية الأولى ، وكيف تمكنت مجموعة من الدول الديمقراطية من التغلب على ألمانيا القيصرية ؛ ثم

استعرض أخطاء الحلفاء بعد هذه الحرب ومواقف بريطانيا وأميركا من فرنسا في مؤتمرات نزع السلاح ، ثم في تأكيد نظام الضمان الجماعي .

وخلص من كل ذلك إلى أن ضعف فرنسا في سنة ١٩٣٩ يرجع إلى سياسة الحلفاء : التي لم نعرف كيف تعجب القوى في المدى الضروري والزمن اللازم لضرب الضربات الحاسمة ، وعليه أصبح الحلفاء بعد ست سنوات قضوها في حرب قاتلة في مركز لا يحسدون عليه إذ لم يتيسر لهم تحقيق السلام أو فرض إرادتهم على أي ركن من أركان العالم . وهنا يتضح خطأ سياسة حلفاء فرنسا الذي سببوا هزيمة فرنسا ١٩٤٠ . ولذلك جاء اتجاه الديمقراطيات ومعها أميركا إلى نظام عقد الموائيق وتأكيد الأحلاف وأخيراً إلى إبراز حلف الأطلسنطي الذي عقد في ٤ إبريل ١٩٤٩ حينما تفاهم شعوب ١٢ دولة على تأكيد إرادتهم ووضع مواردهم كلها للدفاع عن حرياتهم ومعتقداتهم ومدنيتهم وهي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والنرويج والدانمارك وإيسلندا والبرتغال ولوكسمبرج . وهذا ما كان الحتم الأخذ به بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة في ١٩٢٠ وفي نظر فيجاند أن هذا الحلف لا يؤدي إلى نتيجة ما لم تدعمه إرادة فعالة ورغبة أكيدة وقيادة حازمة . أي أن تسلم مقاليد لقواد فرنسا .

مركز قيادة حلف الأطلسنطي :

وكان أن الزائر لمدينة باريس في طريقه إلى فرساي يجد مركز قيادة أوروبا الغربية بهيئته الكاملة تحت قيادة أميركية باشتراك بقية الدول . ومن هذه القيادة صدرت الاتفاقات التي تخصص لكل دولة حصتها في التسليح وواجبها في الدفاع . ومن هذا الميثاق تكونت عدة لجان أهمها لجنة وزراء الخارجية ووزراء الدفاع وهي التي أشرنا إليها وهي لتحديد الخطط الكبرى والاتفاق على تنفيذها ثم لجنة رؤساء أركان الحرب ، ثم لجنة التسليح ، وكلها ترمي إلى غرض واحد : هو

تمكين أوروبا الغربية من إنشاء وتشكيل وحدات القتال الكبرى اللازمة لها .

حريث مع السفير باتشاردي وزير الحربية الإيطالية :

حدثني السفير باتشاردي وزير الدفاع الإيطالي في الليلة السابقة لسفري لمصر فقال : « إنه تسم في نهاية الحرب وحدات متفرقة من الرجال الذين قاموا بالمقاومة وساعدوا الحلفاء في حربهم ضد الألمان ، وكانت كل واحدة منها لا تتعدى مفرزة صغيرة من الجنود ومن مجموع هذه الوحدات أمكنه أن ينشئ في خمسة أعوام جيشاً إيطالياً » .

كيف بنم إنشاء فرقة :

ثم قال « إن عمله الأساسي حينما يريد أن يشكل فرقة مدرعة هو تدريب الكادرات اللازمة للفرقة من سائق إلى مهندس إلى جندي إلى صف ضابط مختص . قال إن عملية التدريب تأخذ سنتين حتى إذا أخذ التجهيز سبنة أخرى ثم يتسلم أفراد الفرقة المعدات التي سبق أن تدربوا وتمرنوا على ما يماثلها فتخرج الفرقة إلى الوجود كوحدة قائمة بذاتها مستعدة لدخول الحرب » . وهو رجل قدير أدى لبلاده أكبر الخدمات في هذه الفاحية

٣ قيادات :

ويظهر أن نظام الحلف أدى إلى إيجاد ثلاث قيادات أو حكمداريات كما جاء في الكتب العسكرية القديمة : قيادة الشمال وقيادة الجنوب وقيادة الوسط التي أسندت إلى الجنرال جوان المندوب السابق في مراكش .

وجوان من خريجي دفعة ١٩١٢ في سان سير كان رفيقاً لديجول ، وقد سجنه فرنسا من مراكش لكي تضعه في صف إيزنهاور ومونتجوسرى حتى

تستعيد ثقتها في العسكريين من رجالها^(١) .

رأى فرنسا :

وحيثما تتقدم فرنسا بجوان نعلم بأن لها استراتيجية خاصة ومذاهب عسكرية معلومة في الدفاع عن أوروبا ، فهي لا تسلم أولاً بوضع جيشها بأكمله تحت تصرف قيادة الحلفاء بل تحاول أن تجعل لها جيشين : الجيش المكون من الفرق المسلم بها في حلف الأطلسي ثم الجيش الوطني الذي يحتفظ به لحماية مستعمراتها . ويقول القواد الفرنسيون أن خط الدفاع الأول لأوروبا أي لقيادة الوسط هو نهر الرين معتمداً على جبال الإلب ، ثم يعودون فيقولون إن المجال المتروك أمام تحركات الجيوش في هذه الحالة ليس بكاف ، ولذلك يرغبون في امتداد خط الدفاع الأول حتى يشمل ألمانيا الغربية بأكملها أي ما بين نهري الرين والإلب ويقولون إن عمق الدفاع الأوروبي يستلزم أن تستند في مؤخرته على أفريقيا الشمالية ، ولما كان البحر المتوسط يفصل ما يسمونه بالكتلة الأورو-أفريقية ، فإن شرائط الدفاع الغربي يستلزم السيطرة التامة على هذا البحر ، وهذا من طبيعته يجعل الأعباء التي على إيطاليا لا يستهان بها ، لأن خط الاتصال مع القارة يحتم السيطرة التامة على صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية إذا أخذ في الاعتبار أن منطقة الدفاع في جبال الألب ستكون أولى المراكز الأمامية ، أي أن المقاومة في المرتفعات الألبية تحتم أن تكون إيطاليا مركزاً للتموين وقاعدة للامداد في حالة القيام بالهجمات المضادة التي ستعقب الدفاع عن أوروبا .

رأى أمبر : b

والمبدأ الذي يأخذ به الأميركان هو ضرورة الاعتماد على إسبانيا علاوة على

(١) اشترك في فتح مراكش والحرب العظمى وحرب الريف وحرب ١٩٤٠ ومعسارك تونس وصقلية وإيطاليا وفي تحرير فرنسا وكتب تاريخ الآلاى الأول للقناصه المراكشيه .

إيطاليا لأن أوروبا الغربية وحدة لا تتجزأ ؛ فلا يصح أن يبق جزء من قواتها المسلحة لا تشترك في هذه المعارك ، ولذلك يضعون تسليح إسبانيا في مقدمة البرامج ... ثم يحملون من ألمانيا الغربية حجر الزاوية لكل تفاه عسكرى . ولم نعرض للآن لشيء من النظريات الألمانية الخاصة باشتراك بلادهم في هذا الدفاع رغم دعوتهم — أى القواد الألمان — لإبداء الآراء من وقت لآخر .

رأى الجنرال جودريان الألماني :

ولقد تعرض لهذا البحث الجنرال جودريان Generaloberst Gudrian الذى عمل طويلا كمفتش للقوات الألمانية المدرعة ، تعرض لذلك في كتابين : الأول « هل يمكن الدفاع عن أوروبا الغربية^(١) » ؟ والثانى « هذا ما لا يمكن أن يدوم ! »

أثارت الأبحاث التى نشرها جودريان وتنبؤاته ضجة وسط الأوساط العسكرية . وقد نشرت الموند ترجمتها الفرنسية في أعدادها وعلقت عليها ، أما الكتاب الأول فقد قرأته في أصله الألمانى .

مقارنة بين المذهبين :

ولا يمكن المقارنة بين النظريات الفرنسية التى عرضها فيجاند ، وهذه الأبحاث لأن فيجاند والقواد الفرنسيين لم يحاربوا الروس كما حاربهم القواد الألمان والذى يؤخذ على الفرنسيين هو ما يسمى بالموقف المقيّد بالتزامات ، أى أنهم يضعون شروطا قد يصعب إجابتها ، فهم مثلاً يريدون أن يحددوا من تسليح ألمانيا ، ويريدون أن تكون فرنسا ومعها إيطاليا في المقام الأول بدلا من يكون الاتصال بأوروبا عن طريق إسبانيا والبرتغال . وبينما يشير الألمان إلى

(1) Kann Westeuropa verteidigt Werden, «Ca ne peut pas durer» راجع كتابي:

أهمية جبال البرانس كخط دفاعي ثان ، يلح الفرنسيون على اعتبار الأناب
الخط الأول . وإذا نظروا إلى البحر المتوسط قالوا إن أساس الدفاع عن أوروبا
هو شمال أفريقيا أى المستعمرات الفرنسية تونس والجزائر ومراكش ، ولذلك
تمكن مندوبهم فى هذا العام من التصريح بأنه لن تقوم فى مراكش حكومة
شرقية مائة فى المائة ، أى إسلامية مستندة على رأى أهل البلاد والمؤسف أنهم
أقنعوا العالم بذلك .

الحرب العالمية الثالثة فى نظر جودريان :

ويقول جودريان إن الحرب القادمة لن تكون مثل ما تقدمها من الحروب
لأن الحرب الثالثة تتطلب أولا : حماية القوات الاحتياطية ثم المراكز الصناعية
ثم القواعد الجوية قبل كل حساب . وتكلم عن طريقة إدارة الحرب المدنية فى
الجو والبحر ، وأن العمليات الأرضية لن يتحقق لها النجاح إذا لم تدرس تماما
وسائل حماية السكان الوطنيين أولا ، وأن يحسب لها حساب .
وحينا تكلم عن دعوة الشباب الألماني قال كلمة داوية : هل نحن رفاق فى
السلاح أم جنود مرتزقة ؟ وأشار بحنكة إلى تردد الإنجليز فى موقفهم إزاء ألمانيا ،
وأنه لم يكن فى يوم من الأيام موقفاً ودياً ، وأن فرنسا تحارب دائماً وتقف حيزر
عثرة فى سبيل تسليح ألمانيا . ثم قذف بالحقائق التى يجب أن يلم بها بإنجلترا
وغيره من قواد الحلفاء إذا أريد حقيقة إنقاذ أوروبا ، منها ما هو سياسى يتعلق
بتحقيق الوحدة الألمانية ، ومنها ما هو عسكري وأولها : تحقيق المساواة التامة فى
الحقوق : أى فى القيادة والتسليح . وقال إن الحلفاء الذين حطموا أوروبا لىكى
يكسبوا الحرب لم يضمنوا السلم ولا حقوقه ، وإن ما يقال له حرية ديمقراطية
وحقوق إنسان لا تزال أمام الألمان آمالا ومرايا لا حقائق ملموسة . واستمر
يدافع عن وجهة نظر بلاده بإحساس الرجل الذى قدم علمه كجندى وفنه العسكرى
والذى يفس من بعيد الأخطار القادمة .

أما في كتابه الآخر فقد ذكرنا لمحة تاريخية عن الهجمات التي تلقتها أوروبا من الشرق ، وهو هنا يقول أن الأربعين فرقة التي تحاول قيادة الأطنطى خلقها كقوة تصادمية أولى لا تكفى لصد هجوم الشرق الخاطف ، وأن الدفاع الأوروبي سيستند فى النهاية على جبال الألب وجبال البرانس .

لقد طلبت حكومة ألمانيا الغربية الدخول فى موافق أو الحصول على تعهد بضمان عدم الاعتداء عليها ، فكان الجواب ألا يكفى وجود جيوش الاحتلال فى أراضيك ؟

وكان تساؤل القادة الألمان ومن يضمن استمرار بقاء جيوش الاحتلال عند قيام حرب فى أراضينا ؟ ولم يتلق الألمان إجابة صريحة .

* * *

رأى المؤلف فى الدبلوماسية :

تجتمع السياسة مع الاستراتيجية ثم مع علم الاقتصاد ، ويحتاج السياسى إلى شىء من طول الأناة ، فما هو إلا باحث ينظر إلى الحقائق ويستخرج منها نظرة إيجابية ، وللوصول إلى شىء من ذلك يلزم أن تتكون لدى السياسى حاسة سادسة ، هذه الحاسة هى أساس الدبلوماسية الحديثة ، أنه لا يخلق للمشاكل بل يحلها ويشعر بها قبل أن تستفحل فيتحاشاها .

أقول هذا وبين يدي تقدير أولى للقوات المحاربة ، التى باستطاعة الديمقراطيات حشدها :

فرق مدربة

٣٠ فرنسا

٢٠ تركيا

٢٠ أسبانيا

٥ بلجيكا

فروق مدربة

- هولنده
- النرويج
- البرتغال
- الأمم العربية مصر وسوريا ولبنان والعراق والمملكة الأردنية

خمسة فروق للدول العربية غير كافية :

ولقد علمت من هذا التقدير أن أعطيت للأمم العربية خمس فرق، وهي على ما أعتقد لا تنقص عن خمسين مليوناً من النفوس إن لم تزد. وما مقدار خمس فرق في تقدير العالم الديموقراطي الحر أعطى لبلجيكا وسكانها سبعة ملايين .
ورأى كالرأى الذى أبداه جودريان : أتساءل .
« أرفاق فى السلاح أم جنود مرتزقة ؟ » .

وأول شرط هو التكافؤ والمساواة العامة فى التسليح والقيادة ، وأهم منها الحرية والاستقلال للأمم العربية المستعبدة قبل أى خطوة للأمام : استقلال تونس ومراكش والجزائر ، وحقوق الإنسان للشعوب المسلمة .
فهل يسمع لنا صوت ؟ وهل نصل إلى التسليح كاملاً ؟
سؤال يجيب عنه الغد ...

الامة المسلحة لا تخشى الحرب!

« الروح العسكرية هي التي تخلق العزيمة ، وتوجد السلاح ، وتقلب الهزائم نصراً . . . إننا لا نخاف الأخطار بل نحبو إليها . . . »

حينما أمضيت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، تلقى العالم هذا النبأ بتحفظ زائد . وكان اهتمام الصحافة الأوروبية بهذا الحدث لا يقل عن اهتمام الصحافة في مصر وفي أنحاء العالم العربى ، ولكن اهتمام الجلات التي تعبر عن الرأى الصحيح كان أفصح من الجرائد اليومية ، فقد تبعت ما كتبه بعض الجلات في فرنسا وإيطاليا ، ووجدت شبه إجماع بين غلاة المستعمرين بالقول : « إن هذه الخطوة داليل على تفكك سيطرة الأوربيين ، وإنه إذا كانت بريطانيا قد عجزت عن حكم أمة شرقية ، فلتترك المكان لغيرها من الأمم الأوروبية . الناهضة لتحكم مصر ؛ فهي أعرف من غيرها ، وأقدر من الانجلوساكسون على ذلك » .

وحينما زار ملك إيطاليا القاهرة والأقصر ، نشرت الحكومة الفاشية كتيباً جاء فيه إن الرمال التي تغطيها بقدميك قد ظللتها قبل عشرين قرناً أعلام روما وداستها أقدام جحافلها ، أنها لا تزال تتعرف إليك وإلى إيطاليا باعثة .
مجد روما !

وأترك للقارىء أن يزن معنى هذا الكلام . . . لأننا لا نزال نواجه بعض هذا في ناحية الشرق بعد أن تحطمت إمبراطورية موسولبنى ، إننا نسمع لفظاً من إسرائيل ، ولست ألقى هذا القول جزافاً لى نرتى في أحضان الغير ، وإنما أقول : إننا يجب لى نحيا أن نكون أقوياء أى نصير « أمة مسلحة مدججة

بـالسلاح» لا تخشى الحرب ولا أهوالها ولا متاعبها . وأن الروح العسكرية يجب أن تغرس في النفوس غرساً ، فهي التي ستخلق العزيمة الجبارة فينا ، وستوجد السلاح لنا ، وستعلمنا كيف نغلب الهزيمة نغماً وكيف نحبو إلى الأخطار . . . حينئذ ندعو أنفسنا أمة ، ونقول نحن أبناء مصر القاهرة . التي انتصرت على الأحداث والأقذار ، وقدمت في الحروب الصليبية مليونين من أبنائها ، وطوت أعظم صفحات الخلود ، وكتبت أكبر ملاحم الحروب .

في تلك السنة أى ١٩٣٦ وكنت أشغل وظيفة قنصل مصر العام بالقدس ، زارنى بريطانى يشغل منصباً كبيراً بحكومة فلسطين ، ورجانى أن ألقى حديثاً بالإذاعة عن المعاهدة وما حققته لمصر من أهداف ، وكنت أجهل الدوافع الحقيقية لرجالنا بمصر ولم أكن قد تعمقت في الأمور ، فخيّل إلى وقتئذ أن المخالفة الجديدة التي وقعناها قد جعلت مصر طليقة في زيادة قواتها العسكرية ، وأنها ستسير حتماً نحو استكمال أهبتها ، وتكوين جيش حديث وطبقة من الضباط الممتازين ، الذين يصح أن يعتمد عليهم في وضع الخطط ورسم القيادة وسوق الجيوش ، فأشرت إلى كل هذا في حديثي وأطلت القول ، وجاءت محطة الإذاعة فنقلت كل ما قلت إلى الإنجليزية وإلى العبرية .

ثم مرت الأيام فنقلت بسرعة بعيداً عن القدس ، وجاءت السنوات تتري فلم أعلم ما ذا حدث ببلادى بين ١٩٣٦ و ١٩٥٠ ، ولم أتبع عمل البعثة العسكرية البريطانية ، وكنت أجهل حقيقة أسباب النزاع بين شاغلي منصبى رئيس هيئة الأركان حرب ومفتش عام الجيش ، ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، وكان أول واجب شعرت به هو أن أتقدم بطلب كتابى لوزارة الدفاع أعرض عليها تجنيدي للدفاع عن بلادى ، ولسكى أنضم إلى إحدى الوحدات المقاتلة في الصفوف الأمامية ، وكان هذا الطلب عن طريق وزارة الخارجية إلى وزارة الحربية . تقدمت بهذه الرغبة علماً منى بأننا سنقاتل بل لقد كنا نشوق بعد إعلان

الحرب إلى أمرين :

الأول : اشتباك القوات المصرية للدفاع عن أراضيها بمجرد اقتحامها من قوات المحور .

الثاني : انتهاز فرصة قيام الحرب وحاجة الحلفاء إلى الجنود لإعادة تدريب الجيش المصري وتسليحه وتسليحاً حديثاً حتى يقوم ببعض الأعباء والواجبات المفروضة على أمة حديثة حية تتطلع أن تجاس وسط الأمم الحرة المجاهدة التي كتبت التاريخ بدماء أبنائها .

في هذه الأثناء تلقيت أمراً بالسفر إلى بيروت ، وتسلم على سوريا ولبنان حيث واجهت أيام الحرب بطولها إلى أن عدت في النصف الأخير من عام ١٩٤٤ ولقد رأيت فيها الكثير من العجائب التي فتحت ذهني وعلمتني من شئون بلادي ما لم أكن أعلم .

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية وجاءت بعدها حرب فلسطين وأظهرت تجاربها ودروسها صحة ما تنبأنا به ، وحقيقة ما كان يحول في أنفسنا ، وتحت دروس المعارك والهزائم والضعف والتفكك والانهييار ، . . اتجهت الأنظار إلى زيادة قوات الجيش المصري ، وإعادة تسليحه ، وتخصيص الملايين لتدعيم وحداته الفنية وقواته المدرعة وتهيئة مصانع حربية ومنشآت له .

ولما أعلن هذا البرنامج وهو نفس البرنامج الذي كان يحول بخواطرنا سنة ١٩٣٩ ، وكنا نؤمل أن يتم بكامله أو ما يشبهه ابتداء من تلك السنة أي عقب توقيع معاهدة التحالف ، لأن أولى بسائط الحالفة أن يقوى الحليف حليفه وأن يشد أزره ويبسط له الثقة ويدربه على الرماية ويعلمه من فنون الحرب وأمور الحيل والمخاتلة في الحروب ما لم يكن يعلم .

في تلك اللحظة نشرت جريدة الأهرام مقالا للمرحوم إسماعيل صدقي جاء فيه : « إن خلق جيش جديد وأدوات دفاع جديدة تشمل البر والبحر

والبحر لا يخضع لقواعد ثانية أو لمبادئ مقررة ، بل هو وليد السياسة الدولية والظروف الخارجية » .

ولم أكن يوما على وفاق مع أفكار المرحوم إسماعيل صدقي ، بل لقد اختلفت معه في بعض ما جاء بمذكراته عن جغوب ، ونشرت أقوالى تصحيحاً لحواشها ومشاكلها ، وأظهرت أن جانب المفاوضين المصريين كان ضئيلا للدرجة لا تستحق أن تكون موضع افتخاره رحمة الله عليه .

ومع هذا ، فإنى أشهد له بأشياء كثيرة أهمها في نظرى شجاعته النادرة وجسارته في مواجهة رأى العام بالحقائق التى يؤمن بها وبمحجته ومنطقه ونصائحه التى لا تنقصها الصراحة والتى عرف دائما كيف يصيغها فى أسلوبه الخاص الذى يريد أن يفهمه به الخاصة حينما يقرأون ما بين السطور ، والتى لا يقدر خصومه على التمسك بحرف واحد منها لمهاجمة الحقائق التى يسوقها .

الحق أقول أننى أعجبت بهذا المقال وأعجبت بموقف المرحوم توفيق دوس منه وإن كنت أقول أن ما تقوم به مصر اليوم من تحمل أعباء التسليح وإيجاد جيش قوى ، سياسة كان من الحتم الأخذ بها فى المدة بين ١٩٣٦ و ١٩٤٠ ، أما اليوم فقد أصبح عبء التسليح فرضا على الدول الديمقراطية التى تقول أنها تريد منا أن نكون حلفاء لها ، فانا أقول أن السياسة التى يجب أن نأخذ بها هى سياسة الأقوياء ، يجب أن نكون أمة مدججة بالسلاح لىكى يحترمنا الصديق والحليف ، ويرهبنا العدو ولا وسط لذلك .

فإذا قال المرحوم إسماعيل صدقي :

« إن الدول ركزت عنايتها واهتمامها فى إصلاح حال سكانها » .

فهذا صحيح ومسلم به ، ولكن هذا لا يكفينى من غير جيش قوى ، وإذا قال :

« إن الدول عنيت بالتكتمل والتفاهم اللذين يحميانها من خطر الاندفاع وراء نفقات التسليح الباهظة » .

فهذا معناه الدفاع المشترك أى تلقى معونة التسليح من الغير ، ونحن نسلم بالتسليح الكامل ، ولكن على طريقتهما وبشروطنا .

ولذلك نفترض أمرين : الأول التسليح الحديث كما تفهمه دول أوروبا أى إلى نهاية ما يمكن أن يكون عليه هذا التسليح ، فنحن لا نقبل الدفاع المشترك إلا وهو مقترن بتسليح عدة فرق حديثة لا تقل عن خمس فرق فى المرحلة الأولى . فهل الديمقراطية مستعدة لذلك ؟

الثانى لو سلمت لنا بالتسليح الكامل لا نفهم أن المبالغ المرصدة للدفاع فى ميزانيتنا توجه إلى غير الجيش كما يفهم من كلام المرحوم إسماعيل صدق ، بل يجب أن تبقى كما هى ويزاد عليها .

لأننا نطلب أن تصرف هذه المبالغ على المدارس العسكرية ، وعلى تهيئة الجيش لاستيعاب (٢٠٠.٠٠٠) مائتى ألف مجند مصرى كل سنة ، أى أننا نطلب من حكومتنا أن يصل كادر الضباط إلى أكثر من عشرين ألفاً من الضباط المدربين تدريباً كاملاً على فنون الحروب الحديثة ، ونقصد من هذا أن يكون احتياطى الضباط فى الجيش مكوناً من كل مصرى حامل لشهادة عالية .

فالهندسون المدنيون هم ضباط مهندسون بأكملهم .

والأطباء » » أطباء »

والمحامون والموظفون وسائر حملة الشهادات ضباط بالجيش كافة من غير استثناء واحد أو إعفاء واحد .

فأنت ترى أننا أمام برنامج ضخم يتطلب من الرجال المسئولين تهيئة جيش عظيم لا يقل عن جيوش الأمم الراقية ، وينتهى بنا إلى الجمع بين إنشاء الجيش

المعنى L'armée Porofessionelle ، وخلق الأمة المدججة تحت السلاح أى التى بوسعها أن تقذف فى الميدان بما لا يقل عن عشر فرق مدربة ومنظمة لتحمل أعباء القتال أمام جيوش أوربية منظمة على أحدث طرق القتال .

فهل يكون الثمن الذى ندفعه للدفاع المشترك كبيراً علينا ؟ . لا أننى لا أفهم دفاعاً مشتركاً أو تحالفاً مع هيئة الأمم المتحدة أو مع الديمقراطيات لا يكون أساسه الجيش اللجب والمعونة العسكرية التى تبذل عن طيب خاطر فى جانب من يدعوننا للتحالف والدفاع المشترك .

إن واجبنا يحتم علينا أن يكون بالجيش مجموعة من المعاهد والمدارس والمعسكرات التى تخرج كل عام آلاف الضباط وضباط الصف وعشرات الآلاف من الجنود المدر بين على القتال وحمل السلاح ، وندخول المعارك فى الليل وفى النهار ، وفى آسيا وأفريقيا وأوربا فى البحر والبر والجو ، وفى زمهرير البرد والثلج وتحت الشمس المحرقة .

إن العزيمة القوية هى التى تخلق هذه الأداة الجبارة ، والتى يجب أن يأتى إليها السلاح والعتاد والذخيرة من غير أن تتحمل مصر ملياً واحداً ثمنها لها . إننا نسند قوتنا الرجال المحاربين . فيأتى إلينا السلاح كما يأتى إلى سائر الأمم والشعوب التى أقسمت أن تعيش حرة فى هذا العالم .

فهل هناك إرادة حاسمة وعقيدة ثابتة وعزيمة تعمل إذا وعدت ، وتعرف كيف تجعل كفاح المصريين دائماً وإرادتهم غالبية ومشيتهم محترمة ؟
إننى لا أشك لحظة واحدة فى أن طريق العمل واضح سهل بين كما عرضته .

ولسكن الوقت يمر سراعاً ، ونحن جامدون فى مراكزنا .

ومرة أخرى أقولها بكل صراحة :

« إن الرأس المفكر هو الذى يكتشف طريق الصواب ويستمر على

السير فيه » .

ويومئذ أومن إيماناً راسخاً بأن شهداءنا وضحايانا كانوا الطليعة الأولى التي قادتنا إلى حياة أرقى وأسعد وأقرب إلى المعقول والمنطق ، من الحياة التي نحياها اليوم .

بالجيش نبداً ، لكي تثق الدنيا فينا ، لنشعرها بأننا نعمل تحت قيادة حازمة . وأن هذه القيادة قد قررت أن تقطع بنا مرحلة التخلف والتأخر التي نعيش فيها ، إلى مرحلة الحياة الحرة الصحيحة ، ورحم الله أبا الطيب حينما قال :

فلولاك لم تجر الدماء ولا اللهى ولم يك للدنيا ولا أهلها معنى
وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

وإني أوجهها إلى الجيش المصرى عنوان المجد القادم علينا . ذلك الجيش الذى أرجو ألا أترك هذا العالم قبل أن أودى خدمتى فيه ، إذا دقت ساعة الأخطار ؛ كما خدمه وقاتل فى صفوفه أبى وجدى من قبل .

نشرت فى أول يونيو ١٩٥١ بمجلة العا العربى .

ماذا نعمل؟ وأين الهدف؟ وإلى أين المصير؟

يتطور العالم منذ سنة ١٩٤٧ ، وتسير الشعوب نحو التحرر والاستقلال والتقدم المادى والإنعاش الاقتصادى ، فالأمم التى أنهكتها الحرب مثل بريطانيا وفرنسا وغيرها من غرب أوربا ، قد استعادت قدرتها الإنتاجية بل زادت عما كانت عليه سنة ١٩٢٩ ، حتى الأمم التى حاربت الديمقراطيات مثل إيطاليا وألمانيا واليابان . قد انتقلت من منصة الأعداء إلى منصة الأصدقاء ، أى أخذت مكانها بين الأمم الحرة وبدأت تستعيد قوتها الإنشائية وتضاعف إمكانياتها الإنتاجية وتسير بخطوات وثيدة نحو استكمال تعبئتها الدفاعية وإيجاد جيوش لها وما يقال عنها قد ينصب على مجموعة غيرها من الشعوب الآسيوية والأفريقية . تعمل وتكافح فى طريق التطور والإنشاء والتعمير .

وتنفرد مجموعة من الشعوب بموقف التردد والجود ، هى الشعوب العربية .. إنها تنتظر وتؤمل فى الأقدار ونتائج تطور الحرب العالمية الثالثة ، لى تفكر فى تقرير مصيرها ومستقبلها بين الفريقين الشرقى أو الغربى ..

أما أنا فأقول : أن الشعوب العربية إذا تحررت حقاً وخرجت إلى الحياة الطليقة الصحيحة . فإنها ترحب بمن يواجهها بالحقائق ، بل إنها لا تبخل عن تقديم البذل والتضحية ، وأن تشترك فى الحرب القادمة ، وأن تحمل أعباء الحياة الحديثة . نعم : إذا أيقنت هذه الأمم وآمنت بأن ضماياها ستكون الطليعة الأولى التى تسير نحو تحقيق حياة أرقى وأسعد وأقرب إلى المعقول والمنطق من الحياة التى تحياها اليوم ..

تلك هى الصيحة التى وجهتها ولا أزال أوجهها وأجهر بها وإنى أمام الأحداث.

العالمية القادمة علينا ، لا أترجع عن هذه الصيحة ، بل أرددها أمام أبناء الشعوب العربية الأحرار وأنا واثق من أن فريقاً منهم سيعارض ما أقول ولكنه في النهاية سيرحب بكلماتي .

لأن الكثيرين سيشعرون أنني أؤمن بالقوة الكامنة في الشعوب العربية ، وأعرف أن تلك القوى لم تمتحن بعد ، ولم تواجه المصاعب والمشاكل التي تصهر الأمم لكي تظهر عظمتها وقدرتها وفعاليتها للعالم ، وأنه لا سبيل لكي تقر لنا الإنسانية وشعوب الأرض ، بأننا أم حية نعيش في القرن العشرين وبوسعنا أن نعمل ما يعمله الغير ، إذا لم نُبرز هذه القوة الكامنة وقبل للمعركة ونحارب في صفوف الشعوب الحرة المجاهدة .

أما الموقف السلبي فلم يعد يكفي في هذا الزمن لأن العالم الذي نعيش فيه يسرع الخطى ، وكل يوم يمر ينتقل فيه هذا العالم بشعوبه إلى مرحلة جديدة ، إذن ، لا معنى للوقوف والجود ، والاكتفاء بالعيش أمام سراب الآمال والعواطف والأقوال ، وإلا ، فما الذي علمناه لأنفسنا إلى اليوم ؟ وما الذي بنيناه وأنشأناه بأيدينا من عظام الأعمال ؟ أننا لا نستطيع أن نقدم دليلاً واحداً سوى أننا لم نوافق في السنوات التي أعقبت الحرب سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً .

فما هو هدفنا ؟ وماذا ننوي أن نعمل ؟ وأين يكون مصيرنا ؟ سؤال لا إجابة له

أما الثورات التي قفنا بها في الثلاثين سنة الماضية ، فقد قامت ثم هبطت ، ولم تغرس في نفوس الناس تلك الدواقر النفسية والخلقية التي تحمل طابع الدوام والاستمرار . واليقظة الشاملة .

إنها لم تكن وليدة ذلك الإحساس الثوري والجماعي الذي يلزم الحركات القومية الكبرى ، ويسرى في النفوس سرعان النار في الهشيم ، فيؤثر في حياة الأفراد والجماعات والأحزاب والشعوب فيجعلها جميعاً تؤمن إيماناً راسخاً جماعياً برسالة الشعوب وضرورة انتقالها من حال إلى حال ، أو بتبليسها تلك الإرادة

الحاسمة التى تفرض عليها قطع مرحلة معينة فى طريق التحرر الفكرى والانطلاق
الذهنى وتأكيد شخصيتها وتصميمها للسير فى طريق التقدم والرقى ، أو الخروج
من فوضى القرون السالفة وغمرات الانحلال والتفكك . .

إن ما يسميه الناس ثورات ، ما هى إلا حركات قامت فترة ثم نامت
أو تسربت فى الطرق والمخارج التى أراد بعض القادة ان تنفس فيها تلك الحركات
حتى لا تحقق للمصلحة العامة الأهداف الكبرى التى تسير فيها الحركات الشعبية
المماثلة لها فى كافة بلاد العالم الحر .

ودليل على ذلك ، ماترونه من مظاهر الخراب والتأخر فى كل بلدان العرب
وفى جزء كبير من الشرق الأدنى .

وإلا فآين التمس المفروض ان تحاط به المصلحة العامة لدى هذه الشعوب ؟
إن الروح المتحكمه والسائدة فى أوساطنا هى بلا شك روح تغلب عليها
الانفرادية والمصلحة الذاتية ، وهى التى تمثل الدوافع الأساسية لعمل الأغلبية
الساحقة من الأفراد والجماعات .

فأقول بأن هناك ثورات قامت فى البلاد العربية ، وان هذه الثورات قد
نقلت هذه الشعوب ، قول فيه الكثير من المبالغة والتفاؤل الذى لا يتفق مع
الواقع ، بل يحمل فى ثناياه طابع العرور والتخدير ومايجره من الأخطار على مستقبل
هذه الشعوب .

بقى السؤال الآتى : لماذا لم تنجح الحركة العربية التى قامت سنة ١٩١٦ ؟
والجواب على هذا السؤال سهل واضح لا يتطلب عنتاً . وهو أنها ، أى هذه
الثورة لم تكن فى الأصل والمبدأ عربية ، بل كانت من عمل أيد أجنبية ،
فلو كانت أصيلة فى عروبتها أو إسلاميتها ، لماوقف أمامها حائل ولوكانت تغلبت
بإرادة الله ممثلة فى إرادة الشعوب على كل ما قام فى وجهها من عقبات .

ولكنها كانت تمثل ذلك الفريق الذى لم تتحرر منه البلاد العربية —

وهو الذى يريد أن يصبغ رغبته الانفرادية ومصالحه الذاتية على مقدرات الشعوب العربية وهى تجاهد لى تنهض وتستقل وتنعم بالحياة الحرة والمثل الديمقراطية الصحيحة .

لجأت النتيجة المحتومة والمنتظرة ، وهى أن ذلك الفريق أحاطها بالقيود والأغلال وسلمها راضياً للدولة الغاصبة ، بدلا من أن تنعم بالمثل العليا التى حاربت من أجلها .

والغريب أنه لا يزال وسط الصفوف ، وفى الطلائع ومن بين الذين يتشدقون بالوطنية شراذم ، من هذا الفريق وهم الذين ما زالوا يلعبون بالنار على حساب مستقبل الأمم العربية كافة . وتتسائل ولا إجابة لهذا السؤال : لماذا اختير هؤلاء بالذات لتصدر الحركات العامة ؟ .

ولماذا يقفون فى المقدمة بعد أن أنت الهزائم على أيديهم وبعد أن لازمهم سوء الحظ والطالع فى كل عمل تولوه ؟ هل نصدق حقاً أنهم كانوا يجهلون أمراً المعاهدات السرية التى قسمت أملاك الدولة العثمانية إلى دويلات ومناطق نفوذ بين الدول الكبرى ؟

أكانوا حقاً لا يدركون معنى وعد بلفور ولم يسمعوا به ؟
نعم ما هى علة تواردهم وتزاحمهم على مفاوضة وايزمان باسم المرحوم الملك فيصل — طيب الله ثراه — ومن غير علمه ؟ .

إن هذا الفريق الذى استمر يقودنا إلى المهالك كان ضعيفاً فى عمله قاصراً فى تفكيره ، ولهذه الأسباب بالذات اختير لعمل معين أداه فأحسن أدائه للمستعمر ، ولا يزال هذا الفريق يتصدر الحركات العامة ، لى تأتى الأرزاء على يديه مقرونة بالنكبات .

فهل من عجب إذا نادينا بأننا لا نريد أن تكرر هذه المأسى مرة أخرى فى تاريخنا ؟

ولذلك قلنا : نريد وعياً جماعياً ونهضة شعبية شاملة ، ولا سبيل لذلك سوى أن نقاتل في الصفوف الأممية وأن تكون علاقة أمم العرب مع الديمقراطيات علاقة أم حية قد تملكها الوعى القومى الصحيح وأننا كشعوب نمد يدنا بشجاعة وإخلاص حتى لا يقال عنا فى المستقبل كما قيل عنا فى الماضى ، إننا كنا نساق كالأنعام أو كحمر مستنفرة .

إننى لا أزال أفرق ما بين الديمقراطيات الكبرى وفرنسا ، لأننى أعرف تماماً كيف قوبل عدوان فرنسا على استقلال كل من لبنان وسوريا من جانب الديمقراطيات ، وكيف دفعت هذه الأذى عن البلدين ، لقد عشت فى غمرات تلك الفترة التى يعرف أسرارها الكثيرون من أحرار السوريين واللبنانيين ، وهى أمور لا تحتمل الجدل ولا يأتىها الشك .

ولقد كنا نطمح ونؤمل فى أن تسير حركة التحرير نحو أمم شمال أفريقيا ، وكنا على مقربة من النجاح لو عرفنا كيف نوجه أمورنا الوجهة الصحيحة فى السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة .

ولكن رجال العرب ساروا فى خطة أخرى . إذ لم تظهر دلائل نيتهم فى أن ينقلوا الشعوب العربية أو يدفعوا الجماعات الناهضة بايمانهم وتوجيهاتهم وخططهم وعملهم وجهادهم المنظم وكفاحهم الصامت — من حالة الفوضى التى تركها الاستعمار عليها — إلى حياة الأمم القادرة على مواجهة متاعب القرن العشرين وما تستلزمه من تصميم وتدريب وعمل منظم .

إننا كنا ندعو الأمم العربية أن يكون السلم الذى تعيش فيه كفاحاً دائماً . وأن يكون عهد الرخاء والسلم المدعم بالتصميم والعمل المنظم ثورة دائمة .

أما ونحن لم نستفد شيئاً من دروس وتجارب الحرب العالمية الأولى ولا الحرب العالمية الثانية ، ولم نحمل أعباء المعارك فقد كنا نعيش على هامش الحرب ، وكنا موضع سخرية الطرفين وتكفينا إشارة رجال المحور لنا : « حكومتكم حيادية

وأراضكم تحاربنا » فهل نقبل هذا الوضع لأنفسنا مرة أخرى ؟ لا .
لقد اشتركت في الحرب الأخيرة أم كثيرة ، وجاءت فرنسا بكتائب من
إخواننا المغاربة وأصدقائنا السنغال في كل الميادين فهل يكفي هذا ؟ لا .

إن ما أناذى به هو قتال الند مع الند ، أى العمل نحو وضع شعوب العرب
وضعاً أوروبياً مثل الأمم الحية التى تتلقى المعونة كاملة فى التسليح والتدريب وفى
الانعاش الاقتصادى والمالى وأن تشترك فى المؤتمرات وتنسيق القيادة ورسم الخطط
إننى أطلب أن تثق الديمقراطيات فى رجالنا وفى نياتنا وآماننا . ولذلك أطلب
التسليح إلى نهاية ما يمكن أن يكون عليه التسليح الحديث ، كما تتسلح الآن
إيطاليا وفرنسا ثم ألمانيا وأسبانيا . بدون أن تتحمل أعباء هذا التسليح من مالها .
إننى أطلب المعونة للانعاش المادى كما تقدم تلك المعونة فى أوروبا وأمريكا
وللوصول إلى ذلك يجب استعادة الثقة المتبادلة بين الشعوب العربية والشعوب
الديموقراطية ولنبدأ نحن بالخطوة الأولى وهى نبست بعسيرة !! ما علينا إلا أن
نبرهن للعالم أجمع أننا أهل جد وعمل وبذل وتضحية وفهم لحقائق الأمور .

وأول مظاهر هذه الخطوة : الدعوة إلى الاقتصاد التام فى كل مظاهر الترف
والكفايات ، وأهم ما نعى بهذا القضاء على تضخم الوظائف الحكومية وقفل
أبواب الصرف المخصصة للانفاق على المظاهر ، أى أن تقتصر الميزانيات العامة
للدول العربية على الضرورى النافع الذى لا يحمل طابع الدعاية والتهويل
والترغيب والإغراء .

من هنا نبدأ ، لنثق الدنيا فينا ، لنشعرها بأننا نعمل تحت قيادة حازمة وأن
هذه القيادة قد قررت أن تقطع بنا مرحلة التخلف والتأخر التى نعيش فيها إلى
مرحلة الحياة الحرة الصحيحة .

لقد وُظنت الديمقراطيات أنفسها على رسالتها العالمية فهى لا يهمها إذا قلنا أننا
كفرنا بها ، وإن كانت ترحب بأية حركة تقدمية تبدو فى صفوفنا ، أما إسرائيل

التي لا تنفك تتحرش بنا الآن ، فستقف عند حدها وتفكر مرتين حينما تلمس لأول وهلة في حياتنا أننا نسير بحق في خطوات فاصلة نحو التقدم والانتعاش والأخذ بالمدنية الصحيحة . حينئذ نعرف كيف نحل مشاكلنا معها .

وأقولها مرة ثانية ، إن كل سياسة تبني على انتظار قيام عوامل خارجة عن إرادتنا ولا شأن لنا بها ، هي سياسة تحمل معها جراثيم الفشل بل تؤدي إلى بقاء البلاد العربية في نطاق الأمم المتخلفة عن غيرها في القرن العشرين .
فلمصلحة من يفرض علينا هذا ؟ .

فهل هو لمصلحة هذا الفريق — الموزع بين الأفراد والأحزاب والجماعات — الذي يريد أن نستمر شعوباً بسيطة تشغلها الأوهام وسفاسف الأمور وتستهوئها الألفاظ وتسوقها الدعايات ؟ .

أليس هؤلاء هم خدام الاستعمار وعباده وإن تظاهروا بعدائه فهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ؟ والويل للأمم تسير وراءهم^(١) ...

(١) صحيفة نشرت بمجلة العالم العربي في يونية سنة ١٩٥٠ . ولقد خرجت مصر بثورة من نطاق السلبية وتحقق كل ما تنبأ به المؤلف .

الحرب الثالثة هل تقوم؟ ومن يقوم؟

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض
أنقالها ، وقال الانسان مالمها ، يومئذ تحدث
أخبارها ... » (قرآن كريم)

الحرب واقعة :

يسير العالم بخطوات وثيدة نحو النتيجة المحتومة ، وهى الحرب بين المعسكرين :
الشرقى والغربى ، الشيوعى والديموقراطى ، سيقع التصادم بين عقيدتين ومدنيتين
ونظامين للحياة ، رغم كل المحاولات التى بذلت والتى ستبذل لاستبعاد فكرة
الحرب أو تأجيلها ، فالحرب واقعة لا محالة . لأن الكرة الأرضية لا تحتمل
نظامين متناقضين .

الديموقراطية والسبوعية :

والنظام السائد فى العالم الديموقراطى هو وليد التطور الذى بدأ فى أميركا وفى
أوروبا عقب الثورة الفرنسية ، والذى يستند على وثيقة حقوق الإنسان وعهد
الأمم المتحدة ، والذى يؤمن بحرية الفرد وقدرته على الرقى والتقدم والانطلاق
وحده ، والذى يريد أن يفرض المساواة بين الشعوب ... كما يدعى ويقول : أما
النظام السوفييتى فوليد ثورة ١٩١٧ التى قامت فى بلاد مختلفة أو دول أسيوية
أى نصفها فى أوروبا ونصفها فى آسيا ، فى الأراضى الروسية حيث السهول المتسعة
التي حملت جيوش التتار والمغول فى أوائل التاريخ إلى عهد جنجيز خان ، لقد
كان قيصر روسيا يدعى أنه وارث ملوك القبجاق وهم أصحاب مدينة سراى ،

الذين دانت لهم دنيا الحروب والمعارك من أسوار الصين إلى أواسط أوروبا . إنه كان يتشبه بهم ويسير في بلاطه على مراسم الملك لديهم .

الثورة الروسية :

والثورة الروسية هددت أوروبا منذ قيامها ، وهي لا تزال تهدد العالم إلى اليوم من كوريا في أطراف آسيا ومن سنغافورة إلى الهند إلى إيران ثم إلى تركيا والبلقان ، وتحتشد في قلب القارة الأوروبية ١٥٠ فرقة مدربة مسلحة ، وعلى استعداد لقبول المعركة واحتلال الجزء الغربي منها ، ثم تسير لفتح بقية العالم .

مقدمة أو نهاية :

لقد كانت لبعض الناس مقدمة أو خطوة أولى تتبعها خطوات وللبعض الآخر نهاية معركة فاصلة خاسرة . يراها أنصارها وأتباعها والمؤمنون بها فجر دنيا جديدة لتحقيق فردوس عالمي ، ويراها البعض من الناس ختام دور كان يسوده القلق في روسيا وانتهاء عهد ظلم وتحكم في العالم .

عالم جبرير :

إن أصحاب نظرية السوفييت يريدون عالماً جديداً تسوده الحرية والمساواة التامة بين الرجل والمرأة ، ويحاولون إنشاء مجتمعات محرة ما أمكن من التزامات الوطن والدين والعائلة ، يريدون أن يتساوى فيها رجل الفسکر مع رجل العمل ، رجل الجامعة مع رجل المصنع والمزرعة ، وهم يؤملون أن تسير أغلب الأمم والشعوب معهم . يؤملون أن يخرج الفرد إلى العالم وهو يعتمد في نشأته وتعليمه وتدريبه على المجتمع بأكمله لا على نفسه ، أي أن المجتمع يرسم للفرد حياته التي يعيشها ولذلك قال لينين : « سيكون العالم كله مكتباً واحداً ومعملاً واحداً » .

التضحية :

وقال أساطين الحركة أن البناء الشيوعى أو الإنشاء السوفيتى يتطلب من كل فرد تقديم التضحية ، بغير نفسية التضحية كما تعلمها الأديان — وسيكون الغرض من التضحية إيجابياً إنشائياً إنتاجياً لا غرضاً نفسانياً إنفرادياً يشعر بلذة داخلية .

العالم بنا يبرأ :

وعلى الفرد أن يدرس ويعلم ويحاضر ويبحث ويلاحظ : أنهم يقولون أن العالم يبدأ بهم وأن تاريخ الإنسانية مر على مرحلتين : المرحلة الأولى إنفرادية تسودها القوضى ، والمرحلة الثانية هى مرحلة الإنشاء والخلق وسيطرة المجتمع على الطبيعة ، إن نظريتهم تشبه نظرية السلف الصالح الذى كان يقول بأن الإسلام يجب ما قبله وينسخ ما تقدمه فالمرحلة الأولى لديهم جاهلية والمرحلة التى بدأت بثورتهم هى المرحلة الإنسانية فى تاريخ البشرية .

أكبر أداة قتال نهزم :

هذه فكرة النظام الذى تلقى بصدوره فى الحرب العالمية الثانية أكبر أداة قتال رآها العالم : وهى الجيش الألمانى ، وخسر أكثر من أربعة ملايين مقاتل فى المعارك بين سمولنسك وليننجراد وموسكو واستالين جراد ، ثم عادت جيوشه فخاربت وانتصرت واحتلت الجزء الشرقى من أوروبا ، وخضعت لها بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وغيرها : ولقد وصلت القوات الروسية المعبأة إلى ٥٥٠ فرقة ووصلت القوات الألمانية إلى ٣٥٠ فرقة ، وهذا مجهود جبار كما ترى من الجانبين .

التعاون مع السوفييت :

وفي أبان تلك الحرب العالمية طار روزفلت وتشرشل إلى يالطا وإلى طهران واجتمعا بالزعيم البلشفي « استالين » ، ووضعت الخطط للتعاون بين السوفييت والديمقراطيات ، وكان رئيس وزراء بريطانيا يقول أنه يتحالف مع الشيطان ليكسب الحرب ضد هتلر ، أنه كان يخشى النازية أكثر من الشيوعية وكان روزفلت يتوهم أنه بسياسته البورتيانية سيكسب السلام مع الروس ، لقد غلبت عليه روح أولئك البوريتان النازحين من بريطانيا للدفاع عن عقيدتهم الدينية ، وغاب عن ناظره أو نسي أن الروس إسويون أحفاد أولئك الذين جمعهم سيطرة الخان الأكبر أو الخاقان الأعظم ، فهم أتباع إرادة حازمة ونظام محكم ، وأن فلسفتهم الجديدة تقول بأن ظهور الجبال العالية كان نتيجة تصادم كذلك هبوط المحيطات العالمية جاء على أثر عوامل انشقاق وثورة جامحة بين عناصر الطبيعة ، فما نراه على الأرض ليس وليد تطور دائماً ؛ بل هو أثر من أثار تصادم وتفاعل عنيف بين عناصر الطبيعة ، أى أن الثورة والعنف كانتا قانون المجتمع كما كانتا قانون الطبيعة على الأرض .

بؤادر التفكك والسكروك :

لقد لمس هؤلاء القادة الديمقراطيون حينما اجتمعوا في أوتواو بعد ذلك بؤادر التفكك والسكروك بين روسيا وحلفائها وكانوا في حيرة أمام الشعوب ، لقد كسبوا الحرب ولكنهم كانوا على وشك أن يفقدوا النصر ، ومعنى هذا أنه يسود العالم الديمقراطي الفوضى التي مرت بأوروبا سنة ١٩١٩ وقلبت الأوضاع السياسية كلها وجعلت المجتمعات الأوروبية على استعداد لتلقى مبادئ موسكو كعلاج للخروج من أكبر نكبة رماها بها التاريخ ، لقد واجهوا في السنوات ٤٥ — ٤٧ حالة في منتهى الخطورة ، ومع هذا فقد عجزت الشيوعية عن

اكتساح أوروبا مرة ثانية ، وأظهرت الظروف أنها — أى أوروبا — فى سنة ١٩٤٤ إلى ١٩٤٠) أكثر منها مناعة عن سنة ١٩١٩ : فما هى أسباب ذلك ؟

تيمورلنك والروسيا :

إننى أذكر كل هذا وأضع أمامى خريطة هذا الركن من العالم عام ١٤٠٠ ميلادية . لقد كانت جيوش تيمورلنك تهدد مصر وتركيا بعد أن فتحت أواسط آسيا وإيران والقوقاز ، فوصل سفراء ملك القيقاق أى روسيا الحالية إلى سلطان مصر والشام الملك الظاهر بربوق ، ووصفوا له ما تعرضت له بلادهم من عمل هذا الفاتح الأسيوى ، فوعدهم خيراً ثم التفت لأمرأى جيوش مصر وقال « ما أخشى اللنك (أى الأعرج تيمور) إذ السكل يقف معى ضده ولا كفى أخشى ابن عثمان » ، وكان على حق فإن دولة ابن عثمان قضت على ملك مصر واستقلالها بعد مائة وخمسة وعشرين عاماً ، بعد أن زالت أخطار تيمور وإمبراطوريته التى تبخرت من غرب آسيا وزالت من أقاليم روسيا بعد سنوات قليلة . . . لأن ابن عثمان كان فى وسط العالم الإسلامى من يعطف عليه ويؤازره كما تبين لبرقوق ملك مصر .

تشرشل يحالف الشيطان :

وأرجح أن تشرشل حينما كان يحالف الشيطان قد توهم تماماً أن النازية خطر يعطف عليه الكثيرون من أبناء أوروبا وأمريكا وفى انتصار هتلر القضاء على عظمة بلاده وأميركا ، بينما الروسيا السوفييتية وهى تشبه فى أراضيها وخطرها تيمورلنك ودولته ، تحمل فى قوتها أسباب ضعفها لقد كان تشرشل يعتقد فى قرارة نفسه أن أغلب سكان بلاده سيقفون فى صفه ولا يعطفون على الروس . إذن لا خطر عليه فى صداقتهم .

روسيا تقهر برضولها أوروبا :

ولقد أظهرت الأيام أن وصول الروس إلى قلب أوروبا كان بمثابة أكبر

دعاية ضد الأساليب الشيوعية والأنظمة التي يحملونها معهم في فتوحاتهم ، لقد ثبت أن عدد المعجبين بهم في تضائل مستمر بينما كان عدد الذين يكرهون هذا النوع من الحياة في ازدياد ، وعليه لا يهتم تشرشل إذا تعانق مع الروس ما دام الشيطان سيبقى شيطانا في عقول عدد كبير من سكان أوروبا الغربية .

وليس لدينا في سنة ١٩٥١ ما ينقض رأيه في هذه الناحية بالذات ، رغم الجهود الجبارة التي تبذلها الدعاية الروسية ، ورغم المشاكل التي تركتها الحرب ورغم مجاهرة بعض الشعوب الشرقية بالعطف عليهم .

أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية :

فلنلقِ إذن نظرة على أوروبا بعد الحرب .

لقد ثبت بصورة لا نقبل النقص ، أن الدول التي اشتركت في الحرب خرجت محطمة — سواء منها التي انتصرت أم انهزمت — بل أن الفريق المنتصر خرج وهو أكثر تحطيا مما كان يتصور وينتظر .

وقد قال المراقبون أن صورة أوروبا وسط الانهيار والتفكك التي تركتها عليها الحرب العالمية الثانية ليس لها مثيل في التاريخ إلا الانهيار الذي أعقب تحطيم الدولة الرومانية تحت هجمات الشعوب الإسيوية من الهون وغيرهم . ولقد بذل روزفلت وتشرشل جهدا لا تقاذه ما يمكن إنقاذه من أوروبا ، علما منهما أن عصب العالم الديمقراطي هو أوروبا الغربية ، وأن إيقاف الزحف السوفييتي لا يكون إلا باستعادة قوة الشعوب الأوروبية وقدرتها على النهوض مرة أخرى .

فرنسا تنعزى بامبراطوريتها :

وإذا كانت نظرية الفرنسيين تتلخص في أن إنعاش فرنسا لا يكون إلا

بطريق التمسك بالمستعمرات ؛ فقد جاءت نظرية الديمقراطيات بإنعاش أوربا أولاً ولو كان هذا الإنعاش على حساب فقدان المستعمرات . لماذا ؟ لأن مشكلة الاستعمار لم تبق هولندية أو بريطانية أو فرنسية أو برتغالية ، لقد أصبحت عالمية وأن إعطاء المستعمرات حريتها واستقلالها هو خير ضمان لبقائها تحت السيطرة الديمقراطية المجتمعة إقتصادياً .

انقسام العالم لمعسكرين :

فكان انقسام العالم لمعسكرين قد عجّل بإنعاش أوربا وساعد على تحرير الشعوب المظلومة والحصول على استقلالها أو على شئ من حرياتها .. المفقودة .

إذن ما هي علاقة الشعوب الآسيوية والأفريقية بالمعسكرين ؟ وما شأن الملايين من أهل الصين وآسيا الوسطى بالسوفييت ؟ وما هو أثر الدول العربية والإسلامية والشرقية أو بعبارة أخرى هذه الشعوب الملونة في نظر الأمريكيين والمظلومة في نظر الدعاية السوفيتية والمتخلفة عن غيرها في نظر هيئة الأمم المتحدة ؟ الحقيقة الثابتة هي أنها — أى الشعوب — في نظر المستعمرين تعد في الوقت الحالى آلات يسهل تحريكها أو أسماء لأماكن جغرافية ومواقع استراتيجية لا غير عند نشوب الحرب .

لقد كان « لينين » أول من نادى باستقلال الشعوب وحريتها وجمع ممثلى الأمم الشرقية في مؤتمر بموسكو وتحادث معهم بشأن تحرير الأمم المظلومة ولما انتهت حملة فارسوفيا على غير هواه عقب الحرب العالمية الأولى وتبين لقادة روسيا أن أوربا لا تقهر بالسهولة التى تصورها الكثيرون منهم . تغيرت سياسة السوفييت نحو الشعوب المظلومة واستعادوا سياسة القمع . ولقد كانت شعوب القوقاز مستقلة ولها ممثلون سياسيون فى موسكو ولم يمض غير أشهر حتى انتهى استقلال هذه الشعوب وضمت إلى الاتحاد السوفيتى وهذا ما حدث على طراز آخر بالنسبة لشعوب أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية . .

فالفكرة التى تجول بخاطر السوفيت بالنسبة للشعوب المظلومة هى نفس الفكرة التى تجول بعقلية الديمقراطيات أى أن هذه الأمم المظلومة لا تستطيع أن تفعل لنفسها شيئاً وهى بعبارة أخرى فى حاجة للانعاش الاقتصادى والمساعدة العسكرية وللخبراء والقيادة من كل جهة .. ما دامت فى حالة تخلف عن غيرها .

الأسيويون كجنود :

وفى الوقت الذى قامت فيه الثورة الروسية ، كان جل اعتمادها على الكتابات الأسيوية من المغول والصينيين الذين استعملوا فى حملات تأديبية طول مدة الحرب الأهلية نظراً لطاعتهم العمياء وجهلهم ، ولما قامت الحرب العالمية الثانية أمكن تجنيد عدة فرق من الصينيين الشيوعيين أرسلت لعدة ميادين ، وإذا أردت تتبع تاريخ القواد والزعماء فى الصين وكوريا الشمالية وجدت أكثرهم من خريجي المدارس العسكرية فى روسيا ، ولكن هناك حقيقة فى الصين لا يمكن إزالتها سريعاً من العقول هى أن الصين الشيوعية مثل الصين الوطنية تحمل فى أقسامها المختلفة عوامل الضعف والتفكك السكائى فى السكبان الصينى نفسه : ولقد أظهرت تجارب السنوات الأخيرة أن الصين بالوعة ضخمة للمعدات الحربية فقد استحوزت الصين الوطنية على أسلحة الجيوش اليابانية بعد تسليم اليابان ، ثم أخذت من المعدات الأمريكية أيام تشان كاي تشك ما يكفى لتسليح قارة ومع ذلك انهارت الصين الوطنية سريعاً .

الصين الشيوعية بالوعة للمعدات :

وحلت محلها الصين الشيوعية التى قامت على مساعدات روسيا ومعداتها ولا أظن أن حرب كوريا قد أقنعت كثيرين — رغم وجود القيادة الفعلية بيد الروس — إن القوات الصينية المعبأة والمدربة على الطريقة السوفيتية قد قامت بما كان ينتظره الكثيرون منها ، لقد أصبحت الصين الشيوعية بالوعة للحصول على المعدات الروسية على طريقة الصين الوطنية بالنسبة لأمريكا .

ثلاث احتمالات عن موقف الأمم الشرقية :

والآن ما هو موقف الأمم العربية والإسلامية والشرقية من الحرب العالمية الثالثة ؟ هناك ثلاث احتمالات : الحرب مع الديمقراطيات ، الحرب في معسكر السوفييت ، الوقوف على الحياد ... ولا رابع لذلك .

إن الدول الديمقراطية قد وضعت خطط الدفاع عما سمتة البلاد الخارجة عن نطاق السور الحديدي وهي منذ عام ١٩٤٤ تقلب أوجه تثبيت خط دفاعي يمكنها من المقاومة حسب الخطط الاستراتيجية المبنية على تحقيق الدفاع عن العالم بأكمله والانتقال من المدافعة إلى الهجوم . ويجب النظر إلى الخلاف القائم بين ترومان وماك آثر على أنه مظهر من مظاهر تأكيد هذه الاستراتيجية العالمية .

وللإجابة عن الاحتمالات الثلاثة القائمة يصح أن نستعرض بعض ما تنقله الأنباء ، ففي المصري الصادر يوم ١٥ يونية ١٩٥٠ خبر من ليك سكس يقول بأن شارل مالك ينادي بدعوة الدول العربية إلى عقد معاهدة « دفاع مشترك » مع إسرائيل في حالة الحرب ، وأن ممثلي مصر وسوريا والعراق فوجئوا بهذا البيان ولكن أتى تعليق واحد عليه كأنه كان على موعد معه وهو تعليق بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل الذي قال « نحن على استعداد للدفاع عن نظم الحكم لدينا إذا ما اعتدى أحد عليها إلا أنني أشك في أن يقف العرب هذا الموقف لو اعتدى أحد عليهم » .

فهو يقرر أنه سيدافع عن كيانه ضد من ؟ ضد الهجوم السوفييتي طبعاً ؟ الذي سيغير نظام الحكم في إسرائيل . . .

!!! أما العرب فهو يشك في موقفهم أي أنهم سيقفون على الحياد حتى في حالة الاعتداء عليهم .

ومعنى هذا في نظره ان غيرهم هو الذي سيتولى الدفاع عن اراضيهم وبلادهم كما حدث في الحرب العالمية الأولى ثم الثانية .

و بينما يعلق بن جور يون على تصريح شارل مالك بقنبلة لها أثرها في المحافل الدولية ، نقرأ تصريحاً لأمين الجامعة العربية السابق يقول بإنشاء كتلة ثالثة بين المعسكرين الشرقى والغربى لموازنة القوى بين روسيا واميركا ، كيف ينشأ هذا المعسكر ؟ واين يؤسس ؟ وما هى اهدافه ؟ امور لم يفصح عنها امين الجامعة .. ولم يعلق عليها احد سوى ما يرتسم من ابتسامة القارئ العادى .

وإنما جاء فى اقواله انه إذا نشبت الحرب بسبب إيران فلن يتخلى العرب عنها . هل ستسمح حينئذ إيران للجيش الروسى باحتلالها ؟ وهل تهب الكتلة الإسيوية لمساعدته إيران فتحالف الروسيا ؟ أو يقصد وقوف العرب مع إيران فى حالة اعتداء الروس عليها ؟ امور تبقى بغير إجابة كالعادة .

الثورة الروسية قامت على العنف :

بين يدى كتاب عن الحرب العالمية الثالثة^(١) يقول فيه صاحبه : إن الثورة الروسية قد قامت بقوة السلاح واستعمال وسائل العنف ، و ن مبادئها ان تثبت وتركز فى قلوب الشعوب الخاضعة لحكومتها ، إلا إذا خففت من وسائل الضغط والإرهاب والقوة والبطش السائدة فيها ، ولـ كن روسيا تحشى نفسها وتحشى بقية العالم ، فهى لا تطمئن إلا إذا رأت بقية الدنيا تحكمها حكومات على نسقها وطبقاً لخططها « هل هذا صحيح ؟ لا أدرى .

وقال الإنسان ما لها ؟ يومئذ تحدث اخبارها !!

الفهرس

صفحة

١

جيشنا

تيتشه — المتنبي — الجيش مرآة الأمة — مدرسة كبرى — قوة الأمة في رجالها
روح الجندي — مصر العربية

٥

هانيبال

أكبر قواد العصور القديمة — عبقريته العسكرية — إرادته الحديدية وقوته الخالقة
والمبدعة — قسمه — نهايته وكرامته — نفحة الطاعة وغيرة القتال — العمل مع
الصبر — معركة أوستراتز ومعركة كان — مشكلة التغلب على خصم يفوقه عدداً وأهبة

١٢

بادليو في حرب الحبشة

ضرورة الحصول على نصر سريع حاسم — أكبر قوة عسكرية في القارة الأفريقية —
دراسة معارك الحبشة — وضع الخطط منذ سنوات بعيدة — ضباط يعملون في هدوء
وصمت — خلو الحبشة من تلك الطبقة من الضباط الذين يفكرون تفكير الأوروبيين —
إطلاع إيطاليا على أخبار الحبشة — ستكون حرب حركة في أعلا مظاهرها —
كادر هائل من ضباط الصف — الحرب تجربة قاسية — أكبر عوامل النصر
هو التنظيم

١٩

المشاة ملكة الجيوش

المشاة هي الأمة — استقلالها — مميزاتها — سيدة المعارك — عمادها الجندي —
جندي المشاة — تربيته وتدريبه — خاصياتها العامة — قدرتها على الحركة ...

٢٤

خطرات من الحرب

تعاريف أولية — أركان وضع الخطط الحربية — الحقائق والفروض — الزمن
والمسافة اللازمين للقيام بحركة ما — المعلومات والأخبار — أصول الحرب — تفوق
المهجوم على الدفاع — ضرورة الوصول إلى نتيجة فاصلة — المفاجأة الجازفة تفوق
الكثرة العددية — تعبئة القوات — الاحتماء والوقاية — التصرف في القوى ...

٤١

ألمانيا تسليح رشيد عالي الكيلاني

تسليم فرنسا — تصريح بريطاني — الموقف الرسمي في المفوضية الفرنسية — قوات
الجنرال متلهوزر — حكومة فيشي — الجنرال فوجير — عرض عسكري —
بعثة محورية — مطار الريان

من صحائف الحرب العالمية الثانية

٥٠ الجنرال كولييه الفرنسي ينضم مع الجراكسة إلى الحلفاء

شهر حافل بالحوادث — إنتهاء ثورة العراق — مفاوضات بين فرنسا والمحور — إخراج القناصل البريطانيين — إحتجاج فرنسا على بريطانيا — نبأ غريب عن مصر — أثره في لبنان — إقطاع المواصلات مع مصر — السفر إلى فلسطين — مشاكل في العودة من حيفا وعلى الحدود — على أهبة القتال — حشود وصمت مؤذن بالعاصفة — القلق البادى فى الجانبين البريطانى والفرنسى — وحدات تتحرك إلى ميدان القتال — ألغام فى الطريق — ما ذا حدث فى ذلك اليوم — الجنرال كولييه كما رأيته — كيف قدمى إلى الجنرال ديجبول — وصول كولييه إلى فلسطين — بلاغ الجنرال دنتز عن حوادث اليوم

صحائف تاريخية عن الحرب الماضية

٦١ كيف قررت حكومة فيشى إغلاق القنصلية المصرية العامة

بيروت فى عام ١٩٤١ وكيف تراجعت ؟

الممثل السياسى أمام المفاجآت والأخطار — حكومة مصر على الحاد وأراضيها تتخذ قواعد حرية لمهاجرة الغير — الجواسيس من الجانبين البريطانى والمحورى — بريدا الرسمى — المصريون بين بريطانيا والمحور — ممثل دبلوماسى منقطع الصلة بحكومته — إبلاغ قرار قفل القنصلية المصرية العامة ببيروت — قفل أمريكا يحضر لتسلم القنصلية العامة — جهل الممثل السياسى لتصرف حكومته — تراجع السلطات الفرنسية — أخيرا تحركت وزارة الخارجية المصرية

٦٥ مصر تواجه أحداث لبنان سنة ١٩٤٣

قرار تقلى يبلغ إلى من رئيس حكومة سوريا — صمت السلطات المصرية لإزائى — إرتياحى للخروج من كرفال السياسة — دعوة عاجلة إلى رئاسة مجلس وزراء مصر — سفرى من مصر — حديث الرئيس مصطفى النحاس — تصريح لصحفى مصرى تنقله صحيفة يهودية فى اليوم الثانى — تغيير طريق العودة — دخول بيروت — مفوضية مصر ببيروت — صيدا الشهيدة — الموت فى كل مكان — صناعة الموت تحمل معها الحياة — قرارات شاذة — إذاعة مصر وفلسطين وروتر فى مستوى واحد — حكومة لبنانية بالجبال — مجازفة أغربها — مقابلة مع سعد الله الجابرى — ليلة فى أورينت بالاس — تحرك جيوش فرنسا — إستجالة المقاومة — إلتجاء البريطانيين تحت العلم المصرى — أوامر الجنرال هولز — كانترو يتحرك ...

كسب الحرب يحتم على الدول الديمقراطية الكبرى أن تسهر على حماية ميثاق الأطلنطي

رجال السياسة العالمين يجهلون التفاصيل — وسط الأزمة اللبنانية — إستعراض للحلول — ممثل بريطانيا يتحدث — تأخر كاترو بالقاهرة — هل هو مفوض بحل الأزمة ؟ — بريطانيا تؤيد استقلال لبنان — تمسكها بالعودة إلى الأوضاع السابقة — ممثل أمريكا يتحدث — القائد البريطاني يمثل الأمم المتحدة لا بريطانيا وحدها — مسئولية الجيش التاسع — البلاد العربية جزء من الأمم المتحدة — ممثل مصر يتكلم — البلاد العربية تؤمل في وضع لا يقل عن وضع أى شعب أوروبى أو أمريكى يعتمد قوته من إرادة الشعوب ورغبتها لى تعيش حرة — كاترو بالقاهرة — هياج الرأى العام المصرى — محادثته مع كيزى — تحفظ كاترو — برقيته إلى ديجول — أزمة مع إنجلترا — مقارنة بين ما ورد في مذكرات كاترو وما جاء على لسان اسبيردز ممثل بريطانيا

مذكرات الجنرال فيجنان

كتابه «العائد إلى الخدمة» — بعده عن الحوادث حتى شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ — الحكومة الفرنسية تعرض عليه منصب القائد العام للقوات المسلحة في شرق البحر الأبيض المتوسط — أعباء وظيفته — حق الاتصال المباشر مع القيادة البريطانية العليا بمصر التى يصح له أن يتفاهم معها على كل ما يتعلق بالتعاون المشترك بين قوات فرنسا في الشرق وقوات بريطانيا في مصر — حضوره لبيروت — زيارته في مركز قيادته — إستعدادى لمقابلته — قراءة مؤلفاته — كتابته وأسلوبه — مجلس الحرب الأعلى للحلفاء يطلب تقريراً عن الحالة العسكرية بمصر — قوات فيجنان في بلاد المشرق — نظم في مصر — صلات فرنسا بالشرق — المعسكرات والشكنات لجيش فرنسا — أكاديمية الحرب الفرنسية — أسئلة الجنرال عن الجيش المصرى — ميزات الجيش المصرى — استعراض مصرى بريطانى هندى — إعجابه بالجنود المصريين واستعدادهم للخدمة العسكرية — علاقات مع العسكريين الفرنسيين — إنهيار فرنسا — إن إنقاذنا يحتاج إلى معجزة — بكاء ضباط جيش الشرق حينما علموا بالتسليم

منطقة إنطاكية وخليج الأسكندرونة

في الأعصر القديمة — أثر أنطاكية في المسيحية — أثر الموقع الجغرافى الممتاز — الحرب العالمية الأولى — اتفاق أنقره — تعجب كاتب سورى — هدنة مدروس : خط المهدنة هو الذى أثبتته الأتراك بقوة السلاح — جيش ييلدرم العثمانى — هندبرج — الجنرال ماكسويل والدفاع في مصر — كتشنر يعقد اجتماعا عسكريا — ملخصات هند برج

زيارة لحصن الأكراد

قلعة من قلاع الكفاح الإسلامي المصري في الشام

كتابة مصرية — نفحة من الوطن — مناداة الحصن — أثر التاريخ في نفسى — وصف القدماء للقلعة — جماعة الاستبصار — قسم حتى الموت — تاريخ طويل وهاجم بشرية — اهتمام العلماء بالقلعة — البعثه الفرنسية تنبش القبور — الحروب الصليبية — مجموعة الحصون التي ظهرت في فترات الهدوء — هدف الحرب تحطيم قوة المقاومة وتدمير العدو — صلاح الدين يتنزع حصون الصليبيين — الموقف السلى للخلافتين العباسية والفاطمية — عمل بيبس — عقيدة القضاء على الخصم — حصن الأكراد كراس حرب موجّهة إلى بلاد المسلمين — نور الدين الشهيد — الأفرنج يستعملون حصن الأكراد لمهاجمة المسلمين — الظاهر بيبس ينقل الحجارة على كتفيه — حامية حصن الأكراد تحت قيادة الأمير حسام الدين قاميّاز — الحصن في عهد قلاوون — الحامية في حصار عكا — برنامج سير حملة الملك الظاهر — التجمع أمام الحصن — اختفاء الهدف حتى اللحظة الأخيرة — اقتحام الأسوار — طلب الحامية التسليم — ماذا كشف عنه البحث؟ — القيادة الصالحة — الهدوء والثبات — التركيز والأقدام

على هامش الحرب العالمية الأولى

١٩١٨ — ١٩١٤

كيف تستفيد مصر من دروس حملة فلسطين؟

كاتب من خيرة كتاب ألمانيا العسكريين — ضعف النمسا وأسبابه — القدرة على الكتابة في الفنون الحربية — طبع الكتاب ونشره — أثره في الجيل الذى جاء بعد الحرب — دعوته لألمانيا كي تستعيد قوتها بعد هزيمتها — الحرب غريزة متمكنة من طبيعة البشر — أهمية الدراسات العسكرية التي هي وليدة الهزائم والانتصارات — دراسة حرب فلسطين — ضرورة ايجاد هيئة فنية — مسئولية أناس لا يمتنون بصلة إلى فن الحرب ولا يعرفون شيئاً عن أساليب السياسة الدولية

فزان

بين يدي الأتراك والطلليان والفرنسيين

مقدمة — بين الوحدة والتقسيم — منع ممثلى الشعب — وحدة قائمة — حدود فزان — مركز تاريخي وجغرافي — ثلاث أحداث تاريخية — بيان ديجول — فزان القديمة — العدوان الإيطالى على ليبيا — بعد الحرب العالمية الأولى — انسحاب الطليان من فزان في عام ١٩١٤ — دعوة في الصحراء — غارة ضد

صفحة

حصن — حامية مهزوق — يمني في جيش إيطاليا — التدريب الإيطالي —
الحياة في سبها — فزان بين عهدين — استيلاء الأتراك على فزان وانتزاعهم الجزء الجنوبي
من مستعمرة ليبيا من أيدي حلفائهم السنوسيين — مجاهدون — مجازفات نوري
باشا — مخاطرة ومجازفة — مواجهة المجهول — ضباط مجاهدون على طراز آخر — مخاوف
المستعمرين في إفريقيا — وسائل أولية — السينور فولبي الاستعماري — إيطاليا
تسترد فزان — دفاع عن الفاشيست — رأى استعماري في حقوق الشعوب المظلومة —
تعليمات جراتزياني — استقلال الوحدات السريعة في العمل — رأى في المقاتلين العرب —
اعتراف بما عليه العرب — أثر الأساليب الأوروبية في قتال العرب — بادوليو —
العسكريون يسيطرون على المستعمرة — فذلكة تاريخية : — الاحتلال الأول —
خطة استرداد فزان — طريقة اختيار الضباط — تنظيم السير — دروس من أخطاء
الماضي وتعليمات جديدة — احتلال فرنسا — استراتيجية المتوسط تفرض إرادتها —
الهدنة الفرنسية — الزحف في إفريقيا — عملية خطيرة — حروب الصحراء —
روادها — فئة ممتازة — مدرسة للقواد — أسلاف المسلمين — توغل فرنسا
في الصحراء — النتائج — المراجع

١٨٠

واحة الجغبوب

في مذاكرات المرحوم إسماعيل صدق

مذكرات وضعت بعد الحوادث — كيف احتلت مصر السلوم — حياد مصر —
اتفاق ١٩٠٦ ضمان للحدود المصرية — قرارات لجنة الدفاع عن الامبراطورية
البريطانية — حملة الدردنيل ١٩١٥ — إتفاق ملتر شالويا — المفاوضات مع مصر —
ماذا يقول الجانب الإيطالي ؟ زيارة الرئيس المصري لروما — احتلال الجغبوب
.....

١٨٤

الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي

أداة قتال وحرب من الدرجة الأولى

ذكرى أول لقاء في عام ١٩٤١ — مائة عام مضت أمام الموت والأخطار —
كيف تحتفل الفرقة بعيدها كل سنة — الفرق الأجنبية في التاريخ — أين هي
اليوم بعد ٢٥٢ معركة ؟ — تحت وهج الشمس الإفريقية ولدت — أنظمة عسكرية
قاسية تشبه قانون جنجيزخان « اليساق » — لقد أتوا من مختلف البلاد إليها
ليدفنوا أحزانهم فيها

١٩٢

الأعلام والرايات

في الجيوش الإسلامية

مقدمة — للخلافة شعارها وللسلطنة شعارها — سلطان السلاطين أو ملك الملوك —

صفحة

تقليد سلطان السلاجقة — السلطان وأتباعه من الملوك المتغلبين — الأعلام — اللون الأصفر واللون الأسود — تراث الدولة السلجوقية

٢٠٩

جيوش المغول

وقوانينهم

شهرة الأتراك في الحروب — سلاطين مصر من جنس المغول — كلمة شرع وسياسة في الريف المصري — هل طبقت السياسة في بلاد المسلمين قبل مجيء المغول ؟ — أمير مسلم يبلغ في إقامة السياسة — السلاجقة والأتابكة — كانوا أعظم الناس طاعة لكبرائهم وألطفهم خدمة لعظائهم — يبيرس وأنظمة المغول — حملة في انصحف والمجلات لا مبرر لها — النزاع بين الحجوييه والقضاء الشرعى — الاقطاع ليس ملكا لصاحبه فيورث عنه — العناصر التركية والمغولية ذابت في البوتقة المصرية لأن مصر إسلامية عربية — تحقيقات عن البيرة والوسية

٢١٦

خط سير الجيوش المصرية

لتحرير لبنان

أيام سلاطين دولة المماليك

طريق مرتفع — السلطان قايتباى على طريق الأرز — جمال الدين أقوش الأفرم يتصدق عند مقام السيدة نفيسة — وصفه في الدرر الكامنة — ولايته بالشام — اخلاء التتار لدمشق ودخول الأفرم — اقطاع سلطان مصر لجبال كسروان — الفتن في جبال الجرد وكسروان ما جاء في كتاب صالح بن يحيى — ما كتبه المطران يوسف الدبس — الشريف زين الدين بن عدنان — سفير الأفرم لأهل الجرد وكسروان — تفصيل جغرافى عن الممالك الساحلية والممالك البعلبكية واقليم الضنية — تطبيق عقد الهدنة بين السلطان قلاوون وصاحب طرابلس من الأفرنج — ضرورة جمع نصوص الوثائق المملوكية — أمراء الغرب حلفاء مصر من عهد المعز أيبك — حضورهم جميع الحروب مع الجيوش المصرية — تفصيل البلاد الواقعة في قطاع جبى على الساحل — فتح البلاد التى في جهة أهدن وجبة بشرى — الظاهر يرقوق يزور القطاع الشمالى ويعنى الدير العتيق من الأموال الأميرية

٢٣٢

مع الجنرال كاترو

في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤١

« مهدها إلى بعض زملائى الذين لم يفهموا من الدنيا إلا أنها خلقت لتحقيق

رغباتهم وشهواتهم ووسيلة لاقتناء المال واقتناس الدرجات »

صفحه مطوية في خدمة القضية العربية — إعلان استقلال سوريا — خطاب لرئيس

صفحة

الجمهورية — خطاب الجزال كاترو — بعد مضي سنة على إعلان الاستقلال —
الشيخ تاج الدين الحسنى — أول مقابلة مع كاترو — تعمقه في فهم العقلية الشرقية —
مقابلة مع كاترو بعد اعتراف مصر باستقلال سوريا — تصريحه بأنه يدرس اعلان
استقلال لبنان — مصارحته برأى في استقلال سوريا — التصريح بسياسته التي
وضعها — الاحتفاظ بالأمن العام في البلدين — المصريون ينتظرون نهاية الحرب
للمطالبة بحقوقهم — شروط الاستقلال كما أفهمها — الأوضاع الدستورية في
البلدين — متى تنشأ علاقات دبلوماسية مع دمشق — أشادته بالصحافة المصرية
ورجال مصر — التعاون العربي

٢٤١

زحف المعتصم على عمورية

مقدمة في دراسة التاريخ وكتابه — أهمية زحف المعتصم — قلة المصادر — راشرارك
العالم الإسلامي — صورة عمورية والمعتصم في ذهني كنانىء — أثر الشيخ
عبد الوهاب النجار — دراسة إيجابية — أسباب الحرب — وفاة المأمون —
المؤلف في مكان وفاة المأمون — وصية المأمون لأخيه — حروب بابك — حملة
تيوفيل — دراسة الحصون الإسلامية وأهميتها — عمورية — الهدف الأساسي
لحملة عمورية — تقدير عدد رجال الحملة — قواد الأتراك والفراغنة في جيش المعتصم
أسماء الأعاجم — قواد العرب — نقش اسم عمورية على الأعلام — التقسيم الإدارى
لدولة الروم — خطة المعتصم في غزو عمورية — درب الحدث — إبتداء العمليات
في سروج — خط السير على درب طرسوس — طلائع أشناس — قتال الأنشين
قواد الروم — اجتماع فكى السكاشة — أين عمورية — سقوط عمورية —
أبو تمام

٢٧٣

وَأَيْنَ صَالِحِيَّةُ مِصْرَ

حيث كان مركز تجمع الجيوش المصرية الإسلامية

موقعها — جاهها — أهلها — بناؤها على الدروب — ذكر باتى — ابن بطوطة —
عبد الفنى النابلسى — القيسية والبنية — مركز لتجمع الجيوش — هجوم التتار —
الجيوش المصرية تجمع جيش مصر بالصالحية — تاريخها — الغورى —
مركز الصالحية

٢٨٠

الحصون والقلاع التي فتحها

الناصر محمد بن قلاون في ملك الأرمن

مقدمة — أرمينية — أبو الفداء — قاضى ملطية — أخطاء المؤرخين المعاصرين — واجب

صفحة

العلماء — ولاية حلب — بلاد الأرمن — الحصون والقلاع — حقيقة الجلاء — ملك
الأرمن — هجمات التركمان — تفسير تسليم القلاع

شهداء الإسلام المجهولين :

٢٨٦

سيف الدين جوبان

نائب مملكة التتر

شهداء المسلمين — دخول أبناء هولاء في الإسلام — ما قاله الذهبي عن الجوبان —
مساعدته للملك مصر — شروعه في وقف ضيعة في مصر على الحرمين الشريفين —
نكبته — دفنه بالقيع وسط التهليل والكبير

٢٩٠

الدفاع عن أوروبا الغربية

دراسات عسكرية عن الحرب العالمية القادمة

أوراق متناثرة من روما — موضوع هام — لست بخير — الحروب مدرسة
كبيرة — اجتماعات لتحديد هدة مؤقته — سياسة أوروبا خاضعة لعوامل جارجية
وجودا مبركا — توزيع الأعباء العسكرية على بريطانيا وأميركا — ألمانيا الخط الأممي
للدفاع عن أوروبا — عين جالوت مرة أخرى — زحف المسلمين على أوروبا يثير
الخاوف والشكوك إلى اليوم — رأى الألمان والفرنسيين — رأى الجنرال ويماند —
الجيش الأحمر مهمته دفاعية — رأى الفيلسوف ريتان في الروس — قوة أوروبا
الغربية في تسليحها — مركز قيادة خلف الأطلنطي — حديث السينور بالشاردى وزير
الحربية الإيطالية — كيف يتم إنشاء فرقة رأى فرنسا — رأى أميركا — رأى
الجنرال جودريان الألماني مقارنة بين المذهبين — الحرب العالمية الثالثة في مخيلة جودريان —
رأى المؤلف في الدبلوماسية — خمس فرق غير كافية للامم العربية — شرط التحالف
للدفاع عن الشرق الأوسط التكافؤ والمساواة التامة في التسليح والقيادة ثم الحرية
والاستقلال لتونس ومراكش والجزائر

٣٠٨

الأمة المسلحة لا تخشى الحرب

معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا — تعليق الدول الأوروبية عليها — زيارة ملك
إيطاليا للقاهرة — يجب أن نكون أقوياء — إذاعة من القدس أنقل بعدها —
الحرب العالمية الثانية — مقال لاسماعيل صدق في الأهرام — التسليح الحديث —
ضرورة إيجاد مائتي ألف مجند مصري — العزيمة القوية هي التي تخلق هذه
الأداة الجبارة

صفحة

٣١٥

ماذا نعمل ؟ وأين الهدف

وإلى أين المصير ؟

تطور العالم منذ ١٩٤٧ — المجوعة العربية في موقف التردد والمجود قبل الثورات العسكرية — القوة الكامنة في الشعوب العربية — الحركات السابقة لم تكن ثورات بمعنى الكلمة — لماذا لم تنجح الحركة البرية سنة ١٩١٦ ؟ — يجب أن يكون السلم كفاحاً دائماً — التسليح إلى نهاية ما يمكن أن يكون عليه التسليح الحديث

٣٢٢

الحرب الثالثة

هل تقوم ؟ ومتى تقوم ؟

الحرب واقعة — الديمقراطية والشيوعية — الثورة الروسية — مقدمة أو نهاية — عالم جديد — التضحية — العالم بنا يبدأ — أكبر أداة قتال تهزم — التعاون مع السوفييت — بواذر التفكك والشكوك — تيمورلنك والروسيا — تشرشل يحالف الشيطان — روسيا تفقد بدخولها أوروبا — أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية — فرنسا تعزى بامبراطوريتها — انقسام العالم لمعسكرين — الأسويون كجنود — الصين الشيوعية بالوعة للمعدات — ثلاث احتمالات عن موقف الأمم الشرقية — الثورة الروسية قامت على العنف

٣٣٢

الفهرس

[تم بحمد الله وجيل توفيقه طبع هذا الكتاب في مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم الخميس ١٤ من شوال سنة ١٣٧٢ هـ الموافق (٢٥ من يونيه سنة ١٩٥٣) والحمد لله أولاً وآخراً]

رئيسة محفوظ الكمال

المدير الفني للمطبعة

سجل الأخطاء.

خطأ	صواب	صفحة	سطر
قوته الخارقة	قوته الخالقة	٦	١٠
القدر المحترم	القدر المحتوم	٩٩	٦
تلقاه	تلقاه	١١٧	٧
خطب	خطبهم	١١٧	٩
وخمسين	وخمسين متراً	١١٨	١٣
جميعها	جمعها	١٢٠	٥
الاستتار	من الاستتار	١٢٤	٢
إذا	إذا	١٢٤	١٤
قيمتها	قيمته	١٢٤	١٦
نور الشهيد	نور الدين الشهيد	١٢٩	٢٠
لا تكبت عنك	لا تكبت سهمك	١٣٠	١٤
في عرض	عن غرض	١٣٠	١٤
نفعل	نحمل	١٣١	١٧
لا تزال	لا تزال	١٣٩	١
لورد نجهوفن	لورنجهوفن	١٣٩	١٥
الجراح	من الجراح	١٤٩	١٩
والقصور	قصورها	١٥٠	١٨
المستعمرون	المستعمرين	١٦٠	١
كل انه اذن	أنه إذن	١٦٢	٨
يبقى	بقي	١٩٢	٨
يهجز	يججز	٢٠٥	١١
وفاء	وفاء	٢٠٥	١٤
المستعصلا	المستعصم	٢٠٦	١٦
المنجاق	المنجاق	٢١٠	١٢
صاحب النجوم	صاحب النجوم الزاهرة	٢١١	١
الكليه	الكلمة	٢١٢	٤
قرغانه	فرغانه	٢١٢	١٥
بأن	فقد	٢١٥	٣
بلوشين	بلوشية	٢٢٢	١١
والكاس	والعكس	٢٣١	٣
اقرس	اقوش	٢٣٤	٩
علمته	اعلمته	٢٦٩	في الحاشية
أولاد المرك	أولاد الملوك	٣٠٧	١١
العامة	التامة	٣١٤	في الحاشية
العا العربي	العالم العربي		

بقلم المؤلف :

الاستعمار الفرنسى فى شمالى أفريقيا

من وحي فلسطين

جزء أول

مناداة للماضى

» »

» الحروب

العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية

* *

قريباً :

سفارة ستين يوما

خمس سنوات فى سوريا ولبنان

(وسط الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٤)